نيقولاى غوغول

المفتش العام

قصص



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة : غائب طعمة فرمان
د . ابو بكر يوسف

Н. Гоголь
РЕВИЗОР
ПОВЕСТИ
На арабском языке

ИБ № 2439

Редактор русского текста *Н. Качарова*. Контрольные редакторы *В. Комарова, С. Наич*. Художник *С. Алимов*. Художественный редактор *А. Томчинская*. Технический редактор *М. Лубянская*. Корректор *М. Хасам*. Сдано в набор 29.12.86. Подписано в печать 07.09.87. Формат 84×108¹/₃₂. Бумага типографская. Гарнитура «каирская». Печать высокая. Услови. печ. л. 21,84. Усл. кр.-отт. 44,41. Уч.-изд. л. 26,68. Тираж 12000 экз. Заказ № 38. Цена 3 р. 30 к. Изд. № 2637. Издательство «Радуга» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва, 119859, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» «Союзполиграфпрома» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва, 121019, пер. Аксакова, 13.

© الترجمة الى اللغة العربية – دار «رادوغا» ، ١٩٨٧

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Г $\frac{4702010100-498}{031(01)-87}$ 072—87

ISBN 5-05-001193-0

محتويات

المفتش العام . مسرحية في خمسة فصول ٤
بعد عرض مسرحية جديدة ١٠٢
خطوبة ١٤٠
شارع نيفسكي ٢٠٩
الصورة ٢٤٠
الأنف ٢٩٨
المعطف ٣٢٦
مذكرات مجنون ٣٥٦
عربة ٣٧٨
مالكو أيام زمان ٣٩٢

لا تَلُمْ المرآة ، اذا كان وجهك قبيحا .
مثل روسي

المفتش العام

مسرحية في خمسة فصول .

شخصيات المسرحية

انتون انتونوفيتش سكفوزنيك-دموخانوفسكي ، حاكم المدينة .
آنا آندرييفنا ، زوجته .
ماريا انتونوفنا ، ابنته .
لوكا لوكيتش خلوبوف ، ناظر المؤسسات التعليمية .
زوجته
امّوس فيدروفيتش ليابكين-تيابكين ، قاض .
ارتيمي فيليبوفيتش زملانيكا ، راعي مؤسسات خيرية .
إيفان كوزميتش شبيكين ، مأمور البريد .
بيتر إيفانوفيتش دوبتشينسكي }
بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي } مالكا اراضٍ في المدينة .
أيفان الكسندروفيتش خليستاكوف ، موظّف في بطرسبورغ .
أوسيب ، خادمه .
خريستيان إيفانوفيتش غيبنر ، طبيب البلدة .
فيدور آندرييفيتش ليوليوكوف }
إيفان لازيريفتش راستاكوفسكي } موظّفون متقاعدون ، شخصيات محترمة في البلدة .
ستيبان إيفانوفيتش كوروبكين }
ستيبان إيليتش اوخوفيرتوف ، رئيس الشرطة .
سفيستونوف }
بوغوفيتسين } شرطة .
درجيموردا }
عبدولين ، تاجر .
فيفرونيا بيتروفنا بوشليبكنا ، زوجة سمكري .
زوجة ضابط صف .
ميشكا ، خادم حاكم المدينة .
خادم حانة .
ضيوف وضيفات ، تجار ، أهل البلدة ، أصحاب حاجات .

أوصاف وملابس

ملاحظات للسادة الممثّلين

حاكم المدينة ، رجل سلخ شبابه في الوظيفة . بعيد جدّاً عن الغباء ، على طريقته الخاصّة . وعلى الرغم من أنّه مرتشٍ إلا أنّه يتصرّف برصانة شديدة ، وعلى قدر كاف من الجدّية ، بل وميال الى المناظرة . يتكلّم غير مرتفع الصوت ولا منخفضه ، غير كثير الكلام وغير مقلّله . ولكلّ كلمة يقولها ذات مغزى . تقاطيع وجهه غليظة قاسية مثل اي موظّف بدا سني وظيفته الشاقّة من رتب واطئة . يتحوّل بسرعة كبيرة من الفزع إلى الفرح ، ومن الوضاعة إلى الأنفة ، مثلما يحصل لإنسان تطوّرت قابلياته الروحية تطوّراً متعثّراً . يرتدي ، في العادة ، بزّته الرسمية ذات العروات ، وجزمة ذات مهمازين . شعره مشذب دب فيه الشيب .

آنا آندرييفنا ، زوجته ، امرأة غناجة على الطريقة الاقليمية لم تتوغّل في العمر كثيراً ، تربّت الى النصف على الروايات والألبومات والى النصف الآخر على المشاغل في مؤونتها وخادماتها . كثيرة الفضول ، تبدي خيلاء عند سنوح الفرصة . وتظهر سلطتها على زوجها أحياناً ، لمجرد أن هذا لا يجد ما

يردّه عليها ولكن هذه السلطة لا تتعدى الصغائر وتقتصر على التوبيخ والتهكّم . خلال المسرحية تغيّر ملابسها اربع مرّات .

خليستاكوف ، شابّ في نحو الثالثة والعشرين من العمر ، نحيف هزيل العود ، على شيء من البلاهة ، وعلى المثل القائل لا يستجيب لنداء العقل ، من اولئك الذين يسمّون في الدوائر بالتافهين . يتكلّم ويتصرّف دون اي تفكير . لا يقدر على تركيز ذهنه في اية فكرة . كلامه متقطّع والكلمات تتطاير من بين شفتيه بشكل مفاجئ تماماً . وكلّما اظهر ممثل هذا الدور مزيدا من نقاوة قلب وبساطة نجح في دوره اكثر . يلبس على المودة .

اوسيب ، خادم مثل اي خادم اعتيادي فارق سنّ الشباب . يتكلّم بجدّية ، ويخفض بصره قليلاً ، مجادل ، ويحب ان يلقى العظات لنفسه عن سيده . وصوته موزون دائماً تقريباً ، وفي حديثه مع سيّده يتكلّم بصرامة واقتضاب بل وبشيء من الغلظة . وهو اكثر ذكاء من سيّده ، واكثر حدساً منه لهذا السبب ، ولكنه لا يحب ان يتكلّم كثيراً ، فهو محتال صامت . يرتدي بدلة بالية رمادية او زرقاء .

بوبتشينسكي ودوبتشينسكي : كلاهما قصير دحداح كثير الفضول ، يشبه صاحبه شبهاً صارخاً ، وكلاهما ذو كرش صغير ، يتكلّم بسرعة فائقة مستعيناً الى حدّ بالغ بالاشارات وحركات اليد . ودوبتشينسكي اطول قليلاً واكثر جدّية من بوبتشينسكي ، ولكن بوبتشينسكي اكثر خفّة ونشاطاً من دوبتشينسكي .

ليابكين-تيابكين ، قاض ، رجل قرأ خمسة او ستّة كتب ، ولهذا فهو متحرّر في تفكيره بعض الشيء . مولع كبير في الحدس والتخمين ، ولهذا يعطي وزناً لكلّ كلمة ينطق بها . وعلى الممثّل الذي يمثله أن يضفي على وجهه دائماً سمة الاعتبار . يتكلّم بصوت عالي النبرة مع توقّف طويل وبحّة ونخير ، مثل ساعة قديمة تهسّ قبل أن تدقّ .

زيملانيكا ، راعي مؤسسات خيرية ، بدين جداً ، اهوج الحركات ،

ثقيلها ، ولكنّه رغم كلّ ذلك خشّاش ماكر ، وخدوم جدا ولهوف .

مامور البريد ، بسيط الى حدّ السذاجة .

وبقية الأدوار لا تحتاج إلى ايضاحات معينة . والعين دائماً تقريبا تقع على أشخاصها الحقيقيين .

يجب أن يلتفت السادة الممثلون بشكل خاصّ إلى المشهد الأخير . كلمة الختام يجب أن تحدث رجّة كهربائية للجميع دفعة واحدة ، وبشكل فجائي . وجميع الممثّلين يجب أن يغيّروا وضعهم بطرفة عين . كما يجب أن تفلت آهة الدهشة من جميع النساء دفعة واحدة ، وكأنّها منطلقة من صدر واحد . وعدم التقيّد بهذه الملاحظات يمكن أن يفسد التأثير كلّه .

الفصل الأول

غرفة في بيت حاكم المدينة .

المشهد الأول

(حاكم المدينة ، راعي المؤسسات الخيرية ، ناظر المؤسسات التعليمية ، القاضي ، رئيس الشرطة ، الطبيب ، اثنان من رجال الشرطة) .

حاكم المدينة . دعوتكم ، ايّها السادة ، لأخبركم بخبر مزعج جدّاً وهو ان مفتّشاً عامّاً في طريقه إلينا .

امّوس فيدروفيتش . مفتّش عامّ ؟ كيف ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . مفتّش عامّ ؟ كيف ؟

حاكم المدينة . مفتّش عامّ من بطرسبورغ ، متخفٍ وبمهمّة سرّية فضلاً عن ذلك .

امّوس فيدروفيتش . يا للمفاجأة !

ارتيمي فيليبوفيتش . تأتيك الدواهي وانت ساهٍ .

لوكا لوكيتش . يا إلهي ، وبمهمّة سرّية ايضاً !

حاكم المدينة . كانّ قلبي اعلمني . رايت في الحلم هذه الليلة جُرذين غير اعتياديين . الحقيقة انّني لم ار مثلهما قطّ . اسودين بحجمين غير طبيعيين ! . جاءا وتشمّما ، واختفيا . ها انا اقرأ لكم الرسالة التي تلقّيتها من آندريه إيفانوفيتش تشميخوف الذي تعرفه انت ، يا ارتيمي فيليبوفيتش . ها هو يكتب : «الصديق الفاضل المحسن ، مُعمّد ابنائي . (يتمتم بصوت خافت ممرّاً عينيه بسرعة) . . . اعلمك» . آهـا ! هكذا : «أسرع لأعلمك ، بالمناسبة انّ موظّفاً وصل بمهمّة تفقّد الولاية كلّها ،

ولاسيّما قضاءنا (يرفع اصبعه إلى فوق بمغزى .) عرفت ذلك من اوثق الناس ، رغم انّه يقدّم نفسه على انّه لا يمثّل اية جهة . ولما كنت اعرف انك لا تخلو من آثام ، كأي شخص آخر ، لانّك رجل نابه ، ولا تحبّ ان تفوّت ما يسنح لك . . .» (يتوقّف .) طيّب ، لا غريب بيننا . . . «فانّني انصحك بأن تلزم الحذر ، فقد يصل اليك من ساعة الى اخرى ، إن لم يكن قد وصل الآن ، وسكن متخفياً في مكان ما . . . يوم امس كنت . . .» حسناً ، بعد هذه تاتي قضايا عائلية : «جاءت الينا الأخت آنا كيريلوفنا مع زوجها . ايفان كيريلوفيتش سمن كثيراً ، ويعزف على الكمان الوقت بطوله . . .» الى غير هذا وذلك . هذا هو الوضع !

امّوس فيدروفيتش . نعم ، هذا هو الوضع . . . غير الاعتيادي ، غير الاعتيادي تماماً . لا بدّ من سبب .

لوكا لوكيتش . ولأي شيء هذا ، يا انتون انتونوفيتش ؟ لماذا يفد علينا مفتّش عامّ ؟

حاكم المدينة . لماذا ؟ قدر ، كما يبدو ! (يزفر .) حتّى هذا الحين ، وبفعل اللّه ، كانوا يفدون على مدن اخرى . والآن جاء دور مدينتنا .

امّوس فيدروفيتش . اظنّ في الأمر سبباً دقيقاً ، أميل الى السياسة ، وهو ان روسيا . . . اها . . . تريد القيام بحرب . والحكومة ، يا حضرة المحترم ، ارسلت مَنْ يمثّلها ليتأكّد فيما اذا كانت هناك خيانة .

حاكم المدينة . اوه ، الى اين رحت ! وانت الرجل الحصيف ! خيانة في مدينة من مدن الأقاليم ! وهل هي على الحدود ؟ إنّك لو عدوت بحصانك من هنا لثلاثة أعوام لما وصلت الى اية دولة .

امّوس فيدروفيتش . لا ، اريد ان اقول لك انك لا . . . الرؤساء يرون الأمور الدقيقة . قد تكون المدينة بعيدة ، ولكن لهم تفكيرهم الخاص .

حاكم المدينة . لهم او ليس لهم ، ولكنّني انبّهكم مقدّماً ، ايّها السادة . فالزموا الحذر . ومن جهتي اصدرت بعض الأوامر ، ونصيحتي ان تفعلوا ذلك ايضاً . لا سيّما ، انت ارتيمي فيليبوفيتش ! ليس من شكّ في انّ الموظّف القادم سيرغب ،

قبل كلّ شيء ، في تفقّد المستشفيات الخيرية التي ترعاها . ولهذا يجب ان تجعل كلّ شيء فيها لائقاً . الطاقيات نظيفة ، والمرضى لا يشبهون الحدّادين ، كما هم في العادة ، حين يضعون عليهم أي شيء من الثياب ، وكأنّهم في بيوتهم .

ارتيمي فيليبوفيتش . لا بأس في هذا . يمكن ان نلبّسهم طاقيات نظيفة ، حسب ظنّي .

حاكم المدينة . ويجب ان يكتب المرض فوق كلّ سرير باللاتيني او اية لغة اخرى . وهذه مهمّتك ، يا خريستيان إيفانوفيتش ، ومتى مرض المريض به ، اليوم والتاريخ . . . غير لطيف ان يدخّن مرضاك تبغاً قوياً يجعل كلّ من يدخل يعطس حتماً . وحبّذا لو يقلّ عددهم ، والا فسيعزى ذلك الى سوء الادارة او عدم مهارة الطبيب .

ارتيمي فيليبوفيتش . اوه ! بخصوص الطبابة اتّخذت انا وخريستيان إيفانوفيتش الموقف التالي : كلّما كان الأمر اقرب الى الطبيعة كان احسن . نحن لا نستعمل ادوية غالية . الانسان بنية بسيطة . اذا كان في طريقه الى الموت مات ، واذا كان في طريقه إلى الشفاء شفي . ثم ان من الصعب على خريستيان إيفانوفيتش التفاهم معهم فهو لا يعرف من الروسية اية كلمة .

(يصدر خريستيان ايفانوفيتش صوتا يشبه **الياء**) .

حاكم المدينة . وبودي ان اتصحك انت ايضاً ، يا امّوس فيدروفيتش ، بأن تلتفت الى غرف دائرتك . فانّ الحرّاس صاروا يربّون البطّ وفراخه في الرواق الذي يوجد المراجعون فيه عادة ، فيلبط بين ارجلهم . تربية الدواجن تستحقّ كلّ ثناء بالطبع ، فلماذا لا يربّيها الحرّاس ايضاً ؟ ولكن لا يليق ذلك في مثل هذا المكان . . .قبل هذا ايضاً كنت اريد ان الفت انتباهك ، ولكن فات من بالي .

امّوس فيدروفيتش . سآمرهم اليوم بنقله جميعاً إلى المطبخ لذبحه . تفضّل وتغدّ عندنا اذا شئت .

حاكم المدينة . وفضلاً عن ذلك قبيح ان تنشر مختلف الخرق

في مقرّ عملك ، ويتدلّى سوط الصيد من فوق الدولاب الذي تحفظ فيه اوراقك . انا اعرف انّك تهوى الصيد . ولكن من الأفضل ان ترفعه مؤقّتاً ، وتعلّقه ثانية ، حين يرحل المفتّش العامّ . ثمّ ان موظفك المنتخب . . . طبعاً إنّه رجل مطّلع ، ولكن له رائحة قوية ، وكأنّه خرج لتوّه من مصنع تخمير . وهذا شيء غير لطيف ايضاً . كنت اريد ان اكلّمك عنه منذ زمان ، لكن كنت مشغول البال بشيء لا اذكره الآن . هناك وسيلة لعلاج ذلك ، اذا كانت هذه رائحته الطبيعية ، كما يقول ، فمن الممكن ان يُنصح بأكل البصل او الثوم ، او اي شيء آخر . وفي هذه الحال يمكن ان يساعده خريستيان إيفانوفيتش بمختلف العقاقير .

(يصدر خريستيان ايفانوفيتش نفس الصوت السابق) .

امّوس فيدروفيتش . لا ، من المستحيل التخلّص من تلك الرائحة . يقول إنّ امّه صدمته ، حين كان طفلاً ، ومنذ ذلك الحين صارت تخرج منه رائحة الفودكا غير القوية .

حاكم المدينة . هذا ما اردت ان انبّهك عليه فقط . اما بخصوص الاجراءات الداخلية ، وما يسميه آندريه إيفانوفيتش في رسالته بالآثام ، فلا اريد ان اعلّق عليه . فان ذلك سيكون غريباً . إذ لا يوجد انسان خال من الآثام . هكذا خلقنا الربّ نفسه . وليس من حقّ اصحاب الأفكار الجديدة ان يعترضوا على ذلك .

امّوس فيدروفيتش . ماذا تقصد بالآثام ، يا انتون انتونوفيتش ؟ هناك فرق بين آثام وآثام . وانا اقول بصراحة للجميع : إنّني آخذ رشاوى . ولكن اي نوع من الرشاوى ؟ جراء كلاب الصيد . وهذا شيء مختلف تماماً .

حاكم المدينة . كلّها رشاوى سواء اكانت جراء او غيرها .

امّوس فيدروفيتش . لا يا انتون انتونوفيتش ولكن لو ان لأحد فروة ثمنها خمسمائة روبل ، مثلاً ، وللزوجة شال . . .

حاكم المدينة . ولكن ماذا يجدي ان تقتصر في رشاواك على جراء كلاب الصيد ؟ بينما انت لا تؤمّن بالربّ ، ولا تذهب الى الكنيسة ابداً . بينما انا ، على الأقلّ ، قوي الايمان ، واذهب الى الكنيسة

كلّ يوم احد . وانت . . . اوه ، اعرفك . اذا بدأت بالكلام عن خلق العالم ، وقف شعر الراس كلّه .

امّوس فيدروفيتش . ولكن انا الذي توصّلت الى ذلك بعقلي .

حاكم المدينة . حسناً ، كثرة العقل ، في بعض الأحيان ، أسوأ من عدمه . وبالمناسبة انا لم اذكر محكمة القضاء إلا عرضاً . فمن المستبعد حقاً أن يطلّ أحد عليها ، فهي مكان آمن والربّ يحرسه بنفسه . امّا انت ، يا لوكا لوكيتش ، باعتبارك ناظر المؤسّسات التعليمية ، فيجب أن تهتمّ بالمعلّمين بشكل خاصّ . إنّهم ، بالطبع ، اناس متعلّمون درسوا في مختلف دور العلم ، ولكن لهم تصرّفات غريبة جدّاً لا تنفصل ، بالطبع ، عن لقبهم العلمي . فأحدهم ، مثلاً ، وهو ذو الوجه الممتلئ . . . لا اتذكّر إسمه ، لا يصعد إلى المنصة إلا وهذه التكشيرة على وجهه (يُمثّل هذه التكشيرة .) ثمّ يأخذ بتمسيد لحيته بيده من تحت ربطة عنقه . لا بأس ، بالطبع ، لو كان يكشّر هذه التكشيرة لتلامذته ، فقد تكون التكشيرة ضرورية ، وانا لا افهم في هذا . ولكنّها قبيحة اذا جابه بها أحد الزوّار ، فاحكموا بانفسكم . قد يعتبرها السيد المفتّش العامّ أو غيره مساساً به . وسيحصل من ذلك ما لا يعرفه إلا الشيطان .

لوكا لوكيتش . ماذا تريد أن افعل به ، حقّاً ؟ لقد تكلّمت معه عن ذلك عدّة مرّات . وقبل أيّام فقط ، حين دخل عميد الاشراف عندنا الى الصفّ ، قلّب سحنته قلبة لم ار مثلها قطّ . وقد فعل ذلك عن طيبة قلب . ولكنّني حصلت على توبيخ بدعوى انه يدخل الأفكار المتحرّرة في عقول النشء .

حاكم المدينة . ثمّ يجب ان الفت نظرك الى معلّم التاريخ . إنّه عقل نيّر ، وذلك واضح ، ومعلوماته هائلة ، ولكنّه يتحمّس حماساً شديداً ، حين يشرح ، حتّى يخرج عن اطواره . ذات مرّة استمعت اليه . طيّب ، حين كان يتكلّم عن الآشوريين والبابليين لا بأس ، ولكن عندما وصل الى إسكندر المقدوني ، لا اقدر أن اصف لكم ماذا حصل له . ظننت ان حريقاً قد شبّ ، وحقّ الربّ ! نزل راكضا من المنصّة ، وخبط الكرسي بالأرض بكلّ قوّته .

إسكندر المقدوني بطل ، بالطبع ، ولكن لماذا يكسّر معلّمك الكرسي ؟ في ذلك خسارة للدولة .

لوكا لوكيتش . نعم ، إنّه حادّ المزاج ! وقد نبّهته على ذلك عدّة مرّات . . . ولكنّه يقول : «كما تشاء ، ولكنّني لن ابخل بحياتي في سبيل العلم» .

حاكم المدينة . نعم ، هذه سُنّة القدر التي لا تخضع لتفسير : العالِم إمّا أن يكون سكّيراً ، وإمّا أن يقلّب سحنته كالشيطان .

لوكا لوكيتش . عسى اللّه أن لا يجعل الانسان يخدم في مؤسسة تعليمية . فهو يخاف من كلّ شيء ، لأن أي انسان يدس انفه او يحبّ أن يظهر انّه هو أيضاً عالم .

حاكم المدينة . هذا لا شيء . والمصيبة هو ذلك الذي يتخفى عنّا . وسيطلّ فجاة ويقول : «آها ، انتم هنا ، يا لطاف ! ومن القاضي بينكم ؟» – «إنّه ليابكين-تيابكين» – «هاتوا لي ليابكين-تيابكين ! ومن راعي المؤسّسات الخيرية ؟» – «زيملانيكا» – «هاتوا لي زيملانيكا !» تلك هي البلية .

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص مع مأمور البريد) .

مأمور البريد . أوضحوا لي ، يا سادة ، أي موظف قادم ؟

حاكم المدينة . الم تسمع حقّاً ؟

مدير البريد . سمعت من بيتر ايفانوفيتش بوبتشينسكي . كان عندي في دائرة البريد قبل لحظات .

حاكم المدينة . طيّب . ما رايك في هذا ؟

مأمور البريد . ما رايي ؟ ستقع حرب مع الأتراك .

امّوس فيدروفيتش . بالضبط ! مثلما فكّرت أنا .

حاكم المدينة . ولكن كليكما لم يصب الهدف .

مأمور البريد . حرب مع الأتراك ، حقّاً . وكل ذلك من كيد الفرنسيين .

حاكم المدينة . ما شان الحرب مع الأتراك هنا ! نحن الذين سننتضرر ، لا الأتراك . وهذا معروف من الرسالة التي تلقيتها .

مامور البريد . اذا كان كذلك فلن تقع حرب مع الأتراك .

حاكم المدينة . ماذا ترى في هذا ، يا ايفان كوزميتش ؟

مامور البريد . وماذا أنا ؟ ولكن كيف ترى أنت ، يا انتون انتونوفيتش ؟

حاكم المدينة . وماذا انا ايضاً ؟ لا اشعر بخوف ، ولكن . . . التجار والأهالى يقلقونني . . . يقولون إنني ضايقتهم ، ولكن ، والله إن كنت قد اخذت رشوى من احدهم ، فبدون اية ضغينة حقاً . حتى انني افكر (يتابط ذراعه ، وينتحي به جانباً .) حتى انني افكر بان احداً من الناس ربما قد وشى بي . وإلا فلماذا يقصدنا مفتش عام حقا ؟ اسمع ، يا ايفان كوزميتش ، هل من الممكن ، لمصلحتنا عموماً ، ان تفضّ ختم الرسائل القادمة اليك في دائرة البريد الواردة والصادرة ؟ تفضّها قليلاً ، وتقراها ، فلعلّ فيها وشاية او مجرّد اخبارية . واذا لم تجد شيئاً يمكن ان تختمها من جديد ، بل يمكنك ان تسلّمها كما هي ، غير مختومة .

مامور البريد . اعرف ، اعرف . . . لا تعلمني بذلك . فانا افعله لا من جانب الاحتراس ، بل من جانب الفضول أكثر . فانا مغرم حتى الموت بمعرفة ما هو جديد في الدنيا . واؤكد لك انّ مثل هذه القراءة غاية في المتعة . بعض الرسائل تقراها بتلذّذ ، لانها تصف مختلف الوقائع . . . فيها موعظة وحكمة . . . احسن من «الوقائع الموسكوفية» * .

حاكم المدينة . طيب ، الم تقرأ شيئاً عن موظف قادم من بطرسبورغ ؟

مامور البريد . لا ، لا شيء عن هذا ولكن احاديث كثيرة تدور حول موظفين من كوستروما وساراتوف . على كل حال ، خسارة انك لا تقرأ رسائل . فيها مواضع رائعة . أحد الضباط ، مثلاً ،

---

* جريدة كانت تصدرها جامعة موسكو منذ عام ١٧٦٦ . وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كفت الجامعة عن اصدارها ، وصارت رجعية تصدرها الحكومة . **المعرب** .

يكتب لصديقه ، ويصف حفلة راقصة في منتهى الفرفشة . . . لطيف ، لطيف جداً . فهو يقول : «الحياة ، يا صديقي العزيز ، تجري في نعيم . الأوانس كثيرات ، والموسيقى تصدح ، والرايات ترفرف» وصف في منتهى ، منتهى العاطفة . ابقيت الرسالة عندي عمداً ، هل تريد أن اقراها ؟

حاكم المدينة . ليس وقتها الآن . إذن ، اعمل معروفاً ، يا ايفان كوزميتش ، اذا وقعت في يديك شكوى او وشاية ، إحفظها عندك ، دون أي تردد .

مامور البريد . بكل سرور .

امّوس فيدروفيتش . انتبه ، فقد تتاذى من وراء ذلك .

مامور البريد . آه ، يا اولياء !

حاكم المدينة . لا باس ، لا باس . شيء آخر لو شهرتَ بذلك . ولكنّها قضية عائلية .

امّوس فيدروفيتش . نعم ، وقع ما لا تحمد عقباه ! بينما جئتك ، يا انتون انتونوفيتش ، اذا اردت الصراحة لأهديك كلبة صيد ، هي شقيقة الكلب الذي تعرفه . لعلك سمعت بان تشيبتوفيتش وفارخوفينسكي اقام احدهما دعوى على الآخر ، وانا الآن في ترف ، أصطاد الأرانب في اراضي هذا وذاك .

حاكم المدينة . آه ، يا اولياء ، لا تهمني الآن ارانبك . فانا افكّر في ذلك المتخفّي اللعين الذي قد يطل علينا من لحظة الى اخرى . . .

المشهد الثالث

(**نفس الاشخاص** مع **بوبتشينسكي ودوبتشينسكي** اللذين يدخلان لاهثين) .

بوبتشينسكي . حدث خارق !

دوبتشينسكي . نبأ غير متوقّع !

الجميع . ما هو ؟

دوبتشينسكي . أمر لا على البال ولا على الخاطر . بينما كنا داخلين إلى الفندق . . .

بوبتشينسكي (يقاطعه) . بينما كنت وبيتر ايفانوفيتش داخلين الى الفندق . . .

دوبتشينسكي (يقاطعه) . اسمح لي ، يا بيتر ايفانوفيتش . أنا الذي سيتحدّث .

بوبتشينسكي . لا ، لا ، اسمح لي ، اسمح لي ، اسمح لي . . . ليست لديك اية طريقة في الحديث . . .

دوبتشينسكي . بينما أنت ستتعثّر في الكلام ، ولا تتذكّر كلّ شيء .

بوبتشينسكي . اتذكّر ، واللّه ، اتذكّر . فلا تعقني ، ودعني احكي ، لا تعقني ! اعملوا معروفاً ، يا سادة ، وقولوا لبيتر ايفانوفيتش أن لا يعيقني .

حاكم المدينة . ولكن تكلّم ، بحقّ الربّ . ماذا عندكما ؟ قلبي خرج من موضعه . اجلسوا ، يا سادة . خذوا مقاعدكم . هاك مقعداً ، يا بيتر ايفانوفيتش .

(الجميع يجلسون حول هذين البيترين ايفانوفيتشين كليهما) .

طيب ، ما هو ؟

بوبتشينسكي . اسمح لي ، اسمح لي ، اسمح لي سأحكي بالترتيب . ما إن تهيّأ لي الخروج منك بعد أن تفضّلت وأبديت انزعاجك من الرسالة التي تسلّمتها ، اي نعم ، حتّى اسرعت . . . اوه ، ارجوك ، لا تقاطعني ، يا بيتر ايفانوفيتش ! أنا أعرف ، اعرف كلّ شيء . . . حتّى اسرعت إلى كوروبكين . فلم اجد كوروبكين في البيت ، فعرجّت على راستاكوفسكي ، فلم اجد راستاكوفسكي ، فذهبت الى ايفان كوزميتش لأبلغه بالخبر الذي وصلك ، وحين خرجت من هناك التقيت ببيتر ايفانوفيتش . . . .

دوبتشينسكي (يقاطعه) . قرب الكشك الذي تباع فيه الفطائر .

بوبتشينسكي . قرب الكشك الذي تباع فيه الفطائر . وحين التقيت ببيتر ايفانوفيتش قلت له : «هل سمعت بالخبر الذي تلقّاه انتون انتونوفيتش من رسالة موثوقة ؟» كان بيتر ايفانوفيتش قد سمع بالخبر من قهرمانتك آفدوتيا التي لا أعرف لماذا أُرسلت الى فيليب انتونوفيتش بوتشيتشويف .

دوبتشينسكي (يقاطعه) . لجلب دنّ للفودكا الفرنسية .

بوبتشينسكي (يبعد يديه) . لجلب دنّ للفودكا الفرنسية . فذهبنا أنا وبيتر ايفانوفيتش إلى بوتشيبشويف . . . أرجوك ، يا بيتر ايفانوفيتش ، لا تقاطعني ، لا تقاطعني ! ذهبنا الى بوتشيتشويف وفي الطريق يقول لي بيتر ايفانوفيتش : «لنذهب إلى المطعم . . . لم أضع في معدتي طعاماً منذ الصباح . . . عندي اضطراب معدوي» — آها ، عند بيتر ايفانوفيتش اضطراب معدوي . . . ويقول : «والآن جلبوا الى مطعم الفندق سمك سلمون طازج ، وسنأكل منه» . وما كدنا نحطّ في غرفة الطعام حتّى نرى شاباً فجأة . . .

دوبتشينسكي (يقاطعه) . له مظهر مقبول ، ولباس مدني . . .

بوبتشينسكي . له مظهر مقبول ، ولباس مدني ، يتمشّى في الغرفة ، وعلى وجهه تفكير عميق . . . سيماء . . . تصرّفات ، وهنا (يدير يده قرب جبينه .) أهمّ الأهمّ . وكأنّني حدست ، فأقول لبيتر ايفانوفيتش : «شيء غير اعتيادي هنا» . آها . وكان بيتر ايفانوفيتش قد أومأ الى صاحب الحانة فلاس بأصبعه يدعوه اليه . قبل ثلاثة أسابيع وضعت زوجة فلاس طفلاً حركاً للغاية ، سيدير حانة مثل أبيه . دعا بيتر ايفانوفيتش فلاس ، واستفسر منه بهدوء : «مَنْ ذلك الشابّ ؟» فيرد فلاس : «هذا» . . . أوه ، لا تقاطعني ، يا بيتر ايفانوفيتش ، أرجوك ، لا تقاطعني . ولا تتحدث ، بحقّ الربّ ، لا تتحدّث . انت تهسهس . أنا أعرف أن احدى أسنانك تصدر صفيراً . . . فيقول فلاس : «هذا الشابّ موظّف قادم من بطرسبورغ يُدعى ايفان الكسندروفيتش خليستاكوف ، في طريقه إلى ولاية ساراتوف . يتصرّف بغرابة . نزل في الحانة منذ أكثر من أسبوع ، ولا يغادر . يأخذ كلّ شيء على الحساب ، ولا يريد أن يدفع فلساً واحداً» . وحالما قال لي ذلك ، أدركت بوحي سماوي . فأقول لبيتر ايفانوفيتش : «آي» . . .

دوبتشينسكي . لا ، يا بيتر ايفانوفيتش ، أنا الذي قلت : «آي !» .

بوبتشينسكي . في البداية قلت أنت ، وبعد ذلك قلت أنا .

طيب ، قلت أنا وبيتر ايفانوفيتش : «آي ! ولماذا يظلّ هنا اذا كان يقصد ولاية ساراتوف ؟» نعم ، إنّه هو ، أقصد ذلك الموظّف .

حاكم المدينة . من هو ذلك الموظّف ؟

بوبتشينسكي . الموظّف الذي تلقيت اخبارية عنه ، المفتّش العامّ .

حاكم المدينة (في فزع) . اللّه يحفظنا ! ليس هو .

دوبتشينسكي . هو ! لا يدفع فلوساً ، ولا يسافر . ومَنْ يمكن أن يكون غيره ؟ ساراتوف مكتوبة في وثيقة السفر .

بوبتشينسكي . هو ، وحـــقّ الربّ ، هو . . . متفحّص استوعب ببصره كلّ شيء . حين رآنا أنا وبيتر ايفانوفيتش نأكل السلمون ، بسبب معدة بيتر ايفانوفيتش على الأكثر . . . نظر في صحننا أيضاً . فاستولى الذعر عليّ .

حاكم المدينة . يا إلهي ، ارحمنا ، نحن الآثمين ! أين يعيش هناك ؟

دوبتشينسكي . في الحجرة رقم خمسة ، تحت السلّم .

بوبتشينسكي . في نفس الحجرة التي تعارك فيهـــا الضبّاط المسافرون في العام الماضي .

حاكم المدينة . وهل هو هنا منذ زمان ؟

دوبتشينسكي . منذ أسبوعين . وصـــل في عيد القدّيس فاسيلي المصري .

حاكم المدينة . منذ أسبوعين ! (في ناحية .) يا أولياء ، يا قدّيسون ! أنقذوني ، أيّها الشفيعون ! في هذين الأسبوعين جُلِدت زوجة ضابط الصفّ * ! ولم توزع الأرزاق على المعتقلين ! وفي الشوارع عربدة ووساخة ! عار ! مثلبة ! (يمسك رأسه .)

ارتيمي فيليبوفيتش . ما رأيك ، يـــا أنتون أنتونوفيتش ؟ أنذهب الى الفندق لنقدم أنفسنا رسميا ؟

أمّوس فيدروفيتش . لا ، لا ! في البدايـــة نرسل عميـــد الوجهـــاء . . . رجال الدين ، التجّار ؛ في كتاب «مآثر يوحنّا ماسون» . . .

* قبل وقت قصير من ظهور «المفتش العـام» صدر قانون يحرم العقوبات الجسدية لزوجات ضباط الصف . **المعرب** .

حاكم المدينة . لا ، لا . اسمحوا لي أن أتصرف . في الماضي حصلت حالات صعبة ، وسُوّيت بل وحصلت على شكر . فلعلّ الربّ ينجيني ، هذه المرّة أيضاً . (يخاطب بوبتشينسكي .) تقول إنّه شابّ ؟

بوبتشينسكي . شابّ في الثالثـــة والعشرين أو أكثر من الرابعة والعشرين بقليل .

حاكم المدينة . هذا أفضل . الشابّ أكثر انكشافاً ، كلّ شيء فيه ظاهر ، ولكن المصيبة اذا كان داهية عجوزاً . تهيّأوا ، أيها السادة ، كلّ في دائرة عمله ، وساخرج أنا لوحدي ، أو مع بيتر ايفانوفيتش بشكل شخصي ، للنزهـــة ، والتعرّف عمّا اذا كان المارّون في مدينتنـــا يلقون بعض المنغّصات . هاي ، يـــا سفيستونوف !

سفيستونوف . ماذا تحبّون ؟

حاكم المدينة . إستدع رئيس شرطة المدينة . أو ، لا . أنت تلزمني . اطلب أن يُستدعى رئيس شرطة المدينة اليّ بأسرع وقت ، وتعال .

(الشرطي يركض بعجالة) .

ارتيمـــي فيليبوفيتش . لنذهب ، لنذهب ، يـــا أمّوس فيدروفيتش ! قد تحصل مصيبة حقّاً .

أمّوس فيدروفيتش . ولكن ممّ تخاف ؟ تلبس مرضاك طاقيات نظيفة ، وتغطّي على آثامك .

ارتيمي فيليبوفيتش . ليست مسألة طاقيات ! الأوامر تنصّ على تقديم شوربة الشعير للمرضى ، بينما رائحة الكرنب عندي تملأ الممرّات كلّها حتّى تصدم الأنف .

أمّوس فيدروفيتش . أمّا أنا فمطمئنّ من هذه الناحية . اذا أردت الواقع مَنْ يتذكّر محكمة البلدة فيطلّ عليها ؟ وحتّى إذا نظر في ورقة فيها ، فإنّه لن يرى الفرحة في حياته كلّها . أنـــا منذ خمسة عشر عاماً ، أقعد على كرسي القضاء ، ولكن ما إن أنظر في سجّل الوقائع حتى أنفر منه واعوفه . سليمان الحكيم نفسه لا يعرف الصحيح فيه من الكذب .

(يخرج القاضي ، وراعي المؤسسات الخيرية ، وناظر المؤسسات التعليمية ، ومامور البريد ، فيصطدمون في الباب **بالشرطي** العائد) .

المشهد الرابع

(حاكم المدينة ، بوبتشينسكي ، دوبتشينسكي ، والشرطي) .

حاكم المدينة . هل العربة جاهزة ؟

الشرطي . جاهزة .

حاكم المدينة . أخرج الى الشارع . . . أو ، لا ، على مهلك . . . اذهب لجلب . . . ولكن اين الآخرون ؟ هل معقول أنّك وحدك ؟ أوعزتُ بأن يكون بروخوروف هنا أيضاً . اين بروخوروف ؟

الشرطي . بروخوروف في بيته ، ولكنّه لا يستطيع ان يشترك في عمل .

حاكم المدينة . وكيف هذا ؟

الشرطي . جلبوه في الصباح كالميّت . صبوا عليه جردلين من الماء ، فلم يفق من سكره حتّى الآن .

حاكم المدينة . (يمسك راسه) . اوه ، يا ربّي ، يا ربّي ! أخرج الى الشارع على عجل . أو ، لا . اركض إلى الحجرة أولاً ، سامع ! اجلب منها السيف والقبّعة الجديدة . هيـــا ، يا بيتر ايفانوفيتش !

بوبتشينسكي . وانا ايضاً ، وانا ايضاً . . . اسمح لي أنا ايضاً ، يا أنتون أنتونوفيتش !

حاكم المدينة . لا ، لا ، يا بيتر ايفانوفيتش ، غير ممكن ، غير ممكن ! هذا إحراج ، كما أن عربتي الصغيرة لا تسع .

بوبتشينسكي . لا باس ، لا باس . سأجري وراءها . لا أحتاج إلا أن أنظر اليه من خصاص الباب . وارى تصرّفاته . . .

حاكم المدينة (للشرطي ، وهو يتناول السيف) . اذهب حالاً مع بعض المساعدين ، وليأخذ كل واحد منهم . . . آه ، ما أكثر الخدوش على هذا السيف ! اللعنة على التاجر عبدولين . يرى حاكم المدينة يحمل سيفاً عتيقاً ، دون أن يرسل له آخر جديداً . آه ،

محتالون ! اظن هؤلاء الغشاشين يهيّئون الآن الشكاوى خلسة . ليأخذ كلّ واحد في يده شارعاً . . . أوه ، اللعنة ، اقصد مكنسة ! وليكنسوا كل الشارع المؤدّي الى الحانة ، وليكنسوه بشكـــل جيّد . . . تسمع ! امّا انت فاحذرك ، نعم ، أنت ، انت . انـا أعرفك . سترفع الكلفة ، وتسرق ملاعق فضية ، وتخبئها في عنق حذائك الطويل . احذر ، فانّ لي بصراً حاداً ! ماذا فعلت مع التاجر تشيرنياف ؟ ها ؟ أعطاك ذراعين من الجوخ لتفصلهما بزّة لك ، بينما لطشت انت اللفة كلّها . حذار ، انت تاخذ اكثر ممّا يناسب رتبتك . اذهب !

المشهد الخامس

(نفس الاشخاص مع رئيس شرطة المدينة) .

حاكم المدينة . آ . . . يا ستيبان إيليتش ! قـــل لي بحقّ الربّ ، اين اختفيت ؟ ماذا يعني هذا ؟

رئيس الشرطة . كنت هنا ، وراء البوّابة .

حاكم المدينة . اسمع ، يا ستيبان إيليتش ! وصل موظّف من بطرسبورغ . فكيف تهيّأت لذلك ؟

رئيس الشرطة . مثلما أمرت . أرسلت الشرطي بوغوفيتسين مع المساعدين لتنظيف الرصيف .

حاكم المدينة . واين ديرجيموردا ؟

رئيس الشرطة . خرج على عربة الاطفاء .

حاكم المدينة . وبروخوروف سكران ؟

رئيس الشرطة . سكران .

حاكم المدينة . وكيف تساهلت في ذلك ؟

رئيس الشرطة . لا ادري ، واللّه . يوم أمس حصـل عراك خارج المدينة ، فذهب الى هناك ليعيد النظام ، فعاد سكران .

حاكم المدينة . طيب ، اسمع . افعل كالآتي : اجعل الشرطي بوغوفيتسين يقف على الجسر للوجاهة ، لأنّه طويل القامة . واوعز بتفكيك السياج القديم القائم قرب الاسكاف بسرعة ، ونصب عمود

من القشّ هناك ، ليدلّ على مشروع بنـــاء . لأنّه كلّما كثُر الحطام كان اكثر دلالة على نشاط القائم على أمور المدينة . أوه ، يا الهي ، نسيت أن بالقرب من هذا السياج مختلف القاذورات تكفي لأربعين عربة . أية مدينة حقيرة هذه ! ما إن تقيم فيهـــا نصباً تذكارياً ، أو مجرّد سياج ، حتّى تجد الناس يحملون إلى هناك وساخات لا أحد يعرف من أين جاءوا بها ! (يتنهّد .) واذا سأل الموظّف المستخدمين عمّا اذا كانوا مرتاحين ، فليقولوا : «مرتاحون ، يا صاحب النبالة» . واذا أعلن واحد منهم عن عدم رضاه فسيجد منّي ، فيما بعد ، ما لا يحمّد عقباه . . . أوه ، اوه ، أوهوه ! خاطئٌ انا ، خاطئٌ في اشياء كثيرة . (يتناول علبة القبّعة بدلاً من القبّعة .) لئن نجّانا الربّ من هذه الغمة بأقرب وقت ، فسأوقد له شمعة لم يوقد مثلها قطّ . سأفرض على كلّ محتال تاجر ثلاثة بودات من الشمع . آوه ، يا ربّي ، يا ربّي ! لنذهب ، يا بيتر ايفانوفيتش . (يهمّ بأن يضع العلبة الورقية بدلاً من القبّعة .)

رئيس الشرطة . يا انتون انتونوفيتش ، هذه علبة وليست قبّعة .

حاكم المدينة (يلقيها) . اها ، علبة ، عليها اللعنة ! واذا سأل الموظّف : لماذا لم تُبن كنيسة المؤسّسة الخيرية ، وقد خصّص لها مبلغ من المال منذ خمسة أعوام ، فلا تنسوا أن تردوا عليه بأننا قد بدانا ببنائها ، ولكنّها احترقت . وقد قدمت أنـــا تقريراً بذلك . أخشى أن يسهو أحدكم فيقول بحماقة أننا لم نشرع في بنائها . ثمّ اخبر ديرجيموردا أيضاً بأن لا يستخدم قبضتيـــه كثيراً . فهو لحفظ النظام ، يترك كدمـــات تحت عيون الناس المذنبين منهم وغير المذنبين . لنذهب ، يا بيتر ايفانوفيتش ! (يخرج ويعود .) ثمّ لا تدع الجنود يخرجون الى الشارع كالعراة . فهؤلاء الأرذال من جنود الحامية يلبسون السترة الرسميـــة على القميص ، ولا شيء في الأسفل .

(الجميع يخرجون) .

المشهد السادس

(**آنا آندرييفنا ، وماريا انتونوفنا** تدخلان خشبة المسرح راكضتين) .

آنا آندرييفنا . اين هم ؟ آه ، يا إلهي ! . . (تفتح الباب .) زوجي ! انتوشا ! انتون ! (تسرع في كلامها .) العتب عليك ، كل شيء بسببك . رحت تنبشين : اريد الدبّوس ، اريد المنديـل . (تركض الى النافذة ، وتصيح .) انتون ، الى اين ، الى اين ؟ يعني ، وصل ؟ المفتّش العامّ ؟ ذو شاربين ! ما شكل شاربيه ؟

صوت حاكم المدينة . فيما بعد ، فيما بعد ، يا سيدتي .

آنا آندرييفنا . فيما بعد ؟ نوّرتني بفيما بعد هذه . لا أريد فيما بعد . . . كلمـــة واحدة فقط : هل هو عقيـــد ؟ ها ؟ (باستخفاف .) ذهب ! ساذكّرك بهذا ! تأخرنا بسببك أنتِ : «ماما ، ماما ، انتظري ، لأدبّس المنديل من الخلف . حالاً» وهذه هي نتيجة حالاً ! لم نعرف أي شيء ! كلّ ذلك بسبب الدلع اللعين . ما إن سمعت بأن مأمور البريد في البيت ، حتّى وقفتِ أمام المرآة متغنجة تتلوى على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب . تتصوّرين أنّه يغازلك . بينما هو يمطّ لك شفتيه سخرية ، حالما تستديرين .

ماريا انتونوفنا . وما العمل ، يا ماما ؟ لا يهمّ ، سنعرف كلّ شيء بعد ساعتين .

آنا آندرييفنا . بعد ساعتين ! شكراً جزيلاً على هذا الجواب الوافي الشافي ! كيف لم تحدسي أن تقولي بعـــد شهر سنعرف أحسن ! (تخرج جسمها من النافذة .) يا آفدوتيا ! ها ؟ هل سمعت بوصول أحد ؟ لم تسمعي ؟ حمقاء ! يبعدك بذراعيه ؟ وليكن ، ولكن كان عليك أن تسأليه . لم تستطيعي أن تعرفي ! رأسك معبّأ بالتوافه لا تفكّرين إلا بالزواج . ها ؟ خرجوا بسرعة ؟ كان عليـــك أن تركضي وراء العربـــة . اذهبي ، اذهبي ، الآن ! اسمعي : اركضي واستفسري الى أين ذهبوا ، استفسري جيّداً : مَنْ هو القادم وما هو شكله . هل تسمعين ؟ بصّي من ثقب الباب ، واعرفي كلّ شيء . ما لون عينيـــه ، سوداوان أم بلون آخر . وعودي حالاً . تسمعين ؟ اسرعي ، اسرعي ، اسرعي ! (تصيح الى أن تهبط الستارة فتحجب كلتا المرأتين الواقفتين عند النافذة .)

الفصل الثاني

(غرفة صغيرة في فندق . سرير ، منضدة ، حقيبة زجاجة فارغة . حذاء طويل العنق . فرشاة الثياب ، وغير ذلك) .

المشهد الأول

(**أوسيب** منطرح على سرير سيده) .

اللعنة ! جوعان تماماً . وبطني يقرقر ، وكأن فوجاً كاملاً ينفخ بالأبواق . لا أظنّنا سنصل إلى موطننا ! ما العمل ، اذن ؟ هذا هو الشهر الثاني منذ أن خرجنا من بطرسبورغ ! الحلو بذّر فلوسه في الطريق ، وهو الآن يقعد فارغ الجيب ولا يهتم . بينما كان لديه ما يكفي ويزيد للتنقّل ، جنى عليه حبّه للفخفخة في كل مدينة . (يقلّده .) : «يا أوسيب ، اذهب وابحث لي عن أحسن غرفة ، واطلب أحسن غداء . أنا لا أستطيع أن آكل الطعام الغثّ وأريد أحسن طعام» . لا يهمّ لو كان موظفاً معتبراً ، بالفعل ، ولكنّه من الدرجة الدنيا في الوظيفة ! يتعرّف على المسافرين ، ويلعب القمار معهم ، وها هي النتيجة ! أوه ، ضقت من هذه الحياة ! العيش في الريف أحسن ، بالتأكيد . صحيح ، لا توجد حياة اجتماعية ، ولكن الهموم أقلّ . تتزوّج ريفية ، وتظلّ طول عمرك راقداً على جنبك ، بل وتأكل فطائر علاوة على ذلك . طبعاً ، الحياة في بطرسبورغ هي المثلى ، اذا أردت الحقيقة . ولا أحد يناقشك في ذلك . فقط أن تكون لديك فلوس ، حياة رقيقة مهذّبة . مراسح ، وكلاب ترقص لك وكل ما تشتهي . وطوال الوقت تسمع كلاماً في غاية الرقة ، لا أحسن منه غير كلام النبلاء . فأنت تذهب إلى سوق شوكين ، فتسمع التجارين يصيحون : «يا محترم !» . وعندما تعبر النهر تجلس مع الموظّفين في قارب واحد . واذا كنت تحبّ العشرة دخلت حانة ، واستمعت إلى جندي عجوز يقصّ لك عن المعسكر ، ويفسر لك ما تعني كل نجمة في السماء ، فترى كل شيء وكأنه في راحة يدك . وتصادف عجوزاً ، هي زوجة ضابط ، تتبختر ، ووصيفة في بيت نبيل تمر بك احياناً . . . آه ، ما

احلاها ! (يكشّر ، ويهزّ راسه .) ادب . . . يا ويلي ، ولطافة ! لن تسمع اية كلمة غير مهذّبة . والجميع يخاطبونك بـ«يا محترم» . وحين تضجر من التمشّي توقف عربة ، وتجلس فيها كالسيد المعتبر ، واذا لم ترد أن تدفع أجرة الحوذي استطعت أن تزوغ . فلكلّ بيت منفذ من الجهة الأخرى ، وتقدر أن تنسلّ منه ولا يستطيع اي عفريت ان يمسكك . شيء واحد مزعج هو انّك تأكل أحياناً حتى الشبع ، وتجوع أحياناً حتّى تكاد تموت من الجوع ، كما هي حالي الآن . وكلّ ذلك بسببه . فماذا أفعل معه ؟ حين يرسل له ابوه نقوداً لن يحتفظ بها ، ويبدّدها شرّ تبديد ! ويركب عربات الأجرة ، واذهب كلّ يوم لأشترى له تذاكر للمرسح . وبعد أسبوع تكون الفلوس قد طارت . فيرسلني إلى السوق لأبيع له بدلة الفراك الجديدة . وأحيانا يبيع كلّ ما لديه ولا يبقى معه غير السترة الرسمية والمعطف . . . هذا صحيح ، وحقّ الربّ ، صحيح ! الجوخ معتبر ، انقليزي ، الفراك وحده يكلفه مائة وخمسين روبلاً . فيبيعه في السوق بعشرين . أما البناطيل فلا حاجة حتّى لذكرها . يبيعها بقروش زهيدة . ولم كل ذلك ؟ لأنه لا يزاول عملاً . وبدلاً من أن يذهب إلى وظيفته ، يتنزّه في الشارع العام ، ويلعب الورق . آه ، لو عرف السيد العجوز هذا ! لن ينظر الى كونه موظّفاً ، ويرفع قميصه ويجلّده جلداً يظلّ بعده ثلاثة ايّام يحكّ جلده . اذا كنت في وظيفة فداوم فيها . صاحب الفندق الآن قال : لن اقدّم لك ما تاكله حتّى تدفع الحساب السابق ، طيب ، واذا لم ندفع ؟ (يتحسّر .) آه ، يا الهي ، على الأقلّ لو كانت عندنا شوربة كرنب بسيطة ! يبدو لي الآن انّني التهم العالم كلّه . أسمع طرقاً . نعم ، ها هو قادم . (يسرع بالنزول من السرير .)

المشهد الثاني

(**أوسيب وخليستاكوف**) .

خليستاكوف . هاك ، خذ . (يقدّم له القبّعة والعصا .) آه ، مرّة أخرى انطرحت على السرير ؟

اوسيب . ولِمَ انطرح ؟ أتحسبني لم أر سريراً في حياتي ؟

خليستاكوف . تكذب . كنت منطرحاً عليه . انظر كيف هو مدعوك !

اوسيب . ولكن اي غرض لي به ؟ كأنني لا اعرف ما هو السرير . عندي رجلان ، واقدر ان اقف . فما حاجتي الى سريرك ؟

خليستاكوف (يذرع الحجرة) . انظر في الكيس ، ربّما يوجد تبغ ؟

اوسيب . ومن اين يأتي هذا التبغ ؟ انت دخّنت آخر ما تبقّى منه قبل اربعة ايام .

خليستاكوف (يتمشّى ويضمّ شفتيه بأوضاع مختلفة . واخيراً يقول بصوت عال حازم) . اسمع ، يا اوسيب !

اوسيب . بماذا تتكرّم ؟

خليستاكوف (بصوت عال ، ولكن بلا حزم كبير) . اذهب الى هناك .

اوسيب . الى اين ؟

خليستاكوف (بصوت خال من الحزم تماماً ، وليس عالياً ، وقريب جداً من الرجاء) . الى المشرب ، في الأسفل . . . وابلغهم . . . ان يقدّموا لي ما اتغدى به .

اوسيب . لا ، لا احب حتى ان اتحرّك .

خليستاكوف . كيف تجسر ، يا احمق ؟

اوسيب . ولكن ، بلا جدوى ، حتّى لو ذهبت لن نحصل على شيء . . . . صاحب الفندق قال : لن اقدّم اي طعام بعد الآن .

خليستاكوف . وكيف يجسر على ذلك ؟ اي سخف هذا !

اوسيب . ويقول ايضاً : وساذهب الى حاكم المدينة . سيدك لا يدفع فلوساً منذ اسبوعين . ويقول انت وسيّدك محتالان . وسيّدك نصّاب . ويقول نحن نعرف الطفيليين والاوغاد من أمثالكم .

خليستاكوف . وفرحان ، أيّها البهيمة ، لتعيد لي كلّ ذلك الآن .

اوسيب . يقول : «على هذا النحو يأتي مَنْ هبّ ودبّ ، وينزل عندنا ، ويغرق بالديون ، فلا نستطيع ان نطرده بعد هذا . لن اتساهل ، وسارفع دعوى في الحال ، لتساقوا إلى مركز

الشرطة ، وبعد ذلك الى السجن» .

خليستاكوف . كفى ، كفى ، يا احمق ! اذهب ، واطلب منه . يا لك من حيوان فظ !

اوسيب . الأحسن ان أستدعي صاحب الفندق الى حجرتك .

خليستاكوف . ولماذا تستدعيه ؟ اذهب انت ، واطلب منه .

اوسيب . ولكن ، يا حضرة . . .

خليستاكوف . اذهب ، عليك اللعنة ! واستدع صاحب الفندق .

(**اوسيب** يخرج) .

المشهد الثالث

(**خليستاكوف** وحده)

كم انا جائع ! تمشّيت قليلاً ، وتصوّرت ان شهيتي ستنسدّ . لا ، عليها اللعنة ، لا تنسدّ . آه ، لو كنت لم امرح واعبث في بينزا ، اذن ، لبقي عندي من الفلوس ما يكفيني للوصول إلى البيت . رائد المشاة خدعني خدعة محترمة . المحتال ينازل في الورق بشكل مذهل . جلس ربع ساعة لا اكثر ، ولفلف كلّ شيء . ومع ذلك اودّ كثيراً لو انازله مرّة اخرى . ولكن الفرصة لم تسنح . اية بلدة حقيرة تلك ! حوانيتها لا تبيع بالدين . هذه وضاعة ، تماماً . (يصفر في البداية لحن اوبرا «روبرت العفريت» ، ثمّ اغنية شعبية روسية ، وبعد ذلك ما يأتي على باله .) لا احد يريد ان يأتي .

المشهد الرابع

(**خليستاكوف** ، **اوسيب** ، وخادم المطعم) .

الخادم . طلب سيدي ان أسألك : ماذا تحبّ ؟

خليستاكوف . مرحباً ، يا اخ . طيّب ، كيف صحتك ؟

الخادم . الحمد للّه .

خليستاكوف . وكيف الأمور في فندقكم ؟ كل شيء على ما يرام ؟

الخادم . نعم ، والحمد للّه ، كلّ شيء جيّد .

خليستاكوف . النزلاء كثيرون ؟

الخادم . نعم ، بما فيه الكفاية .

خليستاكوف . اسمع ، ايّها الفاضل ، لحدّ الآن لم يجلبوا لي الغداء ، فاذهب ، أرجوك ، وعجّل به ، فانّ لي شغلاً يجب أن أنجزه الآن ، بعد الغداء .

الخادم . ولكن سيّدي قال : لن اقدم له شيئاً بعد الآن . اظنه كان يريد ان يذهب اليوم الى حاكم المدينة ليقدّم شكوى .

خليستاكوف . ولِمَ الشكوى ؟ احكم بنفسك ، ايّها الفاضل ، كيف هذا ؟ انا احتاج الى غداء . وإلا يمكن ان انحف كلّياً . انا جائع جدّاً ، واقول ذلك عن جدّ .

الخادم . ولكنّه يقول : «لن أقدّم له طعاماً حتّى يدفع لي الحساب السابق» . هذا كان جوابه .

خليستاكوف . ولكن إقنعه ، جادله .

الخادم . ماذا اقول له ؟

خليستاكوف . افهمه بجدّ انّني بحاجة الى طعام . الفلوس شيء آخر منفصل . . . يتصور ان الآخرين يتحمّلون اذا كان هو ، البهيمة يتحمّل الانقطاع عن الطعام يوماً . عجيبة !

الخادم . يمكن ان اقول له .

المشهد الخامس

(**خليستاكوف** وحده) .

حقارة ، حقاً ، اذا كان لا يقدّم لي شيئاً آكله . انا جائع جوعاً لم أجابه بمثله قطّ . هل أتخلّى عن واحد من ثيابي ؟ أبيع البنطلون ؟ لا ، الأحسن ان اجوع قليلا ، واعود الى بيتي في البدلة البطرسبورغية . خسارة ان ايوخيم لم يستأجرني عربة من عرباته ، اذن ، لكان لطيفاً ، وحقّ الشيطان ، ان اصل الى بيتي في عربة ،

وان اسرح بها حتّى أوقفها عند بوّابة بيت من بيوت الجيران من اصحاب الأطيان وللعربة مصابيح ، واوسيب واقف في ظهر العربة في بزّة الخدم المرفقين . أتصوّر الجميع سيوشوشون : «من هذا ، ماذا حدث ؟» ويدخل الخادم (يرفع هامته ممثلاً الخادم) : «ايفان الكسندروفيتش خليستاكوف من بطرسبورغ يستأذن بالمثول» . وهؤلاء ، الأجلاف ، لا يعرفون ما تعني «يستأذن بالمثول» . فانّ اي صاحب أطيان أرعن يزورهم يدخل عليهم بلا استئذان . وربّما أتقدّم من فتاة حلوة ، واقول : «يا آنستي ، انا . . .» (يفرك يديه ، ويشحط بقدمه .) تفو ! (يبصق) عندي رغبة في القيء من شدّة الجوع .

المشهد السادس

(**خليستاكوف** ، **أوسيب** ، **والخادم** فيما بعد) .

خليستاكوف . ماذا ؟

أوسيب . الغداء قادم .

خليستاكوف (يصفق ، ويقفز على الكرسي بخفّة) . قادم ! قادم ! قادم !

الخادم (يحمل صحوناً وفوطة) . سيّدي يقدّم الغداء لآخر مرّة .

خليستاكوف . أوه ، سيّدك ، سيّدك . . . بصقة على سيّدك ! ماذا جلبت ؟

الخادم . حساء وصحناً من اللحم المقلي .

خليستاكوف . صحنان فقط ؟

الخادم . فقط .

خليستاكوف . سخافة ! انا لا أقبل بذلك . قل له ما يعني هذا في الحقيقة ! . . هذا قليل .

الخادم . لا ، بل يقول سيّدي : وهذا كثير عليه .

خليستاكوف . ولماذا لم تجلب صلصة ؟

الخادم . لا توجد صلصة .

خليستاكوف . ولماذا لا توجد ؟ رأيت بنفسي ، حين مررّت

بالمطبخ ، أن الطبيخ وافر هناك . في صباح اليوم رأيت في المطعم رجلين دحداحين يأكلان السلمون وكثيراً من الأشياء الأخرى .

الخادم . موجود ، على ما أعتقد . ولكن غير موجود أيضاً .

خليستاكوف . كيف غير موجود ؟

الخادم . غير موجود الآن .

خليستاكوف . السلمون ، السمك والكفتة ؟

الخادم . هذه للذين أكثر اعتباراً .

خليستاكوف . آه ، يا أحمق !

الخادم . تؤمر .

خليستاكوف . أنت خنزير قذر . . . كيف يأكلان ، ولا آكل أنا ؟ لماذا لا أقدر أنا ، عليك اللعنة ؟ أليسا مسافرين مثلي ؟

الخادم . ليسا ، بالطبع .

خليستاكوف . مَنْ هما ؟

الخادم . اعتياديان ! يدفعان نقوداً ، بالطبع .

خليستاكوف . لا أريد أن أجادل معك ، أيها الأحمق . (يصب الحساء ويأكل .) أي نوع من الحساء هذا ؟ مجرد ماء صببته في سلطانية . لا طعم له على الاطلاق . مجرّد رائحة عفنة . لا أريد هذا الحساء ، أعطني غيره .

الخادم . يمكن أن نعيده . سيّدي قال اذا كنت لا تريد ، فلا بأس .

خليستاكوف (يحمي الطعام بيده) . كفى ، كفى . . . أتركه ، أحمق . . . أنت تعودت أن تعامل الآخرين بهذا الشكل . ولكني لست من صنفهم ، يا أخ ! لا أنصحك أن تفعل ذلك معي . . . (يأكل .) يا ربي ، أي حساء هذا (يستمر في الأكل .) لا أظنّ هناك شخصاً في الدنيا أكل مثل هذا الحساء قبلي . بدلاً من الدسم يعوم فيه ريش . (يقطع الدجاجة .) ياه ، ياه ، ياه ، أية دجاجة هذه ! هات اللحمة المقلية . لم يبق كثير من الحساء ، خذه لك ، يا أوسيب ، (يقطع اللحمة المقلية .) أية لحمة هذه ؟ هذه ليست لحمة مقلية .

الخادم . وما هي ، اذن ؟

خليستاكوف . كل شيء إلا اللحمة المقلية . فاس مقلية بدلاً

من لحم البقر . (يأكل .) بهذا يطعم الناس هؤلاء الغشاشون ، المحتالون ! اذا أكلت قطعة من هذه تأذى فكّاك . (ينقب أسنانه باصبعه .) أوغاد ! كقشرة الخشب تماماً ، لا يمكن أن تخرجها بشيء . ستسودّ الأسنان بعد هذا الطبق . غشاشون ! (يمسح فيه بالفوطة .) لا يوجد شيء آخر ؟

الخادم . لا .

خليستاكوف . محتالون ، أوغاد ! على الأقل لو كان هناك شيء من الصلصة . أو الكعك . طفيليون ! لا همّ لهم غير ابتزاز المسافرين .

(**الخادم** ينظف المائدة ، ويحمل الصحون مع **أوسيب**) .

المشهد السابع

(**خليستاكوف وأوسيب** فيما بعد) .

خليستاكوف . كأنني لم آكل بالفعل . دغدغت شهية فقط . لوكان لديّ فراطة نقود ، لأرسلت لشراء رغيف خبز من السوق ، على الأقل .

أوسيب (يدخل) . وصل حاكم المدينة لا أعرف لماذا ، وهو يستفهم ويستفسر عنك .

خليستاكوف (مذعوراً) . هذه هي المفاجأة ! يعني أن صاحب الفندق الرذيل لحق أن يبلغ السلطات ! ماذا لو يلقيني في السجن ، بالفعل ؟ لا بأس لوكان بطريقة مشرفة ، لا يهم . . . لا . . لا ، لا أريد ! في المدينة يسرح الضباط والناس ، وانا ، كما عن قصد ، تباهيت أمامهم ، وتغامزت مع واحدة من بنات التجار . . . لا ، لا أريد . ثم كيف يفعل هذا ؟ كيف يجرؤ حقاً ؟ هل يتصورني تاجراً أو حرفياً ؟ (يتشجّع وينتصب .) سأقول له في وجهه : «كيف تجرؤ ، كيف . . .» (مقبض الباب يتحرّك . خليستاكوف يمتقع ، وينكمش) .

المشهد الثامن

(**خليستاكوف ، حاكم المدينة ، دوبتشينسكي ، حاكم المدينة** يدخل ، ويتوقف . احدهما ينظر الى الآخر في ذعر لبضع دقائق ، والعيون جاحظة) .

حاكم المدينة (أسبل ذراعيه على جنبيه ، بعد أن تمالك نفسه) . تحياتي !

خليستاكوف (ينحني) . احتراماتي ! . .

حاكم المدينة . أعذروني !

خليستاكوف . لا بأس . . .

حاكم المدينة . واجبي كرئيس هذه المدينة ، أن أحرص على أن لا يشعر المسافرون وجميع الأشراف بأية مضايقات . . .

خليستاكوف (يتلعثم قليلاً في البداية ، ولكنه في آخر كلامه يتكلم بصوت عال) . وما العمل ؟ لست ملوماً . . . بالشرف سادفع . . . سيرسلون لي من القرية .

(**بوبتشينسكي** يطل من الباب) .

اللوم عليه أكثر . يقدّم لي قطعة لحم صلبة ، كالخشب . والحساء لا أعرف ماذا يصب فيه . كان عليّ أن أرميه من الشبّاك . وهو يميتني من الجوع أياماً كاملة . . . والشاي عنده غريب ، فيه رائحة سمك ، وليس رائحة شاي . . . وما علاقتي أنا . . . عجيبة !

حاكم المدينة (بتهيّب) . أعذروني ليس هذا ذنبي ، حقاً . عندي ، في السوق ، لحم بقر جيد دائماً . يأتي به تجّار من خولموغوري في الشمال . أناس معتبرون ، وسلوكهم جيّد . لا أدري من أين يأتي صاحب الفندق بهذا اللحم . اذا كان لا يروق لكم شيء . . . يمكن أن اقترح عليكم ، اذا سمحتم ، أن تنتقلوا معي الى سكن آخر .

خليستاكوف . لا ، لا اريد ! أنا أعرف ماذا يعني السكن الآخر ، يعني السجن . ثمّ اي حقّ لك في هذا ؟ وكيف تجرؤ ؟

أنا . . . أنا أخدم في بطرسبورغ . (يتشجّع .) أنا ، أنا ، أنا . . .

حاكم المدينة (جانباً) . * أوه ، يا ربّي ، كم هو شديد الغضب . عرف كلّ شيء . التجّار الملاعين حكوا له كلّ شيء !

خليستاكوف (متشجّعاً) . لن أذهب ، حتّى ولو جئت بكلّ مَنْ معك ! ساتوجّه الى الوزير ، راساً ! (يضرب المائدة بقبضته .) كيف هذا منك ؟ كيف ؟

حاكم المدينة (ينتصب ، ويرتجف بدنه كلّه) . الرحمة ، لا تهلكونا ! لي زوجة ، واطفال صغار . . . لا تجعلوني تعيساً .

خليستاكوف . لا ، لا أريد ! هذا الناقص ! وما دخلي أنا ؟ تريدني أن أدخل السجن ، لأن لك زوجة واطفالاً . شيء رائع !

(**بوبتشينسكي** يطل من الباب . ويختبئ بذعر) .

لا ، وشكراً جزيلاً ، لا أريد .

حاكم المدينة (مرتجفاً) . من قلّة الخبرة ، واللّه العظيم ، من قلّة الخبرة . قلّة المورد . . . احكموا بانفسكم ، رجاء . راتب الحكومة لا يكفي حتّى للشاي والسكّر . واذا كانت هناك رشاوى ، فاقل ما تكون : ما يضاف الى المائدة ، أو بعض الثياب . أما بخصوص زوجة ضابط الصفّ ، التي كانت تزاول المتاجرة ، والتي يزعمون انّني جلدتها ، فما ذلك إلا افتراء ، واللّه العظيم ، افتراء . اختلاق من الأشرار عندي ، المستعدين للاعتداء على حياتي .

خليستاكوف . ولكن ما هذا ؟ لا شأن لي بهؤلاء . (في تفكير .) على كلّ حال ، لا أدري لماذا تتكلّم عن الأشرار أو أرملة ضابط صفّ . . . زوجة ضابط الصفّ ، شيء آخر . أمّا أنا فلن تجرؤ على جلدي . هيهات لك ذلك ! هذا الناقص ! الى أي حد وصلت ! . . سادفع ، سادفع نقوداً ، ولكن ليس عندي الآن . ولهذا تراني قاعداً هنا ، لأنني لا أملك كوبيكاً واحداً .

---

* مصطلح مسرحي قديم يعني أن الكلمات التي تقال بعد ذلك هي افكار الشخصية التي تقولها . وكانت تقال حين يشيح الممثل وجهه عن المتحدث معه ، ويتحدّث مع نفسه **المعرب** .

حاكم المدينة (جانباً) . أوه ، الداهية ! الى أيـــن غرّب ! ليموه علينا ! وتعال افهم ! لا تعرف من أي جانب تاتيه . ولكن . سأحاول وليكن ما يكـــون . سأحاول فلعلّ وعسى . (بصـــوت مسموع .) اذا كنتم بحاجة الى فلوس ، بالفعل ، أو الى أي شيء آخر ، فانا مستعدّ في هذه اللحظة . من واجبي ان اساعـــد المسافرين .

خليستاكوف . هات ، اقرضني ! وسأصفي فوراً حساب صاحب الفندق . لا أحتاج الا لمائتي روبل ، او حتّى اقل .

حاكم المدينة (يقدّم النقود الورقية) . مائتا روبل بالضبط ، ولا تتعبوا انفسكم في عدها .

خليستاكوف . (يتسلّم النقود) . شكراً جزيلاً . سأبعثها لك من القرية على الفور . . . تعرضّت فجاة . . . ارى انّـك رجل نبيل . الآن شيء آخر .

حاكم المدينة (جانباً) . حمداً للّه انّه قَبِل الفلوس . يبدو انّ القضية الآن ستسير بيسر . على كلّ حال دسست له اربعمائة بدلاً من مائتين .

خليستاكوف . يا اوسيب !

(**اوسيب** يدخل) .

استدع خـــادم المطعم ! (لحاكـم المدينـــة ولدوبتشينسكي .) ولماذا تقفان ؟ تكرّما بالجلوس . (لدوبتشينسكي .) اجلس ، أرجوك .

حاكم المدينة . لا بأس ، سنقف .

خليستاكوف . تكرّم بالجلوس . ارى الآن تماماً صراحـــة خلقك وشهامتك ، بينما كنت اظنّ ، واقولها بصراحة ، انّك جئت لكي . . . (لدوبتشينسكي .) اجلس !

(حاكم المدينة ودوبتشينسكي يجلسان . **بوبتشينسكي** يطل من الباب ، ويتسمع) .

حاكم المدينة (جانباً) . يجب ان اتصرّف اجرا . يريـــد ان

يُعتبر متخفياً . طيب ، لنلجأ نحن الى الحيلة ايضاً ، ونتظاهـر بانّنا لا نعرف هويته كلّياً . (بصـــوت مسموع .) كنّا نتفقّد شؤون عملنا ، أنا وبيتر ايفانوفيتش دوبتشينسكي ، وهو صاحب اطيان من مدينتنا ، فعرّجنا إلى الفندق عن قصد لنعرف مـا اذا كانوا يحسنون معاملة المسافرين ، ذلك لانّني لست من اولئك الحكام الذين لا يهمّهم اي شيء . فانا ، الى جانب ما تمليه عليّ وظيفتي ، واودّ بما لديّ من محبّة مسيحية للناس ان يُستقبل كلّ فانٍ استقبالاً جيّداً . فأجد المصادفة قد أتاحت لي هـــذا التعرف الجميل ، وكانما لتكافئني على مسلكي .

خليستاكوف . وانا ايضاً مسرور للغاية . واقولها بصراحة لولاك لبقيت حبيس الفندق زمناً طويلاً . اذ لم اكن اعرف مطلقاً كيف اغطي الحساب .

حاكم المدينة (جانباً) .يا له من كذاب ! يزعم انه لم يكـن يعرف كيف يغطي الحساب ! (بصوت مسموع .) هـل أجسر ان اسأل إلى اين والى اي الأماكن تتكرّمون بالسفر ؟

خليستاكوف . انا في طريقي الى ولاية ساراتوف ، إلى قريتي .

حاكم المدينة (في ناحية ، وقد اكتسى وجهه سيماء السخرية) . إلى ولاية ساراتوف ! ها ؟ ولا يحمرّ خجلاً ! آوه ، يجب ترهف اذنيك معه ! (بصوت مسموع .) نِعْمَ ما تقوم به . ولكن اذا تحدّثنا عن السفر فهو من ناحية ، وكما تقول الناس ، لا يخلو من متاعب من جراء التاخير في تقديم الخيول للمسافرين ، ولكنّه من الناحية الأخرى ينشّط الذهن . أظنكم تسافرون للاستمتاع في الأكثر ، أليس كذلك ؟

خليستاكوف . لا ، بل بناء على طلب والدي . العجوز غاضب لانّني حتّى الآن لم اترق في وظيفتي في بطرسبورغ . فهو يظنّ انّ المرء حالما يصل الى هناك يعلّقون على صدره نيشان القديس فلاديمير . لا ، بودّي لو ابعثه ليعمل هو نفسه في قلم الأوراق .

حاكم المدينة (جانباً .) انظروا ، اى اكاذيب يلفق ! أشرك اباه العجوز ايضاً ! (بصوت مسموع .) وهل ستمكثون مدة طويلة ؟

خليستاكوف . لا اعرف ، حقّاً . فأبي عنود وبليد ، عجـوز نغصة كالشوكة في الحلق . سأقول له بصراحة : لن أستطيـــع

العيش بدون بطرسبورغ ، فافعل ما تشاء . لماذا عليّ أن أتلف حياتي مع الفلاحين ؟ لي متطلبات أخرى الآن . روحي متعطّشة للعلم .

حاكم المدينة (جانباً) . بمهارة ينسج ! يكذب ويكذب ، ولا ينقطع منه خيط الكذب ! في مظهره غير جذاب ، قميء ويمكن أن تقصعه بأظفرك ، على ما يتهيأ لك . طيب ، على مهلك ، سأجعلك تتكلّم ! وتقول ما تخفي (بصوت مسموع .) أنتم على حقّ . فمادا يمكن أن يفعل الانسان في قرية نائية ؟ هنا ، أيضاً لا أنام الليل ، وأسعى في سبيل الوطن ، ولا أبخل بأي شيء ، ولو كنت لا أعرف متى أكافأ على عملي . (يجيل بصره في الحجرة .) أظنّ هذه الحجرة رطبة قليلاً ؟

خليستاكوف . حجرة كريهة ، وبقها لم أر مثله قطّ . يعضك كالكلاب .

حاكم المدينة . تصوّروا ! ضيف مثقّف مثلكم ، ويعاني . ومن أي شيء ؟ من بق حقير لا يستحقّ حتّى أن يولد في هذه الدنيا . هذه الحجرة تبدو مظلمة أيضاً ؟

خليستاكوف . نعم ، مظلمة تماماً . صاحب الفندق تعود على الامتناع عن تزويدها بالشموع . أحياناً ارغب في أن أفعل شيئاً ، أقرأ ، أو يسرح بي الخيال فأؤلف شيئاً . ولكن لا أقدر . ظلام ، ظلام .

حاكم المدينة . هل أجرؤ أن أسالكم . . . ولكن لا ، لست أهلاً .

خليستاكوف . ولكن ماذا ؟

حاكم المدينة . لا ، لست أهلاً ، لست أهلاً !

خليستاكوف . ولكن ماذا ؟

حاكم المدينة . ستكون جسارة مني . . . في بيتي غرفة رائعة لك ، منوّرة ، وهادئة . . . ولكن لا ، أحس أن ذلك شرف لي أكثر من اللازم . . . لا تزعلوا ، والله ، أقترحت ذلك بصفاء قلب .

خليستاكوف . بالعكس ، تفضّل ، بكلّ سرور . السكن في بيت

خاصّ أروح لي بكثير من السكن في هذه الحانة .

حاكم المدينة . ساكون في غاية السرور ! ستفرح زوجتي أيضاً . هذا هو خلقي : حسن الضيافة منذ الصغر ، لا سيّما اذا كان الضيف رجلاً مثقّفاً . لا تتصوّروا أنّني أقول ذلك تملّقاً . ليست لديّ هذه النقيصة . بل أقول ذلك من كلّ قلبي .

خليستاكوف . شكراً جزيلاً . وأنا أيضاً لا أحبّ ذوي الوجهين . تعجبني كثيراً صراحتك وشهامتك ، وأقول لك بصراحة ، أنا لا أطلب غير الوفاء والاحترام ، الاحترام والوفاء .

المشهد التاسع

(**نفس الأشخاص ، وخادم المطعم** بصحبة **أوسيب** . **بوبتشينسكي** يطلّ من الباب) .

الخادم . هل تكرّمت بطلبي ؟

خليستاكوف . نعم ، هات الحساب .

الخادم . من مدّة قصيرة أعطيتك حساباً آخر .

خليستاكوف . لا أتذكّر حساباتك الحمقاء . قل : كم ؟

الخادم . في اليوم الأوّل طلبت غداء ، وفي اليوم التالي طلبت سلمون فقط ، وبعد ذلك صرت تأخذ بالدين ، فقط .

خليستاكوف . أحمق ! أخذ يحسب الآن . كم مطلوب مني بالمجموع ؟

حاكم المدينة . ولكن لا تقلقوا أنفسكم ، أرجوكم ، سينتظر . (للخادم .) أخرج ، سيُدفع لك .

خليستاكوف . بالضبط ، يمكن هذا أيضاً .

(يخبئ الفلوس . يخرج الخادم . يطل **بوبتشينسكي** من الباب) .

المشهد العاشر

(حاكم المدينة ، خليستاكوف ، دوبتشينسكي) .

حاكم المدينة . لعلكم تحبون أن تشاهدوا بعض المؤسّسات في مدينتنا ، الخيرية وغيرها ؟

خليستاكوف . وماذا فيها ؟

حاكم المدينة . سترون كيف تجري الأمور عندنا . . . النظام . . .

خليستاكوف . بكلّ سرور .

(**بوبتشينسكي** يطل براسه من الباب) .

حاكم المدينة . ومدرسة المدينة ، بعد ذلك ، اذا كانت لديكم الرغبة ، لتروا الطريقة التى تدرس به العلوم عندنا .

خليستاكوف . تفضّل ، تفضّل .

حاكم المدينة . وبعد ذلك ، اذا كنتم تحبّون أن تزوروا قلعة المحكومين وسجون المدينة ، وترون كيف يعيش المجرمون عندنا .

خليستاكوف . ولكن لِمَ السجون ؟ الأفضل ان نتجوّل في المؤسّسات الخيرية .

حاكم المدينة . كما تحبّون . هل تفضّلون أن تذهبوا في مركبتكم او معي في عربتي الصغيرة ؟

خليستاكوف . الأفضل ان اذهب معك في عربتك .

حاكم المدينة (لدوبتشينسكي) . طيّب ، يا بيتر ايفانوفيتش ، لم يبق الآن مكان لك .

دوبتشينسكي . لا بأس ، أنا لوحدي .

حاكم المدينة (لدوبتشينسكي بخفوت) . اسمع . إسرع بكلّ خفّة رجليك ، واحمل رسالتين احداهما لزيملانيكا في المؤسّسة الخيرية ، والثانية لزوجتي . (لخليستاكوف) هل أجرؤ على الاستئذان بكتابة سطر واحد لزوجتي بحضوركم ، حتّى تتهيأ لاستقبال الضيف المحترم ؟

خليستاكوف . ولِمَ ذلك ؟ . . . على العموم يوجد حبر ، ولا اعرف فيما اذا كان هناك ورق . . . ربّما على ورقة الحساب هذه ؟

حاكم المدينة . سأكتب عليها . (يكتب ويحدّث نفسه في ذات الوقت .) سنرى كيف تجري الأمور بعد الفطور وزجاجة منتفخة البطن ! عندنا خمرة «الماديرا» من ولايتنا ، قبيحة في

المظهر ، ولكنها تطرح الفيل . فقط لو أعرف أي شخص هو ، والى أي حدّ يُخيف (يفرغ من الكتابة ، ويقدّم الورقة لدوبتشينسكي الذي يقترب من الباب ، ولكن الباب ينخلع في ذلك الوقت ، وبوبتشينسكي الذي كان يتسمّع في الجانب الآخر ، ينقذف معه على المسرح . الجميع يرسلون آهة التعجب . بوبتشينسكي ينهض .)

خليستاكوف . ها ؟ هل أصبت برض ؟

بوبتشينسكي . لا شيء ، لا شيء ، بدون أي خبطة دماغ . خدش صغير فوق الأنف فقط ! سأخطف رجلي الى خريستيان ايفانوفيتش . عنده لزقة ، وسيزول .

حاكم المدينة (يومئ لبوبتشينسكي إيماءة تقريع لخليستاكوف .) لا بأس في هذا . تفضلوا ارجوكم . سأطلب من خادمكم نقل حقيبتكم . (لأوسيب .) يا حضرة الفاضل ، أنقل كلّ شيء الى بيتي ، بيت حاكم المدينة . سيدّلك أي واحد تسأل . تفضلوا رجاء ! (يترك خليستاكوف ليتقدّمه ، ويسير وراءه ، ولكنّه يلتفت ويقول لبوبتشينسكي معنّفاً .) هكذا تفعل ! لم تجد مكاناً تقع فيه إلا هنا ! انبطحت بطحة كافرة . (يخرج ، وبوبتشينسكي وراءه .)

(تنسدل الستارة) .

الفصل الثالث

(حجرة الفصل الأوّل) .

المشهد الاول

(**آنا آندرييفنا وماريا انتونوفنا** والفتاتان عند النافذة في نفس الوضع السابق) .

آنا آندرييفنا . ها قد انقضت ساعة كاملة في الانتظار ، وتأخرنا بسبب تصنّعك الأبله . أكملتِ زينتك تماماً ، ولكنك كنت ستستمرين في التزيين . . . ما كان عليّ أن انتظرك . . .

يا خسارة ! لا يوجد احد فـــى الشارع كانما نكاية ! لا روح ولا نفس .

ماريا انتونوفنا . ولكن تاكدي ، يا ماما ، سنعرف كلّ شيء بعد دقيقتين ، بعد قليل ستعود آفدوتيا ، حتماً . (تنظر في النافذة نظرة متفحصة ، وتهتف .) آه ، ماما ، ماما ! شخص قادم هناك ، في أقصى الشارع .

آنا آندريفنا . اين هو ؟ دائماً لا يعوزك الخيال . ولكن نعم ، قادم . من هذا القادم ؟ متوسّط القامة . . . في بدلة فراك . . . من هو ؟ ها ؟ ازعاج ، على كلّ حال ! مَنْ يمكن أن يكون ؟

ماريا آنتونوفنا . هذا دوبتشينسكي ، يا ماما .

آنا آندريفنا . اي دوبتشينسكي هذا ؟ انت دائماً تتخيلين ما يطرأ في ذهنك ! ليس دوبتشينسكي عـــلى الاطلاق . (تلوح بمنديل .) هاى ، انت ، تعال الى هنا ! اسرع !

ماريا انتونوفنا . دوبتشينسكي بالفعل ، يا ماما .

آنا آندريفنا . انت تتقصّدين ذلك لتجادلي . قلت لك ليس دوبتشينسكي .

ماريا انتونوفنا . مَنْ هو اذن ، يا ماما ؟ ها أنت ترين انّه دوبتشينسكي .

آنا آندريفنا . اي ، نعم ، دوبتشينسكي . أراه الآن ، ولأي شيء تجادلين ؟ (تصيـــح في النافذة .) اسرع ، اسرع ! أنـــت تتماهل . طيّب ، أين هم ؟ ها؟ تكلّم من هناك . لا يهمّ . ماذا ؟ صارم جداً ؟ ها ؟ وزوجي ، زوجي ؟ (تتراجع قليلاً عن النافذة ، بانزعاج .) أي بليد هو ، لا يقول شيئاً ، حتّى يدخل الحجرة .

المشهد الثاني

(المرأتان ودوبتشينسكي) .

آنا آندريفنا . تكلّم . الا تخجل ؟ اعتمدت عليـك وحدك ، كإنسان معتبر . الجميع خرجوا فجأة ، واذا بك تلحق بهم ! وحتّى الآن لم افهم شيئاً نافعاً من احد . الا تستحي ؟ عمّدت لك ابنك وابنتك ، بينما أنت تتصرّف بهذا الشكل معي !

دوبتشينسكي . واللّه ، يا معمّدة أطفالـــي . جئت راكضاً متقطّع الأنفاس لأوكّد لـــــك احتراماتي . احتراماتي ، يا ماريا أنتونوفنا !

ماريا انتونوفنا . مرحباً ، يا بيتر ايفانوفيتش !

آنا آندريفنا . تحدّث ماذا وكيف هناك ؟

دوبتشينسكي . أنتون أنتونوفيتش أرسل لك مذكّرة .

آنا آندريفنا . ولكن مَنْ هو ؟ جنرال ؟

دوبتشينسكي . لا ، ليس جنرالاً ، ولكنّه لا يقلّ مقاماً عـن الجنرال . ثقافة ، وتصرّفات وجيهة .

آنا آندريفنا . أها ! يعني هو الذي كتبوا لزوجي عنه ؟

دوبتشينسكي . حقيقي . انـــا اوّل مَنْ اكتشف ذلك مـــع بيتر ايفانوفيتش .

آنا آندريفنا . تحدّث ماذا وكيف ؟

دوبتشينسكي . حمداً للّه أن كلّ شيء بخير . في البدايـــة استقبل أنتون أنتونوفيتش بشيء من الخشونة ، فقـــد كان غاضباً ويقول : كلّ شيء في الفندق سيئ . هو لا يأتي اليه ، هو لا يريد أن يدخل السجـــن بسببه . ولكن حالما عـــرف براءة أنتون أنتونوفيتش ، وتحدّث معه بإلفة اكثـــر ، غيّر فكره في الحال ، وسار كلّ شيء بشكل جيّد ، والحمـــــد للّه . . . ذهبوا الآن لتفقد المؤسسات الخيرية . . . بصراحة كـان انتون أنتونوفيتش يظنّ أن هناك وشاية سرية . وأنا أيضاً ، خفت قليلاً .

آنا آندريفنا . وممّ تخاف ؟ وهل أنت في وظيفة ؟

دوبتشينسكي . ولكن الانسان يشعر بالخـوف ، حين يتكلّم صاحب سلطة .

آنا آندريفنا . لا بأس . . . كلّ هذا هراء ، على كلّ حال . حدّثني كيف شكله ؟ عجوز أم شابّ ؟

دوبتشينسكي . شابّ ، في نحو الثالثـــة والعشرين . ولكنّه يتكلّم كالشيخ المجرّب ، تماماً . يقول : «سأذهب بكل سرور الى هنا والى هنا» . . . (يشير بذراعيه .) كلامـــه رائع . ويقول : «أحبّ أن اكتب واقرأ ، ولكن الذي يعيقني أن الحجرة مظلمـــة قليلاً» .

آنا آندريفنا . وما لون شعره ؟ أسود فاحم أم أشقر ؟

دوبتشينسكي . لا ، بل كستناوي أكثر . وعيناه خفيفتان في حركتهما كوحشين صغيرين ، حتّى لتثيرا فيك الارتباك .

آنا آندريفنا . ماذا يكتب لي في هذه المذكّرة ؟ (تقرأ .) «اسرع فأبلغك ، يا روحي ، حالتي كانت بائسة للغاية ، ولكنّني بالتوكّل على رحمة الرب ، روبل وخمسة وعشرون كوبيكاً ثمن خيارتين مخلّلتين بطريقة خاصّة ونصف صحن كافيار . . .» (تتوقّف .) أنا لا أفهم شيئاً . ما علاقة الخيارتين المخلّلتين والكافيار هنا ؟

دوبتشينسكي . لأنّ انتون انتونوفيتش كتب ذلك على ورقة مستعملة بسبب استعجالة . على فاتورة حساب .

آنا آندريفنا . نعم ، بالضبط . (تستمرّ في القراءة .) «ولكنّني بالتوكّل على رحمة الربّ أظنّ كلّ شيء سينتهي نهاية حسنة . هيّئي بسرعة لضيف وجيه الحجرة المبطّنة بورق الحيطان الأصفر ، ولا تتعبي نفسك بإضافة شيء على الغداء ، لأنّنا سنأكل عند ارتيمي فيليبوفيتش في المؤسسة الخيرية ، ولكن اطلبي مزيداً من الخمرة . اخبري التاجر عبدولين بأن يرسل أفضل خمرة ، وإلا فسأقلب كلّ سردابه عاليه على سافله . اقبّل يدك ، يا روحي ، وأظلّ المخلص لك أنتون سكفوزنيك-دموخانوفسكي . . .» آه ، يا إلهي ! على كلّ حال ، يجب أن يكون كلّ ذلك بسرعة ! هاي ، من هناك ؟ ميشكا !

دوبتشينسكي (يركض ويصيح في الباب) . ميشكا ! ميشكا ! ميشكا !

(**ميشكا** يدخل) .

آنا آندريفنا . اسمع . اسرع إلى التاجر عبدولين . . . على مهلك ، ساعطيك رسالة (تجلس الى الطاولة ، وتكتب رسالة وتقول في أثناء ذلك .) أعط هذه الرسالة للحوذي سيدور ليهرع بها الى التاجر عبدولين ، ويجلب منه الخمرة . واذهب أنت لترتيب الحجرة للضيف بشكل جيّد . ضع فيها سريراً ، ومغسلة ، وغير ذلك .

دوبتشينسكي . آنا آندريفنا ، سأسرع أنا الآن لأرى كيف يتفقّد الأمور هناك .

آنا آندريفنا . اذهب ، اذهب ! أنا لا أمسكك .

المشهد الثالث

(**آنا آندريفنا وماريا انتونوفنا**) .

آنا آندريفنا . ماشنكا ، علينا الآن أن نشتغل بزينتنا . انّه قادم من العاصمة . وقد يهزأ من شيء ما ، لا سمح اللّه . الأوجه لك أن تلبسي ثوبك الأزرق بحواشيه الرقيقة .

ماريا انتونوفنا . اعفيني من الأزرق ، يا ماما ! لا أحبّه أبداً . ابنة القاضي ترتدي الأزرق أيضاً ، وكذلك إبنة الراعي . لا ، يا ماما ، الأحسن أن ألبس المبرقش .

آنا آندريفنا . المبرقش ! . . حقّاً ، أنت لا تتكلّمين إلا لتعترضي . سيكون الأزرق أحسن بكثير ، لأنني أريد أن أرتدي الثوب الأصفر الشاحب ، أنا أحبّ الأصفر الشاحب كثيراً .

ماريا انتونوفنا . آه ، يا ماما ، لا يناسبك الأصفر الشاحب .

آنا آندريفنا . لا يناسبني ؟

ماريا انتونوفنا . لا يناسبك . أراهن على كلّ ما تريدين ، انّه لا يناسبك . هذا اللون ينسجم مع عينين داكنتين تماماً .

آنا آندريفنا . وليكن ! أليست عيناي داكنتين ؟ داكنتان كلّيا كلّياً . كلامك هراء ! عيناي داكنتان والا فلماذا اختار ملكة السباتي عندما أستخير الورق ؟

ماريا انتونوفنا . آه ، ماما ، تناسبك ملكة الكوبة اكثر .

آنا آندريفنا . سخافة . سخافة تماماً ! لم أكن ملكة كوبة أبداً . (تخرج على عجل مع ماريا انتونوفنا ، وتتكلّم من وراء المسرح .) دائماً تتخيّل ما يطرأ على ذهنها ! ملكة كوبة ! اللّه يعلم ما هذا !

(بعد خروجهما ينفتح الباب ، و**ميشكا** يلقي الوساخة منه . ومن الباب الآخر يخرج **أوسيب** يحمل حقيبة على راسه) .

المشهد الرابع

(ميشكا واوسيب) .

اوسيب . اين اضعها ؟

ميشكا . هنا ، يا عمّ ، هنا .

اوسيب . انتظر . دعني استريح اولاً . اوه ، يا للعيشة النكدة ! كلّ حمل يبدو ثقيلاً على بطن فارغ .

ميشكا . قل لي ، يا عمّ ، هل سيحضر الجنرال قريباً ؟

اوسيب . اي جنرال ؟

ميشكا . سيّدك .

اوسيب . سيّدي ؟ واي جنرال هو ؟

ميشكا . معقول ليس جنرالاً ؟

اوسيب . جنرال ، ولكن من الجهة الاخرى .

ميشكا . يعنى اكثر ام اقلّ من الجنرال الحقيقي ؟

اوسيب . اكثر .

ميشكا . ياه ! ولهذا آثار اسيادنا هذه الدربكة ..

اوسيب . إسمع ، يا حلو ، ارى انّك فتى شاطر . هيئ لي شيئاً آكله .

ميشكا . لم يحضر لـــك شيء يا عمّ . لا اظنّك ستقبل ببسيط الطعام . ولكن حين يجلس سيّدك الى المائدة سيقدّم لك نفس الطعام ايضاً .

اوسيب . طيب ، ما هو بسيط الطعام عندكم ؟

ميشكا . حساء كرنب ، وعصيدة وفطائر .

اوسيب . هات حساء الكرنب والعصيدة والفطائر . لا بأس ، سنأكل كلّ شيء . لنحمل الحقيبة . هل يوجد باب آخر ؟

ميشكا . يوجد .

(الاثنان يحملان الحقيبة إلى حجرة جانبية) .

المشهد الخامس

(**شرطيان** يفتحان كلتا ضلفتي الباب . يدخل **خليستاكوف** . ووراءه **حاكم المدينة** ، وبعدهما **راعي المؤسسات الخيرية** ، **وناظر المدرسة** ،

ودوبتشينسكي وبوبتشينسكي ، وعلى اثره لصقة . حاكم المدينة يشير للشرطيين الى ورقة في الأرض . فيركضان ويرفعانها يزحم أحدهما الآخر في عجل) .

خليستاكوف . مؤسسات جيّدة . يعجبني انّكـــم تفرجون المسافرين على كلّ شيء في المدينة . في المدن الأخرى لم يفرجوني على اي شيء .

حاكم المدينة . اجرؤ ان اقول في المدن الأخرى اكثر ما يهتمّ به الحكّام والموظفون هو منفعتهم بينما نحن هنـــا ، اذا صحّ القول ، لا نفكّر إلا بالاعتناء بالنظام وان يكـــون حرصنا جديراً باهتمام الرؤساء .

خليستاكوف . الفطور كان محترماً . شبعت تماماً . هل الفطور عندكم بهذا الشكل دائماً ؟

حاكم المدينة . خصيصاً لضيف كريم مثلكم .

خليستاكوف . انا احـــبّ الطعام . فالانسان لا يعيش إلا لاقتطاف زهور اللذّة . ماذا يسمى هذا السمك ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . سمك القدّ الطازج المملح .

خليستاكوف . لذيـــذ جداً . اين تناولنـــا فطورنا ؟ في المستشفى ؟ أليس كذلك ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . بالضبط ، في المؤسّسة الخيرية .

خليستاكوف . اتذكّر ، اتذكّر . كانت هناك اسرة . والمرضى هل شفوا ؟ يبدو لي انّهم كانوا قليلين .

ارتيمي فيليبوفيتش . لم يبق إلا عشرة ، لا اكثر . والبقيـة شفوا . هذا هو النظام عندنا . منـــذ ان تسلّمت الرئاسة – ولربّما يبدو لك ذلك غير معقول – صار الجميع يمتلئون عافية . ما إن يدخل المريض الردهة حتّى يشفى بالنزاهة والنظام اكثـــر منه بالأدوية .

حاكم المدينة . اجسر ان اقـــول لكم ان مسؤولية حاكـــم المدينة صعبة واكثر من صعبة . كم من الأشغال في مجال النظافة وحدها ، والترميم ، والتصليح . . . باختصار اقول حتّى اذكـــى الناس يجد مشقّة . ولكن الأمور تسير سيراً حسناً ، والحمـــد للّه . اي حاكم آخر كان سيهتمّ بمنافعـــه الخاصّة ، طبعـــاً .

ولكن ، صدقني ، حتى حين ارقد لأنام ،اظلّ افكّر : «يا الهي ، كيف افعل لأجعل الرئاسة ترى مثابرتي وتكـــون مرتاحة ؟ . . ؟» الأمر متروك لها بالطبع ، لتكافئني او لا تكافئني ، ولكنّني ، على الأقلّ ، ساكون مرتاح الضمير . وهنا يسود النظام في المدينة في المجالات كلها والشوارع نظيفة ، والمحجوزون في رعايـة جيّدة ، والسكارى قليلون . . . فماذا اريد غير هذا ؟ لا اريد أكثر من هذا ، قسماً لا اريد اي مكافاة . الانسان يطمح ، بالطبع ، ولكن كلّ مكافاة هباء الى جانب العفّة .

ارتيمي فيليبوفيتش (جانباً) . آه ، الخامـــل ، كيف يزوّق ! موهبته هذه من نعم الله .

خليستاكوف . هذا صحيح . انـــا ايضاً ، بصراحة احبّ التفلسف احياناً . بالنثر مرّة ، وبالقريض مرّة اخرى .

بوبتشينسكي (لدوبتشينسكي) . حـــق ما يقول يا بيتـــر ايفانوفيتش ! يا لهـــا من ملاحظات . . . الظاهـــر انّه درس العلوم .

خليستاكوف . قل لي ، مـــن فضلك ، هل توجد لديكـــم تسليات ، جماعات يمكن لعب الورق فيها ، مثلاً ؟

حاكم المدينة (جانباً) . اها ، نعرف يا عزيزي الى مَ ترمي من هذه الخدعة ! (بصوت مسموع .) حاشا للّه ، لا توجد مثل هذه الجماعات هنا . لم امسك بيدي شـدّة ورق قطّ . بل ولا اعرف كيف يلعبون الورق . ولا اقـــدر ان اراه دون ان اتنرفز . واذا صادف ان رايت ملـــك الديناري او غيره ياخذني القرف حتى ابصق تقزّزاً . وذات مرّة اردت ان اسلّي الأطفال ، فبنيت من الورق كشكاً ، وبعد ذلك حلمت به طول الليل ، عليـه اللعنة ، لا يهمني هذا . كيف يمكن تضييع الوقت الثمين بالورق ؟

لوكا لوكيتش (جانباً) . الوغد ربح مني اول الأمس مائـــة روبل .

حاكم المدينة . الأحسن ان أستغلّ هذا الوقت لفائدة الدولة .

خليستاكوف . لا ، لا اظنّك على حقّ . . . كلّ شيء يتوقّف على الطرف الذي ينظر منه المرء الى الأمر . فحين تكفّ عن زيادة الرهان ، مثلاً ، في الوقت الذي يتعيّن عليـــك ان تزيده ثلاث

مرات ، سيكون ذلك صحيحاً ، بالطبـــع . لا ، لا تقـــل هذا . فاللعب احياناً مغر جدّاً .

المشهد السادس

(نفس الأشخاص مع آنا آندرييفنا وماريا انتونوفنا) .

حاكم المدينة . لي الشرف ان اقدّم لكـــم عائلتي . زوجتي وابنتي .

خليستاكوف (ينحني) . كم أنا سعيـــد ، يا سيّدتي ، في ان تكون لي هذه البهجة برؤيتك .

آنا آندرييفنا . ونحن أسعد في رؤية وجيه مثلكم .

خليستاكوف (يتبختر) . عفـــوك ، يا سيّدتي ، على العكس تماماً . أنا أسعد حظّاً .

آنا آندرييفنا . ما هذا القول ! انتم تقولون ذلك للمجاملة . ارجوكم ، اجلسوا .

خليستاكوف . الوقوف قربك سعادة ، ولكنّني ساجلـــس ، إذا أصررتِ على الجلوس . كم سعيد أنا بالجلوس قربك اخيراً .

آنا آندرييفنا . العفو . أنا لا أستحق ذلك . . . اظنّ السفر كان متعباً لكم ، بعد العاصمة .

خليستاكوف . متعب للغاية . فانا الذي تعوّدت على العيش في المجتمع الراقي comprenez vous ، أجد نفسي في سفـــر فجاة : حانات قذرة ، وظلام الجهل .. وبصراحة لـــو لا هذه المصادفة التي . . . (ينظر إلى آنا آندرييفنا ، ويتغنج) جازتني عـــلى كلّ شيء . . .

آنا آندرييفنا . بالفعل ، لا بدّ ان يكون متعباً لكم .

خليستاكوف . على كلّ حال ، يا سيدتي ، أنا مرتاح جدّاً في هذه اللحظة .

آنا آندرييفنا . كيف يمكن . انتم تولونني شرفاً كبيراً . انا لا أستحقّ ذلك .

خليستاكوف . ولماذا لا تستحقّين ؟ انت تستحقّين ، يـــا سيّدتي .

آنا آندرييفنا . آنا أعيش في الريف . . .

خليستاكوف . ولكن للريف أيضاً تلاله وجداوله . بالطبع ، لا أحد يقارنه ببطرسبورغ . آه ، بطرسبورغ ! أي حياة هي ، حقاً ! ربّما تظنّين أنني اوسخ يدي بالاستنساخ . أبداً . رئيس القسم على علاقة ودّية معي . يربت على كتفي ، ويقول : «تعال تتغدّ عندي ، يا أخ !» ولا أمكث في الشعبة إلا دقيقتين لأصدر هذا الأمر أو ذاك ! يوجد هناك موظّف شغلته الكتابة ، فار ، مهمّته أن يشغل ريشته . . . يكتب ، يكتب . بل أرادوا حتّى أن يجعلوني كبير الموظفين . ولكن قلت لنفسي : لا حاجة . والحارس يركض ورائي على الدرج ومعه فرشاة ، ويقول : «اسمح لي ، يا ايفان الكسندروفيتش ، أن انظّف حذاءك» . (الى حاكم المدينة .) لماذا أنتم واقفون ، يا سادة ؟ اجلسوا رجاء !

سوية | **لوكا لوكيتش .** لا تقلقوا أنفسكم .
ارتيمي فيليبوفيتش . سنقف .
حاكم المدينة . سلّم الوظيفة لا يسمح .

خليستاكوف . لا تتقيّدوا بالوظائف ، واجلسوا .

(حاكم المدينة والجميع يجلسون) .

انا لا احب الرسميات . بل على العكس ، احبّ دائماً أن ازوغ دون أن الحظ . ولكن لا مجال للزوغان ، غير ممكن ! ما إن أخرج الى مكان ما حتّى يقول الناس : «هذا هو ايفان الكسندروفيتش يسير !» بل وذات مرّة حسبوني القائد الأعلى . خرج الجنود مسرعين من ثكنة الحجز ، شاكي السلاح . وبعد هذا قال لي ضابط من معارفي : اوه ، يا أخ ، ظنّناك القائد الأعلى تماماً .

آنا آندرييفنا . تصوّروا !

خليستاكوف . يعرفونني في كل مكان . أعرف بعض الممثلات الحسناوات . واؤلّف انواع الفودفيلات . . . وغالباً ما التقي بأدباء ولي علاقة ودّية مع بوشكين . غالباً ما اقول له : «كيف يا أخ بوشكين ؟» فيجيب «هكذا ، يا أخ ، يعني . . .» نموذج عجيب .

آنا آندرييفنا . يعني تكتبون ؟ أظنّ في ذلك متعة ! وتنشرون في المجلات أيضاً ؟

خليستاكوف . وأنشر في المجلات أيضاً . بالمناسبة ، عندي مؤلفات كثيرة . «زواج فيغارو» و«روبرت العفريت» و«نورما» . وغيرها لا أذكر حتّى عناوينها . وكلّ ذلك عفو الخاطر . لم أرد أن اكتب ، ولكن ادارة المسارح تقول لي : «أرجوك ، يا أخ ، اكتب لنا شيئاً» . فاقول لنفسي : «ممكن ، تفضّل ، يا أخ» . وفي امسية واحدة ، على ما أعتقد ، دبّجت كلّ شيء ، وادهشت الجميع . عندي فيض غير اعتيادي في الأفكار . كلّ ما كان بإسم البارون برامبوس ، «فرقاطة الأمل» و«تلغراف موسكو» كل ذلك من تاليفي .

آنا آندرييفنا . اذن ، فانتم كنتم تكتبون باسم برامبوس ؟

خليستاكوف . بالطبع ، اصحح شعرهم جميعا . سميردين يعطيني اربعين الف على ذلك .

آنا آندرييفنا .. هكذا ، اذن . و«يوري ميلوسلافسكي» من تاليفكم ايضاً .

خليستاكوف . نعم ، من تاليفي .

آنا آندرييفنا . حدست حالاً .

ماريا انتونوفنا . آه ، يا ماما ، مكتوب عليه من تاليف السيد زاغوسكين .

آنا آندرييفنا . هذا ما عرفته . ستجادلين حتّى في هذا .

خليستاكوف . آه ، صحيح . من تاليف زاغوسكين بالضبط . ولكن هناك «يوري ميلوسلافسكي» آخر ، من تاليفي .

آنا آندرييفنا . هذا صحيح . قرأت روايتكم . مكتوبة بشكل جيّد !

خليستاكوف . آنا بصراحة أحيا على الأدب . بيتي الأوّل في بطرسبورغ . وهو معروف هناك باسم بيت ايفان الكسندروفيتش (يخاطب الجميع .) اعملوا معروفاً ، أيّها السادة ، وتفضّلوا بزيارتي ، حين تكونون في بطرسبورغ . انا أيضاً أقيم حفلات راقصة .

أنا أندرييفنا . أعتقد أنكم تقيمون حفلات راقصة في منتهى الذوق والفخامة .

خليستاكوف . ولا حاجة الى كلام . على المائدة ، مثلاً ، بطيخة بسبعمائة روبل . والحساء في قدره جاء من باريس مباشرة ، بالباخرة . وحين يرفع غطاء القدر يخرج بخار لا مثيل له في الطبيعة كلّها . أنا كلّ يوم في حفلة راقصة . ولنا لعبة ورق خاصة بنا أيضاً ، يشترك فيها وزير الخارجية ، والمبعوث الفرنسي ، والمبعوث الانجليزي والمبعوث الألماني وأنا . وأظلّ العب حتّى أنهك . وحالما أصعد السلّم الى الطابق الرابع أقول للطبّاخة : «خذي منّي المعطف يا مافروشكا . . .» أوه ، ما هذا الكذب . نسيت . أنا أسكن في الطابق الأوّل . . . السلم وحده في بيتي يساوي . . . من المسلّي أن تنظروا في رواق بيتي ، حين أكون ما أزال نائماً . تجدون الكونتات والأمراء هناك محتشدين يتحدّثون ويطنّون طنين النحل ، ولا تسمعون إلا الطنين . . . وأحياناً يوجد وزير . . .

(حاكم المدينة والآخرون ينهضون من مقاعدهم بتهيب) .

بل وحين توجه اليّ رسالة يكتبون على الظرف : «صاحب المعالي» . وفي أحد الأوقات كنت أدير مديرية كاملة في الوزارة ! الغريب أنّ المدير العامّ رحل . الى أين رحل ؟ غير معروف . وطبيعي أن تدور أحاديث عن كيف ومَنْ سيحتل مكانه . وكان الراغبون كثيرين بين الجنرالات الذين جاءوا ، ثمّ تراجعوا لأنّهم وجدوا المهمّة صعبة . لأنها في الظاهر تبدو سهلة ، ولكنّها عند الممارسة لا تحتمل أبداً . . . وحين تأكّدوا من أنّهم لا يستطيعون القيام بها جاءوا اليّ . . . وفي الحال كان السعاة يملأون الشوارع يروحون ويجيئون بالمساعي . . تصوّروا وحدهم يقدرون بخمسة وثلاثين ألف ساعٍ ! وضع ، وأي وضع ! ويقولون لي : «يا ايفان الكسندروفيتش ! ترأّس المديرية العامّة» . ارتبكت قليلاً ، بصراحة . وخرجت بالروب المنزلي ، واردت أن ارفض ، ولكن

فكّرت . سيسمع مولانا القيصر . . . ثمّ لا بدّ من الترقية في آخر الأمر . . . قلت : «طيب ، أيّها السادة ، سأقبل الوظيفة ، سأقبلها . وليكن ، سأقبلها ولكنني سأجعلهم يرتجفون فأنا صارم متشدد فانّ لي أذناً مرهفة ! أنا . . .» وبالفعل . ما إن أدخل المديرية حتّى يبدأ الارتجاف والارتعاش ، وكأنّه الزلزال . . الجميع يهتزّون كأوراق الشجر .

(حاكم المدينة والآخرون يرتجفون . ويزداد حماس خليستاكوف) .

آوه ! أنا لا أحب المزاح . أصدرت توبيخاً بحقّ الجميع . حتّى مجلس الدولة يخاف منّي . ولِمَ لا ؟ أنا هكذا ! لا أبالي بأي انسان . . . وأقول للجميع : «أنا أعرف نفسي ، أعرفها» أنا في كلّ مكان ، في كلّ مكان . أزور القصر كلّ يوم . غداً ، حالاً ، سأرقى الى فيلدمارشال . . . (تزل قدمه ، ويكاد يقع على الأرض ، ولكن الموظّفون يسندونه باحترام .)

حاكم المدينة (يقترب ويرتجف بكلّ جسده ، ويجاهد لأن ينطق) . صه . . صه . . . صه . . .

خليستاكوف (بصوت حاد سريع .) ما هذا ؟

حاكم المدينة . صه . . صه . . صه . . .

خليستاكوف (بنفس الصوت) . لا أفهم شيئاً . مجرّد هراء .

حاكم المدينة . صه . . . صه . . . صاحب المعالي ، ألا تحبّون أن تستريحوا . . . هذه الحجرة ، وكلّ ما هو لازم .

خليستاكوف . هراء أن أستريح . . طيّب ، مستعدّ أن أستريح . فطوركم ، يا سادة ، جيد . . . أنا راضٍ ، أنا راض . (بلهجة خطابية .) سمك القدّ ! سمك القدّ ! (يدخل في الحجرة الجانبية ، وحاكم المدينة وراءه .)

المشهد السابع

(نفس الاشخاص ما عدا خليستاكوف وحاكم المدينة) .

بوبتشينسكي (لدوبتشينسكي) . أنظر ، يا بيتر ايفانوفيتش ، أي رجل هو ! هذا هو الرجل الحقّ ! في حياتي لم

أكن في حضرة رجل مهمّ مثله ، حتّى كدت أموت من الرعب . ما رأيك ، يا بيتر ايفانوفيتش ، من هو من حيث الرتبة ؟

دوبتشينسكي . اظنّه في مستوى جنرال .

بوبتشينسكي . اظن رتبة جنرال قليلة جداً في حقّه ، واذا كان في هذه الرتبة فهو جنراليسيموس . هل سمعت كيف ضيّق على مجلس الدولة ؟ لنذهب ونخبر آمّوس فيدروفيتش ، وكوروبكين باقرب وقت . مع السلامة ، يا آنا آندرييفنا .

دوبتشينسكي . مع السلامة ، يا معمدة أولادي .

(يخرج الاثنان) .

ارتيمي فيليبوفيتش (للوكا لوكيتش) . رعب حقيقي ! ولا اعرف لماذا . حتّى بزاتنا الرسمية لم نلبسها . فماذا لو سيبلّغ بطرسبورغ بعد أن يستيقظ ويزول عنه السكر ؟ (يخرج ساهماً مع ناظر المدرسة ، ويقول) : وداعاً ، يا سيّدتي !

المشهد الثامن

(آنا آندرييفنا وماريا انتونوفنا) .

آنا آندرييفنا . آه ، ما الطفه !

ماريا انتونوفنا . آه ، ما احلاه !

آنا آندرييفنا . واي رقّة في السلوك ! تعرفين راساً انّه شخصية من العاصمة . طريقة الكلام والمعاملة وكلّ شيء . . آه ، رائع ! أهيم بمثل هؤلاء الشبّان ! اذوب فيهم . وانا ايضاً اعجبته ، على كلّ حال . لاحظته يرمقني طول الوقت .

ماريا انتونوفنا . آه ، يا ماما ، كان يرمقني أنا .

آنا آندرييفنا . ارجوك ، ابعدي عنّي سخافتك ! هذا لا يليق ابداً .

ماريا انتونوفنا . لا ، يا ماما ، حقّاً !

آنا آندرييفنا . أهوه ! لا بدّ أن تجادل ! غير ممكن ، وكفى ! واين له أن ينظر اليك ؟ ولِمَ عليه أن ينظر اليك ؟

ماريا انتونوفنا . حقاً ، يا ماما ، طول الوقت كان ينظر اليّ . حالما بدأ يتكلّم عن الأدب أخذ يرمقني ، وبعد ذلك ، حين كان يتحدّث عن لعب الورق مع المبعوثين ، في هذه المرّة رمقني ايضاً .

آنا آندرييفنا . ربما مرّة واحدة ، وحتّى هذه من باب المسامحة وحدها يقول لنفسه : «لا بأس لو نظرت اليها» .

المشهد التاسع

(الاثنتان مع حاكم المدينة) .

حاكم المدينة (يدخل على اطراف أصابعه) . شش . . . ش . . .

آنا آندرييفنا . ماذا ؟

حاكم المدينة . وحتّى سكره لم يجلب لي فرحة . ولكن ماذا لو كان صحيحاً حتّى نصف ما قاله ؟ (يغرق في تفكير .) ثمّ كيف لا يكون صحيحاً ؟ الانسان إذا سكر باح بكل ما في صدره . ما في قلبه يطفح على لسانه . كلامه لم يخل من كذب بالطبع ؛ ولكن حين لا يكذب أحد يعني لم يتكلم . يلعب مع الوزراء ، ويزور القصر . . . آوه ، حقّاً ، كلّما افكّر في الأمر . . . اللعنة ، لا اعرف ماذا يحصل في رأسي . كأنّني واقف على برج عال ، أو اوشك أن أشنق .

آنا آندرييفنا . بينما أنا لم أشعر بأي تخوّف . لا شيء سوى انّني وجدت فيه رجلاً مثقّفاً من المجتمع الراقي آداب سلوكه رفيعة . امّا الرتب فلست بحاجة اليها .

حاكم المدينة . انتنّ نساء . وهذه الكلمة وحدها تكفي ، فالأمر واضح . كلّ شيء لديكنّ هراء وتوافه . وفجأة تصدر منكن كلمة تستحق العقاب فعقابكن جلد لا أكثر ، ولكن الزوج يتحمل التبعة . ويضيع ، لا أثر له ولا خبر . كنت ، يا روحي ، تتصرّفين معه وكأنّه من صنف دوبتشينسكي .

آنا آندرييفنا . انصحك بأن لا تقلق على ذلك . لسنا جاهلات بكلّ شيء . . . (تنظر الى ابنتها .)

حاكم المدينة (يخاطب نفسه) . أوه ، لا جدوى من الكلام معكنّ . . . هذه مصادفة مزعجة في الحقيقة ! حتّى الآن لا استطيع ان اسيطر على الفزع . (يفتح الباب ، ويتحدّث في الباب .) يا ميشكا ، استدع ، الشرطيين سفيستونوف وديرجيموردا . انّهما في مكان غير بعيد من هنا ، وراء البوّابة . (بعد صمت قصير .) كلّ شيء انقلب في هذا العالم بشكل عجيب . على الأقلّ لو كان مهيّب الطلعة ، ولكنّه نحيف هزيل . فكيف تعرف من هو !العسكري يدل مظهره على ذلك ولكن حين يلبس بدلة الفراك يصير مثل ذبابة مقصوصة الجناحين . ظلّ يتخفى في الفندق وقتاً طويلاً ، ولم يكشف عن نفسه . يلفق الحكايات ويلفّ ويناور حتّى بدا وكانّه لن ينكشف ابداً . ولكنّه وقع اخيراً . وانفلت لسانه حتّى اكثر من اللازم . الظاهر انّه شاب غرير .

المشهد العاشر

(**نفس الاشخاص** مع **اوسيب** . الجميع يهرعون للقائه ، مشيرين بالأصابع) .

آنا آندرييفنا . تعال هنا ، يا حضرة !

حاكم المدينة . شش ! ماذا ؟ ماذا ؟ نائم ؟

اوسيب . لا ، لحدّ الآن ! يتمطّى قليلاً .

آنا آندرييفنا . ما اسمك ؟

اوسيب . أوسيب ، يا مولاتي .

حاكم المدينة (لزوجته وابنته) . كفى ، كفا كما ؟! (لأوسيب .) طيّب ، يا صاحبي ، هل اطعموك جيّداً ؟

اوسيب . اطعموني ، مع الشكر الجزيل ، اطعموني جيّداً .

آنا آندرييفنا . قل لي : اظنّ انّ كونتات وأمراء كثيرين جدّاً يزورون سيّدك ؟

اوسيب (جانباً) . ماذا اقول ؟ اذا كانوا الآن اطعموني بشكل جيّد ، فسيطعمونني بشكل احسن ، فيما بعد . (بصوت مسموع .) نعم ، وكونتات ايضاً .

ماريا انتونوفنا . اوسيب الحلو ، ما أجمل سيّدك !

آنا آندرييفنا . قل لي ، من فضلك ، يا اوسيب ، كيف هو . . .

حاكم المدينة . ولكن كفي ، رجاء ! باقوالكما الفارغة هذه تعيقانني لا غير . . . طيب ، ماذا ، يا صاحبي ؟

آنا آندرييفنا . وما رتبة سيدك ؟

اوسيب . رتبة اعتيادية .

حاكم المدينة . آوه ، يا ربي ، ما زلت على استفساراتك البلهاء ! لا تتركينني اتكلّم كلمة في الموضوع . طيب ، يا صاحبي ، كيف سيدك ؟ . . صارم ؟ يحب اصدار التوبيخات أم لا ؟

اوسيب . نعم ، يحبّ النظام . وان يكون كلّ شيء مضبوطاً .

حاكم المدينة . يعجبني وجهك كثيراً . اظنّك انساناً طيّباً ، يا صاحبي . ماذا . . .

آنا آندرييفنا . اسمع ، يا أوسيب ، هل سيّدك يلبس البزّة الرسمية هناك ؟

حاكم المدينة . كفاكِ من هذه الثرثرات ، حقّاً ! توجد قضية مهمّة ، تتعلّق بحياة انسان . . . (لأوسيب .) حقّاً ، يا صاحبي ، انت تعجبني كثيراً . الجوّ الآن يميل الى البرودة . فلا ضير ان تشرب قدحاً او قدحين من الشاي في الطريق . خذ هذين الروبلين الفضيين للشاي .

أوسيب (يأخذ النقود) . شكراً جزيلاً ، يا سيّدي . جعلك اللّه موفور الصحّة . ساعدتم شخصاً بائساً .

حاكم المدينة . طيّب ، طيّب . وانا مسرور ايضاً ، كيف ، يا صاحبي . . .

آنا آندرييفنا . اسمع ، يا اوسيب ، بأي العيون يعجب سيّدك اكثر ؟

ماريا انتونوفنا . اوسيب ، يا حلو ! اي انف لطيف لسيدك !

حاكم المدينة . توقّفا ، اتركاني ! . . (لأوسيب .) طيّب ، خبّرني رجاء ، يا صاحبي : ماذا يلفت نظر سيّدك اكثر ، اقصد اي شيء يعجبه اكثر عند السفر ؟

اوسيب . حسب الظروف . اكثر ما يحبّه ان يُستقبل جيّداً ، وان تكون المائدة عامرة .

حاكم المدينة . عامرة ؟

اوسيب . نعم ، عامرة . وحتّى انا ، القنّ ، يهتم بأن العامل معاملة جيّدة . وحقّ الربّ ! يحدث أن نسافر إلى مكان ما ، فيسألني : «هل استضافوك بشكل جيّد ، يا اوسيب ؟» فاقول : «لا ، يا صاحب السيادة» فيقول : «آه ، يا اوسيب ، صاحب البيت هذا سيئ . ذكرني ، حين نعود الى بطرسبورغ» . فاقول لنفسي (يلوّح بيده .) «عفا الله عنه ! انا رجل بسيط» .

حاكم المدينة . لطيف ، لطيف ، كلامك مضبوط . قبل حين اعطيتك فلوساً للشاي ، وهذه علاوة للكعك .

اوسيب . ما هذا الكرم ، يا صاحب السيادة ؟ (يقبل النقود ويخفيها .) في هذه الحال سأشرب نخب صحّتك .

آنا آندرييفنا . تعال اليّ ، يا اوسيب ، وسأعطيك ايضاً .

ماريا انتونوفنا . اوسيب ، يا حلو ، قبّل سيّدك .

(يسمعون سعال خليستاكوف الخفيف من الحجرة الأخرى) .

حاكم المدينة . شس !(يقف على اطراف اصابعه ؛ المشهد كلّه بصوت خافت .) لا تثيرا ضجة . واذهبا . هذا يكفيكما . . .

آنا آندرييفنا . لنذهب ، يا ماشينكا ! سأخبرك بما لاحظته على الضيف . شيء لا يمكن التحدث به الا بيننا ، الاثنتين .

حاكم المدينة . اوه ، من هذا الكلام ! تسمع وتزهد وتسدّ اذنيك . (مخاطباً اوسيب .) طيّب ، يا صاحبي . . .

المشهد الحادي عشر

(**نفس الأشخاص مع ديرجيموردا وسفيستونوف**) .

حاكم المدينة . شس ! هؤلاء الدببة النعرج كيف يدقّون الأرض باحذيتهم ! تحسّ وكأنّ اثقالاً تقذف من عربة . اين اخذكما الشيطان ؟

ديرجيموردا . كنت خارجاً بمهمّة . . .

حاكم المدينة . شش (يغلق فمّه .) كنعيب الغراب ! (يقلّده .) كنت خارجاً بمهمّة ! كأنّه يزعق من برميل ! (لأوسيب .) طيّب ، يا اخ ، اذهب وهيّىء ما يحتاجه سيّدك . كلّ ما في البيت يمكن أن تطلبه .

(اوسيب يخرج) .

امّا أنتما ، فقفا على مدخل الباب ، ولا تغادرا مكانكما ! ولا تسمحا لأي غريب ، ولا سيّما التجّار ، بالدخول الى البيت ! ولو سمحتما ، ولو لواحد منهم ، فسـ . . . حالما تريان شخصاً قادماً بعريضة ، حتّى ولو بدون عريضة ، مجرّد رجل يشم منه انّه يريد أن يفعل ذلك ، ادفعاه من قفاه ! بشدّة ! هكذا ! (يدفع بقدمه .) هل تسمعان ؟ شش ! . . (يخرج على أطراف أصابعه وراء الشرطيين .)

الفصل الرابع

(نفس الحجرة في بيت حاكم المدينة) .

المشهد الأول

(يدخل بحذر وعلى أطراف الأصابع تقريباً **امّوس فيدروفيتش ، وارتيمى فيليبوفيتش ، ومأمور البريد ، ولوكا لوكيتش ، ودوبتشينسكي وبوبتشينسكي** ، في بزّتهم الرسمية الكاملة .
كلّ المشهد يجرى باصوات خافتة) .

امّوس فيدروفيتش (يصف الجميع بنصف حلقة) . بحقّ الربّ ، يا سادة ، أسرعوا في الحلقة ، وباكثر ما يمكن من النظام ! أعاذنا اللّه منه . يزور القصر ، ويوبّخ مجلس الدولة ! اصطفوا بنظام عسكري ، بنظام عسكري من كلّ بد ! وانت ، يا بيتر ايفانوفيتش ، استدر من تلك الناحية ، وانت يابيتر ايفانوفيتش الآخر قف هنا .

(الاثنان يركضان على اطراف اصابعهما) .

ارتيمي فيليبوفيتش . حســـــب ما تشـــــاء ، يا امّوس فيدروفيتش ، حبّذا لو نتّخذ شيئاً ما .

امّوس فيدروفيتش . وما هو بالذات ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . معروف ما هو .

امّوس فيدروفيتش . ندهن يده ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . نعم ، على الأقلّ هذا .

امّوس فيدروفيتش . خطر ، واللّه يستر ، سيصرخ . فهو رجل دولة . ربما نقوم بذلك على شكل تبرّعات مـــن جانب النبلاء لاقامة نصب تذكاري ؟

مامور البريد . أو نقول له : «هذه نقود جاءت بالبريد مـــن مجهول» .

ارتيمي فيليبوفيتش . اخشى ان يرسلك انـــت بالبريد الى مكان بعيد . إسمعوا ، هذه الأمور تجري بشكل آخر في دولـــة يسودها النظام . لماذا جمعنا هنا بكلّ هيئتنا ؟ يجب أن نقدّم انفسنا كلّ عـــلى انفراد ، وسيعطى لـه كـــل واحد ما يلزم لوحده . . . فلا يتسرّب شيء لأذن زائـــدة . هذا ما يجري في المجتمع المعتبـــر . طيّب ، كن انـــت الأوّل ، يا امّوس فيدروفيتش ، وابدأ .

امّوس فيدروفيتش . الأفضل ان تبدأ انـــت . الزائر العالي المقام ذاق الخبز والملح في مؤسّستك .

ارتيمي فيليبوفيتش . الأحسن ان يبدأ لوكا لوكيتش باعتباره مربّي الشباب .

لوكا لوكيتش . لا اقدر ، لا اقدر ، يا سادة . هكذا تربيّت ، بصراحة ، حالما يتحدّث معي شخص مـــن رتبة أعلى حتى اتلبّخ روحاً ولسانـــاً ، وكأنّني وقعت في وحـــل . لا ، يا سادة ، أعفوني ، أعفوني حقّاً !

ارتيمي فيليبوفيتش . نعم ، يا امّوس فيدروفيتش ، لا احد غيرك . ما إنتنطق بكلمة ، حتّى يتدفّق شيشرون على لسانك .

امّوس فيدروفيتش . ما هذا الكلام من جنابك ! شيشرون !

اي بدعة هذه ! أحياناً اتحمّس في الكلام حين أصف كلاب الصيد ، او كلبة طراد . . .

الجميع (يلحّون عليه) . لا ، ليس عن كلاب الصيد فقط . بل وعن برج بابـــل ايضاً . لا ، يا امّوس فيدروفيتش ، لا تتخلّ عنا ، كن ابانا ! . . لا ، يا امّوس فيدروفيتش !

امّوس فيدروفيتش . اتركوني يا سادة !

(في تلك اللحظة يسمع وقع خطوات ولحنجة في حجرة خليستاكوف . الجميع يندفعون نحو الباب يسبق بعضهم بعضاً ، ويتزاحمون ويحاولون أن يخرجوا متدافعين مضغوطين . تصدر هتافات واطنة) :

صوت بوبتشينسكي . اوى ! بيتـــر ايفانوفيتش ، بيتـــر ايفافيتش ! دست على قدميّ !

صوت زيملانيكا . أطلقـــوا سراحي يا سادة ، حصرتموني تماماً !

(تصدر بعض الهتافات : «آه ، آه !» وأخيراً يخرج الجميع مضغوطين وتبقى الحجرة فارغة) .

المشهد الثاني

(**خليستاكوف** وحده يخرج والنعاس في عينيه) .

أظنّني نمت نومة لا بأس بها . من اين جاءوا بهذه الحشايا وفرشات الريش ؟ جعلتني أتصبّب عرقاً . أظنّهم بالأمس دسّوا لي شيئاً ما على الفطور . في رأسي مطارق حتّى الآن . من الممكن قضاء وقت ممتع هنا حسب ما أرى . أحبّ حسن المعاملة والكرم . ويعجبني اكثر بصراحة ، أن أُضيَّف عن نقاء سريرة ، لا عـــن مصلحة . إبنة حاكم المدينة مليحة جدّاً ، والأم ايضاً امرأة مـــن الممكن ان . . . لا ، لا أعرف ، ولكن مثـــل هذه الحياة تعجبني حقّاً .

المشهد الثالث

(خليستاكوف والقاضي اموس فيدروفيتش) .

امّوس فيدروفيتش (يدخل ويتوقّف ، ويقول لنفسه) . يا ربّ ، يا ربّ . اجعلها تمرّ بسلام . ركبتاي خائرتان . (بصوت مسموع ، وقد انتصب بقامته ، ووضع يده على سيفه .) لي الشرف أن أقدم نفسي : قاضي محكمة القضاء ، الموظّف من الدرجة الثامنة ، ليابكين-تيابكين .

خليستاكوف . تفضّل ، اجلس . اذن ، فانت قاض هنا ؟

امّوس فيدروفيتش . منذ عام ١٨١٦ انتخبني النبلاء لفترة ثلاثة أعوام ، ثم اعادوا انتخابي ثلاث مرات فبقيت في المنصب الى هذا الحين .

خليستاكوف . يعني منصب القاضي نافع ؟

امّوس فيدروفيتش . خلال تسع سنوات رشحّت لوسام فلاديمير من الدرجة الرابعة بتأييد من جانب الرئاسة . (جانباً .) النقود في قبضتي ، ولكنّني أحسّ بها تلسعني كاللهب .

خليستاكوف . وسام فلاديمير يعجبني ، ولكن اعجابي بوسام آنا من الدرجة الثالثة كان أقل .

امّوس فيدروفيتش (يدفع قبضته المضمومة الى الأمام قليلاً . جانباً .) يا إلهي ، لا أعرف اين أجلس . كأنّني على جمر متّقد .

خليستاكوف . ما هذا الذي في يدك ؟

امّوس فيدروفيتش (يرتبك ويسقط أوراق النقد على الأرض .) لا شيء .

خليستاكوف . كيف لا شيء ؟ سقطت نقود ، كما أرى .

امّوس فيدروفيتش (يرتجف بكلّ كيانه) . لا ، مطلقاً ! (جانباً .) يا ربّي ! سأحاكم . جاءوا بعربة لأخذي .

خليستاكوف (يرفعها) . نعم ، هذه نقود .

اموس فيدروفيتش (جانباً) . آوه ، كلّ شيء انتهى . وقعت ! وقعت !

خليستاكوف . هل تعرف ؟ اقرضني إياها .

امّوس فيدروفيتش (بعجالة) . بالطبع ، بالطبع . . . بكلّ سرور . (جانباً .) أجراً ، أجراً ! أنقذيني ، ايّتها الأمّ الطاهرة !

خليستاكوف . نفدت نقودي كلها أثناء السفر . . . أنفقتها على هذا أو ذاك . . . على كلّ حال ، سأرسلها لك من القرية حالاً .

امّوس فيدروفيتش . ارجوكم ، كيف يمكن هذا ! هذا شرف عظيم بحدّ ذاته . . . أحاول أن أكون عند حسن الظنّ ، بقوايّ الهزيلة ، بالطبع ، وبغيرتي ، وتحمّسي الى الرؤساء (ينهض من المقعد ، ويقف بهيئة استعداد ، وذراعاه مصفوفتان على جانبيه .) لا أجسر على ازعاجكم بوجودي أكثر من ذلك . هل هناك اي أمر ؟

خليستاكوف . اي امر ؟

امّوس فيدروفيتش . اقصد هل لديكم اي امر لمحكمة القضاء هنا ؟

خليستاكوف . ولِمَ ؟ لم اعد بحاجة اليها .

امّوس فيدروفيتش (ينحني ، وينصرف . جانبا) انتصرنا !

خليستاكوف . (لدى خروجه) . القاضي رجل جيّد !

المشهد الرابع

(خليستاكوف . يدخل **مأمور البريد** منتصب الجذع في بزّته الرسمية ، ممسكاً سيفه) .

مأمور البريد . لي الشرف أن أقدّم نفسي : مأمور البريد ، الموظّف بالدرجة السابعة شبيكين .

خليستاكوف . آ . . . تفضّل ! أحبّ كثيراً العشرة اللطيفة . اجلس . أنت تقيم هنا دائماً ؟

مأمور البريد . نعم .

خليستاكوف . مدينتكم تعجبني . ليست كثيرة السكّان ، بالطبع . ولكن هل هذا يهمّ ؟ ليست هي العاصمة . اليس صحيحاً أنّها ليست العاصمة ؟

مأمور البريد . صحيح كلّياً .

خليستاكوف . في العاصمة وحدها لغة الكلام المهذّبة ، ولا يوجد فيها بطّ الريف السارح . ألا توافقني على هذا الرأي ؟

مامور البريد . بالضبط . (جانباً .) لا يبدو أنه يستنكف أبداً . يسأل عن كلّ شيء .

خليستاكوف . من الممكن العيش بهناء في المدينة الصغيرة أيضاً أليس كذلك ؟ قل لي بصراحة .

مامور البريد . بالضبط .

خليستاكوف . ما هو الضروري ، في رأيي ؟ الضروري أن يحترمك الآخرون ويحبّونك باخلاص . اليس كذلك ؟

مامور البريد . صحيح تماماً .

خليستاكوف . انا ، بصراحة ، مسرور لأنك متّفق معي في الرأي . الناس تنعتني بغرابة الأطوار ، بالطبع . ولكن هذا خلقي (ينظر في عينيه ، ويتكلّم في سرّه) سأطلب من مامور البريد هذا قرضاً (بصوت مسموع .) اي ظرف غريب حصل لي . نفدت نقودي كلها في الطريق . الا تقدر أن تقرضني ثلثمائة روبل ؟

مامور البريد . وكيف لا ؟ هذه سعادة عظمى بالنسبة لي ، ها هي تفضل . أنا مستعدّ لأن أخدم بكلّ قلبي .

خليستاكوف . شاكر كثيراً . انا ، بصراحة ، اكره ان اُقتَر على نفسي في السفر . ثمّ لماذا ؟ أليس كذلك ؟

مامور البريد . بالضبط . (ينهض ، ويأخذ هيئة الاستعداد ، يضع يده على السيف .) لا أجرؤ على ازعاجكم بحضوري ، اكثر من هذا . هل لديكم أية ملاحظة بخصوص ادارة البريد ؟

خليستاكوف . لا ، لا شيء .

(مامور البريد ينحني ، ويخرج) .

(يشعل سيكارة .) مامور البريد أيضاً يبدو لي رجلاً جيّداً جدّاً . خدوم ، على اقلّ تقدير . أنا أحبّ مثل هؤلاء .

المشهد الخامس

(**خليستاكوف ولوكا لوكيتش** الذى اقذف من الباب تقريباً . من الخلف

يتردد صوت يكاد يكون مسموعاً : ولماذا تتخوف أنا ؟)

لوكا لوكيتش (ينتصب ولكن ليس بدون ارتجاف ، ممسكاً السيف) . لي الشرف بأن أقدم نفسي . ناظر المدرسة ، الموظّف بالدرجة التاسعة خلوبوف .

خليستاكوف . تفضّل . اجلس ، اجلس ! ألا تريد سيكارة ؟ (يقدم له سيكارة .)

لوكا لوكيتش (في سره وبتردّد) . اية مفاجأة ! لم يخطر هذا على بالي قطّ . آخذها أم لا آخذها ؟

خليستاكوف . خذها ، خذها . إنها سيكارة معتبرة . بالطبع ، ليست مثل السيكائر في بطرسبورغ . كنت ادخن هناك ، يا مولاي ، سيكائر ، المائة منها بخمسة وعشرين روبلاً . ما الذها ! تدخينها متعة . هذه نار . إشعل . (يقدّم له عود شمعة .)

(لوكا لوكيتش يحاول أن يشعل السيكارة ، وهو يرتجف بكليته) .

خليستاكوف . ولكن ليس من هذا الطرف !

لوكا لوكيتش (تسقط منه السيكارة من الذعر . يبصق ، ويلوّح بذراعه . مع نفسه) . تخطف الشيطان كلّ شيء ! قتلني هذا التهيّب اللعين !

خليستاكوف . لستَ مولعاً بالسكائر ، كما أرى . ولكنّها بصراحة موطن الضعف فيّ . وبخصوص الجنس اللطيف أيضاً ، لا أستطيع ان امرّ به مرّ الكرام . فكيف أنت ؟ مَنْ يُعجبك اكثر : سوداوات الشعر أم الشقراوات ؟

(لوكا لوكيتش يتحيّر تماماً ولا يعرف ماذا يقول) .

لا ، قل لي بصراحة : سوداوات الشعر أم الشقراوات ؟

لوكا لوكيتش . هذا كثير عليّ .

خليستاكوف . لا ، لا ، لا تتهرّب ! لا بدّ ان استانس بذوقك .

لوكا لوكيتش . أجرؤ على القول . . . (جانباً .) ولكن لا ادري ماذا أقول !

خليستاكوف . ها ! ها ! لا تريد أن تقول . ربّما اوقعتك

احدى سوداوات الشعر في مقلب صغير . اعترف ، هل أوقعتك ؟

(لوكا لوكيتش يلزم الصمت) .

ها ! ها ! احمررت . أنظر ! أنظر ! لماذا لا تتكلّم ؟

لوكا لوكيتش . اخذتني الرهبة ، يا صاحب النبا . . . المعا . . القداس . . (جانباً .) خانني لساني اللعين ! خانني !

خليستاكوف . الرهبة ؟ في عيني ما يوحّي بالرهبة ، حقّاً . اعرف ، على أقلّ تقدير ، ان ايّة امراة لا تستطيع أن تصمد لهما ، أليس كذلك ؟

لوكا لوكيتش . بالضبط .

خليستاكوف . طيّب ، حصل لي ظرف عجيب . بددت' نقودي أثناء السفر كلياً . الا تقدر أن تقرضني ثلثمائة روبل ؟

لوكا لوكيتش (يختطف جيبيه ، مع نفسه) . مصيبة ، لو ليس معي ! موجود ، موجود ! (يخرج الفلوس ، ويقدّمها مرتجفاً .)

خليستاكوف . مع الشكر الجزيل .

لوكا لوكيتش (منتصباً ممسكاً بسيفه) . لا اجرؤ ان ازعجكم بوجودي اكثر .

خليستاكوف . مع السلامة .

لوكا لوكيتش (يبتعد فيما يشبه الركض . جانباً) . طيّب ، حمداً للّه ، اظنّه لا يزور المدرسة ، الآن !

المشهد السادس

(**خليستاكوف وارتيمي فيليبوفيتش** منتصبا في هيئة استعداد ، واضعاً يده على سيفه) .

ارتيمي فيليبوفيتش . لي الشرف ان اقدّم نفسي : راعي المؤسّسات الخيرية ، الموظّف بالدرجة السابعة زيملانيكا .

خليستاكوف . مرحباً . اجلس ، ارجوك .

ارتيمي فيليبوفيتش . كان لي الشرف بمرافقتكم واستقبالكم شخصياً في مؤسّساتي الخيرية المناطة بي .

خليستاكوف . ها ، نعم ! أتذكّر . ضيفتني على فطور جيّد جداً .

ارتيمي فيليبوفيتش . مسرور في السعي لخدمة الوطن .

خليستاكوف . هذا موطن ضعفي ، بصراحة ، احبّ الطعام الجيّد . قل لي ، من فضلك ، يبدو لي انّك كنت في الأمس أقصر قامة بقليل ، أليس كذلك ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . محتمل جداً . (بعد صمت قصير .) استطيع ان اقول انّني أبذل قصاراي ، وأؤدي واجبي باخلاص . (يتقدّم قليلاً مع مقعده ، ويتكلّم بصوت خافض .) ها هو مأمور البريد هنا لا يفعل اي شيء اطلاقاً . كلّ اعماله في حالة من الاهمال الشديد ، والارساليات تتأخّر . . . تفضّل . وتأكّد بنفسك خصيصاً . . . وكذلك القاضي الذي كان هنا قبل مجيئي ، ليس له همّ غير صيد الأرانب ، ويحتفظ بكلابه في غرف دائرته . وتصرّفاته ، اذا كنت صريحاً معكم — وأنا بالطبع ، ملزم لأن افعل لمصلحة الوطن ، ولو انّه قريب لي وصديق — تصرّفاته معيبة تماماً . يوجد هنا مالك أراض ، يُدعى دوبتشينسكي وهو الذي سبق ان رأيته . ما إن يخرج دوبتشينسكي هذا من البيت حتّى يكون عند زوجته . أنا مستعدّ الى ان اقسم على ذلك . انظر الى اطفاله خصيصاً ، لن تجد واحداً منهم يشبه دوبتشينسكي ، ولكن الجميع ، حتّى البنت الصغيرة ، يشبهون القاضي شبه الحبّة للحبّة .

خليستاكوف . يا لها من مفاجأة ، بينما لم اكن اظنّ ذلك قطّ .

ارتيمي فيليبوفيتش . وناظر المدرسة ايضاً . . . لا أعرف كيف أمكن للرئاسة ان تأتمنه على مثل هذه الوظيفة . إنّه أسوأ من اليعاقبة . يلقّن الشبيبة قواعد الخروج على ما هو قائم بشكل يصعب تصويره . أليس من الأفضل ان أضع كل هذا على الورق ؟ ماذا تأمر ؟

خليستاكوف . طيّب ، وليكن على الورق . هذا مريح لي جداً . انا احبّ ان أقرأ في أوقات الضجر شيئاً مسلياً . ما اسم عائلتك ؟ انا انسى دائماً .

ارتيمي فيليبوفيتش . زيملانيكا .

خليستاكوف . آها ، نعم ! زيملانيكا . قل لي من فضلك : هل لديك اولاد ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . بالطبع ! خمسة . اثنان منهم راشدان .

خليستاكوف . راشدان ، تصور ! وكيف . . . كيف هم بـ . . .

ارتيمي فيليبوفيتش . يعني تريدون ان تسألوا كيف هم بالأسماء ؟

خليستاكوف . نعم ، كيف هم بالأسماء ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . نيقولاي ، إيفان ، يليزافيتا ، ماريا ، بيريبيتويا .

خليستاكوف . هذا لطيف .

ارتيمي فيليبوفيتش . لا اجرؤ على ازعاجكم بحضوري ، واخذ وقتكم المنذور للواجبات المقدسة . (ينحني ليخرج .)

خليستاكوف (يرافقه) ، لا ، لا بأس ! كلّ ما قلته مضحك جدّاً . تفضّل ، تعال في وقت آخر ايضاً . . . انا احبّ ذلك كثيراً (يعود ، وحين يفتح الباب يصيح في اثره) هاي ، انت ! ما اسمك ؟ انسى دائماً ما اسمك واسم ابيك .

ارتيمي فيليبوفيتش . ارتيمي فيليبوفيتش .

خليستاكوف . اعمل معروفاً ، يا ارتيمي فيليبوفيتش ، حصل لي ظرف غريب . انفقت نقودي كلياً اثناء السفر . هل لديك نقود لتقرضني — اربعمائة روبل ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . لديّ .

خليستاكوف . يا للمصادفة الحسنة حقّاً . شكراً جزيلاً .

المشهد السابع

(خليستاكوف وبوبتشينسكي ودوبتشينسكي) .

بوبتشينسكي . لي الشرف ان اقدّم نفسي : بيتر بن ايفان بوبتشينسكي من اهل هذه المدينة .

دوبتشينسكي . مالك الأراضي بيتر بن ايفان دوبتشينسكي .

خليستاكوف . آه ، رايتك من قبل . اظنّك قد وقعت في حينها ؟ كيف حال انفك ؟

بوبتشينسكي . الحمد للّه ! لا تقلقوا انفسكم . نشف . هو الآن ناشف تماماً .

خليستاكوف . لطيف انّه ناشف . انا مسرور . (فجاة وبلهجة فيها حدة .) هل لديك فلوس ؟

بوبتشينسكي . فلوس ؟ اي فلوس ؟

خليستاكوف . الف روبل قرضاً .

بوبتشينسكي . لا يوجد هذا المبلغ ، والله . ربّما لديك ، يا بيتر ايفانوفيتش ؟

دوبتشينسكي . ليس معي ، لأن فلوسي ، لو تفضّلتم ان تعرفوا ، موظّفة في الصندوق الخيري .

خليستاكوف . طيّب ، اذا لا يوجد الف ، فمائة روبل .

بوبتشينسكي . (يفتّش في جيبه) . هل معك ، يا بيتر ايفانوفيتش ، مائة روبل ؟ ليس معي غير اربعين من النقود الورقية .

دوبتشينسكي (ينظر في محفظة نقوده الورقية) . خمسة وعشرون روبلاً ، فقط .

بوبتشينسكي . ولكن فتّش اكثر ، يا بيتر ايفانوفيتش ! انا اعرف ، عندك في الجانب الأيمن من جيبك فتق ، لا بدّ ان سقط شيء في فتق الجيب .

دوبتشينسكي . في الفتق ايضاً لا يوجد ، بالفعل .

خليستاكوف . طيّب ، لا يهمّ . مجرد سؤال . طيّب ، وليكن خمسة وستين روبلاً . هذا لا يهمّ . (ياخذ النقود .)

دوبتشينسكي . اجرؤ ان اترجاكم بخصوص مسالة دقيقة جدّاً .

خليستاكوف . ما هي ؟

دوبتشينسكي . المسالة ذات طابع حسّاس جدّاً . ابني الكبير ، اذا سمحتم بالقول ، انجبتُه قبل الزواج .

خليستاكوف . صحيح ؟

دوبتشينسكي . اقصد ، هذا على حدّ تعبير الناس فقط . فقد

أنجبته تماماً ، وكأنني متزوّج ، وكلّ ذلك قد توّجته فيما بعد بعرى الزواج الوثقى ، وحسب الأصول وأنا أريد الآن ، اذا سمحتم ، أن يكون ابني الشرعي كلّياً ، وأن يحمل اللقب الذي أحمله : دوبتشينسكي .

خليستاكوف . طيّب ، ليحمله ! هذا ممكن !

دوبتشينسكي . ما كنت سأزعجكم ، ولكن خسارة أن تضيع قابلياته . غلام يبشّر بآمال عظيمة . يستطيع أن ينشد أشعاراً متنوّعة عن ظهر قلب . واذا وقعت في يده سكّين صنع على الفور لعبة تمثّل عربة صغيرة بمهارة فائقة وفتنة ساحرة . هذا بيتر ايفانوفيتش يعرف ذلك أيضاً .

بوبتشينسكي . نعم ، عنده قابليات كبيرة .

خليستاكوف . طيّب ، طيّب ! سأحاول في هذا الخصوص ، سأتكلّم . . . آمل . . . كلّ ذلك سيتمّ ، نعم ، نعم . . . (مخاطباً بوبتشينسكي .) هل عندك شيء تقوله لي ؟

بوبتشينسكي . طبعاً ، عندي رجاء متواضع جداً .

خليستاكوف . ما هو ، عمّ ؟

بوبتشينسكي . ارجوكم بكلّ خضوع أن تخبروا ، حال وصولكم الى بطرسبورغ ، جميع الوجهاء على اختلافهم ، والأعيان ، والادميرالات ، بأن في المدينة الفلانية ، يا اصحاب الفضيلة أو الفخامة ، أو ما الى ذلك ، يعيش بيتر ايفانوفيتش بوبتشينسكي . قل لهم هكذا : يعيش بيتر ايفانوفيتش بوبتشينسكي .

خليستاكوف . حسن جداً ،

بوبتشينسكي . واذا صادف وأن التقيت بمولانا القيصر ، فقل لمولانا أيضاً إن في المدينة الفلانية ، يا صاحب الجلالة ، يعيش بيتر ايفانوفيتش بوبتشينسكي .

خليستاكوف . حسن جداً .

دوبتشينسكي . اعذرونا على مضايقتكم بحضورنا .

بوبتشينسكي . اعذرونا على مضايقتكم بحضورنا .

خليستاكوف . لا بأس ، لا بأس ! مسرور جداً . (يدفعهما للخروج .)

المشهد الثامن

(**خليستاكوف** وحده) .

الموظّفون كثيرون هنا . ويبدو لي ، على كلّ حال ، أنّهم يعتبرونني رجل دولة . الظاهر أنّني تباهيت كثيراً أمامهم بالأمس . أي حمقى هؤلاء ! سأكتب عن كلّ شيّ لتريابيتشكين في بطرسبورغ . فهو يدبج مقالات . فليلعَبْهم بشكل محترم . هاي ، يا أوسيب ، أعطني ورقة وحبراً .

(**أوسيب** يطل من الباب . وينطق «حالاً») .

تريابيتشكين هذا شديد اذا وقع أحد في يده ، لا يرحم حتّى أباه . ويحبّ الفلوس أيضاً . هؤلاء الموظّفون أناس طيّبون على العموم . والصفة اللطيفة فيهم أنّهم أقرضوني . ترى كم عندي من الفلوس ؟ لأنظر من جديد ، للتسلية : ثلثمائة من القاضي ، وثلثمائة من مأمور البريد ، ستمائة ، سبعمائة ، ثمانمائة . . . أية ورقة مدّهنة هذه ! ثمانمائة ، تسعمائة . . . أهوه ! تعدّت الألف . . . تعال نلعب الآن ، يا رائد . آه ، لو وقعت في يديّ الآن ! سنرى من يغلب الآخر .

المشهد التاسع

(**خليستاكوف وأوسيب** ومعه محبرة وورقة) .

خليستاكوف . هل ترى ، يا أحمق ، كيف يستضيفونني ويستقبلونني ؟ (يبدأ بالكتابة .)

أوسيب . نعم ، والحمد لله ! ولكن هل تدرون ، يا إيفان الكسندروفيتش ؟

خليستاكوف . ماذا ؟

أوسيب . ارحلوا من هنا ! آن الأوان ، وحقّ الربّ !

خليستاكوف (يكتب) . هراء ! ولماذا ؟

أوسيب . هكذا ! كفانا شرهم جميعاً ! لهوتم هنا يومين ،

وكفى . فلماذا تطيلون علاقتكم بهم ؟ أبصقوا عليهم ! أخشى أن يطـــلّ شخص آخر غفلـــة . . . بحقّ الربّ ، يا ايفـــان الكسندروفيتش ! أعطونا خيولاً ممتازة ، وسنطير بها .

خليستاكوف . (يكتب) . لا ، احبّ أن أعيش هنـا أكثر . ليكن في الغد !

اوسيب . ولِمَ في الغد ! لنغادر ، وحقّ الربّ ، يا إيفان الكسندروفيتش ! صحيح أنهم يضيفونك ضيافـــة عظيمة ، ولكن الأحسن أن نرحل بأقرب وقت ممكن . هم ، في الحقيقة ، تصوّروكم شخصاً آخر . . . والدكم سيغضب من تأخّرنا هذا . . . كـــم جميل أن نسرع بالخيول ، حقّاً ! سيعطوننا هنا خيولاً معتبرة ، بالتأكيد .

خليستاكوف (يكتب) . حسنـــاً . ولكن احمل هذه الرسالة أوّلاً . وفي طريقك خذ استمـارة سفر أيضاً . واحرس على أن تكون الخيول جيّدة ! اخبر الحوذية أنّني سأوزّع على كل واحد منهم روبلاً فضياً ، حتّى ينطلقوا كساعي الحكومة ، ويغنوا الأغاني أيضاً ! (يستمرّ في الكتابة .) أتصوّر أن تريابيتشكين سيموت من الضحك . . .

اوسيب . سأرسلهـــا مع شخص من عندهم ، يا سيّدي ، فالأحسن أن أتفرّغ أنـا لإعداد الحقائب ، حتّى لا يضيع الوقت عبثاً .

خليستاكوف (يكتب) . جيّد . ولكن اجلب شمعة .

اوسيب (يخرج ويتكلّم وراء المسرح). هاى ، إسمع ، يا أخ ! خذ الرسالة الى البريد ، وقل لمأمور البريد أن يقبلها بلا فلوس . ثمّ إخبره أن يجلب إلى السيّد فوراً أحسن ثلاثة خيول ، من خيول البريد الحكومي المستعجل . وقل له : السيّد لا يدفع أجرة الخيول ، لأنّ المهمّة حكومية . وليسرع بكلّ هذا ، وإلا فسيغضب السيّد . قف ، تمهّل ، لم تكمّل الرسالة بعد .

خليستاكوف (مستمرّاً في الكتابة) . ترى أين يعيش الآن — في شارع البريد أم في شارع الحمص ؟ هو أيضاً يحبّ أن يتنقّل كثيراً من سكن الى آخر ، دون أن يدفع الأجرة بالكامل . أكتب على عنوان شارع البريد ، تخميناً . (يطوى الرسالة ويكتب العنوان) .

(**اوسيب** يجلب شمعة . خليستاكوف يدمغ الرسالة . في ذلك الوقت يسمع صوت ديرجيموردا : «الى اين ، يا أبا لحية ؟ قلت لك أمروني أن لا اسمح لأحد بالدخول») .

(يعطي الرسالة لأوسيب) . خذ ، ابعثها .

اصوات التجّار . اسمح لنا ، يا حضرة ! لن تقدر أن تمنعنا . فقد جئنا في قضية .

صوت ديرجيموردا . انصرفوا ، انصرفوا ! لا يستقبل أحداً ، نائم .

(الضوضاء تزداد) .

خليستاكوف . ماذا هناك ، يـــا أوسيب ؟ أنظر مـــا هذه الضوضاء ؟

اوسيب (ينظر من النافذة) . تجّار يريدون الدخول ، ولكن الشرطي يمنعهم . يلوّحون بأوراق . يبدو أنّهم يريدون مقابلتكم .

خليستاكوف (يقترب من النافذة) . ماذا تريدون ، يا أفاضل ؟

اصوات التجّار . مقابلة حضرتكم . قولوا لهم ، يا مولانا ، أن يقبلوا العريضة .

خليستاكوف . ادخلوهم ، ادخلوهم ! ليدخلوا . أوسيب ، قل لهم : ليدخلوا .

(أوسيب يخرج) .

(يتلقى العرائض من النافذة ، يبسّط واحدة منها ، ويقرأ .) «إلى صاحب النبالة والمقام الرفيـــع السيّد مدير الخزانة من التاجر عبدولين . . .» الشيطان يعرف مـا هذا . حتّى هذه الوظيفة لا وجود لها .

المشهد العاشر

(**خليستاكوف والتجار** ومعهم سلّة نبيذ ورؤوس سكّر) .

خليستاكوف . ماذا ، يا أفاضل ؟

التجّار . عندنا رجاء لسيادتكم .

خليستاكوف . ماذا تريدون ؟

التجّار . اشفق علينا يا مولانا ! نتحمّل المهانة بدون أي سبب .

خليستاكوف . ممّن ؟

احد التجّار . من حاكم المدينة هنا . لم نشهد مثل هذا الحاكم قطّ ، يا مولانا . يعرضنا لمظالم لا يمكن ان توصف . انهكنا كلّياً بأوامر ايواء الجنود ، حتّى لا نعرف أين نولّي بوجوهنا . تصرّفاته لا تتناسب مع العطاء . يمسك باللحية ، ويقول : «آه منك ، يا تتري !» وحقّ الربّ ! وليتنا اسئنا اليه بشيء ! بل نقوم بالواجب دائماً . لا نبخل عليه بما ينبغي من الكسوة لزوجته ولإبنته . ولكن كل هذا لا يكفيه ، صدّقني ! يدخل الدكّان ، ويأخذ كلّ ما تقع عليه يداه . ويرى لفّة الجوخ فيقول : «هذا جوخ فاخر ، يا عزيزي ، احمله الى بيتي» . واحمل اللفّة مضطراً . وفي اللفّة ما لا يقلّ عن خمسين ذراعاً .

خليستاكوف . معقول ؟ آه ، اي نصّاب هو !

التجّار . والله ، لا احد يتذكّر حاكم مدينة مثله . حالما نراه نُخفي كلّ شيء في الدكّان . لأنه لا يقتصر على اخذ الأطايب فقط ، بل ينتش ابرة بضاعة تافهة ، حتّى الإجاصّ المجفّف الذي يظلّ سبعة أعوام وهو في برميله ، والذي لا يأكله حتّى الخادم ، يدسّ حاكمنا يده في البرميل ويغرف منه غرفة كاملة . ونحن نعرف ان قديسه الشفيع هو أنتون ، فنحمل له في عيد هذا القدّيس انتون كلّ ما يخطر وما لا يخطر على البال . ومع ذلك لا يشبع ، ويقول قدّموا لي الهدايا في عيد القديس أونوفري أيضاً . فماذا نفعل ؟ نقدّم له الهدايا في عيد القدّيس أونوفري أيضاً .

خليستاكوف . هذا حرامي تماماً .

التجّار . بالضبط . ولكن حاول أن تعترض عليه . فسيفرض عليك إيواء فوج كامل في بيتك . واذا حصل شيء لا يحبه ، يأمر بغلق الباب . يقول : «لن أعاقبك عقاباً جسدياً ، أو أعرضك لتعذيب ، القانون يحرم ذلك . ولكن سأجعلك تأكل الفسيخ ، يا حضرة المحترم !»

خليستاكوف . آه ، اي نصّاب هو ! هذا يستحقّ النفي الى سيبيريا راساً .

التجّار . إلى أي مكان تشاؤون فسيكون ذلك أحسن ، فقط ان ينزاح عنّا . لا تستنكف الخبز والملح ، يا مولانا ، جثناك بشيء من السكّر وسلّة صغيرة من النبيذ .

خليستاكوف . لا ، أبعدوا ذلك عن اذهانكم . انا لا أقبل قط اية رشوة . ولكن لو عرضتم عليّ ، مثلا ، ان تقرضوني ثلاثمئة روبل ، فانّ ذلك شيء آخر تماماً . أستطيع قبول القروض .

التجّار . تفضّل ، يا مولانا ! (يخرجون الفلوس .) ولكن لماذا ثلثمائة . خذ خمسمائة بل ساعدْنا . تساهل فقط .

خليستاكوف . تفضّلوا : لا اعتراض لي على القروض . سآخذها .

التجّار (يحملون له النقود على صينية من فضّة) . تفضّلوا ، خذوا الصينية معها .

خليستاكوف . والصينية ممكن أيضاً .

التجّار . (ينحنون) . وخذوا السكّر دفعة واحدة .

خليستاكوف . لا . لا رشوة على الاطلاق . . .

أوسيب . يا صاحب النبالة ! لماذا لا تأخذونه ؟ خذوه ! كلّ شيء في السفر ينفع ، هاتوا رؤوس السكّر ، والسلة ! هاتوا كلّ شيء ، كلّ شيء سينفع . ماذا هناك ؟ حبل ؟ هاتوا الحبل هو الآخر ، سينفع في السفر . تنكسر العربة أو ما الى ذلك . يمكن شدّها به .

التجّار . ابذلوا جهدكم ، يا صاحب السيادة . اذا كنتم أنتم لا تقدرون على تحقيق رجائنا ، فانّنا لا نعرف ماذا نصنع . لا نرى اي مخرج !

خليستاكوف . حتماً ، حتماً ! سأحاول .

(التجار يخرجون . يسمع صوت امراة : ولا ، لن تجسر على منعي من الدخول ! ساشكوك له نفسه ، لا تدفعني هكذا . انت توجعني !»)

مَنْ هناك ؟ (يقترب من النافذة .) ماذا بك ، يا عمة ؟

صوتا إمراتين . عطفك يا محترم ، رجاء ! نرجوكم ، يا مولانا ، أن تسمعونا .

خليستاكوف (في النافذة) . اتركوهما تدخلان .

المشهد العادي عشر

(خليستاكوف ، زوجة السمكري ، زوجة ضابط الصف) .

زوجة السمكري (تنحني الى الأرض) . استرحم . . .

زوجة ضابط الصفّ . اتظلّم اليكم . . .

خليستاكوف . ولكن مَنْ انتما ؟

زوجة ضابط الصفّ . انا إيفانوفا زوجة ضابط الصفّ .

زوجة السمكري . انا فيفرونيا بيتروفنا بوشليبكينا زوجة السمكري ، من أهل هذه المدينة ، يا مولانا . . .

خليستاكوف . على مهلك . قولي انت أوّلاً : ماذا تريدين ؟

زوجة السمكري . اتظلّم اليكم . جئت أشكو من حاكم المدينة ! عسى اللّه ان ينزل عليه مصائب الدنيا كلّها ! وان لا يريه أي خير ، لا هو ، النصّاب ، ولا أبناءه ، ولا أعمامه ولا عمّاته !

خليستاكوف . ولماذا ؟

زوجة السمكري . امر بتجنيد زوجي . مع انّ النوبة لم تحلّ علينا ! يا للنصّاب حاكم المدينة ! والقانون أيضاً لا يجيز تجنيد المتزوّج .

خليستاكوف . وكيف امكن ان يفعل ذلك ؟

زوجة السمكري . فعل ، النصّاب ، فعل ، عسى اللّه ان يعذّبه في الدنيا والآخرة ! وان يسلّط البلايا على عمّته ، اذا كانت له عمّة ، وان يمحق المحتال اباه ، اذا كان ما يزال حيّاً ، او يكتم انفاسه الى الأبد ، النصّاب ! كان يجب ان يجنّد ابن الخيّاط ، فهو سكّير ، ولكن ابويه اعطياه هديّة كبيرة ، فتحول إلى إبن بانتلييفا ، زوجة التاجر . ولكن بانتلييفا هذه ارسلت الى زوجته ثلاث لفّات من القماش ، فتحوّل اليّ . ويقول لي : «وما حاجتك الى زوج ؟ لا ينفعك الآن» . ولكنّني اعرف ينفعني أو لا ينفعني . هذا شأني . النصّاب ! فيقول لي : «انّه لصّ ، وإن كان لا يسرق الآن ، ولكنّه سيسرق في كلّ الأحوال . وسيجنّدونه على كلّ حال في السنة القادمة» . ولكن اي شيء انا بدون زوج ! النصّاب ! انا انسانة ضعيفة ، الوغد ! عسى اللّه ان لا يري اهله جميعاً اية نعمة في الدنيا ! واذا كان له حماة فـ . . .

خليستاكوف . طيّب ، طيب . وانت ؟ (يسير بالعجوز الى باب الخروج .)

زوجة السمكري (خارجة) . لا تنس ، يا مولانا ! لتكن بك رحمة !

زوجة ضابط الصفّ . جئت ، يا محترم ، لأشكو من حاكم المدينة .

خليستاكوف . والسبب ؟ ماذا حدث تكلّمي باختصار .

زوجة ضابط الصفّ . جلدني ، يا محترم !

خليستاكوف . كيف ؟

زوجة ضابط الصفّ . عن طريق الخطأ ، يا مولاي ! تشاجرت نسوتنا في السوق وتعاركن ، ولكن الشرطة تاخّرت في الحضور . فامسكتني . وكالت لي بالصاع والذراع ، حتّى ظللت يومين لا استطيع الجلوس .

خليستاكوف . وما العمل الآن ؟

زوجة ضابط الصفّ . لا يجدي اي عمل ، بالطبع . ولكن اطلب منه ان يدفع غرامة على الخطأ . ما وقع من نصيبي لا استطيع ردّه ، ولكن الفلوس ستنفعني الآن نفعاً كبيراً .

خليستاكوف . طيّب ، طيّب ! اذهبي ، اذهبي . سأصدر امري .

(من النافذة تطلع ايد تحمل عرائض) .

ومَنْ بقي هناك ؟ (يقترب من النافذة .) لا اريد ، لا اريد ! لا لزوم ، لا لزوم ! (يبتعد .) ضجرت ، اللعنة ! لا تدع أحداً يدخل ، يا اوسيب .

اوسيب (يصيح في النافذة) . انصرفوا ، انصرفوا ! فات الوقت . تعالوا غداً !

(الباب يفتح ، ويطلع شخص في معطف من الجوخ الرخيص الخشن ، غير حليق اللحية ، متورّم الشفة . مشدود الخدّ ، وفي الخلف منه يلوح بعض الشخوص) .

انصرفوا ، انصرفوا ! الى اين ؟ (يسند كلتا يديه على كرش الشخص الأوّل ، وينقلع معه إلى الرواق ، ويصفق الباب خلفه .)

المشهد الثاني عشر

(خليستاكوف وماريا انتونوفنا) .

ماريا انتونوفنا . آه !

خليستاكوف . لماذا ارتعبت بهذا الشكل ، يا مولاتي ؟

ماريا انتونوفنا . لا ، لم ارتعب .

خليستاكوف (يتثنّى) . لطفك يا مولاتي ، كم انا مرتاح ، لأنّك اعتبرتني الشخص الذي . . . هل اجرؤ ان اسالكِ : الى اين كنتِ تنوين ان تذهبي ؟

ماريا انتونوفنا . لم اكن ذاهبة الى اي مكان ، حقّاً .

خليستاكوف . ولماذا لم تكوني ذاهبة الى اي مكان ؟

ماريا انتونوفنا . كنت افكّر هل ماما هنا . . .

خليستاكوف . لا ، اود ان اعرف : لماذا لم تكوني ذاهبة الى اي مكان ؟

ماريا انتونوفنا . اعتقتكم . كنتم مشغولين بامور مهمّة .

خليستاكوف (يتثنّى) . ولكن عينيك احسن من الأمور المهمّة . . . لا يمكن ان تعيقيني . لا يمكنكِ باي شكل من الأشكال . وعلى العكس من ذلك يمكنكِ ان توفري لي متعة .

ماريا انتونوفنا . انتم تتكلّمون على طريقة العاصمة .

خليستاكوف . لمرأة رائعة مثلك . هل اجرؤ ان اُسعد بتقديم مقعد لك ؟ ولكن لا ، انتِ تستحقّين عرشاً وليس مقعداً .

ماريا انتونوفنا . حقّاً ، لا اعرف . . . كنتُ بحاجة شديدة الى الذهاب . (تجلس .)

خليستاكوف . ما أجمل منديلك !

ماريا انتونوفنا . انتم تهزلون . لا يهمّكم إلا ان تضحكوا من بنات الأقاليم .

خليستاكوف . كم اودّ ، يا مولاتي ، ان اكون منديلكِ لأطوق عنقكِ الناصع .

ماريا انتونوفنا . انا لا افهم ابداً ، عمّ تتكلّمون : منديل . . . اي طقس غريب اليوم !

خليستاكوف . ولكن شفتيكِ ، يا مولاتي ، احسن من اي طقس .

ماريا انتونوفنا . كلامكم دائماً بهذا الشكل . .. لو ارجوكم ان تكتبوا ابياتاً من الشعر في الألبوم للذكرى . اظنّكم تحفظون الكثير من الشعر .

خليستاكوف . كلّ ما تريدينه ميسر لكِ ، يا مولاتي ، اطلبي اي أشعار تحبّين .

ماريا انتونوفنا . أبياتاً جيّدة ، جديدة .

خليستاكوف . خذي قدر ما تشائين ! انا اعرف الكثير من الأشعار .

ماريا انتونوفنا . طيّب ، قل لي اي الأشعار ستكتب لي ؟

خليستاكوف وما الحاجة الى هذا الكلام ؟ انا اعرفها بدون ذلك .

ماريا انتونوفنا . انا احبّها كثيراً .

خليستاكوف . وعندي الكثير من اصنافها . طيّب ، تفضّلي ، خذي هذا البيت على الأقل : «اوه ، يا انسان ، يا مَنْ تتذمّر من الربّ ، عند الضيم» وابيات اخرى . . . لا أستطيع ان اتذكّرها الآن . وعلى العموم كلّ ذلك لا يعني شيئاً ، الأحسن ان اقدّم لكِ بدلاً من هذا ، حبّي الذي من نظرتك . . . (يقرب المقعد .)

ماريا انتونوفنا . حبّ ! انا لا افهم الحبّ . . . لم اعرف قطّ ما هو الحبّ . . . (تبعد مقعدها .)

خليستاكوف . ولماذا تبعدين مقعدكِ ؟ الأحسن ان نجلس عن قرب .

ماريا انتونوفنا (تبتعد) . ولماذا عن قرب ؟ لا يهمّ عن بعد ايضاً .

خليستاكوف (يقترب) . ولماذا عن بعد ؟ لا يهمّ عن قرب ايضاً .

ماريا انتونوفنا (تبتعد) . ولكن لِمَ هذا ؟

خليستاكوف (يقترب) . هذا مجرد توهّم منكِ انّه عن قرب ، ولكن تخيلي انّه عن بعد . كم سأكون سعيداً ، يا آنستي ، لو اعصركِ بين ذراعيّ !

ماريا انتونوفنا (تنظر في النافذة) . ما هذا الذي أحسبه طار هناك ؟ عقعق أم طائر آخر ؟

خليستاكوف (يقبّل كتفها ، وينظر في النافذة) . هذا عقعق .

ماريا انتونوفنا (تنهض بحنق) لا ، هذا أكثر من اللازم . . . وقاحة ! . .

خليستاكوف (يمسكها) . اعذريني ، يا آنستي ، فعلت ذلك عن حبّ ، عن حبّ بالضبط .

ماريا انتونوفنا . أنتم تعتبرونني من بنات الأقاليم . . . (تحاول أن تخرج .)

خليستاكوف (ما يزال ممسكاً بها) . عن حبّ ، حقّاً عن حبّ . مجرّد مزاح ، يا ماريا انتونوفنا ، فلا تزعلي . أنا مستعدّ أن أركع ملتمساً المغفرة منكِ . (يركع) اغفري لي ، اغفري لي ! هذا أنتِ ترينني راكعاً .

المشهد الثالث عشر

(**الشخصان ذاتهما** مع **آنا آندرييفنا**) .

آنا آندرييفنا (وقد رأت خليستاكوف راكعاً) . آه ، ما هذا المنظر !

خليستاكوف (ينهض) . اللعنة على الشيطان !

آنا آندرييفنا (لابنتها) . ما يعني هذا ، يا آنسة ؟ ما هذه التصرّفات ؟

ماريا انتونوفنا . أنا ، يا ماما . . .

آنا آندرييفنا . اخرجي من هنا ! تسمعين : اخرجي ، اخرجي ! ولا تجسري أن ترينني وجهك .

(ماريا انتونوفنا تخرج دامعة العينين) .

اسمحوا لي ، بصراحة ، أنا مندهشة . . .

خليستاكوف (جانباً) . وهي أيضاً لذيذة جدّاً ، مليحة جدّاً . (يركع) مولاتي ، ها أنتِ ترينني أحترق من الحبّ .

آنا آندرييفنا . كيف هذا ، تركعون ؟ آه ، قوموا ، قوموا ! أرضية الحجرة غير نظيفة كلّيّاً .

خليستاكوف . لا ، بل أركع ، لا بدّ أن أركع . أريد أن أعرف ما المكتوب لي : أن أحيا أو أن أموت .

آنا آندرييفنا . ولكن اعذروني ، ما أزال غير فاهمة كلماتكم تماماً . أنتم ، اذا لم أخطئ ، تريدون أن تخطبوا إبنتي .

خليستاكوف . لا ، بل واقع في غرامكِ . حياتي معلقة بشعرة . واذا لا تتوّجين حبّي المقيم فلست أهلاً لوجودي على الأرض . اطلب يدك ، واللهب يجتاح صدري .

آنا آندرييفنا . ولكن اسمحوا أن أذكركم بأنّني الى حدّ ما . . . متزوّجة .

خليستاكوف . هذا لا يعني شيئاً ! لا فرق في الحبّ ! قال كارامزين : «القوانين تُدان» . سنفرّ تحت ضجيج النافورة . . . اطلب يدك . اطلب يدك !

المشهد الرابع عشر

(**الشخصان ذاتهما وماريا انتونوفنا** تدخل راكضة فجأة) .

ماريا انتونوفنا . ماما ، بابا قال . . . (تصيح بعد أن ترى خليستاكوف راكعاً) . آه ، ما هذا المنظر !

آنا آندرييفنا . ماذا بك ؟ لِمَ ؟ السبب ؟ ما هذا الطيش ! دخلت فجأة تركضين كالقطة المخبولة . أي شيء مدهش وجدت ؟ ماذا خطر في بالكِ ؟ أنتِ كطفلة في الثالثة ، حقّاً ، لا يبدو ، لا يبدو عليها اطلاقاً أنها بلغت الثامنة عشرة . لا أدري متى ستكونين أعقل ، متى ستتصرّفين كآنسة على حظ معتبر من الثقافة والتربية ، متى ستعرفين ما هي الأصول الحميدة والرصانة في السلوك .

ماريا انتونوفنا (من خلال الدموع) . ماما ، في الحقيقة ، لم أكن أعرف . . .

آنا آندرييفنا . دائماً عندكِ هوس في رأسكِ . تأخذين

القدوة من بنات ليابكين-تيابكين . لماذا تنظرين اليهنّ ؟ لا حاجة لأن تنظري اليهنّ . عندكِ قدوات أخرى . أمامك أمّك . عليكِ أن تأخذي بهذه القدوات .

خليستاكوف (يمسك يد الإبنة .) آنا آندرييفنا ، لا تقفي في طريق هنائنا . باركي الحبّ المقيم .

آنا آندرييفنا (بدهشة) . يعني واقع فيها ؟ . .

خليستاكوف . قرري : الحياة أم الموت ؟

آنا آندرييفنا . ها أنتِ ترين ، يا حمقاء ، ترين . من أجلك ، يا حثالة ، تفضّل الضيف فركع . بينما أنتِ دخلتِ راكضة فجأة ، كالمخبولة . أنتِ في الحقيقة تستحقّين أن أرفض عن عمد . أنتِ لا تستأهلين هذه السعادة .

ماريا انتونوفنا . لن افعل ، يا ماما ، لن افعلها مرّة اخرى . حقيقة .

المشهد الخامس عشر

(**نفس الأشخاص ، وحاكم المدينة** في عجالة واضطراب) .

حاكم المدينة . يا صاحب السيادة لا تتشدّدوا معي !

خليستاكوف . ماذا بكَ ؟

حاكم المدينة . التجّار اشتكوا لسيادتكم . اقسم لكم بشرفي لا وجود حتّى لنصف ما يقولونه . هم انفسهم يحتالون ويغشون الناس . وزوجة ضابط الصف كذبت عليكم حين زعمت انّني جلدتها . إنّها تكذب ، وحقّ الرب ، تكذب . هي التي جلدت نفسها . بنفسها .

خليستاكوف . دعني عن زوجة ضابط الصفّ هذه ، لا يهمني شأنها !

حاكم المدينة . لا تصدّقوا بهم ، لا تصدّقوا ! هؤلاء كذّابون . . حتّى الطفل الصغير لا يصدّق بهم . المدينة كلّها تعرف أنّهم كذّابون . أمّا بخصوص النصب ، فأجرؤ على القول إن هؤلاء نصّابون لم يشهد العالم لهم مثيلاً .

آنا آندرييفنا . هل تدري أي شرف يمنحنا إيفان الكسندروفيتش ؟ يطلب يد ابنتنا .

حاكم المدينة . قفي عند حدّك ! . . تخبلت ، يا ست ! لا تغضبوا ، يا صاحب السيادة ! فيها شيء من اللوثة ، مثلما كانت أمّها .

خليستاكوف . نعم ، بالضبط ، أطلب يدها . أنا عاشق .

حاكم المدينة . لا يمكن أن أصدّق ، يا صاحب السيادة .

آنا آندرييفنا . هذا ما يقولونه لكَ !

خليستاكوف . لست مازحاً في كلامي لكَ . . . يمكن أن يسلب الحبّ عقلي .

حاكم المدينة . لا أجرؤ أن أصدّق انّني أهل لمثل هذا الشرف .

خليستاكوف . واذا كنتَ غير موافق على أن تعطيني يد ماريا انتونوفنا ، فالشيطان وحده يعرف انّني مستعدّ . . .

حاكم المدينة . لا يمكن أن أصدّق . انتم تمزحون ، يا صاحب السيادة !

آنا آندرييفنا . دماغ ناشف بالضبط . اذا كانوا يقولون لكَ .

حاكم المدينة . لا يمكن أن أصدّق .

خليستاكوف . وافق ، وافق . أنا انسان نزق ، أقدم على كلّ شيء . اذا أطلقت النار على نفسي ستُقدّم الى المحكمة .

حاكم المدينة . آه ، يا إلهي ! لستُ ، والحقّ ، ملوماً في هذا لا بالقلب ولا بالجسد ، لا تغضبوا . ولكم أن تتصرّفوا كما تشاؤون . فإن في رأسي الآن ، في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف ماذا يحصل . صرت بليداً الى حد لم أكن عليه من قبل .

آنا آندرييفنا . طيّب ، بارك !

(خليستاكوف يقترب مرافقا ماريا انتونوفنا) .

حاكم المدينة . اللّه يباركهما ، وما أنا بملوم !

(خليستاكوف وماريا انتونوفنا يتبادلان القبل . حاكم المدينة ينظر اليهما) .

اي شيء هذا ! في الواقع ! (يفرك عينيه .) يتبادلان القُبَل ! آه ، يا أولياء ، يتبادلان القبل ! خطيب حقيقي ! (يصيح ، وهو يقفز من الفرح .) حلو ، يا أنتون ! حلو يا أنتون ! حلو ، يا حاكم المدينة ! هذه في النتيجة !

المشهد السادس عشر

(نفس الاشخاص واوسيب) .

أوسيب . الخيول جاهزة .

خليستاكوف . آه ، طيب . . . انا حالاً .

حاكم المدينة . كيف ؟ تسافرون ؟

خليستاكوف . نعم ، اسافر .

حاكم المدينة . ومتى يعني . . . انتم انفسكم ، اظنّ ، لمحتم الى الزفاف ؟

خليستاكوف . ولكن هذا . . . لدقيقة واحدة فقط . . . ليوم واحد إلى عمّي ، العجوز الثري . وغداً سأعود .

حاكم المدينة . لا نجرؤ على اعاقتكم ، أملاً في عودة ميمونة .

خليستاكوف . بالطبع ، بالطبع ، بسرعة البرق . مع السلامة ، يا حبّي . . . لا ، غير قادر على التعبير ! مع السلامة ، يا روحي ! (يقبّل يدها .)

حاكم المدينة . الا تحتاجون شيئاً للطريق ؟ ربّما تحتاجون إلى فلوس ؟

خليستاكوف . لا ، ابداً ، ولِمَ هذا ؟ (بعد تفكير قصير .) على العموم ، ممكن .

حاكم المدينة . كم تريدون ؟

خليستاكوف . اعطيتموني مائتين ، اقصد اربعمائة لا مائتين ، لا اريد ان استغلّ خطأك . والآن ، أعتقد نفس المبلغ ، ليصير ثمنمائة بالضبط .

حاكم المدينة . حالاً ! (يخرج من محفظة النقود .) وكأنّما خصيصاً ، بأجدّ النقود الورقية .

خليستاكوف . أي ، نعم ! (يأخذ النقود ويعاينها .) هذا لطيف . يقولون النقود الورقية الجديدة تجلب سعادة جديدة .

حاكم المدينة . بالضبط .

خليستاكوف . مع السلامة ، يا انتون انتونوفيتش ! ممنون جداً على حسن الضيافة . واعترف بكلّ قلبي : لم احظ ابداً بمثل هذا الاستقبال اللطيف في اي مكان . مع السلامة ، يا آنا آندرييفنا ! مع السلامة ، يا روحي ، يا ماريا انتونوفنا .

(يخرج الجميع) .

(من وراء المسرح) :

صوت خليستاكوف . مع السلامة ، يا ملاك روحي ، ماريا انتونوفنا .

صوت حاكم المدينة . كيف هذا منكم ؟ هل تسافرون على عربة بريد اعتيادية ؟

صوت خليستاكوف . نعم ، تعوّدت على ذلك . يصيبني صداع من العربة ذات النوابض .

صوت الحوذي . ترر . . .

صوت حاكم المدينة . على الأقل لو فرشت بشيء ، ولو ببساط صغير . هل آمر بجلب بساط ؟

صوت خليستاكوف . لا ، ولماذا ؟ لا اهمية لذلك ، ولكن على العموم ، ممكن ، ليجلبوا بساطاً .

صوت حاكم المدينة . يا آفدوتيا ! اذهبي الى حجرة المتاع ، واخرجي منها أحسن بساط ، الفارسي ، الأزرق . اسرعي !

صوت الحوذي . تررر . . .

صوت حاكم المدينة . متى سننتظركم ؟

صوت خليستاكوف . غداً او بعد غد .

صوت أوسيب . آ. . . هذا بساط ؟ هاتيه الى هنا ، افرشيه هكذا ! والآن لنضع التبن من هذا الجانب .

صوت الحوذي . ترر . . .

صوت أوسيب . من هذا الجانب ! الى هنا ! اكثر ! كفاية !

ستكون مريحة جداً ! (يضرب البساط بيده .) والآن ، اجلس ، يا صاحب النبالة .

صوت خليستاكوف . مع السلامة ، يا أنتون أنتونوفيتش .

صوت حاكم المدينة . مع السلامة ، يا صاحب السيادة !

صوتان نسائيان . مع السلامة ، يا إيفان الكسندروفيتش !

صوت خليستاكوف . مع السلامة ، يا ماما !

صوت الحوذي . هيّا ، يا خِفاف !

(صوت جرس . الستارة تنزل) .

الفصل الخامس

(نفس الحجرة) .

المشهد الأول

(حاكم المدينة ، آنا آندرييفنا ، ماريا انتونوفنا) .

حاكم المدينة . ماذا ، يا آنا آندرييفنا ؟ ها ؟ هل خطر ذلك على بالك ؟ أية جائزة ثمينة ، يا للعنة ! اعترفي بصراحة أن ذلك لم يراودك حتّى في الحلم . مجرّد زوجة حاكم مدينة وفجأة . . . يا للعنة ! . . مع مَنْ تناسبت !

آنا آندرييفنا . على العكس تماماً كنت أعرف ذلك منذ زمان ! أنتَ الذي انبهرت به ، لأنكَ رجل بسيط ، لم تر الناس المعتبرين قطّ .

حاكم المدينة . أنا نفسي انسان معتبر ، يا ستّى . ومع ذلك ، يا آنا آندرييفنا ، الى أين حلقنا أنا وانتِ ! ها ، يا آنا آندرييفنا ؟ تحليقة عالية ، وحقّ الشيطان ! لينظروا الآن كيف سأشيّط كلّ هؤلاء المحبّين لتقديم الشكاوى والوشايات ! هاي ، يا مَنْ هناك .

(يدخل **شرطي**) .

هذا أنت ، يا إيفان كاربوفيتش ! استدع التجّار الى هنا ، يا أخ . سأُري هؤلاء المحتالين ! يتشكّون منّى ؟ هكذا يتصرفون ، يا خونة المسيح الملاعين ! انتظروا يا حلوين ! من قبل كنتُ أكيل لكم بالصاع ، والآن سأكيل لكم بالصاع والذراع . سجّل كلّ الذين كانوا يأتون للتشكّي منّي ، وفي المقدّمة أولئك الذين شخبطوا له العرائض ، والشكاوى وإبلغ الجميع ليعرفوا ما أرسل الربّ من فضل على حاكم المدينة ليزف إبنته لا إلى رجل بسيط ، بل إلى رجل لم تر الدنيا مثيلاً له من قبل ، قادر على أن يفعل كلّ شيء ، كلّ شيء ، كلّ شيء ! ابلغ الجميع ليعرفوا ذلك . اهتف في الناس جميعاً ، دقّ بالناقوس ، ياه ! اذا حلّ عيد ، فأهلا به .

(الشرطي يخرج) .

هكذا اذن ، يا آنا آندرييفنا . ها ؟ أين سنعيش الآن ؟ هنا أم في بطرسبورغ ؟

آنا آندرييفنا . طبيعي في بطرسبورغ . وكيف يمكن ان نبقى هنا !

حاكم المدينة . ما دام في بطرسبورغ ، فليكن في بطرسبورغ . ولو أن العيش طيّب ، هنا أيضاً . في هذه الحال ليذهب منصب حاكمية المدينة الى سقر ، ها ، يا آنا آندرييفنا ؟

آنا آندرييفنا . طبيعي ، وما قيمته !

حاكم المدينة . لأنّ في الإمكان الآن إقتناص وظيفة كبيرة ، لأنه على قدم المساواة مع جميع الوزراء ، ويزور القصر أيضاً ، ولهذا يمكنه أن يرقيني ترقية كبيرة ، حتّى أصل الى رتبة جنرال بمرور الزمن . ما رأيك ، يا آنا آندرييفنا ، هل يمكن الوصول الى رتبة جنرال ؟

آنا آندرييفنا . وكيف لا ! ممكن ، بالطبع .

حاكم المدينة . ياه ، روعة أن يصير الانسان جنرالاً ! فيعلّقون وشاح وسام على كتفه . أي وشاح تفضّلين ، يا آنا آندرييفنا ، أحمر أم أزرق ؟

آنا آندرييفنا . أزرق ، بالطبع .

حاكم المدينة . ها ؟ بالغتِ في مطلبكِ ! الأحمر أيضاً جيّد . هل تعرفين لماذا أريد أن أصير جنرالاً ؟ لأنّه يحدث أن يسافر الجنرال فلا يرى أمامه غير رُسُل الحكومة والمرافقين يسبقونه يُطلبون الخيول . بينما في المحطـــات لا يعطون الخيول إلا لهم ، والجميع ينتظرون . كلّ هؤلاء الموظّفين الصغار والضباط برتبة رائد ، وحكّام المدن . بينما الجنرال مطمئنّ البال . يتناول غداءه عند حاكم الولاية ، أما أنتَ ، يا حاكم المدينة ، فابق في مكانك وانتظر ! ها ، ها ، ها ! (يغرق في الضحك .) يا للعنة هذا شيء مغر !

آنا آندرييفنا . أنتَ مولَع بالفجّ دائماً . عليكَ أن تتذكّر أن عليك أن تغيّر حياتك كلّيّاً ، فلا تصاحب قاضياً مولَعـــاً بالكلاب تخرج لاصطياد الأرانب معه ، أو زيملانيكا بل على العكس سيكون أصحابك من ذوي السلوك الرقيق : الكونتات وكلّ وجهاء القوم . . . ولكنّني خائفة عليك ، حقّاً . أنتَ أحياناً تتفوه بكلمة لن تسمعها أبداً في المجتمع الراقي .

حاكم المدينة . ثمّ ماذا ؟ الكلمة لا تضرّ .

آنا آندرييفنا . هذا صحيح ، حين كنتَ حاكم مدينة . ولكن الحياة مختلفة تماماً هناك .

حاكم المدينة . نعم ، يقولون هناك صنفان من السمك : يجعلان لعابك يسيل ، حالما تبدئين بالأكل .

آنا آندرييفنا . لا همّ له غير السمك . بينما أريد أن يكون بيتنا الأوّل في العاصمة ، وأن تفـــوح رائحة العنبر في حجرتـــي بشكل لا يستطيع الانسان أن يدخل فيها دون أن يقلّص عينيه هكذا (تقلّص عينيها وتتشمّم .) آه ، ما ألطفه !

المشهد الثاني

(الشخصان ذاتهما مع التجار) .

حاكم المدينة . آ . . . مرحباً ، يا أحباب !

التجار (ينحنون) . حياكم اللّه ، يا مولانا !

حاكم المدينة . كيف الأحوال ، يا أعزائي ! كيف تسير تجارتكم ؟

شكوتم يا خاملون يـــا خردوات ؟ يـا جذور النصب ، وثعالب الاحتيال ، وأوباش الخداع ! شكوتم ؟ وهل حصلتم على الكثير ؟ تتصوّرون أنّكم ستزجّونني في السجن ! هل تعرفون ، يا نسل الشياطين ، يا ضرع الجرب أن . .

آنا آندرييفنا . آه ، يا إلهي ، ما هذه الكلمات التي تقولها ، يا عزيزي أنتون !

حاكم المدينة (باستياء) . لستُ معنياً بالكلمات الآن ! هل تعرفون أن الموظّف الذي شكوتم عنده سيتزوّج ابنتي الآن ؟ ها ؟ ماذا ؟ ماذا تقولون الآن ؟ سأريكم الآن . . . تحتالون على الناس . . . تعقدون مقاولة لتزويد الحكومة ، فتخدعونهـا بمائة ألف ، حين تدسّون لها جوخاً متهرّئـــاً ، وبعد ذلك تتنازلون بعشرين ذراعاً هبة ، وفوق ذلك تطالبون بوسام ؟ آه ، لو كانوا يعرفون ، اذن . . . الواحد منهم ينفخ كرشه ليقول أنا تاجر ، فلا تمسني . «نحن لا نقل شأناً حتّى عن النبلاء .» ولكن النبيل . . . آه ، الأوغاد ! النبيل يدرس العلوم ، واذا جلدوه في المدرسة ، فذلك عن فائدة ، ليعرف ما هو النافع . وأنتم ؟ تبدأون حياتكم محتالين ، وصاحب المال يضربكم إذا لـم تحسنوا الاحتيال ومنذ الصغر ، وقبل أن تعرفوا «أبانـا الذي في السماوات !» تطفقون بالذراع ، وحالما تكبر كروشكم ، وتمتلئ جيوبكم بالمال ، تختالون عظمة ! تفو عليكم أية عظمة هذه ! تختالون عظمة ، لأن الواحد منكم يشرب ستّة عشر سماوراً من الشاي في اليوم ؟ بصقة على رؤوسكم وعلى عظمتكم !

التجّار (ينحبون) . مذنّبون ، يا أنتون أنتونوفيتش !

حاكم المدينة . تشتكـــي ؟ مَنْ ساعدكَ على الغشّ ، حين بنيت جسراً ، وسجّلت عشرين ألف قيمة خشب ، بينما لم يكلّفك الخشب حتّى مائة روبل ؟ أنا الذي ساعدتكَ ، يا ذقن العنز ! هل نسيت هذا ؟ لو شهدت بذلك عليك ، لأمكن أن تُنفى أنتَ أيضاً الى سيبيريا . ما رأيك ؟ ها ؟

أحد التجّار . مذنّبون أمام الربّ ، يا أنتون أنتونوفيتش ، وسوس لنا الشيطان . ولن نشكو بعد الآن ونعاهدك على ذلك . خذ أي تعويض ولكن لا تغضب !

حاكم المدينة . لا تغضب ! الآن اركـــع انتَ على قدميّ . ولماذا ؟ لأن كفّتي هي التي رجحت . ولو كان الرجحان مال الى كفّتك قليلاً ، لكنت ، ايّها النصّاب ، مرّغتني بالوحل ، بل ودست على خناقي .

التجّار (يكبون على قدميه) . لا تتشدّد معنـــا ، يا أنتون انتونوفيتش !

حاكم المدينة . لا تتشدّد ! الآن لا تتشدّد ! وقبـــل ؟ كنت ساريكم . . . (يلوح بذراعه .) ولكن ليسامحكم الربّ ! كفى ! انا لا اضمر حقداً لأحد . ولكن خذوا حذركم الآن ! انا لا ازوّج ابنتي لنبيل اعتيادي . فلتكن التبريكات على قدّ المقـــام . . . فاهمون ؟ لا دفع الشر بسمكة سلمون مملحة او راس سكّر . . . طيب ، اخرجوا ، عفا اللّه عنكم !

(التجّار يخرجون) .

المشهد الثالث

(**نفس الأشخاص ، واموس فيدروفيتش ، وارتيمي فيليبوفيتش** ، وبعد ذلك **راستاكوفسكي**) .

امّوس فيدروفيتش (وهو ما يزال عند الباب) . هل اصدّق بالشائعات يا انتون انتونوفيتش ؟ صحيح انّ سعادة غير مألوفة اهلّت عليك ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . اتشرّف بالتهنئة بهذه السعادة غير المألوفة . فرحت من كـــلّ قلبي ، حين سمعت . (يلثم يد آنا آندرييفنا .) آنا آندرييفنا ! (يلثم يد ماريـــا انتونوفنا .) ماريا انتونوفنا !

راستاكوفسكي (يدخل) . تهانيّ ، يـــا انتون انتونوفيتش ! اطال اللّه عمركم وعمر الزوجين الجديدين ، ومنحكم ذرية كثيرة ، احفاداً وابناء الأحفاد ! آنا آندرييفنا ! (يلثم يد آنا آندرييفنا .) ماريا انتونوفنا ! (يلثم يد ماريا انتونوفنا .)

المشهد الرابع

(**نفس الأشخاص وكوروبكين وزوجته ، وليوليوكوف**) .

كوروبكين . اتشرّف بالتهنئة ، يا انتون انتونوفيتش ! آنا آندرييفنا ! (يلثم يد آنا آندرييفنا .) ماريا انتونوفنا ! (يلثم يد ماريا انتونوفنا .)

زوجة كوروبكين . اهنّئك من كلّ قلبي ، يا آنا آندرييفنا ، بالسعادة الجديدة .

ليوليوكوف . اتشرّف بالتهنئة ، يا آنا آندرييفنا ! (يلثم يدها ، وبعد ذلك يدير وجهه إلى المتفرّجين ، ويتمطق بلسانه امارة على الجسارة .) ماريا انتونوفنا ! اتشرّف بالتهنئة . (يلثم يدها ، ويدير وجهه الى المتفرّجين بنفس الامارة .)

المشهد الخامس

(**عدد كبير من الضيوف** في السترات الرسمية والفراك يلثمون في البداية يد آنا آندرييفنا قائلين : «آنا آندرييفنا !» وبعد ذلك يد ماريا انتونوفنا قائلين : «ماريا انتونوفنا») .

(شق **بوبتشينسكي ودوبتشينسكي** طريقهما بين الضيوف) .

بوبتشينسكي . اتشرّف بالتهنئة .
دوبتشينسكي . انتون انتونوفيتش ، اتشرّف بالتهنئة !
بوبتشينسكي . بالخير واليمن !
دوبتشينسكي . آنا آندرييفنا !
بوبتشينسكي . آنا آندرييفنا !

(الاثنان يتقدّمان في وقت واحد فيتصادمان بالجبين) .

دوبتشينسكي . ماريا انتونوفنا ! (يلثم يدهـــا .) اتشرّف بالتهنئـــة . سترين عزّاً ، عزاً كبيراً ، وتلبسين ثوباً مذهّباً ، وتاكلين اصنافاً مختلفة من الحساء المترف . وستقضين وقتاً غاية في المتعة .

بوبتشينسكي (يقاطعه) . ماريا انتونوفنا ، اتشرّف بالتهنئة ! كتب اللّه لك كلّ الثراء والمال النفيس وطفلاً صغيراً بهذا القدّ (يشير بيده) حتّى يمكن ان يوضع على الكفّ ، نعم ! وطوال الوقت يصيح : واع ! واع ! واع !

المشهد السادس

(بعض الضيوف الآخرين يلثمون ايدي المرائين ، **لوكا لوكيتش وزوجته**) .

لوكا لوكيتش . اتشرّف . . .

زوجة لوكا لوكيتش (تسبق زوجها راكضة) . امنّتك ، يا آنا آندرييفنا !

(تقبلها) .

كم فرحت حقّاً . يقولون لي «آنا آندرييفنا تزوج ابنتها» . فاقول في نفسي : «آه ، يا إلهي !» وفرحت كثيراً . واقول لزوجي : «اسمع ، يا لوكا العزيز ما اسعد حظّ آنا آندرييفنا !» واقول لنفسي : «طيّب ، حمداً للّه !» واقول له : «انا في غاية الابتهاج تحرقني اللهفة لأعرب لآنا آندرييفنا شخصياً . . .» واقول لنفسي : «آه ، يا إلهي ! آنا آندرييفنا بالفعل كانت تنتظر زيجة موفقة لإبنتها ، والآن جاء هذا الحظّ . تحقّق ما كانت تريده بالضبط» . وفرحت بالفعل فرحة شلّت لساني . فابكي ، وابكي ، وتاخذني العبرة فانتحب تماماً . ويقول لوكا لوكيتش : «لماذا تنتحبين ، يا عزيزتي ؟» فاقول : «يا عزيزي انا نفسي لا ادري . ولكن الدموع تفيض من عيني أنهاراً» .

حاكم المدينة . ارجوكم حارّ الرجاء ، يا سادة ، ان تجلسوا ! يا ميشكا ، اجلب مقاعد اكثر .

(الضيوف يجلسون) .

المشهد السابع

(نفس الأشخاص ، رئيس الشرطة ، رجال الشرطة) .

رئيس الشرطة . اتشرّف بتهنئتكم ، يا صاحب النبالة ، واتمنّى اليمن والرفاه لسنين طويلة !

حاكم المدينة . شكراً ، شكراً ، ارجو ان تجلسوا ، يا سادة .

(الضيوف يتخذون مقاعدهم) .

امّوس فيدروفيتش . ولكن قل لي ، ارجوك ، يا انتون انتونوفيتش ، كيف بدأ كلّ هذا ، مجرى كلّ هذا ، اقصد ، مجرى الأمر ، بالتسلسل .

حاكم المدينة . مجرى الأمر استثنائي . هو الذي طلب يدها من تلقاء نفسه .

آنا آندرييفنا . بطريقة مهذّبة جداً ، وغاية في الرقة . ظلّ يتكلّم بفصاحة استثنائية . يقول : «انا ، يا آنا آندرييفنا ، من احترامي فقط لمكارمكم . . .» رجل رائع مثقّف بأنبل الأصول ! «ثقي ، يا آنا آندرييفنا ، ان الحياة بالنسبة لي شيء تافه ، مجرّد انّني احترم خصالكم النادرة» .

ماريا انتونوفنا . آه ، ماما ! هذا الكلام قاله لي .

آنا آندرييفنا . قفي عند حدّك ، انتِ لا تعرفين شيئاً ، فلا تتدخّلي بما لا يعنيكِ ! «انا مندهش ، يا آنا آندرييفنا . . .» كان يتدفّق بمثل هذه الكلمات المريحة للنفس . . . وحين اردت ان اقول : «لا يمكن ان نجرأ على الطموح إلى مثل هذا الشرف» ، — ركع فجأة ، وبطريقة غاية في النبل : «يا آنا آندرييفنا ، لا تجعليني تعيساً ! وافقي على الاستجابة لمشاعري ، وإلا فسأسوّي على حياتي بالموت» .

ماريا انتونوفنا . حقّاً ، يا ماما ، هذا الكلام قاله عني .

آنا آندرييفنا . نعم ، بالطبع . . . وعنكِ ايضاً ، وانا لا انكر هذا قطّ .

حاكم المدينة . بل وافزعنا ، حين صار يقول : سأطلق الرصاص على نفسي . هكذا : «سأرمي نفسي ، سأرمي نفسي !»

الكثير من الضيوف . عجيب !

امّوس فيدروفيتش . حكاية عجيبة !

لوكا لوكيتش . حقّاً ، هكذا اراد القدر .

ارتيمي فيليبوفيتش . ليس القدر فالقدر أعمى . ولكنّها المؤهّلات . (جانبا .) الحظّ دائماً يضع اللقمة في فمّ من لا يستحقّها .

امّوس فيدروفيتش . اعتقد ، يا انتون انتونوفيتش ، انّني سأبيعك الكلب الذي أردت أن تشتريه .

حاكم المدينة . لا ، لا تهمّني الكلاب الآن .

امّوس فيدروفيتش . لا تريد هذا ، تعال نتّفق على كلب آخر ، اذن .

زوجة كوروبكين . آه ، يا آنا آندرييفنا ، كم أنا مسرورة بسعادتكم ! لا يمكن أن تتصوّري .

كوروبكين . أين الضيف المبجّل الآن ، اذا سمحتم أن نعرف ؟ سمعت انّه سافر لغرض ما .

حاكم المدينة . نعم ، سافر ليوم واحد . في شأن غاية الأهمية .

آنا آندرييفنا . الى عمّه يطلب مباركته .

حاكم المدينة . يطلب مباركته . ولكنّه غداً . . . (يعطس .)

(التمنيات بالصحّة * تنصب في طنين واحد) .

شكراً كثيراً ! ولكنّه غداً سيعود . . . (يعطس .)

(طنين التمنيات ، تسمع من خلاله أصوات أقوى) .

صوت مدير الشرطة . عامر الصحّة ، يا صاحب النبالة .

صوت بوبتشينسكي . مائة عامٍ من العمر ، وشليفاً من الذهب .

صوت دوبتشينسكي . أطال اللّه عمرك !

صوت أرتيمي فيليبوفيتش . في داهية !

صوت زوجة كوروبكين . يخطفك الشيطان !

حاكم المدينة . شكراً جزيلاً ! أتمنّى لكم نفس التمنيات .

آنا آندرييفنا . ننوي الآن الاقامة في بطرسبورغ . الهواء

* عندما يعطس الانسان يقال له ، حسب العادة الروسية القديمة : «مشافى» أو «عندك العافية» . **المترجم** .

هنا ، بصراحة ، قروي أكثر من اللازم ! . . ازعاج كبير ، بصراحة . . . وزوجي أيضاً سيحصل هناك على رتبة جنرال .

حاكم المدينة . نعم ، بصراحة ، يا سادة ، أودّ من كلّ قلبي أن أكون جنرالاً ، وحقّ الشيطان .

لوكا لوكيتش . طيب ، جعل اللّه هذه الرتبة من نصيبك .

راستاكوفسكي . اذا كان الانسان غير قادر ، فاللّه قادر .

امّوس فيدروفيتش . امام المركب الكبير رحلة كبيرة .

ارتيمي فيليبوفيتش . لكلٍ ما يستحقه .

امّوس فيدروفيتش (جانباً) . أعجوبة ، لو يصير جنرالاً بالفعل ! لأنّ الجنرالية تليق به ، بقدر ما يليق السرج ببقرة ! ولكن ، لا يا أخ ، ما يزال الشوط بعيداً . هناك مَنْ أكثر جدارة منك ، ولم يصيروا جنرالات حتّى الآن .

ارتيمي فيليبوفيتش . (جانباً) . أوه ، عليه اللعنة ، يرنو الى الجنرالية ! ولكن مَنْ يدري فقد يصير جنرالاً ، لأنّ له ، الملعون ، ما يكفي من العظمة . (يخاطبه .) اذن ، يا انتون انتونوفيتش ، لا تنسنا ، نحن أيضاً .

امّوس فيدروفيتش . واذا حصل شيء ، كأن نحتاج إلى مساعدة في اشغالنا ، فلا تتركنا بلا حمايتك .

كوروبكين . في السنة القادمة سآخذ إبني الى العاصمة بخدمة الدولة ، فاعمل معروفاً ، واشمله برعايتك . وكن في مقام أبيه الغائب .

حاكم المدينة . أنا مستعدّ من ناحيتي ، مستعدّ لأبذل الجهد .

آنا آندرييفنا . أنتَ ، يا عزيزي ، دائماً مستعدّ لبذل الوعود . أوّلاً ، لن يكون لكَ الوقت للتفكير بذلك . فكيف يمكن ، وبأي موجب ، ترهق نفسكَ بهذه الوعود .

حاكم المدينة . ولماذا ، يا روحي ؟ يمكن أحياناً .

آنا آندرييفنا . يمكن ، بالطبع ، ولكن الرعاية لا تقدّم لكلّ من هبّ ودبّ .

زوجة كوروبكين . هل سمعتم كيف تنظر الينا ؟

احدى النساء . كانت دائماً بهذا الشكل . أنا أعرفها . إذا أجلستها الى مائدة ، وضعت عليها رجليها أيضاً . . .

المشهد الثامن

(نفس الأشخاص ، يدخل **مأمور البريد** باستعجال ، وفي يده رسالة مفضوضة) .

مأمور البريد . أمر مذهل ، يا سادة ! الموظّف الذي حسبناه مفتشاً عاماً لم يكن مفتّشاً عامّاً .

الجميع . كيف لم يكن ؟

مأمور البريد . لم يكن مفتّشاً عامّاً على الاطلاق . وقد عرفت ذلك من الرسالة .

حاكم المدينة . ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ من اي رسالة ؟

مأمور البريد . من رسالة بخط يده . جاءوا بهذه الرسالة اليّ في البريد . وانظر الى العنوان فارى : «إلى شارع البريد» . فشعرت بمثل دبيب النمل في جسمي . وقلت لنفسي : «آها ، اظنّه عثر على خروق في قسم البريد ، فكتب يبلغ الرئاسة» . وفككت الختم .

حاكم المدينة . كيف فعلت هذا ؟

مأمور البريد . انا نفسي لا ادري ، قوة شريرة دفعتني . وكنت قد دعوت رسولاً ليحمل الرسالة على جناح السرعة . ولكن فضولاً قوياً استولى عليّ ، لم اشعر بمثله قطّ . اشعر بانني لن اصمد ولن اقاوم ، هناك شيء يغريني ويغريني ! في احدى اذنيّ اسمع هاتفاً يقول لي : «يا انت لا تفكّها . سيُقضى عليك ، كما يُقضى على دجاجة» ؛ وفي الأذن الأخرى اسمع شيطاناً يهمس لي : «فكّها ، فكّها ، فكّها !» وحالما ضغطت على شمع الختم ، حتّى احسست بالنار في عروقي . ولكنّني فضضته . وشعرت بقشعريرة ، وحقّ الربّ ، بقشعريرة . ويداي ترتعشان وكل شيء غام .

حاكم المدينة . ولكن كيف تجاسرت على فض رسالة شخصية مفوّضة مثله ؟

مأمور البريد . هذه هي المسالة ، ليس هو مفوّضاً ، ولا شخصية .

حاكم المدينة . ومَنْ هو ، اذن ، في اعتقادك ؟

مأمور البريد . لا بالعير ولا بالنفير . الشيطان يعلم أي شيء هو !

حاكم المدينة (مغتاظاً) . كيف لا بالعير ولا بالنفير ؟ كيف تجسر ان تنعته لا بالعير ولا بالنفير ؟ وتقول ايضاً الشيطان يعلم اي شيء هو ؟ سأعتقلك . . .

مأمور البريد . مَنْ ؟ انتَ ؟

حاكم المدينة . نعم ، انا !

مأمور البريد . باعك قصير ، فلا يصل !

حاكم المدينة . هل تعرف انّه سيتزوّج ابنتي ، وانّني انا سأصير صاحب مقام كبير ، وازجك حتّى في سيبيريا ؟

مأمور البريد . آه ، يا انتون انتونوفيتش ! اي سيبيريا ؟ سيبيريا بعيدة . الأحسن ان اقرأ لك . ايّها السادة ! هل تسمحون بأن اقرأ الرسالة ؟

الجميع . إقرأ ، إقرأ !

مأمور البريد . (يقرأ) . «اسرع بأن أبلغك ، يا عزيزي تريابيتشكين ، بالعجائب التي وقعت لي . في الطريق نظفني رائد مشاة من كلّ نقودي ، حتّى ان صاحب الحانة اراد ان يرسلني الى السجن . وفجأة ، ومن سحنتي البطرسبورغية ومن بزّتي تحسبني المدينة كلّها جنرالاً والياً ! وانا الآن اعيش في بيت حاكم المدينة ، واتمتّع بلذائذ الحياة واغازل زوجته وابنته ، كما اشتهي ، سوى انّني لم اقرّر بعد بمَنْ ابدأ . واظنّني سابدأ بالأمّ ، لأنّها ، كما يبدو ، مستعدّة في الحال لكلّ الخدمات . هل تذكر كيف اصابنا الفقر ، فكنا نتغدّى متطفّلين ، وذات مرّة امسكني حلواني من تلابيبي ، بسبب قطع الحلوى التي اكلتها على حساب ملك الانقليز ؟ الآن تختلف الحال تماماً . الجميع يقرضونني المبالغ التي اريدها . نماذج عجيبة . تجعلك تموت من الضحك . انا اعرف انّك تكتب مقالات ، فأدخل هذه النماذج في ادبك . اوّلاً : حاكم المدينة – ابله مكعّب . . .»

حاكم المدينة . غير ممكن ! لا وجود لهذا في الرسالة .

مأمور البريد (يشير الى الرسالة) . إقرأ بنفسك .

حاكم المدينة (يقرأ) . «مكعّب» . غيـــر ممكن ! أنتَ كتبتَ هذا .

مامور البريد . وكيف امكن ان اكتب ؟

ارتمي فيليبوفيتش . إقرأ .

لوكا لوكيتش . إقرأ .

مامور البريد (يستأنف القراءة) . «حاكـــم المدينة ابلـــه مكعّب . . .

حاكم المدينة . أوه ، اللعنة ! لازم ان يعيدها ايضاً ؟ وكأنّ ذلك غير موجود فيها أصلاً .

مامور البريد (يستمـــــر في القراءة) . إحم . . . إحم . . . إحم . . . «مكعب . ومامور البريد رجل طيب ايضاً . . .» (يتوقّف عن القراءة .) طيّب ، عنّي ايضاً يوجد تعبير غير محتشم .

حاكم المدينة . لا ، اقراه !

مامور البريد . ولكن ما الجدوى ؟

حاكم المدينة . لا ، عليك اللعنة . اذا كنت تقرأ ، فاقرأ كلّ شيء !

ارتيمي فيليبوفيتش . اسمحوا ان اقرأ انا . (يضع نظّارته ، ويقرأ .) «مأمور البريد نسخة طبق الأصل من حارس المديريـــة ميخييف . الرذيل سكير اصيل ، كما اعتقد .

مامور البريد (نحو المتفرّجين) . أوه ، صبي حقير ، يستحقّ الجلد ، ولا أكثر !

ارتيمي فيليبوفيتش (مواصلاً القراءة) . «راعـــي المؤسسات الخيرية . . . ي . . . ي . . . ي . . .» (يصيبه حصر في الكلام .)

كوروبكين . ولماذا توقّفتَ ؟

ارتيمي فيليبوفيتش . الخطّ غير واضح . عـلى العموم يبدو انّه سافل .

كوروبكين . هاتها لي ! اظنّ بصري اقـــوى ! (يمســـك الرسالة .)

ارتيمي فليبوفيتش . (لا يتركها له .) هذا الموضع يمكن ان يفوّت ، وبعده يصير الخطّ واضحاً .

كوروبكين . ولكن اسمح ، انا أعرف .

ارتيمي فيليبوفيتش . أقدر ان اقـــرا انا ايضاً . يتوضّح الخطّ بعد ذلك ، بالفعل .

مامور البريد . لا ، إقرأ كلّ شيء ! السابق كلّه قُرِئَ .

الجميع . أعطها ، يا ارتيمي فيليبوفيتش ، اعـــط الرسالة . (لكوروبكين .) إقرأها .

ارتيمي فيليبوفيتش . الآن . (يعطي الرسالة .) خذها . . . (يغطيها باصبعه .) إقرأ من هنا .

(الجميع يتقدّمون منه) .

مامور البريد . إقرأ ، إقرأ ! سخافة ، إقرأ كلّ شيء !

كوروبكين (يقرأ) . «راعـــي المؤسسات الخيرية زيملانيكا — خنزير حقيقي في قبّعة مدوّرة» .

ارتيمي فيليبوفيتش (الى المتفرّجين) . تنقصـــه الحذاقة في التعبير ! هل يوجد خنزير في قبّعة مدوّرة ؟

كوروبكين (مستمرّاً في القراءة) . «ناظر المدرسة مشبّع كلّية برائحة البصل» .

لوكا لوكيتش (الى المتفرّجين) . قسماً باللّه ، لم اضـــع البصل في فمّي قطّ .

امّوس فيدروفيتش (جانباً) . حمـداً للّه انّه لم يمسّني ، على الأقل .

كوروبكين (يقرأ) . «القاضي . . .»

امّوس فيدروفيتش . راساً ! . . . (بصوت مسموع .) ايّها السادة ، اظنّ الرسالة طويلة . ثمّ ايّة اهمية لها . نقرأ مثـــل القذارة .

لوكا لوكيتش . لا !

مامور البريد . لا ، إقرأ .

ارتيمي فيليبوفيتش . لا ، واصل القراءة !

كوروبكين (مواصلاً) . «القاضي ليابكين-تيابكين موفي تون في

أشدّ درجة . . .» * (يتوقّف .) يبدو أنّها كلمة فرنسية .

امّوس فيدروفيتش . الشيطان يعرف ماذا تعني ! لا بأس لو كانت تعني نصّاباً ، ولكن ربّما أسوأ من ذلك .

كوروبكين (يواصل القراءة) . «ولكن الناس ، على العموم ، مضيافون ، لطفاء . وداعاً ، يا عزيزي تريابيتشكين . أنا أيضاً أريد أن أحتذيك وأمارس الأدب . فالعيش بهذا الشكل مضجر ، يا أخ . والانسان ، في آخر الأمر ، يريد غذاء لروحه . وأرى من الضروري حقّاً أن يمارس الانسان شيئاً . أكتب لي الى ولاية ساراتوف . ومن هناك إلى قرية بودكاتيليفكا . (يقلّب الرسالة ، ويقرأ العنوان .) الى حضرة السيد المحترم ايفان فاسيليفتش تريابيتشكين ، سانت-بطرسبورغ ، شارع البريد ، رقم البيت ٩٧ ، في الفناء ، الطابق الثالث الى اليمين» .

احدى النساء . أية عاقبة غير متوقعة .

حاكم المدينة . طعن فأصاب المقتل ! فانا الآن قتيل ، قتيل تماماً ! لا أرى شيئاً . أرى خطوماً خنزيرية بدلاً من الوجوه ، ولا شيء آخر . . . أعيدوه ، أعيدوه ! (يلوّح بيده .)

مامور البريد . هيهات أن يُعاد ! أنا نفسي أوعزت للمشرف على المحطة خصيصاً بأن يعطيه أحسن الخيول . الشيطان وسوس لي فأعطيت توجيهات مماثلة على طول الطريق .

زوجة كوروبكين . ورطة ، بالضبط ، ورطة فريدة !

امّوس فيدروفيتش . خسارة ، يا سادة ! تسلّف منّي ثلثمائة روبل .

ارتيمي فيليبوفيتش . ومني أيضاً ثلثمائة روبل .

مامور البريد (يزفر) . أوه ! ومنّي أيضاً ثلثمائة روبل .

بوبتشينسكي . ومنّي ومن بيتر ايفانوفيتش خمسة وستّين من النقد الورقي . نعم .

امّوس فيدروفيتش (يبسط يديه بحيرة) . كيف هذا ، يا سادة ؟ كيف انجرفنا الى هذا ، حقيقة ؟

---

* عن الفرنسية mauvais ton . وتعني التناغم السيّئ أو النشاز ، وقد استخدمها غوغول للتعبير عن انسان غير المثقّف والذي لا يحسن التصرف في المجتمع . المعرب .

حاكم المدينة (يضرب جبينه) . وكيف أنا ، الأبله العجوز ؟ خرّفت ، أنا التيس الأخرق ! منذ ثلاثين سنة وأنا في الوظيفة ، دون أن يقدر تاجر أو مقاول على التغرير بي . كنت أخدع النصّابين وأساتذة النصّابين ، وأُوقع بالمصيدة المخاتلين والمحتالين المستعدّين لسلب العالم كلّه . خدعت ثلاثة من حكّام الولايات ! . . وما أسهل ذلك ! (يشمر ذراعه .) خداع حكام الولايات لا يستحقّ حتّى الاشارة . . .

آنا آندريفنا . ولكن هذا غير ممكن ، يا عزيزي . أعلن خطبته على ابنتنا .

حاكم المدينة (في غضب) . أعلن خطبته ! إنقعي الخطبة واشربيها ، فقد تنفعك ! تخشّ في عيني بالخطبة ! . . (في غاية التهيّج .) أنظروا ، أنظروا ، العالم كلّه ، المسيحية كلّها ، أنظروا جميعاً ، كيف أُستهبل حاكم المدينة ! سمّوه الأهبل ، الأهبل ، الوغد العجوز ! (يلوّح بقبضته مهدّداً نفسه .) آه ، يا ذا الأنف الضخم ! مخطة ، خرقة اعتبرتها رجلاً مهمّاً . وهو الآن ينشر الخبر في الطريق كلّه ! وينشر الحكاية في الدنيا كلّها . لا يكفي أن تصير أضحوكة . . . بل يطلع لك كُوَيتب أرعن ، محبّر ورق ، ويضعك في تمثيلية هزلية . هذا هو الموجع ! سيهزأ بالرتب والالقاب وسيضحك الجميع ، ويصفقون . ممّ يضحكون ؟ يضحكون من أنفسكم ! آه ، الويل لكم ! . . (يضرب الأرض بقدميه من شدّة الغيظ .) بودّي لو أشد جميع محبّري الورق هؤلاء والكويتبين الرعناء والليبراليين الملاعين أعوان الشياطين . بودّي لو أشدّكم في صرّة ، واطحنكم طحناً ، واحشركم في بطانة الشيطان ، بل في قبعته ! (يضرب الهواء بقبضته ، ويدقّ الأرض بكعبه . وبعد قليل من الصمت .) لكنّني لحدّ الآن لم أهدأ . صحيح . اذا أراد اللّه أن يعاقب أحداً انتزع منه عقله ، قبل كلّ شيء . طيّب ، أي شبه كان لذلك الأرعن بالمفتّش العامّ ؟ لا شيء . حتّى ولا نصف خنصر . ولكن الجميع يهتفون فجأة : المفتّش العامّ ! المفتّش العامّ ! طيّب ، مَنْ أوّل مَنْ أشاع أنّه مفتّش عامّ ؟ أحب أن يتحمل التبعة .

ارتيمي فيليبوفيتش (باسطاً ذراعيه) . لا أستطيع أبداً أن

أوضح كيف حصل ذلك . كغشاوة غطّت عـــلى العيون فجأة ، أو وسوسة شيطان .

امّوس فيدروفيتش . مَنْ اشاع . . . هذان الشاطران أشاعا (يشير الى دوبتشينسكي وبوبتشينسكي .)

بوبتشينسكي . واللّه ، لست أنا ، ولم يخطر ببالي . . .

دوبتشينسكي . أنا لم . . . ابداً لا شيء . . .

ارتيمي فيليبوفيتش . طبعاً ، أنتما .

لوكا لوكيتش . طبيعي . جئتما من الحانة كالمجانين : «وصل ، وصل ، ولا يدفع نقوداً . . .» وجدتما لقطة معتبرة !

حاكم المدينة . بالطبـــــع ، أنتما ! يا رؤوس الثرثـــرة في المدينة ، أيّها الكاذبان اللعينان !

ارتيمي فيليبوفيتش . يخطفكما الشيطـــــان بمقتّشكما العامّ وبحكاياتكما .

حاكم المدينة . لا همّ لكما سوى الجري في المدينـــة ، واثارة الجميع ، أيّها المهذاران اللعينـــــان ! تبثّان الأكاذيب ، أيّها العقعقان المبربران !

امّوس فيدروفيتش . المذرّقان اللعينان !

لوكا لوكيتش . الطرطوران !

ارتيمي فيليبوفيتش . برغوثا البحر العفنان !

(الجميع يحيطون بهما) .

بوبتشينسكي . لست أنا ، واللّه . هذا بيتر ايفانوفيتش .

دوبتشينسكي . لا ، يا بيتر ايفانوفيتش ، أنت اوّل . . .

بوبتشينسكي . لا ، أبداً . كنتَ انتَ البادىء . . .

المشهد الختامي

(**نفس الأشخاص مع جندرمة**) .

الجندرمة . الموظّف الذي وصل من بطرسبورغ بأمر مـــــن القيصر يطلب حضوركم في الحال . إنّه نزل في الفندق .

(تنزل هذه الكلمات نزول الصاعقة على الجميع . صوت الدهشة يتدفق من أفواه السيدات . المجموعة كلّها تغيّر أوضاعها فجأة ، وتجمّد متحجرة) .

المشهد الصامت

(حاكم المدينة يقف في الوسط كالعمود ، ذراعاه مبسوطان ، ورأسه ملقى إلى الخلف . والى يمينه زوجته وإبنته بحركـــة اندفاعية نحوه في كلّ جسديهما . والى جانبهم مأمور البريد ، وقد تحوّل الى علامة استفهام ، موجهة الى المتفرّجين ، والى جانبه لوكا لوكيتش مذهولاً بطريقة غاية في السذاجة والى جانبه ، عند حافـــة خشبة المسرح تماماً ثلاث نساء من المدعوات يلتصق بعضهنّ ببعض ، وقد ارتسم على وجوههن تعبير هجائي الى أقصى حدّ موجّه مباشرة إلى عائلة حاكم المدينة . وإلى يسار حاكم المدينة زيملانيكا مميلاً رأسه قليلاً الى جنب ، وكانما يتسمّع لشيء ما ، والى جانبه القاضي ملقياً ذراعيه الى جانبيه ، مدلّياً جذعـــه إلى الأرض تقريباً ، يحرّك شفتيه ، وكانّما يريد أن يصفر أو يقول : وأردته عونا فطلع فرعونا» . والى جانبه كوروبكين موجّهـــاً الى المتفرّجين عينـــا متقلّصة ، وبإيماءة لاذعة إلى حاكم المدينة ، وخلفه ، على حافة خشبة المسرح تماما بوبتشينسكي ودوبتشينسكي وذراعا أحدهما متّجهتان الى ذراعي الآخر ، والفمّان فاغران وعينـــا احدهما تبحلقان في عيني الآخر والضيوف الآخرون يظلّون متحجّرين فقط . ولدقيقة ونصف تقريباً تظلّ الجماعة المتحجّرة على وضعها هذا . وتنزل الستارة) .

بعد عرض مسرحية جديدة

(رواق مسرح . يظهر من ناحية سلم يؤدي إلى المقصورات والطوابق العلوية ، وفي الوسط مدخل الى القاعة والقسم الخلفي ، وفي الناحية الثانية باب خروج . يسمع صوت تصفيق بعيد .)

مؤلف المسرحية * (يخرج) . كأنني خرجت من حماة ! هذه هي ، اخيراً ، الهتافات والتصفيقات ! المسرح كله يهدر ! . . هذا هو المجد ! . . يا رب ، كم كان سيخفق قلبي لو كان ذلك قبل سبع او ثماني سنوات ، كم كان سيتحرك كل شيء في داخلي ! ولكن ذلك منذ زمن بعيد . حينذاك كنت شاباً ، جرئ التفكير كالصبي . حمداً للعناية الالهية التي تكتب لي أن لا أتذوق المسرات والاطراءات المبكرة ! الآن . . . برد العمر الرشيد يزرع الحكمة في اي انسان ، فتعرف ، اخيراً ، أن التصفيق لا يعني الكثير . ويصلح أن يكون مكافأة لكل انسان : للممثل اذا نفذ الى كل سر الروح والقلب الانساني ، وللراقص اذا بلغ القدرة على الترميز

* من الطبيعي ان يكون المؤلف شخصية مثالية تنعكس عليه وضع الكوميدي في المجتمع . الكوميدي الذي جعل سوء الاستعمال والتصرف في محيط مختلف الفنات والوظائف مادة للاضحاك . **(الملاحظة لنيقولاي غوغول)** .

بالقدمين ، وللحاوي ايضا ، لكل هؤلاء يتصاعد التصفيق ! سواء للرأس وهو يفكر ، او للقلب وهو يشعر ، او لأعماق الروح وهي تصدح ، أو للاقدام وهي ترقص أو للايدي وهي تقلب الاقداح ، الكل يشمله تصفيق متساو . لا ، لست الآن براغب في ان اغير مكاني ، وانتقل الى مقصورة ، الى طابق علوي ، الى قاعة ، الى شرفة ، انفذ الى كل مكان ، واستمع الى مختلف الاراء والانطباعات ، وهي ما تزال طرية ، طازجة ، قبل ان تخضع لاجتهادات ونقاشات هواة الفن والصحفيين ، حين يكون كل انسان ما يزال تحت تأثير حكمه الخاص . انا بحاجة الى هذا . انا كوميدي . كل الاعمال والاشكال الادبية الأخرى تخضع لحكم القلة . والكوميدي وحده يخضع لحكم الجميع . لكل متفرج الحق عليه . كل انسان مهما كانت رتبته يصير أحد قضاته . آه ، كم أود لو يريني كل شخص نقائصي وعيوبي ! لا يهم حتى لو يضحك مني ، لا يهم لو يحرك شفتيه شعور غير سليم النية ، متحامل ، مستاء ، كريه ، كل ما يخطر على باله ، فقط أن يعلن عن نفسه . لا يمكن أن تصدر كلمة بدون سبب ، وفي كل مكان يمكن أن تنقدح شرارة الحقيقة . ومَنْ يعزم على اظهار الجوانب المضحكة للآخرين يجب ، بالطبع ، أن يتقبل بعقل سليم الاشارة الى الجوانب الضعيفة والمضحكة فيه . لأحاول ، واظل هنا في الرواق ، طوال خروج الناس من المسرح . لا يمكن أن لا توجد تعليقات على مسرحية جديدة . والانسان تحت تأثير الانطباع الأول منفعل دائما ، ويتعجل طرحه على آخر . (ينتحي ناحية .)

(يظهر بعض الناس في ملابس معتبرة . يقول احدهم مخاطبا آخر) :

الافضل ان ننصرف الآن . سيمثلون الآن فودفيل تافها .

(الاثنان ينصرفان)

(رجلان معتبران * ركينا البنيان ينزلان من السلم)

الرجل المعتبر الأول . جيد لو ان الشرطة لم تبعد مركبتي الى مسافة بعيدة . الا تعرف ما اسم تلك الممثلة الشابة ؟

* وردت هذه التسمية بالفرنسية . **المترجم** .

الرجل المعتبر الثاني . لا ، ولكنها حلوة جدا .

الرجل المعتبر الأول . نعم ، حلوة . ومع ذلك ينقصها شيء ما . طيب ، اقترح ان نذهب الى المطعم الجديد . البارحة قدموا لنا بازلاء طازجة (يقبل اطراف اصابعه) روعة !

(الاثنان ينصرفان)

(يجري ضابط يمسكه آخر من يده)

الضابط الثاني . لنبق !

الضابط الأول . لا ، يا أخ . الفودفيل لا يمكن ان يستهويني بأي شيء . نحن نعرف هذه المسرحيات التي تقدم المأكولات الخفيفة ، والخدم بدلا من الممثلين ، والنساء قبح في قبح .

(ينصرفان)

رجل راق انيق الثياب (عند نزوله من السلم) . الخياط المحتال فصّل البنطلون ضيقاً عليّ . طوال الوقت كنت متضايقاً جداً في الجلوس . ساعاقبه على ذلك فاماطل في دفع ديوني سنتين . (ينصرف)

رجل راق آخر اكثر اكتنازاً (يقول لصديقه بحيوية) . صدقني ، لن ولن يقعد معك على طاولة القمار . انه لن يلعب باقل من مائة وخمسين روبلا . انا اعرف ذلك جيداً ، لان صهري ، بافنوتيف ، يلعب معه كل يوم .

مؤلف المسرحية (مع نفسه) . حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة عن الكوميديا !

موظف في اواسط العمر (يخرج باسطاً ذراعيه) . الشيطان يعلم أي شيء هذا ! شيء . . . شيء . . . لا شبيه له مطلقاً . (ينصرف)

سيد قليل الاهتمام بالأدب (يخاطب آخر) . على اية حال ، يبدو أنها مترجمة !

الآخر . يا سلام ! كيف انها مترجمة ! الحدث يجري في روسيا ، وفيها عاداتنا ورتبنا ايضاً .

السيد القليل الاهتمام بالأدب . على اية حال اتذكر شيئاً منها باللغة الفرنسية ، ليس تماماً من هذا القبيل .

(ينصرفان)

واحد من متفرجين اثنين (خارجين ايضا) . الآن لا يمكن أن نعرف شيئاً . انتظر ماذا سيقولون في المجلات ، وعندئذ ستعرف .

اثنان في معطفين مخوصرين (احدهما للآخر) . طيب ، كيف ؟ بودي لو اسمع رأيك في الكوميديا .

المعطف الثاني (يحرك شفتيه حركات دالة وترتسم على سيمائه علائم الوقار) . نعم ، بالطبع ، لا يجوز القول أنها تخلو من . . . الى حد ما . . . ثم مَنْ يعارض ، بالطبع ، أن لا يكون هناك . . . اين ، كما يمكن ان يقال . . . ولكن عموما . . . (يطبق شفتيه بايجاب) نعم ، نعم !

(ينصرفان)

المؤلف (لنفسه) . طيب ، هاتذان لم يقولا الشيء الكثير . . ولكن ستكون تعليقات : أرى الى الامام قليلاً من يلوحون باذرعهم بحرارة .

(ضابطان)

الأول . لم اضحك قط مثلما ضحكت هنا .

الثاني . اظنها كوميديا ممتازة .

الأول . لا ، لا . لننتظر ماذا سيقولون في المجلات . يجب الخضوع لحكم النقد . . . انظر ، انظر ! (يلكزه من يده)

الثاني . ماذا ؟

الأول (يشير الى واحد من اثنين ينزلان من السلم) : أديب !

الثاني (باستعجال) : مَنْ ؟

الأول . ذاك ! شش ! لنسمع ماذا سيقول .

الثاني . ومن الآخر الذي معه ؟

الأول . لا اعرف . شخص نكرة .

(الضابطان ينتحيان جانبا ليفسحا لهما المجال)

النكرة . لا استطيع أن احكم على قيمتها الأدبية ، ولكن يبدو لي أن فيها ملاحظات لاذعة الذكاء ، لاذعة ، لاذعة .

الاديب . عفوك ، ما هو اللاذع الذكاء فيها ؟ ما هؤلاء الناس الوضعاء المصورون فيها ، واية لهجة ؟ النكات مسطحة للغاية ، بل وسفيهة .

النكرة . هذا شيء آخر . قلت : لا استطيع ان احكم على قيمتها الادبية . لاحظت فقط أن المسرحية مضحكة ، جلبت المتعة .

الاديب . بل وليست مضحكة . عفوك ، ما هو المضحك فيها ، وما هو الممتع ؟ الموضوع غير محتمل الوقوع . كل شيء متناقض مع التفكير السليم ، بلا حبكـــة ، ولا حدث ، ولا شيء يستحق الاعتبار .

النكرة . اي نعم ، ليس لدي اي اعتراض على ذلك . من الناحية الأدبية ، من الناحية الادبية ليست مضحكة ، ولكن من الناحية ، اذا امكن القول ، من جهة فيها . . .

الاديب . ولكن ماذا فيها ؟ ارجوك ، حتى هذا غير موجود ! ثم اية لغة حوار ؟ مَنْ يتكلم بهذا الشكل في مجتمعنـا الراقي ؟ طيب ، قل لي انت ، هل انا وانت نتكلم بهذا الشكل ؟

النكرة . هذا صحيح . ملاحظتك دقيقة جداً . في هذا بالذات فكرت مع نفسي : الحوار يفتقر الى النبل . كل الشخصيات تبدو وكأنها لا تقدر أن تخفي طبيعتها الوضيعة . هذا صحيح .

الأديب . أها ، وتمتدحها ايضاً !

النكرة . ومَنْ يمتدحها ؟ أنا لا امتدحها . ارى الآن بنفسي أن المسرحية تافهة . ولكن لا يمكن الالمام بذلك دفعة واحدة . أنا لا استطيع أن احكم على القيمة الادبية .

(الاثنان ينصرفان)

اديب آخر (يدخل بصحبة متفرجين يحدثهم مشمراً ذراعيه) . صدقوني أنا اعرف هذا الأمر . مسرحية مقززة ! مسرحية قذرة ،

قذرة ! لا يوجد فيها اي شخص حقيقي . الكل كاريكاتور ! لا يوجد هذا في الواقع . صدقوني ، لا يوجد ، وانا اعرف ذلك احسن . انا نفسي اديب . يقولون : حيوية ، حدة البصيرة . . . ولكن كل ذلك هراء ، انهم اصحابه لا غير ، اصحابه يمتدحونه ، اصحابه فقط ! سمعت أنهم يكادون يرفعونه الى مصاف فونفيزين وكوميدياته . ولكن المسرحية لا تستحق حتى أن تسمى كوميديا . انها مهزلة ، مهزله ، ثم مهزله ، وافشل مهزلة . اسوأ واتفه كوميدية لكوتسيبو * هي بالقياس اليها مونبلان امام مرتفعات بولكوفو . سأبرهـــن على ذلك لهم جميعاً ، أبرهن حسابياً مثل اثنين في اثنين . مجـــرد ان اصدقاءه واصحابه امتدحوه اكثر من اللازم والظاهر أنه الآن يعتبر نفسه شكسبير تقريباً . الاصحاب عندنا يمتدحون دائماً . فمثلا ، هذا بوشكين ايضاً . لأي شيء تتحدث كل روسيـا عنه الآن ؟ كل ذلك من الاصحاب . هتفوا ، وهتفوا ، وبعد ذلك صارت روسيا كلها تهتف فى اثرهم . (ينصرف مع المتفرجين)

(الضابطان يتقدمان ، ويحتلان مكانهم)

الأول : هذا حق ، هذا حق ، حق تماماً . مهزلة بالضبط . كنت اقول ذلك من قبل . مهزلة غبية مسنودة من قبل الاصحاب . بصراحة كنت حتى اتقزز من التفرج على اشياء كثيرة فيها .

الثاني . ولكن كنت تقول : لم اضحك قط مثلمـا ضحكت هنا ؟

الأول . مرة اخرى اقول : هذا شيء مختلف . انت لا تفهم ، وتحتاج الى توضيح . ماذا في هذه المسرحية ؟ اولاً بلا حبكة تماما ، والحدث غير موجود ايضاً ، ولا شيء يستحق الاعتبار اطلاقاً ، كل شيء غير محتمل الوقوع ، وكل شيء كاريكاتوري فضلاً عن ذلك .

---

* كوتسيبو — كاتب رجعي كانت اعماله الدراميـــة تتسم بالزيف ورومانسية الشخصيات . **المترجم** .

(ضابطان آخران في الخلف)

احدهما (للآخر) . من يناقش في ذلك ؟ واحد من جماعتك ، كما يبدو ؟

(الآخر بعد ان نظر الى وجه المتحدث ، لوح بيده) .

يعني ، بليد ؟

الثاني . لا ، لا بشكل . . . عنده عقل ، ولكن لدى صدور المجلة . واذا ما تاخرت المجلة في الصدور ، يفرغ رأسه من كل شيء . ولكن لنذهب على العموم .

(ينصرفان)

(اثنان من هواة الفن)

الأول . لست على الاطلاق من الذين يلجأون الى الكلمات البذيئة فقط ، من مثل قذرة ، مقززة ، من أسلوب سيئ . أمر مثبت تقريباً ان مثل هذه الكلمات ، في معظم الاحيان ، تخرج من افواه الذين هم أنفسهم من أسلوب مشكوك فيه ، يتحدثون عن الصالونات ، ولكن الرواق هو اقصى ما يسمح لهم بدخوله . غير انني لا اقصدهم في كلامي . انا اتحدث عن خلو المسرحية من الحبكة تماماً .

الثاني . نعم ، اذا فهمت الحبكة بالمعنى الذي تفهم به عادة ، أي بمعنى وجود عقدة غرامية ، فهي غير موجودة بالفعل . ولكن الوقت قد حان كما اظن للكف عن التشبث حتى الآن بتلك الحبكة الأبدية . يكفي ان نتمعّن فيما حولنا لنعرف أن كل شيء في الدنيا قد تغيّر منذ زمان . الدراما تحبك الآن بشكل اقوى بالنزعة الى الحصول على منصب نافع ، بتمجيد النفس وحط الآخر مهما كلّف الأمر ، والثأر من الاهمال أو من السخرية . أليست الرتبة ، الرأسمال النقدي ، الزواج المصلحي اكثر نفعاً من الحب الآن ؟

الأول . كل ذلك جيد . ولكن في هذه الناحية ايضا لا أجد حبكة في المسرحية ، على كل حال .

الثاني . لا اريد أن أؤكد الآن هل الحبكة موجودة في المسرحية

أو غير موجودة . بل اقول فقط أن الناس يبحثون عن الحبكة الخاصة ، ولا يريدون أن يروا الحبكة العامة . الناس الآن تعودوا ، ببساطة نفس ، على اولئك العشاق الدائميين الذين لا يمكن ان تنتهي مسرحية دون ان يتزوجوا . هذه حبكة ، بالطبع ، ولكن أية حبكة ؟ كحبكة منديل معقود من طرفه بالضبط . ولكن ، يجب أن تحبك الكوميديا تلقائياً ، وبكل مجموعها ، في عقدة واحدة كبيرة وشاملة . يجب أن تعم الحبكة جميع الشخصيات ، لا واحداً او اثنين منهم ، وتمس ما يقلقهم بهذا الشمول او ذاك . جميع الشخصيات أبطال هنا . انسياب وسير المسرحية يحدثان رجّة في الآلة كلها ، وما من دولاب يظل واقفاً باعتباره صدئاً ، ولا يشترك في العملية .

الأول . ولكن الجميع لا يمكن ان يكونوا ابطالاً ، واحد او اثنان منهم يسيّران الآخرين .

الثاني . لا يسيّرانهم قطعاً ، بل يتفوّقان عليهم . في الآلة توجد دواليب تتحرك بشكل أقوى واكثر ظهوراً ، ويمكن ان تسمى بالرئيسية فقط ، ولكن الفكرة وحدها تسيّر المسرحية . وبدونها لا توجد وحدة في المسرحية . وكل شيء يصلح ان يكون حبكة : الرعب نفسه ، خوف التوقّع ، خطر القانون المقبل من بعيد . . .

الأول . ولكن ذلك يعني اعطاء الكوميديا دلالة اكثر شمولاً .

الثاني . ولكن أليس ذلك هو رسالتها المباشرة والحقيقية ؟ منذ البداية كانت الكوميديا ابداعاً اجتماعياً شعبياً . او هذا ، على الاقل ، ما ابداه أبوها الشرعي ارسطوفان ، وبعد ذلك دخلت في المضيق الضيّق للحبكة الخاصة . وادخلت موضوعة الحب حبكة واحدة لازمة . ومع ذلك فما اضعف هذه الحبكة عند احسن الكوميديين ! وما اتفه اولئك العشاق المسرحيين في حبهم الكارتوني !

الثالث (يقترب ويضربه على كتفه ضربة خفيفة) . لست على حق . الحب مثل أية عاطفة اخرى يمكن أن يدخل ايضا في الكوميديا .

الثاني . انا لا أقول لا يمكن أن يدخل . ولكن الحب والعواطف الأخرى الاكثر سمواً ، لا تستطيع أن تترك انطباعاً رفيعاً ، الا حين تتطور بكل عمقها . واذا ما انشغلت بها ، فانك ستضحي حتماً بكل الاشياء الأخرى . عند ذاك سيتضاءل كل ما يشكل بالذات جوهر الكوميديا ، وتختفي أهمية الكوميديا الاجتماعية بالتأكيد .

الثالث . يعني لا بد أن يكون موضوع الكوميديا وضيعاً ؟ اذن ، ستكون الكوميديا نوعاً وضيعاً ايضاً .

الثاني . هذا سيبدو للذي سينظر الى الكلمات ، ولا ينفذ الى صلب القضية . ولكن الا يمكن للايجابي والسلبي أن يخدما هدفاً واحداً . الا يمكن للكوميديا والتراجيديا أن تعبّرا عن نفس الفكرة السامية ؟ الا ترسم تقلبات نفس الخسيس النذل ، كلها حتى اصغر الصغائر ، صورة للانسان النزيه ؟ الا يتيح كل هذا التراكم للحقارات والتجاوزات على القوانين والخروج عن العدالة معرفة واضحة بما يتطلبه منا القانون ، والواجب والعدل ؟ الماء البارد والساخن في يدي طبيب ماهر يعالج نفس الامراض بنجاح متساو ، وفي يدي الموهوب يمكن لكل شيء ان يكون اداة لما هو جميل ، شرط أن يستهدي بالفكرة السامية لأن يخدم الجميل .

الرابع (يقترب) . ماذا يمكن أن يخدم الجميل ؟ عمّ تتحدثون ؟

الأول . نشأ نقاش بيننا عن الكوميديا . نحن جميعاً نتكلم عن الكوميديا بشكل عام ، وحتى الآن لم يقل أحد شيئاً عن الكوميديا الجديدة . فماذا تقول انت ؟

الرابع . اقول : توجد فيها موهبة ، حدة البصيرة للحياة ، والكثير من الاشياء المضحكة والصادقة ، المستقاة من الواقع . ولكن بشكل عام ينقص المسرحية شيء . فانت لا ترى عقدة ولا حل العقدة . والغريب أن كتابنا الكوميديين لا بد أن يتطرقوا الى الحكومة . بغيرها لا تنعقد عندنا أية كوميديا .

الثالث . هذا صحيح . ولكن هذا من الناحية الآخرى شيء طبيعي جداً . فنحن جميعاً تابعون للحكومة ، كلنا تقريبا نخدم . ومصالحنا كلها مرتبطة بالحكومة بهذا القدر أو ذاك . يعني ليس من الغريب أن ينعكس ذلك في اعمال كتابنا .

الرابع . حسناً ، لتكن هذه الرابطة محسوسة . ولكن المضحك أن أية مسرحية لا يمكن ان تنتهي بدون الحكومة . انها تظهر حتماً مثل قدر لا محيص عنه في المسرحيات التراجيدية عند الاغريق القدامى .

الثاني . يعني ان هذا شيء لا ارادي عند كتابنا الكوميديين . يعني أن هذا يشكل صفة مميزة لمسرحياتنا الكوميدية . صدورنا

تنطوي على ايمان خفي بالحكومة وماذا في ذلك ؟ لا ضير فيه . ياليت الحكومة تسمع دائما وفي كل مكان تذكيراً لرسالتها لأن تكون ممثل العناية الآلهية على الأرض ، وأن نؤمن نحن بها ، كما آمن القدامى بالقدر الذي كان يعاقب الجرائم .

الخامس . مرحباً . يا سادة ! لا اسمع الا كلمة «حكومة» . الكوميديا أثارت الهتافات والاحاديث . . .

الثاني . الأفضل أن نتحدث عن هذه الاحاديث والهتافات في بيتي ، لا هنا ، في رواق المسرح .

(ينصرفون)

(بعض المحترمين الحسني الثياب يظهرون واحدا وراء الآخر)

رقم ١ . طيب ، هذا رايي . هذا صحيح وصحيح أن ذلك وما اسوأ منه يحدث عندنا أيضا في بعض الاماكن . ولكن ما الغاية ، ولأي شيء يبرز ذلك ؟ ولم هذه العروض ؟ ما الفائدة منها ؟ وضحوا لي ذلك ! اي حاجة لي في أن اعرف ان في مكان ما يوجد محتالون ؟ أنا بكل بساطة . . . لا أفهم ضرورة مثل هذه العروض . (ينصرف)

رقم ٢ . لا ، هذا ليس استهجانا للعيوب ، بل ازدراء مقزز لروسيا . هذا هو . هذا يعني اظهار الحكومة نفسها في مظهر سيئ . لأن كشف الموظفين السيئين ، واعمال استغلال النفوذ التي تحصل في مختلف الفئات يعني كشف حكومة نفسها . قطعاً لا ينبغي حتى السماح بمثل هذه العروض . (ينصرف)

(يدخل السيد أ والسيد ب ، وهما رجلان من رتبتين معتبرتين)

السيد أ . أنا لا اتكلم عن هذا . على العكس نحن بحاجة الى اظهار اعمال استغلال النفوذ . يجب أن نرى تجاوزاتنا . وأنا لا اشاطر ابدا اراء الوطنيين الكثيرين المتحمسين اكثر من اللازم ، ولكن يبدو لي قد يكون فيها الكثير جداً مما هو محزن .

السيد ب . وددت كثيراً لو كنت قد استمعت الى ملاحظة رجل متواضع الثياب جداً كان يجلس على مقربة مني في مقاعد القاعة . . . آه ، هذا هو نفسه !

السيد أ . مَنْ ؟

السيد ب . هذا هو الرجل المتواضع الثياب جداً . (يخاطبه) نحن لم ننه بعد الحديث الذي كانت بدايته طريفة بالنسبة لي .

الرجل المتواضع الثياب جداً . وأنا بصراحة ، مسرور جداً بأن اواصله . قبل لحظة فقط سمعت كلاماً يقول ان كل ذلك غير صحيح ، وأنه استهزاء بحكومتنا ، وبعاداتنا ، وما كان ينبغي عرضه اطلاقاً . وقد جعلني ذلك استرجع في ذهني ، واحتوي المسرحية كلها . واعترف أن ما تعبر عنه الكوميديا يبدو لي الآن اكثر روعة . ففيها ، كما يلوح لي ، يُنحر النفاق بالضحك اشد واعمق من اي شيء آخر – قناع الاحتشام الذي تختفي وراءه الوضاعة والخسة ، المحتال الذي يعوج خده ليتخذ سمة الانسان الموالي . بصراحة شعرت بالفرح ، وأنا أرى كلمات الولاء تخرج مضحكة من شفتي محتال ، والقناع الذي يلبسه يثير الضحك الشديد لدى الجميع من أول القاعة الى اعلى طابق في المسرح . ويوجد بعد هذا أناس يقولون لا حاجة الى اخراج ذلك على المسرح ؟ لقد سمعت ملاحظة أبداها رجل معتبر جداً ، كما بدا لي : «ماذا سيقول الشعب حين يرى أن مثل هذه الأعمال لاستغلال النفوذ تحصل عندنا ؟»

السيد أ . بصراحة ، وارجو المعذرة ، أنا ايضاً اطرح على نفسي هذا السؤال لا ارادياً : ماذا سيقول شعبنا ، وهو يرى كل هذا ؟

الرجل المتواضع الثياب جداً . ماذا سيقول ؟ (يتنحى)

(يدخل اثنان في قفطانين)

القفطان الازرق (للقفطان الرمادي) . اعتقد أن الرؤوساء كانوا شطاراً ، ولكنهم امتقعوا جميعاً ، حين اطل السيف القيصري .

(ينصرفان)

الرجل المتواضع الثياب جداً . هذا ما سيقوله الشعب ، هل سمعتم ؟

السيد أ . ماذا ؟

الرجل المتواضع الثياب جداً . سيقول : «أعتقد الرؤوساء كانوا

شطاراً ، ولكنهم امتقعوا جميعا ، حين أطل السيف القيصري!» هل سمعتهم كم أن الانسان يصدق بحاسته الطبيعية وبشعوره ؟ وكم أن العين البسيطة للغاية صادقة ، اذا لم تضببها النظريات والافكار المستقاة من الكتب ، بل تستقيها من طبيعة الانسان نفسها ! ولكن اليس واضحاً بجلاء أن الشعب بعد مثل هذا العرض يحصل على ايمان اكثر بالحكومة ؟ انه بحاجة الى مثل هذه العروض . وليفصل الحكومة عن السيئين من القائمين بشؤونها . ولير أن اعمال استغلال النفوذ لا تاتي من الحكومة ، بل من الذين لا يفهمون متطلبات الحكومة ، من الذين لا يريدون الاستجابة للحكومة . ولير أن الحكومة شريفة ، وأن عينها الساهرة تراقب الجميع بالتساوي ، وأنها ستلاحق عاجلاً أم آجلاً المتجاوزين على القانون وعلى الشرف وواجب الانسان المقدس ، وسيمتقع أمامها ذوو الضمائر الملوّثة . نعم ، يجب على الشعب أن يرى هذه العروض . صدقوني ، حتى وان كان قد عانى بنفسه من التضييقات والمظالم فانه سيخرج منفّساً عن نفسه ، بعد مثل هذا العرض ، وبايمان قوى بالقانون السامي الذي لا تأخذه سنة من نوم . وتعجبني ايضاً ملاحظة اخرى : «سيكون للشعب رأى سيىء في رؤسائه» يعني انهم يتصورون أن الشعب هنا فقط وهو في المسرح ، يرى لاول مرة رؤساءه ، واذا كان أحد العمد المحتالين يعصره بين مخالبه في مكان سكناه ، فانه لن يفطن الى ذلك ، ولكنه يذهب الى المسرح ليلمّ بالامر ويفطن . ان هؤلاء في الحقيقة ، يعتبرون شعبنا اغبى من خشبة ، غبياً الى درجة أنه لا يستطيع ان يفرق بين الفطيرة المحشوة باللحم ، والفطيرة المحشوة بالعدس . نعم ، الآن يبدو لي حتى خلو المسرحية من شخصية نزيهة شيئاً جيداً . اذا قدمت للرجل العزيز النفس وسط كثرة من الجوانب السيئة جانباً واحداً حسناً ، فانه سيخرج من المسرح بكبرياء . نعم ، جيد أن المسرحية قدمت فقط الشواذ والعيوب التي هي مجلبة عار شديد ، الى درجة أن الناس لا يريدون أن يتواطنوا معها ، ويخجلون حتى من الاعتراف بأن ذلك ممكن .

السيد أ . ولكن هل يعقل أن يوجد عندنا مثل هؤلاء الناس بالضبط ؟

الرجل المتواضع الثياب جداً . اسمحوا لي بأن اقول لكم

بخصوص ذلك . أنا لا ادري لماذا اشعر بالحزن ، كلما أسمع مثل هذا السؤال . استطيع أن اتحدث معكم بصراحة : فانا ارى في ملامح وجهيكما ما يشجعني على الصراحة . الانسان قبل كل شيء يطرح السؤال : «هل يعقل أن يوجد مثل هؤلاء الناس ؟» ولكن هل سمعنا انساناً يطرح هذا السؤال : «هل يعقل أنني نفسي خال تماما من هذه العيوب ؟» لم نسمع قط ، لم نسمع ! طيب ، ساتحدث معكم بقلب مفتوح ، فان لي قلباً طيباً ، وصدري ينطوي على الكثير من الحب ، ولكن ليتكم تعرفون ايـــة جهود نفسية وصدمات روحية اقتضتني لأتجنب السقوط في انحرافات معيبة كثيرة ، يسقط فيها الانسان لاراديا ، في عيشه مع الناس ! وكيف يمكن أن اقول الآن انني في هذه اللحظة مبرأ من تلك الانحرافات التي كنا نضحك منها جميعاً قبل عشر دقائق فقط ، وضحكت أنا ايضاً منها .

السيد أ (بعد برهة من الصمت) . كلماتك تدعو الى التفكير الشديد ، بصراحة . ولمّا اتذكر كلماتك ، اتمثـل لنفسي كيف جعلتنا التربية الاوربية متكبرين ، وكيف حجبتنا عن أنفسنا ذاتها ، وكيف ننظر باستعلاء وبازدراء شديد الى الذين لم يحصلوا على تلميع ظاهري مثلنا ، وكيف يعتبر كل واحد منا نفسه قدّيساً الا شعرة ويتحدث دائماً عن الاعمال والأفعال السيئة عند الآخرين ، تغتم نفسي لا ارادياً ، بصراحة . . . ولكن اعذرني على عدم تواضعي – فانت ، على كل حال ، غير مبرأ منه ايضاً – هل لي أن اعرف مع مَنْ يسعدني أن اتحدث ؟

الرجل المتواضع الثياب جداً . لست سوى واحـد من اولئك الموظفين الذين تتقمص شخصيات المسرحية وظائفهم ومناصبهم ، وقد قدمت من بلدتي منذ يومين .

السيد ب . ما كان هذا ليخطر على بالي . وهل يعقل أنك لا تتصور أن من المهين ، بعد هذا ، أن تعيش وتخدم مـع هؤلاء الناس ؟

الرجل المتواضع الثياب جداً . من المهين ؟ هذا ما سأقوله لك بهذا الخصوص : اعترف بانني في احيان كثيرة افقد صبري . في بلدتنا ليس كل الموظفين من الصنف النزيه ، وغالبـــاً ما تعمل المستحيل لكي تفعل شيئاً طيباً . وقد فكرت في ترك الوظيفة عدة

مرات ، ولكن الآن ، وبعد هذا العرض بالذات ، أشعر بهمة ونشاط مع قوة جديدة على مواصلة مجال عملي . وجدت سلواي في التفكير بأن النذالة عندنا لن تظل مستورة ، أو طليقة العنان ، وأنها على مرأى من جميع الناس الشرفاء مذبوحة بالسخرية ، وأن هناك قلماً لا يتماهل عن فضح تصرفاتنـــا النذلة ، رغم أن ذلك لا يرضي كبرياءنا القومية ، وأن هنـاك حكومة شريفة تسعى الى أن تجعل جميع الذين يعنيهم الامر يرون ذلك رأى العين ، وهذا وحده يمدني بالحماس لمواصلة وظيفتي النافعة .

السيد أ . اسمح لي بأن اعرض عليك اقتراحاً . أنا اشغل وظيفة في جهاز الدولة مهمة الى حدّ ما . واحتاج الى معاونين شرفاء ونزيهين حقاً . اقترح عليك وظيفة ستوّفر لك مجالاً موسعـــاً للعمل ، ومنفعة اكثر بما لا يقاس ، وستكون في موقع مرموق .

الرجل المتواضع الثياب جداً . اسمح لي بأن اشكرك بكل ما في قلبي وروحي على هذا العرض ، واسمح لي ، في الوقت ذاته ، بأن ارفضه . فاذا كنت اشعر بانني نافع في عملي ، فهل من النبل من جانبي أن اتخلى عنه ؟ وكيف استطيع أن اتركه ، ليست لدي الثقة الراسخة في أن الذي سيخلفنـــي لن يكون شاطراً سيأخذ بارتكاب مظالم ؟ أما اذا كنت قد عرضت عليّ ذلك بشكل مكافأة ، فاسمح لي بأن اقول لك : انني صفقت لمؤلف المسرحية كما صفق الآخرون على حد سواء ، ولكني لم أطلب أن يطل على الجمهور زيادة في الثناء . فما حاجته الى مكافأة ؟ مسرحيته راقت للناس ، فاثنوا عليها . أما هو ، فقد أدى واجبه لا غير . ولكن الوضع قد وصل عندنا في الحقيقة الى حد أن الانســـان ، ليس فقط حين يجترح مأثرة ، بل لمجرد أنه لا يلحق باحد اذى في الحياة وفي الوظيفة ، يعتبر نفسه فاضلاً لا يضارع ، ويغضب عن جد ، حين لا يلتفت اليه ، ولا يكافأ . فتراه يقول : «أواه ، لقد عشت طوال عمري بنزاهة ، ولم اقدم على اية نذالة تقريباً ، فكيف لا أمنح رتبة ولا نيشاناً ؟» لا ، اعتقد أن الذي لا يقدر أن يكـون نبيلاً بدون تشجيع ، غير أهل لأن أثق بنبله . فان نبله المزّيف لا يساوي فلساً واحداً .

السيد أ . على الأقل لا تبخل عليّ بالتعارف معك ؟ اعذرني

على لجاجتي ، فانت ترى أنهـــا نتيجة احترامي الصادق . اعطني عنوانك .

الرجال المتواضع الثيـاب جداً . تفضل هذا عنواني . ولكن كن على ثقة بانني لا اسمح لك باستغلاله ، فسأجيء اليك غداً في الصباح . ارجو المعذرة ، لست متربياً على المجتمع الراقي ، ولا احسن الكلام . . . ولكنني صادفت مثل هذا الاهتمام الأريحي في رجل دولة ، هذا الطموح الى الخير . . . عسى الله أن يحيط كل عاهل بامثالك من الناس . (ينصرف مستعجلا)

السيد أ (يقلب البطاقة في يديه) . ها أنـــا انظر الى هذه البطاقة ، والى هذا الأسم المكتوب عليها ، والذي لا اعرفه ، فاشعر بالانشراح في صدري . فقد انقشع الانطباع المحزن الاول من تلقاء نفسه . حفظك الله ، يا روسيا ، يا من لا نعرفك الا قليلاً ! فى اصقاعك البعيدة ، في ركـــن منسي منك ، ينزوي رجل فريـــد كاللؤلؤة ، وليس هو الوحيد ، في اغلب الظن . ان هؤلاء ، مثـل التماعات الاحجار الكريمة ، منتشرون وسط غرانيته الغليظ الداكن . هناك احساس عميق بالسلوى من هذه الظاهرة ، وقد تنورت روحي بعد اللقاء مع هذا الموظف ، مثلما تنورت روحه بعد العرض . وداعاً ! شكراً لك على اتاحة هذا اللقاء لي . (ينصرف)

السيد ج (يقترب من السيد ب) . من هذا الذي كان معكم ؟ يبدو أنه وزير ؟

السيد د (يقترب من الجهة الاخرى) . رحماك ، يا اخ ، مـــا هذا ؟ خبرني بحق الرب !

السيد ب . ما هو ؟

السيد د . طيب ، كيف يخرجون ذلك على المسرح ؟

السيد ب . ولم لا ؟

السيد د . طيب ، احكم بنفسك ، كيف هذا حقاً ؟ دائماً عيوب في عيوب . واي قدوة يقدم هذا للمشاهدين ؟

السيد ب . ولكن من يتباهى بالعيـــوب ؟ انهـــا معروضة للسخرية .

السيد د . ومع ذلك ، يا اخ ، فالاحترام واجب . . . وهذا العرض يفقد الاحترام نحو الموظفين والوظائف .

السيد ب . هذا لا يفقد الاحترام ، لا نحو الموظفين ولا نحو الوظائف ، بل نحو الذين يسيئون أداء وظائفهم .

السيد ج . ولكن اسمح لي بأن اذكر ، على اية حال ، أن في كل ذلك قدراً معيناً من الاهانة التي تشمل الجميع الى هذا الحد او ذاك .

السيد د . بالضبط . هذا ما اردت أن ابديه بنفسي . هذه اهانة شاملة بالذات . اليوم مثلا يعرضون على المسرح موظفاً من مرتبة دنيا ، وغداً . . . اظنهم سيعرضون آخر من مرتبة ارقى .

السيد ب . وماذا في ذلك ؟ الفرد وحده لا يُمس . ولكن اذا ابتكرت انا شخصية لاعلى التعيين ونسبت لها العيوب التي تنشأ بيننا عادة ، ومنحتها المرتبة التي طرأت على بالي ، ولتكن مرتبة ارقى ، وقلت ان هذا الموظف من هذه المرتبة الراقية ليس كما يجب ، فماذا في ذلك ؟ الا يوجد محتال من بين موظفي المرتبـــة الراقية ؟

السيد د . ذهبت بعيداً ، يا اخ ، كيف يمكن أن يكون الموظف في المرتبة الراقية محتالاً ؟ الموظف من المرتبة الدنيا ، ربما . . . لا ، ذهبت بعيداً ! . .

السيد ج . لماذا يعرضون السيئ ، لماذا لا يعرضون الحسن ، اللائق بأن يُحتذى ؟

السيد ب . لماذا ؟ سؤال غريب : «لماذا ؟» . اشياء كثيرة يمكن أن تضع قبال «لماذا» هذه . لماذا لم يلجأ احد الآباء الى الكلمات والمواعظ ، بغية انتشال ابنه من الحياة غير المستقيمة ، بل أخذه الى مارستان ، حيث برزت أمامه الآثار الرهيبة للحياة غير المستقيمة بكل فظاعتها ؟ لماذا اقدم على ذلك ؟

السيد ج . ولكن اسمح لي بأن اقول : ان هذه ، الى حد ما ، قروحنا الاجتماعية التي يجب أن تخفى ، ولا أن تعرض .

السيد د . هذا صحيح . انا موافق على ذلك كلياً . يجب أن يخفى السيىء عندنا ، لا أن يعرض على الملأ .

السيد ب . لو كان أحد غيرك قال هذه الكلمات ، لقلت انها من الرياء ، وليس من الحب الحقيقي للوطن . يعني ، في رأيك ، ينبغي فقط اخفاء هذه التي سميتها قروحاً اجتماعية ، وعلاجها من

الخارج على نحوما ، حتى لا تكون مرئية في هذه اللحظة ، ولا يهم ان تستشري العلة في الداخل . لا يهم ان تنفجر ، وتكتشف عن اعراض لا ينفع معها عند ذاك اي علاج . لا يهم هذا . انت لا تريد ان تعرف اننا بدون العظة المخلصة الصادقة ، بدون الفهم المسيحي لخطايانا ، بدون تضخيمها في عيوننا ، لا نملك القوة على الارتفاع فوقها ، ولا القوة على السمو بالروح الى اعلى ما هو محتقر في الحياة . انك لا تريد ان تعرف ذلك ! وليبق الانسان أصمّ ، وليقض حياته غافياً ، ولا يحرك ساكناً حين يرى الفظاعات ، دعه لا يبكي في اعماق قلبه ، دعه يخدر نفسه ، الى حد لا تحركها الزعازع ! لا . . . وارجو المعذرة ! الانانية الباردة هي التي تحرك شفتين تنطقان بمثل هذه الاقوال ، لا حب الانسانية الطاهر التقي . (ينصرف)

السيد د (بعد صمت قصير) . لماذا انت صامت ؟ يا له من شاطر ! اية كلمات كبيرة تفوه بها !

(السيد ج يصمت)

(يتابع) يستطيع ان يقول كما يقال ما يشاء ، ولكن هذه هي قروحنا المشتركة كما يقال .

السيد ج (جانبا) . أوه ، اعجبه النطق بهذه القروح ! وسيقولها للغادي والرائح !

السيد د . بهذا الشكل استطيع ان اقول ما شئت من هذه الاقوال . ولكن ما الفائدة ؟ . . آه ، هذا الأمير ن . تمهّل ، يا أمير !

الأمير ن . ما الخبر ؟

السيد د . لنتحدث قليلاً ، توقف ! ما رايك في المسرحية ؟

الأمير ن . مضحكة .

السيد د . ولكن لماذا يعرض ؟ اي شيء هو ؟

الأمير ن . ولماذا لا يعرض ؟

السيد د . ولكن احكم بنفسك ، كيف يجوز هذا ؟ نفاجأ بمحتال على المسرح . ولكن هذه قروحنا .

الأمير ن . اية قروح ؟

السيد د . هذه قروحنا ، قروحنا الاجتماعية ، اذا امكن القول .

الأمير ن (بانزعاج) . خذها لك ! ولتكن قروحك ، لا قروحي ! لماذا تدسّها عليّ ؟ عليّ الآن أن اعود الى البيت . (ينصرف)

السيد د (يتابع) . ولكن ما هذا الهراء الذي قاله هنا ؟ يريد ان يقول : الموظف من المرتبة الراقية يمكن أن يكون محتالاً . طيب ، يمكن التساهل مع الموظف من المرتبة الدنيا . . .

السيد ج . على كل حال لنذهب . كفى كلاما . اظن الجميع عرفوا الآن أنك موظف من المرتبة الراقية . (جانباً) هناك اناس عندهم فن التشهير بكل شيء . وهم يقدرون أن يجعلوا فكرتك ، عندما تكررها ، مبتذلة الى حد انك تحمرّ خجلاً منها . واذا اطلقت قولاً احمق قد يمرّ دون أن يلحظ ، ولكن يطلع هاو وصديق يظل يكرره ، حتى يجعله أسوأ مما هو . ان هذا شيء مزعج حقاً ، وكأنما اوقعك في وحلة .

(ينصرفان)

(عسكري ومدني يتقدمان سوية)

المدني . هذا أنتم ، السادة العسكريين ! تقول «هذا ينبغي عرضه على المسرح» ، وأنت مستعد مرتين أن تضحك من موظف مدني . ولكن اذا مسوا عسكريين ، او قالوا فقط ان في الفوج الفلاني ضباطاً ، ولا حاجة الى ذكر الانحرافات المعيبة ، بل مجرد القول ان هناك ضباطاً من لون سيئ ، بسلوكيات غير لائقة ، فانت مستعد ، لهذا وحده ، ان ترفع شكوى الى مجلس الدولة نفسه .

العسكري . ولكن اسمع . مَنْ انا باعتبارك ؟ بالطبع ، بيننا دون كيشوتيون وعلى شاكلتهم ، ولكن صدق ايضاً بأن هناك اناساً حصيفين حقاً سيسرون اذا عُرض للسخرية العامة من يشين رتبتهم . وما الضير في ذلك ؟ اعرضوه ، وسنكون مستعدين الى مشاهدته كل يوم .

المدني (جانباً) : المرء دائما يصيح : «اعرضوه ، اعرضوه !» وحين يعرض يغضب .

(ينصرفان)

(معطفان مخوصران)

المعطف الأول . عند الفرنسيين ايضاً ، على سبيل المثال ، ولكن كل ذلك عندهم لطيف جداً . انت تذكر الفودفيل الذي رأيناه يوم أمس . تخلع ثيابها ، وتستلقي في فراشها ، وتأخذ سلطانية السلاطة من الطاولة ، وتضعها تحت السرير . هذا بالطبع غير لائق ، ولكنه لطيف . كل ذلك يمكن أن يشاهد ، وليست فيه اهانة . . . زوجتي واولادي يذهبون كل يوم للمسرح . أما هنا ، فماذا في الحقيقة ؟ خسيس ، ريفي ، ما كنت سأدخله حتى الى رواق بيتي ، يستلقي وهو في حذائه الطويل ، ويتثاءب أو يسلّك اسنانه . فأي شيء هذا حقاً ؟ على اي منوال ؟

المعطف الآخر . عند الفرنسيين شيء آخر . هناك mon société cher * . وهذا عندنا مستحيل . فالمؤلفون عندنا بلاثقافة كلياً . معظمهم تعلّم في مدرسة دينية . فتراه ميّالاً الى السكر وفاجراً في نفس الوقت . كان يزور خادمي أيضاً أحد هؤلاء المؤلفين . فمن أين يأتيه مفهوم المجتمع الجيد ؟

(ينصرفان)

سيدة راقية (بصحبة رجلين احدهما في بدلة فراك والاخر في بزة رسمية) . ولكن ما هؤلاء الناس ، ما هذه الشخصيات المقدّمة ! على الأقل لو كان بينهم واحد جذاب . . . ولماذا لا يكتبون عندنا مثلما يكتب الفرنسيون ، مثل ديوما مثلا والآخرين ؟ أنا لا اطالب بنماذج للفضيلة . مثّلوا لي امرأة اضلّت سواء السبيل ، بل وحتى خانت زوجها ، ولتقل استسلمت لحب غاية في العيب والاستهجان ، ولكن مثلوها بشكل جذاب ، يثير عطفي عليها ، وحبي لها . . . أما في هذه المسرحية فجميع الشخصيات أحدها ابغض من الآخر .

الرجل في البزة الرسمية . نعم ، مبتذل ، مبتذل .

---

* المجتمع ، يا عزيزي . (بالفرنسية في الأصل) .

السيدة الراقية . قل لي لماذا كل شيء عندنا في روسيا ما يزال مبتذلاً بهذا الشكل ؟

الرجل في بدلة الفراك . فيما بعد ، يا روحي ، نعرف سبب الابتذال . ينادون الآن على عربتنا .

(ينصرفون)

(يدخل ثلاثة رجال دفعة واحدة)

الأول . ولماذا لا نضحك ؟ ممكن أن نضحك . ولكن اي ضحك على موضوع استغلال النفوذ والعيوب ؟ ما وجه السخرية هنا ؟

الثاني . ولكن مم نضحك ؟ من الفضائل ، من مكارم الانسان ؟

الأول . لا ، ولكن هذا ليس موضوعا للكوميديا ، يا عزيزي ! هذا يمس الحكومة ، على نحوما . وكأنما لا توجد مواضيع أخرى يمكن الكتابة عنها ؟

الثاني . ما هي المواضيع الاخرى ؟

الأول . وهل قلّت المصادفات الدنيوية المضحكة ؟ طيب ، لنضرب مثلا أنني خرجت للتنزه في جزيرة ابتيكارسكي ، ولكنني اجد سائق عربتي قد اخذني الى ناحية فيبورغ أو الى دير سمولني . وهل المفارقات المضحكة قليلة ؟

الثاني . يعني تريد أن تنفي عن الكوميديا أية دلالة جدية . ولكن لم يشرّع القانون الذي لا غنى عنه ؟ هناك كثرة من الكوميديات على الذوق الذي ترغب فيه . ولماذا لا يسمح بوجود اثنتين او ثلاث من مثل هذه الكوميديا التي مثلوها الآن ؟ واذا كان يعجبك الكوميديات من النوع الذي تتحدث عنه فما عليك الا أن تذهب الى المسرح فانك سترى كل يوم مسرحية يختبئ فيها شخص تحت المقعد ، وآخر يجره من رجله من مخبئه .

الثالث . ولكن يا سادة ، ليس هذا المقصود . لكل شيء حدوده . وهناك اشياء لا يجوز ، اذا صح القول ، الضحك منها ، اشياء مقدسة الى حد معين .

الثاني (مع نفسه ، بسخرية مريرة) . هذا ما يحصل دائما في الدنيا : تضحك على النبيل حقاً ، على ما يمثل مقدسات النفس السامية

فلاتجد مدافعاً ، وتضحك على الفاسد ، الرذيـــل ، الوضيع ، فاذا بالجميع يهتفون : «انه يضحك على المقدسات !»

الأول . ها أنا ارى أنك الآن مقتنع . فانت لا تتفوه كلمة واحدة . صدقني لابد من الاقتناع ، فانها الحقيقة . أنا نفسي رجل منصف ، واقول ليست كما . . . ولكن هذا ليس من شأن المؤلف ، ليس موضوعاً للكوميديا . (ينصرفان)

الثاني (مع نفسه) . بصراحة ما كنت ساقبل بان اكون في مكان المؤلف ، مهما يكن من شيء . أعوذ بالله ! اذا تناول مواضيع دنيوية قليلة الاهمية قال الجميع : «يكتب سخافة ، وليس له اي هدف خلقي عميق» واذا تناول موضوعاً فيه هدف خلقي جدي نوعاً ما ، قالوا : «هذا ليس شأنه ، دعه يؤلف سفاسف !»

(ينصرف)

(سيدة شابة من المجتمع الراقي برفقة زوجها)

الزوج . لا اظن عربتنا بعيدة ، نستطيع أن نستقلها قريباً .

السيد ن (يقترب من السيدة) . يـــا سلام ! جئتم لمشاهدة مسرحية روسية !

السيدة الشابة . وماذا في ذلك ؟ يعني ليست لدي ذرة من الوطنية ؟

السيد ن . واذا كان الامر كذلك فانت لـم تشبعي وطنيتك كثيراً . أظنك تشتمين المسرحية ؟

السيدة الشابة . لا ، ابداً . ارى فيها الكثير جداً من الصدق : ضحكت من كل قلبي .

السيد ن . لأي شيء ضحكت ؟ الانك تحبّين الضحك من كل ما هو روسيّ ؟

السيدة الشابة . لأن فيها ما يُضحك حقاً ، ولأنها تعري النذالة والوضاعة ، اللتين ستظلان نذالة او وضاعة مهما كان الثوب الذي تتحليان به ، ولو انهما لم تكونا في بلدة اقليمية ، بل هنا ، فيما حولنا ، هذا هو ما اضحكني .

سيد ن . قبل حين كانت سيدة ذكية جداً تقول لي إنهـــا

ضحكت ايضاً ، ولكن المسرحية مع كل هذا تركت في نفسها انطباعاً حزيناً .

السيدة الشابة . لا اريد أن اعرف بمـــاذا شعرت سيدتك الذكية جداً ، ولكن اعصابي ليست حسّاسة جداً ، وانا دائمـــاً مسرورة من الضحك مما هو مضحك ضمنيا . اعرف أن هناك طائفة منا مستعدة على ان تضحك من كل قلبها من انف الانسان الأعوج ولكن ليست لها القوة الخلقية على ان تضحك من نفس انسان عوجاء .

(من بعيد تبدو سيدة شابة اخرى مع زوجها)

السيد ن . ها هي صاحبتك قادمة . وددت لو اعرف رأيها .

(السيدتان تمدان يديهما الواحدة للأخرى)

السيدة الأولى . رأيت من بعيد كيف كنت تضحكين .

السيدة الثانية . ومَنْ لم يضحك ؟ الجميع كانوا يضحكون .

السيد ن . الم تشعري بشعور محزن ؟

السيدة الثانية . بصراحة ، شعرت بالحزن بالضبط . انا اعرف ان كل ذلك صادق جداً ، وانا نفسي رأيت الكثير مما يشبه ذلك ، ومع كل هذا احسست بثقل في صدري .

السيد ن . يعني لم تعجبك الكوميديا ؟

السيدة الثانية . ولكن إسمع : مَنْ يقول ذلك ؟ لقد قلت لك إنني ضحكت من كل قلبي ، بل واكثر من الآخرين . اعتقد انهم اعتبروني مجنونة . . . ولكن كان محزناً لي ، حتى كنت أود لو استقر نظري على وجه واحد طيب . إن هذا الافراط والاكثار في ما هو وضيع . . .

السيد ن . استمري ، استمري !

السيدة الثانية . اسمع ، انصح المؤلف بأن يصور ولو انساناً واحداً نزيهاً . قل له إنهم يطلبون منه ذلك ، وأن ذلك سيكون لطيفاً ، حقاً .

زوج السيدة الأولى . هذا بالذات لا تنصح به . السيدات يهوين

ان يكون هناك فارس حتماً ، ليظل يكرر لهن كل كلمة عن النبل ، ولو بأكثر الاساليب ابتذالاً .

السيدة الثانية . لا ، ابداً ! ما اقلّ معرفتكم بنا ! هذا من عنديا تكم ! انتم بالفعل لا تحبون إلا الكلام والحديث عن النبل . لقد سمعت رأى أحدكم . شخص سمين صرخ صرخة جعلت الجميع ، على ما اظن ، يلتفتون اليه ، قائلاً إن كل ذلك افتراء ، وأن مثل هذه الوضاعات والنذالات لا وجود لهـــا بيننا . ومَنْ كان يقول ذلك ؟ ان أوضع وانذل انسان ، مستعد لبيع روحه وضميره وكل ما لديه . لا اريد فقط ان اذكر اسمه .

السيد ن . طيب ، قولي من هو ؟

السيدة الثانية . ولماذا تريد ان تعرف ؟ ولكن لم يكن وحده . كنت اسمع باستمرار كيف كانوا يصرخون قربنا : «هذه سخرية مقرفة من روسيا ، سخرية من الحكومة ! وكيف يسمحون بذلك ؟ وماذا سيقول الشعب ؟» لماذا كانوا يصرخون ؟ الأنهـــم كانوا يتصورون ويشعرون بذلك بالفعل ؟ آسف ، لا اظن ! بل لأنهم يريدون ان يثيروا ضجة ، ليمنعوا المسرحية ، لأنهم ، ربمـــا ، وجدوا فيها شبهاً بهم . هؤلاء هم فرسانكم الحقيقيون ، اللامسرحيون .

زوج السيدة الأولى . أوه ! بدأ يظهر عليك غيظ صغير !

السيدة الثانية . غيظ ، غيظ بالذات ! نعم ، أنا مغتاظة ، مغتاظة جداً . ولا يمكن ان لا يشعر المـرء بالغيظ ، وهو يرى النذالة تظهر تحت كل الاقنعة .

زوج السيدة الأولى . اي ، نعم ، كنت تودين ان يطلع فارس الآن ، ويقفز عبر هاوية ، وتنكسر رقبته . . .

السيدة الثانية . معذرة .

زوج السيدة الأولى . هذا طبيعي ! ماذا تريد المرأة ؟ تريد حتماً ان تكون في الحياة علاقات غرامية .

السيدة الثانية . لا ، ولا ولا ! مستعدة ان اكرر لا مائتي مرة ! هذه فكرة مبتذلة قديمة ، تفرضونها علينا دائمـــاً . للمرأة من الشهامة الاصيلة اكثر مما للرجل . المرأة لا تقدر ، ليس لها القوة على ارتكاب النذالات والحقارات التى ترتكبونهـــا أنتم . المرأة لا تستطيع ان تنافق ، حيث تنافقون انتم ، ولا تقدر التغاضي عن

الوضاعات التي تتغاضون انتم عنها . عندها من النبل مـــا يكفي لتفصح عن ذلك كله دون التلفت فى الجانبين لترى هل يروق هذا لأحد ام لا – لأن ذلك يجب الافصاح به . الخسة هي الخسة ، مهما غطيتم عليها ، وأى مظهر اعطيتموها . ستبقى خسة . خسة ، خسة !

زوج السيدة الأولى . ولكنى أراك قد غضبت من كل النواحي .

السيدة الثانية . لأنني صريحـــة ، ولا استطيع التحمل حين يقولون كذباً .

زوج السيدة الأولى . طيب ، لا تغضبـــى ، وهاتي يدك ! كنت امزح .

السيدة الثانية . هاك يدي ، لست غاضبة . (تخاطب السيد ن) اسمع ، انصح المؤلف بأن يضيف للكوميديا شخصاً شريفاً نزيهاً .

السيد ن . وكيف سيفعل هذا ؟ طيب ، يضيف شخصاً نزيهاً ، واذا طلع هذا الشخص النزيه يشبه فارساً مسرحياً ؟

السيدة الثانية . لا ، فإن كان سيشعر بقوة وعمق ، فإن بطله لن يكون فارساً مسرحياً .

السيد ن . اظن أن ذلك ليس بالأمر السهل .

السيدة الثانية الأحسن أن تقول ببساطـة أن مؤلفك تنقصه العواطف القلبية العميقة والقوية.

السيد ن . ولم ذاك ؟

السيدة الثانية . الذى يضحك دائماً وباستمرار ليست لـــه عواطف رفيعة جداً ، ولا يستطيع التعرف على ما يشعر به القلب الرقيق وحده .

السيد ن . هذا حسن ! يعني في رايك ان المؤلف لا يمكن ان يكون انساناً نبيلاً ؟

السيدة الثانية . ها انت تفسّر الكلام بطريقة اخرى . أنا لم اقل كلمة واحدة تشير الى أن الكوميدي كـــان مفتقراً الى النبل والادراك الواعى للشرف بكل ما في هذه الكلمة من معنى . بل قلت فقط انه غير قادر على . . . أن يذرف دمعة صادقة ، وأن يحب بقوة ، وبكل اعماق قلبه .

زوج السيدة الثانية . ولكن كيف تستطيعين ان تثبتي قولك هذا ؟

السيدة الثانية . استطيع ، لأنني اعرف . كل الذين ضحكوا او كانوا ساخرين ، كانوا جميعاً مغرورين . كلهم تقريباً انانيون . انانيون شرفاء ، بالطبع ، ولكنهم انانيون ، على اية حال .

السيد ن . يعني ، أنت تفضلين كلياً ذلك النوع من التاليف الذي لا يعرض الا عواطف الانسان الرفيعة ؟

السيدة الثانية . نعم ، بالطبع ! أنا دائماً اسمو بها ، واؤمن ايماناً اكبر بمثل هذا المؤلف ، صراحة .

زوج السيدة الأولى . (مخاطباً السيد ن) الا ترى الآن ؟ نفس النتيجة هذا هو ذوقهن . اكثر التراجيديات ابتذالاً هي ، بالنسبة لهن ، اسمى من احسن كوميديا ، لمجرد أنها تراجيديا . . .

السيدة الثانية . اسكت . سأغضب ثانية (تخاطب السيد ن) طيب ، قل لي أليس كلامي صحيحاً . لأن روح الكاتب الكوميدي لا بد ان تكون باردة حتماً ؟

زوج السيدة الثانية . أو حارة ، لأن الطبع السريع التهيّج يثير أيضاً السخريات والانتقادات الهجائية .

السيدة الثانية . طيب ، أو سريعة التهيج . ولكن ما يعني هذا ؟ هذا يعني أن سبب هذه المؤلفات كانت دائماً الروح الصفراوية ، التصلّب ، السخط وقد تكون لها تبرير من جميع النواحي . ولكن لا دليل على أن ذلك وليد الحب الرفيع نحو الانسانية ، وليد الحب بصفة عامة . أليس صحيحاً ؟

السيد ن . هذا صحيح .

السيدة الثانية . طيب قل لي أليس مؤلف الكوميديا بهذه الصورة ؟

السيد ن . كيف اقول لكِ ؟ أنا لا اعرفه معرفة قريبة ، لأستطيع ان احكم على روحه . ولكن حين اتمثل الى ما سمعت عنه فلا بد ان يكون انانياً او رجلاً سريع التهيّج جداً .

السيدة الثانية . الا ترى أنني كنت على معرفة جيدة بذلك ؟

السيدة الأولى . لا اعرف السبب ، ولكنني لا احب ان يكون انانياً .

زوج السيدة الأولى . هذا هو خادمنا قادم ، يعني أن عربتنا

جاهزة . وداعاً : (يصافح السيدة الثانية) ألا تاتون الينا ؟ تشربون الشاي عندنا ؟

السيدة الأولى (منصرفة) . أرجوكم !

السيدة الثانية . بالتأكيد .

زوج السيدة الثانية . اظن عربتنا ايضاً جاهزة .

(ينصرفان وراءهما)

(يدخل مشاهدان)

الأول . اريد أن تفسّر لي : اذا أخذت اي حدث أو شخصية او نموذج على انفراد وجدت كل ذلك صحيحاً ، حياً ، مأخوذاً من الواقع ، اما اذا أخذتها مجتمعة بدت لك مضخّمة ، مبالغاً فيها ، كاريكاتورية الى درجة انك تسأل نفسك لدى مغادرة المسرح : هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً ؟ ومع ذلك فليسوا هم اشراراً .

الثاني . ليسوا اشراراً على الاطلاق . بل ينطبق عليهم المثل القائل «ليس بالشرير ولكنه على النصب قدير» .

الأول . ثم هناك شيء آخر . أليس هذا التراكم المضخم ، هذا الافراط هو نقيصة الكوميديا ؟ قل لي اين ذلك المجتمع الذى يتالف من هؤلاء الناس فقط ، وليس فيه ، ان لم نقل النصف ، أو على الاقل ، جزء يسير من الناس الاسوياء ؟ واذا كانت الكوميديا يجب ان تكون لوحة ومرآة لحياتنا الاجتماعية ، فيجب ان تعكسها بكل حقيقتها .

الثاني . اولاً ، في رأيي أن هذه الكوميديا ليست لوحة مطلقاً ، بل صورة إيضاحية بالأحرى . انت ترى أن المشهد ومكان الحدث مثاليان . والا لما كان المؤلف سيأتى بأخطاء واضحة ومفارقات تاريخية ، ولما وضع على لسان بعض الاشخاص اقوالاً لا تعود لهم سواء من حيث طبيعتهم ، أو من حيث مرتبتهم ومنصبهم . الانفعال الأول فقط هو الذي شخص ما ليس له اي ظل لشخصية معينة ، وما يعود لهذا القدر او ذاك الى الناس كلهم . ان هذه الكوميديا مكان تجميع . من كل اصقاع روسيا تقاطرت اليها الشذوذات عن الحقيقة والضلالات واعمال استغلال النفوذ لتخدم فكرة واحدة ، وهي اثارة

النفور النبيل القوي في المشاهد إزاء كل ما هو وضيع . ومما زاد هذا الانطباع قوة أن أى واحد من الاشخاص الممثلين على المسرح لم يفقد مظهره الانساني . فإن الجوهر الانساني يتبدّى في كل مكان . وهذا ما جعل خفقان القلب اعمق . والمشاهد ، وهو يضحك ، يجد نفسه يلتفت الى الوراء دون ان يدري ، وكأنما يشعر بأن ما ضحك منه قريب اليه ، وأن عليه ان يظل متيقظاً في كل لحظة حتى لا ينفذ إلى روحه . ولعلّ اضحك ما يوجه الى المؤلف من انتقادات هو : «لماذا شخوصه وأبطاله غير جذابين» في حين انه استخدم كل شيء لينفر عنهم . ولكن لو كانت الكوميديا تضم ولو شخصاً واحداً نزيهاً ، ومصوّراً بكل ما له من جاذبية ، لتحوّل الجميع قاطبة الى جانب هذا الشخص النزيه ، ولنسوا كل شيء عن اولئك الذين ارعبوهم الآن هذا الرعب . ولربما ما كانت هذه الشخوص ستبقى في خيال المشاهدين باستمرار اناساً أحياء ، الى نهاية المسرحية . ولما تولد لدى المشاهد شعور بالحزن ، ولما قال «هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً ؟»

الأول . ولكن ذلك ، على اية حال ، لا يفهم دفعةً واحدةً .

الثاني . طبيعي جداً . ان المغزى الضمني يُدرك دائماً فيما بعد . كلما كانت الشخوص التي يتجسد فيها ويتوزع بينها اكثر حيوية واشد سطوعاً كلما صار الانتباه الى هذه الشخوص اعمّ واشمل . إن محصلة الابداع ومغزاه لم يتكونا الا بعد صياغتها سوية . ولكن فهم هذه المفردات وتوضيبها بسرعة ، وقراءتها بنظرة شاملة ودفعة واحدة لا تتيسر لكل انسان . وحتى ذلك الحين ولوقت طويل سيظل هذا الانسان يرى المفردات فقط . وسترى ، وانا اقول لك ذلك مقدماً : قبل كل شيء ستغضب كل بلدة اقليمية في روسيا ، وتؤكد بأن ذلك هجاء حاقد ، افتراء مبتذل وضيع موجّه اليها بالذات .

(ينصرفان)

موظف . هذا افتراء مبتذل ، وضيع . هذا هجاء ، طعن !

موظف آخر . الآن ، اذن ، لم يبق أى شيء . لا حاجة الى

قوانين ، ولا حاجة الى وظيفة . ولا حاجة الى البزة الرسمية التي عليّ ، ويجب رميها . هي الآن خرقة .

(يركض شابان)

احدهما . أوه ، الجميع تملكهم الغضب . سمعت من الأحاديث ، ما يجعلني ، اذا نظرت الى أي انسان ، أن احدس ما يفكر في نفسه عن المسرحية .

الآخر . طيب ، ماذا يفكر هذا ؟

الأول . الذي يضع ذراعه في كم معطفه ؟

الآخر . نعم .

الأول . هذا يفكر «على مثل هذه الكوميديا تستحق النفي الى نيرتشينسك * . . .» على كل حال ، يبدو أن المشاهدين في طبقات المسرح العليا اخذوا يخرجون . الظاهر أن الفودفيل انتهى . سيتدفق عامة الناس الآن لنخرج .

(ينصرفان)

(يتزايد الضجيج . وتصدر كركبة الارجل من جميع السلالم . تتراكض القفاطين ، والمعاطف المدبوغة ، والقلنسوات النسائية ، وقفاطين التجار الالمانية الطويلة ، والقبعات الثلاثية ، والقبعات المرّيشة ، والمعاطف من شتى الاصناف ، اعتيادية وعسكرية ومستهلكة وذات ياقات فرائية . الجمع يدفع سيداً يضع ذراعه في ردن معطفه ، فيتنحى السيد ، ويواصل لباس معطفه في ناحية . يظهر في الحشد سادة وموظفون من كل الانواع والاصناف . خدم في بزة خدم يزيحون الناس عن طريق سيداتهم ، تردد صيحة نسائية : «ويا اولياء ، حصروني من كل الجهات»)

موظف شاب ذو طبع مراوغ (يتقدم من السيد الذي يلبس معطفه) . يا صاحب السعادة ، اسمحوا لي بأن اسندكم !

السيد ذو المعطف . آه ، مرحباً ! انت هنا ! جئت لتشاهد المسرحية ؟

الموظف الشاب . نعم ، يا صاحب السعادة . مسلية بملاحظاتها الدقيقة .

---

* منطقة في سيبيريا ، حيث نفي الديسمبريون . **المترجم** .

السيد ذو المعطف . هراء ! ليس فيها ما يُسلي .

الموظف الشاب . هذا صحيح ، يا صاحب السعادة ، ليس فيها ما يسلّى اطلاقاً .

السيد ذو المعطف . مثل هذه الاشياء تستحق الجلد ، لا الثناء .

الموظف الشاب . هذا صحيح ، يا صاحب السعادة .

السيد ذو المعطف . انهم يسمحون للشبان بالدخول الى المسرح . لا اراهم يجنون من ذلك فائدة كبيرة . ها انت مثلاً ، ستذهب الى دائرتك غداً ، وتغلظ القول بلا حياء ، أليس كلامي صحيحاً ؟

الموظف الشاب . غير ممكن ، يا صاحب السعادة ! . . . اسمح لي بأن ازيح الناس عن طريقكم ! (يدفع هذا وذاك من الناس ويصيح على الجميع) يا هؤلاء ، تنحوا ، الجنرال قادم ! (يقترب باحترام مبالغ من رجلين حسني الهندام) ايها السادة ، اعملوا معروفاً ، واجعلوا الجنرال يمرّ .

(الرجلان الحسنا الهندام يتنحيان ويفسحان الطريق)

الأول . ألا تعرف أي جنرال هو ؟ ربما هو مشهور ؟

الثاني . لا اعرف . لم أره من قبل .

موظف كثير الكلام (يتقدم منهما من الخلف) . مجرد مستشار مدني ، مسجل على الدرجة الرابعة بأحقيته . يا لها من سعادة ! في خمسة عشر عاماً من الخدمة منح وسام فلاديمير ، وآنا ، وستانسلاف ، وثلاثة آلاف روبل مرتباً ، وألفين اضافة للمصروفات الجانبية ، ثم ما يطلع له من المجلس ، ومن اللجنة ، ومن الدائرة .

الرجلان الحسنا الهندام (احدهما للآخر) لننصرف !

(ينصرفان)

الموظف الكثير الكلام . أظنهما مدللين من أمهما . ربما يشتغلان في نظارة الخارجية . أنا لا احب الكوميديا ، ذوقي يميل الى التراجيديا أكثر . (ينصرف)

صوت من الزحام . ياه ، ما اكثر الناس !

ضابط (يشق طريقه متأبطاً ذراع سيدة) . هاي ، يا أبا لحية ، ما هذا التدافع ؟ ألا ترى السيدة ؟

التاجر (متأبطاً ذراع سيدة) . عندنا ايضاً سيدة .

صوت من الزحام . ها هي استدارت ، هل تراها ؟ ازدادت قبحاً ، ولكن قبل ثلاثة اعوام . . .

اصوات متنوعة . وثلاث قطع نقدية ، تسمع ، أخذت منه البقية – مسرحية حقيرة شنيعة ! – مسرحية مسلية ! – ما لك تدوس على خناقي ؟

صوت من احد طرفي الزحام . كل هذا سخافة ! أين أمكن أن يحدث هذا ؟ مثل هذا لا يمكن أن يحدث الا في جزيرة تشوكوتكا .

صوت من الطرف الآخر . مثل هذا الحادث بالضبط حدث في بلدتنا . من المحتمل أن يكون المؤلف قد سمع به ، إن لم يكن نفسه موجوداً هناك .

صوت التاجر . ولكنه هنا لا مؤاخذة ، يُشدّد على الناحية «الخلاقية» اكثر ، اذا صح القول . ثم ما اكثر ما يحدث في الدنيا ، في الحقيقة ! هذا قد يقع للرجل النزيه ايضاً ، لا مؤاخذة . . . اما من الناحية «الخلاقية» ، فيحصل للنبلاء ايضا .

صوت سيد مشجّع . لا بد أنه مؤلف مكّار غشاش ، جرّب كل شيء ، ويعرف كل شيء !

صوت موظف مغتاظ ، ولكنه مجرّب ، على ما يبدو . ماذا يعرف ؟ لا يعرف شيئاً اطلاقاً ! إنه يكذب ، يكذب . كل ما كتبه ، كل ذلك اكاذيب . والرشاوى لا تؤخذ بهذا الشكل ، اذا أردنا الحقيقة . . .

صوت موظف آخر من الزحام . ما لك تكرّر : «مضحكة ، مضحكة» ! هل تعرف لماذا هي مضحكة ؟ كلها عن اشخاص معينين . عرض على المسرح جداته وعماته . ولهذا فهي مضحكة .

صوت مجهول . إلحقوني ، سرقوا المنديل !

(ضابطان يعرف احدهما الآخر يتكلمان عبر الزحام)

الأول . ميشيل ، الى هناك ؟

الثاني . الى هناك .

الأول . وانا ساكون هناك ايضاً .

موظف وجيه المظهر . لو كان الأمر بيدي لمنعت كل شيء . لا حاجة الى نشر اى شيء . استفيدوا من التعليم ، واقرأوا ، ولكن لا تكتبوا . كتب ما يكفي من الكتب ولا حاجة الى المزيد .

صوت من الجمهور . اذا انت وغد ، فانت وغد على كل حال وحين لا تكونه لا احد يضحك منك .

سيد جميل مكتنز (يتحدث بحرارة مع آخر دميم قصير) . الاخلاق ، الاخلاق تعاني ، هذا هو اهم شيء !

السيد الدميم القصير واللاذع اللسان . ولكن الاخلاق شيء نسبي .

السيد الجميل المكتنز . ماذا تعني بصفة «النسبي» هذه ؟

السيد الدميم واللاذع اللسان . اقصد أن كل انسان يقيس الاخلاق على نفسه . واحد يرى الاخلاق أن يرفع الناس له قبعاتهم عند التقائه في الشارع ، والآخر يرى الاخلاق في التغاضي عما يسرقه هو ، والثالث يرى الاخلاق في الخدمات التي تقدم لمحظيته . أليس من المألوف أن يقول أي واحد منا لمرؤوسيه بتعالٍ : «يا حضرة المحترم ، اسع الى القيام بواجبك لما فيه خير ربك والقيصر والوطن» وتعالَ فكر بعد ذلك مع نفسك فيما هو هذا الخير . وعلى العموم هذا ما يحصل في الاقاليم ، ولا وجود له في العواصم . أليس كذلك ؟ واذا صار لأحد الاشخاص هنا بيتان فجأة في ظرف ثلاث سنوات فما سببه ؟ اظنه نزاهة لا غير أليس كذلك ؟

السيد الجميل المكتنز (جانباً) . دميم كالشيطان ، ولكن له لسان الافعى .

السيد الدميم اللاذع اللسان (يلكز ذراع رجل غريب عليه تماماً ، مشيراً الى السيد الجميل) . اربعة بيوت في شارع واحد ، ارتفعت واحداً جنب الآخر خلال ستة اعوام ! انظر اي تاثير للنزاهة على مخلوق خامل . ها ؟

الغريب (يبتعد مسرعاً) اعذرني ، لم اسمع كل كلامك .

الدميم اللاذع اللسان (يلكز ذراع جاره الغريب عليه) . كيف

استشرى الطرش الآن في المدينة ! انه المناخ الرطب غير السليم يخلف أثره .

الجار الغريب . والزكام استشرى كذلك ! جميع أولادي اصيبوا به !

الدميم اللاذع اللسان . نعم ، الزكام والطرش . والتهاب اللوزتين ايضاً (يختفي في الزحام) .

(حديث في مجموعة في ناحية)

الأول : يقولون إن الحادث ذاته وقع للمؤلف نفسه . قضى مدة طويلة في سجن احدى البلدات .

سيد في الطرف الآخر من المجموعة (يعلق على كلامه) . لا ، لم يكن هذا في سجن ، بل في برج . وقد رآه الذين مروا من هناك . يقولون كان شيئاً عظيماً . تصوّروا شاعراً على أعلى برج ، وحوله جبال،مناظر خلاّبة ، وهو ينشد الاشعار من هناك . أليست هذه ميزة خاصة بالشاعر ؟

سيد ايجابي . لا بد أن يكون المؤلف ذكياً .

سيد سلبي . ليس ذكياً أبداً . اعرف انه كان في وظيفة ، وكاد يُطرد منها ، لأنه لم يكن يعرف كتابة الرجاوات .

مجرّد كذاب . دماغ فطن ، فطن ! ظلوا زمناً طويلاً يرفضون إعطاءه وظيفة . فماذا تتصورون ؟ كتب رسالة الى الوزير مباشرة . واية رسالة ! على طريق الاطناب والاسهاب . حالما بدأ «يا صاحب المعالي . . .» حتى سال القلم وسال . . وحبّر ثماني صفحات . وعندما قراها الوزير قال «شكراً ، شكراً ! ها انا ارى أن لك اعداء كثيرين : سأعينك رئيس قسم !» وهكذا انتقل راساً من صنف الكتبة الى رئيس قسم .

السيد الطيب القلب (مخاطباً شخصاً آخر بارد الاعصاب) . الله يعلم بمن يصدق الانسان ! هذا يقول : كان في السجن ، وذاك صعد على برج ! وهذا طردوه من الوظيفة ، وذاك اسندوا له رئاسة قسم !

السيد البارد الاعصاب . خذ الكلام على عواهنه .

السيد الطيب القلب . كيف على عواهنه ؟

السيد البارد الاعصاب . اقصد هـــم انفسهم لا يعرفون ماذا سيسمعون من السنتهم بعد دقيقتين . اللسان يلوك الاخبار بلا رقابة من صاحبه . وصاحبه مرتاح يعود الى البيت ، وكانه شبع من اللوك . وفي اليوم التالي يكون قد نسي ما لفقه . يتصوّر انه سمعه من آخرين فينشره في المدينة كلها .

السيد الطيب القلب . ولكن من المخجل ان تكذب دون ان تحس انت بذلك .

السيد البارد الاعصاب . وهناك حساسون ايضاً . هناك مَنْ يحسون بانهم يكذبون ، ولكن يرونه ضرورة للحديث ، على المثل القائل : السنابل زينة الحقل ، والكذب زينة الحديث .

سيدة من مجتمع وسط . ولكن لا بد ان يكون هازئاً شديد الحقد هذا المؤلف ! لا اريد بصراحة ان تقع عيناه عليّ . فقد يلحظ شيئاً مضحكاً فيّ .

سيد ذو اعتبار . انا لا اعرف اي انسان هو . هذا ، هذا ، هذا . . . لا شيء مقدس عند هذا الرجل . اليوم يقول هذا الموظف سيئ . وغدا سيقول اللـــه غير موجود . بين هذا وذلك خطوة واحدة .

سيد ثان . استهزاء ! ولكن لا يجوز المزاح بالاستهزاء . هذا يعني هدم كل احترام . هذا معناه . وبعد هذا كله سيضربني اي شخص في الشارع ويقول : «انهم يضحكون منكم ، فانت تحمل نفس الرتبة ، تلق هذه الصفعة اذن !» . هذا معناه .

سيد ثالث . بالطبع ! هذا شيء خطير ! يقولون «هذه العوبة ، امر تافه ، تمثيـل مسرحي» . لا ، هذه ليست الاعيب بسيطة ، ويجب النظر اليه باهتمام صارم ، مثل هذه الاشياء توجب النفي الى سيبيريا . لو كانت لي سلطـــة لجعلت هذا المؤلف لا ينطق بحرف ، ولارسلته الى مكان لا يرى فيه حتى ضوء النهار .

(تظهر جماعة من الناس من نمط غريب ، ولكنهـم ذوو مظهـر نبيل ، وملبس معتبر)

الأول . الاحسن ان نقف هنا ، حتى ينجلي الزحام . ما هذا ،

في الحقيقة ! ضجة وتصفيق وكان في الأمر معجزة او شيئاً لا يعرفه إلا الله . مسرحية تافهة ، فارغة المضمون ، ولكنهم يثيرون الضجيج ويصرخون ، ويدعون المؤلف الى الظهـــور على المسرح . فـــاي شيء هذا !

الثاني . المسرحية ، على العمـــوم ، اشاعت المرح ، واثارت التشويق .

الأول . اي ، نعم ، اشاعت المرح ، مثلما يثيره أي عبث . ولكن لماذا تسبب هذه الصرخات والاقاويل ؟ يتناقشون ، وكانما في شيء مهم ، ويصفقون . . . ولكن ما هذا ؟ طيب ، انا افهم ، اذا كان على المسرح مغن او راقصة . هذا مفهـوم ، لان الناس تعجب بالفن ، باللدانة ، بالخفة ، بالموهبة الاصيلة . ولكن ماذا هنا ؟ يصيحون : «اديب ! اديب ! اديب ! كاتب !» واي شيء هو الكاتب ؟ كلمـة نابهة ترد هنـــا وهناك ، وتصوير منقوش من الواقع . . . واي جهد في هذا ؟ ماذا فيه ؟ هي اباطيل لا اكثر .

الثاني . صحيح ، انها مسرحية تافهة .

الأول . خذ الراقص ، مثلاً . فن ، على كل حال . ولا تستطيع ان تقوم بما يقوم به . قد تكون لدي الرغبة ، مثلاً ، ولكن رجليّ لا تستجيبان لي . اريد ان اقفز ، ولكن هيهات . ولكن الكتابـة ممكنة حتى لغير المتعلم . انا لا اعرف مَنْ هذا المؤلف ، ولكنني سمعت انه انسان جاهل تماماً ، ولا يعرف اي شيء . يبدو انه مطرود من وظيفته .

الثاني . ولكن لا بد ان يعرف شيئاً . فبدون ذلك يستحيل ان يكتب .

الأول . اوه ، يا صاحبي وماذا يمكن ان يعرف ؟ انت نفسك تعرف ما هو الأديب : افرغ انسان . العالم كله يعرف انه لا يصلح لأي شيء . حاولوا استخدام هؤلاء الناس ، وتركوهم . طيب ، قل لي ، ما هذا الذي يكتبونه ؟ سفاسف ، واباطيل ! انا اذا اردت كتبت حالا ، وانت ايضا تقدر ، وهو يقدر ، واي شخص يقدر .

الثاني . نعم ، بالطبع ، ولم لا . ذرة من العقل ونقدر .

الأول . حتى العقل لا حاجة له . وما علاقة العقل هنـا ؟ هذا مجرد تلفيق اباطيل . قد تكون هناك حاجة الى العقل اذا كان الأمر

يتعلق بعلم ودراسة ، مثلاً ، بمادة لا تعرفها بعد . أما هذا ، فاي شيء هو ؟ يعرفه كل مَنْ هب ودب . تراه في الشارع كل يوم . وما عليك الا أن تجلس عند النافذة ، وتكتب كل ما يحصل . وهذا كل ما في الأمر !

الثالث . هذا صحيح . تصوّر ، يضيعون الوقت على مثل هذه السخافة !

الأول . ضياع الوقت بالذات ، ولا اكثر ! هؤلاء صانعو اباطيل وخزعبلات . ما عليك الا أن تمنعهم من أن يمسكوا الريشة والمحبرة في ايديهم . على كل حال ، الناس يخرجون ، فلنذهب ! ضجيج ، وصياح ، وتشجيع ! بينما لا شيء غير التفاهة ! اباطيل !

(ينصرفون . انفضّ الزحام وبعض المتاخرين يركضون)

موظف طيب القلب . على كل حال ، لو مثلوا لنا شخصاً واحداً نزيهاً ! ولكن الجميع نصابون ، ونصابون !

واحد من الشعب . اسمع ، انتظرني عند مفرق الطريق ! وسآخذ انا قفازي بسرعة .

واحد من السادة (ينظر في ساعته) . الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً . لم أتاخر قط في الخروج من المسرح هذا التأخير . (ينصرف)

موظف متاخر . ضاع الوقت هباء ! لا ، لن اذهب الى المسرح بعد الآن ! (ينصرف)

(الرواق يفرغ)

مؤلف المسرحية (يتقدم) . سمعت اكثر مما كنت انتظر . مجموعة شتى من الأقوال ! سعيد ذلك الكوميدي الذي يولد في أمة حيث المجتمع لم يتكوّر بعد في كتلة واحدة جامدة ، ولم يتغلّف بقشرة واحدة من النعرة القديمة التي تحصر أفكار الجميع في قالب واحد ، ومقياس واحد ، وحيث لكل انسان رأيه ، وكل انسان يخلق شخصيته بنفسه . تنوع كبير في هذه الآراء ، وتألق شامل لهذا العقل الروسي الركين الصافي ، سواء في الطموح النبيل

لرجل الدولة ، أو في التفاني السامي للموظف المنزوي في صقع ناء ! أو في الجمال الرقيق للمرأة الاريحية النفس ! في الشعور الجمالي لهواة الفن ! وفي الاحساس البسيط والاصيل للشعب ! وحتى في تلك الآراء السلبية الناكرة الكثير مما ينبغي ان يعرفه الكوميدي ! اي درس حيّ هذا ! نعم ، أنا مرتاح . ولكن لماذا يثقل الحزن على قلبي ؟ من الغريب أن احداً لم يلحظ ، مع الأسف ، وجود أي شخص نزيه في مسرحيتي . بينما فيها شخص واحد نزيه شهم يظهر طوال المسرحية كلها . ان هذا الشخص النزيه الشهم هو **الضحك** . كان شهماً ، لأنه عزم على المشاركة في التمثيل ، رغم الأهمية الضئيلة التي تُعطى له في الحياة . كان شهما ، لأنه عزم على المشاركة ، رغم انه الحق بالكوميدي صفة مهينة ، صفة الأناني البارد ، بل وجعل الآخرين يتشككون حتى في امتلاكه العواطف القلبية الرقيقة . ان احداً لم يقف الى جانب الضحك هذا . وأنا كوميدي ، خدمته باخلاص ، ولهذا يجب أن أقف الى جانبه . ان الضحك اكثر اهمية واعمق مما يتصور الناس . وأنا لا اعني ذلك الضحك الذي يولده التهيج المؤقت ، والمزاج الصفراوي المرضي ، ولا ذلك الضحك الخفيف الذي يستخدم للتسلية الرخيصة والهاء الناس . بل ذلك الضحك النابع بكليته من طبيعة الانسان الوضاءة ، النابع منها ، لأن في قاعها يوجد ينبوعه المتدفق أبداً ، الضحك الذي يعمق الموضوع ، ويخرج من الباطن ويجعل ما سيضيع حتماً يتألق ساطعا ، ولو لا قوته النافذة ، لما افزعت الحياة الانسان هذا الفزع الرهيب بصغائرها وخوانها . ولما تضخم ما يصادفه كل يوم من مزدرى وتافه ، وهو غير مكترث ، لينمو أمامه بتلك القوة الرهيبة ، الكاريكاتورية تقريباً ، ولما صرخ مرتعصاً : «هل من المعقول أن هناك مثل هؤلاء الناس ؟» ، بينما يوجد ، في وعيه الذاتي ، اناس اسوأ . لا ، ليسوا منصفين اولئك الذين يزعمون أن الضحك يزعجهم . فالمزعج هو الكئيب وحده ، أما الضحك فيبهج النفس . اشياء كثيرة لو مثلت في عريها ازعجت الانسان ، ولكنها ستثير الطمأنينة في النفس لو نورتها قوة الضحك . والذي كان من الممكن ان ينتقم من الشرير سيتسامح معه ، اذا رأى حركات نفسه الدنيئة موضع

اضحاك للناس . وليسوا على حق اولئك الذين يقولون بأن الضحك لا يؤثر في الذي يُشهر ضده ، والمحتال سيكون اول من يضحك من المحتال الذي يُمثّل على المسرح . ان المحتـــال القادم قـد يضحك ، ولكن ليس في مقدور المحتال الذي عايش الاحداث الممثلة في المسرحية أن يضحك ! فهو يسمع انه صار لدى جميع الناس صورة ثابتة لا تتغير ، وان اية حركة وضيعة من جانبه تكفي لأن تعلق به هذه الصورة الى الأبد . ان السخريات مخيفة حتى لمن لا يخاف أيّ شيء في الدنيا . أجل ، ان النفس الطيبة من الاعماق وحدها قادرة على أن تضحك الضحك الطيب المشرق . ولكن الناس لا تستمع الى قوة هذا الضحك الجبّارة فالمجتمع الراقي يقول : «كل ما هو مضحك وضيع» ، والسمو لا يطلق الا على مـا ينطق بالصوت الصارم المتوتر . ولكن ، أواه ! كم يمرّ امامنا كل يوم من الذين لا يستشعرون السمو في اي شيء في الدنيا ! فكل مـا أبدعه الالهام الروحي هو ، بالنسبة لهم ، سفاسف ، واباطيل . اعمال شكسبير عندهم اباطيل ، خفقات الروح القدسية عندهـــم اباطيل . وانا لا اقول ذلك ثأراً لكبرياء الكاتب المهانة التافهة ، ولا لأن اعمالي الضعيفة المبتسرة وصفت قبل لحظات بالاباطيل ، بل ارى عيوبي ، وما يستحق العتاب والاستنكار ، ولكن روحي السمحة لم تستطع أن تتحمـــل بلا اكتراث ، حين وصفت أكمل الابداعات بالسفاسف والاباطيل ولم يعترف نجوم المجتمع واساطينه بغير صانعي الاباطيل ! روحي توجعت ، حين رأيت كم هم كثيرون هنا ايضاً ، وسط الحياة نفسهـا ، اولئك السُوّقة اللامبالين ، الانفس الميتة المرعبين ببرود روحهم الجامد ، وعقم قلبهم الفارغ . توجعت روحي ، حين لم يرف على وجوههم الخالية من العطف حتى طيف احساس بما كان يجعل النفس العميقة الحب تذرف الدموع السماوية ، ولم يخمد لسانهم من ترداد كلمته المستديمة «سفاسف واباطيل» ! اباطيل ! . . . وقد مرّت القرون ، واندثرت المدن والشعوب ، وامحت من وجه الأرض ، وتلاشى كل ما كان كالدخان ، وهذه «اباطيل» حيّة ، وتعاد حتى اليوم ، ويستلهمهـا القياصرة الحكماء ، والحكام المتبصرون ، الشيخ الجليل ، والشاب المفعم بالطموح النبيل . «اباطيل» ! . . ولكن ها هي شرفات المسارح

وسلالمها تئن ، فقد اهتز كل شيء من الاسفل الى فوق ، وتحول الى شعور واحد ، الى لحظـة واحدة ، الى شخص واحد ، والتقى جميع الناس ، كالاخوة ، في عاطفة قلبية واحدة ، وينشد التصفيق الجماعي الهادر نشيد الامتنان لذلك الذي غادر الدنيا منذ خمسمائة عام . فهل تسمع هذا النشيد عظامه النخرة في القبر ؟ وهل ترد روحه التي عانت من شظف الحياة الفظ ؟ «اباطيل» ! . . وهنا ، بين صفوف الحشد المتأثر رجل سحقته المصيبة ، ورهق الحياة الذي لا يحتمل ، وهياه اليأس للانتحار ، حضر العرض ، وطفرت الدموع المنعشة المطهرة من عينيه فجأة ، وخرج مطمئنا ومتصالحا مع الحياة ، يسترحم السماء بأن تمتحنه مرة أخرى ببلية وعذابات ، لمجرد أن يعيش ويذرف الدموع مرة أخرى من مثل هذه «الاباطيل» . «اباطيل» ! . . ولكن العالم سيغفو بدون هذه «الاباطيل» ، وتضحل الحياة ، ويخيم على النفوس العفن والحمـاة . «اباطيل» ! . . الا فلتبق مخلدة مقدسة في الاجيال القادمة اسماء الذين استلهموا هذه «الاباطيل» باخلاص وعطف . ولتظل يد العناية الآلهية تبارك مبدعيها ابد الآبدين . وحتى في لحظات المآسي والمضايقـــات كانت تجد الحماية ، قبل كل شيء ، لدى أنبل من في الدولة : لدى العاهل المتوج الذي كان يحميها بدرع مُلكه من علياء عرشه المنيع .

فسر في طريقك اكثر حيويـــة ! ولا تتكدر روحك من اللوم والعتاب ، ولكن تقبل بسماحة نفس الاشارة الى النقائص ، ولا يحزنك حتى لو انكرت عليها الخلجات السامية ، وحب الانسانية المقدس ! ان الدنيا كالدوامة تتقلب فيها الاراء والأقوال دائماً . ولكن الزمن يطحن كل شيء . الكاذب منها يتطاير كالقشور ، وتبقى الحقائق الدامغة كالحبوب الصلبة . وقد يكتسب أهمية بالغة في المستقبل ما كان يسمى تافهاً ومجرداً من المغزى وقد تنشأ في عمق الضحك البارد الشرارات اللاهبة للحب الابدي الجبار . ومَنْ يدري ، فقد يعترف الجميع فيما بعد بمفعول القوانين التي تجعل الانسان المتكبر القوي تافهاً وضعيفاً عند البلية ، ويشتد الضعيف بين النكبات ويصير كالعملاق . قد يعترفون بموجب تلك القوانين ذاتها بأن : من يذرف الدموع القلبية الصادقة غالباً ، يكون اكثر الناس ضحكاً ، على ما يبدو !

خطوبة

قصة غير محتملة الوقوع اطلاقا
في فصلين

(كتب في ١٨٣٣)

الشخصيات

اغافيا تيخونوفنا . ابنة تاجر ، الخطيبة .
ارينا بانتيليمونوفنا . عمتها .
فيكلا ايفانوفنا . الخطابة .
بودكليسين . موظف من الدرجة الراقية .
كوتشكاريوف . صديقه .
يايتشنيتسا . مسؤول ادارة .
انوتشكين . ضابط مشاة متقاعد .
جيفاكين . بحار .
دونياشكا . وصيفة .
ستاريكوف . تاجر في سوق المدينة .
ستيبان . خادم بودكليسين .

الفصل الاول

المشهد الأول

(غرفة اعزب) .

بودكليسين (يرقد وحده على الاريكة يدخن غليونا) .

حالما تخلو الى نفسك في اوقات الفراغ لتفكر حتى ترى من الضروري ان تتزوج في آخر المطاف . وماذا في ذلك في الواقع ؟ انت تقضي ايامك ولياليك ، الى ان تسوء حالتك في النهاية . آه ، فوّت عليّ عيد الفطر مرة اخرى . يبدو ان كل شيء جاهز ، والخطّابة تتردد عليّ منذ ثلاثة اشهر . أشعر بالخجل من نفسي حقاً . أسمع ، يا ستيبان .

المشهد الثاني

(بودكليسين وستيبان)

بودكليسين . الم تات الخطابة ؟
ستيبان . لا .

بودكليسين . هل كنتَ عند الخياط ؟
ستيبان . كنتُ .
بودكليسين . هل هو يشتغل فى خياطة الفراك ؟
ستيبان . نعم .
بودكليسين . وانجز كثيراً ؟
ستيبان . نعم ، الى حد ما . بدأ يدرز العروات .
بودكليسين . ماذا تقول ؟
ستيبان . اقول بدأ يدرز العروات .
بودكليسين . الم يسأل لماذا يحتاج سيدك الى بدلة فراك ؟
ستيبان . لا ، لم يسأل .
بودكليسين . ربما قال الا يحب السيد ان يتزوج ؟
ستيبان . لا ، لم يقل شيئاً .
بودكليسين . على كل ، هل رايت عنده بدلات فراك أخرى ؟ فهو يخيط للآخرين ايضا ؟
ستيبان . نعم ، عنده بدلات فراك كثيرة معلقة .
بودكليسين . على العمـــوم اظن قماشهـــا اسوأ من قماش بدلتى ؟
ستيبان . نعم ، قماش بدلتك يبدو اكثر رونقا .
بودكليسين . ماذا تقول ؟
ستيبان . اقول قماش بدلتك يبدو اكثر رونقا .
بودكليسين . طيب ، طيب . الم يسأل لماذا يفصّل سيدك بدلة فراك من قماش ناعم فاخر ؟
ستيبان . لا .
بودكليسين . ولَمْ يتطرق الى اننى اريد أن اتزوج ؟
ستيبان . لا ، لم يذكر ذلك .
بودكليسين : على كل هل قلت ما هي رتبتي ، وفى اي دائرة اعمل ؟
ستيبان . قلت .
بودكليسين . وبماذا علّق ؟
ستيبان . يقول سابذل جهدي .
بودكليسين . طيب ، إطلع ، الآن .

(ستيبان ينصرف)

المشهد الثالث

(**بودكليسين** وحده) .

اعتقد بدلة الفراك السوداء اكثر اعتباراً . الملوّنة تليق اكثر بذوي الرتب الصغيرة ، باناس تافهين . وذوو الرتب الأعلى يجب أن يراعوا ماذا يسمونه . . . أوه ، نسيت الكلمة ! كلمة لطيفة ، ولكن نسيتها . نعم ، يا مولاى ، مهما قلّبت الأمر مع نفسك فان رتبتك تعادل رتبة عقيد ، سوى أن بزّتك بلا كتافيات . ستيبان ، تعال !

المشهد الرابع

(بودكليسين وستيبان) .

بودكليسين . اشتريت دهانا للحذاء ؟
ستيبان . اشتريت .
بودكليسين . من اين اشتريته ؟ من الدكان الذى قلت لك عنه ، فى شارع فوزنسينسكى ؟
ستيبان . نعم ، منه بالضبط .
بودكليسين . والدهان جيد ؟
ستيبان . جيد .
بودكليسين . وهل جربت دهن الجزمة به ؟
ستيبان . جربت .
بودكليسين . وتلمع ؟
ستيبان . تلمع جداً ، على احسن ما يرام .
بودكليسين . وحين اعطاك الدهان ألم يسأل لمـاذا يحتاج سيدك الى مثل هذا الدهان ؟
ستيبان . لا .
بودكليسين . ألم يقل أن سيدك ينوى الزواج ؟

ستيبان . لا ، لم يقل شيئاً .
بودكليسين . طيب ، إطلع .

المشهد الخامس

(**بودكليسين** وحده) .

الجزمة تبدو لا شيء في الوهلـــة الاولى ، ولكن ، اذا كان فصالها رديئاً ، والدهان علاوة على ذلك اصفر على احمر ، عند ذاك لا تجد احتراماً في المجتمع الراقي . لا يستقبلونك بالقدر اللائق من الاحترام . . . ولكن الشيء الاكثر إزعاجـا حين تخلف في قدميك مسامير . انا مستعد ان اتحمل كل شيء مـا عدا مسامير القدم . تعال ، يا ستيبان !

المشهد السادس

(**بودكليسين وستيبان**) .

ستيبان . ماذا تأمر ؟
بودكليسين . هل قلت للاسكاف ان يصنع جزمة لا تخلف مسامير في القدم ؟
ستيبان . قلت .
بودكليسين . وماذا يقول ؟
ستيبان . يقول ، حسنا .

(ستيبان ينصرف)

المشهد السابع

(**بودكليسين** وبعد ذلك **ستيبان**)

بودكليسين . الزواج شيء متعب ، عليه اللعنة ! تقوم بهذا وتفعل ذاك . ليكـــون سليما صالحا . اوه ، مـــا العنه ، ليس بالسهولة التي يتصورها الناس . اسمع ، يا ستيبان !

(ستيبان يدخل)

اردت ان اقول لك ايضاً . . .
ستيبان . العجوز وصلت .
بودكليسين . ها ، وصلت . ادعها الى هنا .

(ستيبان ينصرف)

آوه ، هذا شيء . . . يعني شيء . . . شيء صعب .

المشهد الثامن

(**بودكليسين وفيكلا**)

بودكليسين . اهلا ، اهلا ، يا فيكلا ايفانوفنا . طيب ؟ كيف ؟ تناولي مقعداً ، واجلسي ، واحكي لي . طيب ، كيـف وكيف ؟ كيف هي ، اللي اسمها . . نسيت . . . ملانيا ؟
فيكلا . اغافيا تيخونوفنا .
بودكليسين . نعم ، نعم ، اغافيا تيخونوفنا . اظنها آنسة في الاربعين ؟
فيكلا . لا ، ابداً . يعني اذا تزوجتهـــا ستمتدحني وتشكرني طول عمرك .
بودكليسين . تكذبين ، يا فيكلا ايفانوفنا .
فيكلا . كبرت على الكذب ، يا عم . الكلب يكذب .
بودكليسين . وجهاز العروس ، الجهاز ؟ اعيدي الكلام عنـــه مرة أخرى .
فيكلا . جهاز العروس بيت آجري في الحي الجنوبي ، مـــن طلباقين ، ياتي بارباح تفتح النفس . احد التجار يدفع سبعمائة على حانوته فيـــه . وحانة في سرداب تجذب الزبائـــن الراقين . ومولحقان من الخشب ، المولحق الاول خشبي كله ، والمولحـــق الثاني له أساس من الحجر . كل واحد منهما يعطي اربعمائة روبل ربح . ويوجـــد ايضاً بستان خضروات في ناحية فيبرغسكايـــا

استأجره تاجر قبل سنتين كان يزرع الكرنب فيه ، ويا عيني عليه من تاجر ، لا يضع قطرة خمر فى فمه ، وله ثلاثة ابناء . زوّج اثنين منهم ، والثالث يقول عنه ما يزال صبياً ، ويتركه فى حانوته ليسهل عليه تمشية البيع . يقول أنا عجوز فليجلس فى الدكان ليسهل عليّ البيع .

بودكليسين . وهي ، كيف هي ؟

فيكلا . مثل الشكر الصافى ! بيضاء موردة ، جمال وعافية . آخر حلاوة ! يعجز اللسان . ستكون مرتاحاً الى هنا (تشير الى حنجرتها) . اقصد ستقول للصديق والعدو : «الشكر ، الشكر الجزيل لفيكلا ايفانوفنا !»

بودكليسين . ولكنها ليست من عائلة راقية .

فيكلا . ابنة تاجر عال العال . حتى الجنرال لا يأنف من الزواج منها . لا تريد حتى أن تسمع باسم تاجر اذا تقدم لخطبتها . تقول لى : «أريد زوجاً من الاشراف حتى لو كان دميم الخلقة» . واي ظرف وكياشه ! وفى ايام الآحاد حين تلبس فستانها الحريري وتهفهف به وحق المسيح لا تحسبها إلا أميرة .

بودكليسين . أنا اسألك لأنني مستشار برتبة مقدم ، يعنى أريد ، انت تفهمين . . .

فيكلا . اكيد عفهم وكيف لا عفهم . كان عندنا خطيب برتبة مقلّم أيضاً ، ولكنهم رفضوه . لم يعجبهم . وكان له طبع عجيب غريب ، لا يقول كلمة إلا ويكذب ، بينما كان لطيف الشكل من الخارج . ما العمل ؟ هكذا خلقه الله . هو نفسه غير مرتاح من ذلك ، يعنى من كذبه المستمر ولا يقدر ان يقاوم نفسه . هذه ارادة ربنا .

بودكليسين . طيب ، غيرها ، لا توجد اخريات ؟

فيكلا . ولماذا تريد غيرها ؟ هذه اجمل البنات .

بودكليسين . تظنينها اجمل البنات ؟

فيكلا . حتى ولو فتشت الدنيا كلها ، لن تجد مثلها .

بودكليسين . سنفكر يا حرمة سنفكر . تعالي بعد غد . أنا وانت بهذا الشكل ، يعنى تعرفين . انت تحكين لي ، وانا مستلق . . .

فيكلا . ولكن ، اعذرنى ، يا محترم ! أنا منذ شهرين اجيء اليك . وما من فايده . أراك دائما في روبك ، تدخن الغليون ، ولا يطلع منك شيء .

بودكليسين . وأنت تتصورين الزواج مثلما اقول للخادم «اسمع ، يا ستيبان ، هات الجزمة !» والبسها وفي أمان الله ؟ يجب أن أفكر ، اعاين .

فيكلا . ولم لا ؟ عاين ، اذا كنت تريد . ما وجدت البضاعة إلا لهذا . اطلب قفطانك مادام الوقت صبحاً ، واذهب وعاين .

بودكليسين . الآن ؟ عاينى اى جو ماطر الآن . أخرج ويصيبنى المطر فجاة .

فيكلا . ولكن ستندم ! الشيب يطل فى رأسك ، وعن قريب اذا فاتك الزواج لا تعتب عليه . وكأن الدنيا قحطت من رتبة مقلّم ! مثلك من العرسان نغرفهم غرفاً ، اما خطيبتنا فنختار لها عريساً فاخراً .

بودكليسين . ما هذه الثرثرة ؟ ماذا جرى لك لتقولى فجاة ان الشيب قد وخط راسى . اين الشيب فى شعرى ؟ (يتلمس شعره .)

فيكلا . لا يمكن بدون شعر اشيب ، هذا مصير الانسان . فلا تتعنت ! هذه لا تعجبك وتلك لا تعجبك . عندي ضابط قبطان لا تصل انت حتى الى كتفه . واذا تكلم كان عالى الصوت كالبوق . يشتغل في الامرالية .

بودكليسين . انت تكذبين ، سانظر في المرآة ، من اين اختلقت الشعر الأشيب ؟ يا ستيبان ، هات المرآة ! لا ، انتظر ، ساذهب بنفسى . لا سمح الله . هذا اسوأ من الجدرى . (ينصرف الى حجرة مجاورة) .

المشهد التاسع

(**فيكلا وكوتشكاريوف** يدخل راكضا) .

كوتشكاريوف . كيف الحال يا بودكليسين ؟ . . (يرى فيكلا) كيف ، انت هنا ؟ آه ، يا لك ! . . يا رب ! لماذا زوجتني ؟

فيكلا . وما وجه العيب ؟ قمت بما يقتضى الشرع .

كوتشكاريوف . قمتُ بما يقتضي الشرع ! وكان الزوجة روح الحياة ! ألم يكن في امكاني الاستغناء عنها ؟

فيكلا . ولكن انت الذى كنت تلـــــح ! زوجينى ، يا جدة ، زوجينى .

كوتشكاريوف . آه منك ، أيتها الفارة الملعونة . . . طيب ، ولماذا انت هنا ؟ هل معقول بودكليسين يريد . . .

فيكلا . ولم لا ؟ نعمة من الله .

كوتشكاريوف . الله ! آه ، الحقير ، لم يقل لى شيئاً عـــن هذا . اى شخص هو ! شاطر ! يعني بالخفية ؟

المشهد العاشر

(**نفس الشخصين وبودكليسين** يحمل مرآة يتمرّى فيها باهتمام شديد)

بودكليسين . اين الشعر الاشيب ؟ لماذا تكذبين ؟ لا اثر له أبداً !

كوتشكاريوف . (يتسلل من الخلف ، ويثب عليه) بووم !

بودكليسين . (يصرخ وتقع المرآة من يده) . مجنون ! لِمَ ، لم هذا . . . ما هذه السخافة ؟ ارعبتنى ، حقاً ، حتى طفرت روحي الى حلقي .

كوتشكاريوف . طيب ، لا بأس . كنت امزح .

بودكليسين . واي مزاح هذا ؟ حتى الآن لم اصح من خوفي . والمرآة انكسرت ، ولم يأتني بها أحد هدية . مشتراة من المخزن الانجليزي .

كوتشكاريوف . طيب ، يكفى . سأجد لك مرآة اخرى .

بودكليسين . اي نعم ، تجد . وأنا اعـرف المرايا الأخرى . تجعلك اكبر من عمرك عشر سنين بالتمام ، وتعوج خِلْقتك .

كوتشكاريوف . اسمع ، كان بالأحرى ان ازعل أنا عليـــك اكثر . فانت تخفي عني كل شيء ، وأنا صديقك . نويـــت ان تتزوج ؟

بودكليسين . آوه ، هراء . لم أنوِ اطلاقاً .

كوتشكاريوف . دليل الاتهام موجود . (يشير الى فيكلا) هـــا هي واقفة . ومعروف مَنْ هي . طيب . لا بأس ، لا بأس . لا يوجد ما يحرج . هذا ما أمر به الدين ، بـل وضروري للوطن . كلفنى بالامر . سأقوم انا بكل شيء نيابة عنك . (الى فيكـــلا .) طيب ، تكلمي عن الحيثيات ، كيف وكيف ؟ أهي من الاشراف ، أو مـــن عائلة موظفين ، أو من أهل التجارة ، وما أسمها ؟

فيكلا . اغافيا تيخونوفنا .

كوتشكاريوف . اغافيا تيخونوفنا براندَخليستوفا ؟

فيكلا . لا ، كوبرديَاغينا .

كوتشكاريوف . تسكن في شارع الدكاكين ؟

فيكلا . لا ، قطعـــاً ، اقرب الى شـــارع بيسكي ، في زقاق ميلني .

كوتشكاريوف . اي ، نعم ، فى زقاق ميلني ، وراء الدكـــان مباشرة ، بيت خشبى ؟

فيكلا . لا وراء الدكان ، وراء حانة فى سرداب .

كوتشكاريوف . كيف وراء حانة فى سرداب . لا اعرف ذاك .

فيكلا . اسمع ، حيـــن تستدير الى الزقاق سيكون امامـــك كشك ، وحين تعبر الكشـــــك ، انعطف الى الشمال ، وسيكون امامك ، يعنى سيكون امامك بيت خشبى تسكن فيه خياطة كانت تعيش من قبل مع سكرتير فى المحكمة العليا لا تدخل الى بيت الخياطة ، ولكن وراء بيتها راساً بيت ثان ، حجرى . هذا هـــو بيتها ، اقصد الى تسكن فيه العروسة اغافيا تيخونوفنا .

كوتشكاريوف . طيـــب ، طيب ، ساتصرف انـــا بكل هذه الاشياء . والآن انصرفى . لا نحتاج اليك بعد الآن .

فيكلا . كيف كيف ؟ يعني أنت الذى سيقوم بالخطوبة ؟

كوتشكاريوف . أنا ، أنا . شرط أن لا تعرقلينني .

فيكلا . آه ، يا كافر ! هذا ليس من عمل الرجال . تخلَّ ، يـا شيخ ، ارجوك .

كوتشكاريوف . اطلعى ، اطلعى ! أنت لا تفهميـن شيئاً ، لا تعرقليني ! قفي عند حدك . انصرفي .

فيكلا . لا تعرف الا قطع رزق الناس ، ايها الكافر ! يدخل نفسه فى هذه الوحلة . لو كنت اعرف لما قلت له . (تنصرف مغتاظة)

المشهد الحادى عشر

(بودكليسين وكوتشكاريوف)

كوتشكاريوف . طيب ، يا اخ ، لا يجوز تأجيل هذه المسألة . لنذهب .

بودكليسين . ولكننى لم اقرر بعد . مجرد أنني فكرت . . .

كوتشكاريوف . بسيطة ، بسيطة . فقط أن لا ترتبك . سأزوجك قبل أن تعرف . سنذهب الى العروسة الآن ، وسترى كيف يتم كل شيء في لحظة خاطفة .

بودكليسين . وما الداعي الآن !

كوتشكاريوف . طيب ، وماذا فى ذلك ، ارجوك وماذا فى ذلك ؟ انظر الى حالك : اي فائدة من حالة العزوبة ؟ انظر الى غرفتك . اى شيء فيها ؟ ها هى جزمتك غير منظفة . وها هو حوض الغسيل ، وكومة من التبغ على الطاولة . وانت راقد كالخلد فى جحره طوال النهار على جنبك .

بودكليسين . هذا صحيح . أموري بلا ترتيب . انا اعرف ذلك .

كوتشكاريوف . طيب ، وحالما تكون لك زوجة يتغير عندك كل شيء فلا تعرف حتى نفسك . ستكون لديك اريكة ، وكلبة صغيرة وحسون صغير فى قفص ، وشغل ابرة . . . وتخيّل انك جالس على الأريكة ، واذا بابونه حلوة تجلس قربك ، وتأخذ بيدها . . .

بودكليسين . نعم ، وحق الشيطان . أية أيد حلوة ، بالفعل كالحليب ، يا أخ ، حقيقة .

كوتشكاريوف . واين انت من هذا ! وكأنما الايدى فقط ! . . لهن ، يا أخ . . . طيب ، لا فائدة من التعداد ! عندهن اكثر مما يعرفه الشيطان نفسه .

بودكليسين . اذا اردت الحقيقة ، أنا أحب ان تجلس حلوة بقربي . . .

كوتشكاريوف . انظر كيف استوعبت الموضوع . . . والآن ما عليك إلا أن تقرر . لن تتعب نفسك بأي شيء . انا الذي سارتب مأدبة الزفاف وغير ذلك . . . دوزينة من قناني الشمبانيا ، ولا يمكن أقل من ذلك فى اي حال من الأحوال ، ولك أن تفعل ما تشاء . ونصف دوزينة من نبيذ «الماديرا» الحلو من كل بد . لأن للعروسة ، على الأغلب ، جمعاً من العمات والخالات والقريبات . وهنّ لا يتنازلن عن شرب النبيذ . أما نبيذ الرين ، فأهمله ، والى جهنم . كلامى صحيح ؟ ها ؟ أما فيما يتعلق بالطعام فانا اعرف نادلاً لدى القصر ، يملك ، ابن الكلب ، قدرة على الاشباع حتى لا يجعلك تقدر ان تقوم من المائدة .

بودكليسين . عجيب ، انت تتكلم بحرارة شديدة ، وكأن الزفاف صار أمرا واقعا .

كوتشكاريوف . ولِمَ لا ؟ ولِمَ التأجيل ؟ فانت موافق ؟

بودكليسين . أنا ؟ لا ، أبداً . . . أنا حتى الآن لم أوافق نهائياً .

كوتشكاريوف . غريبة جداً ! ولكنك قبل لحظات اعلنت أنك تريد .

بودكليسين . كنت اقول فقط : لا ضرر منه !

كوتشكاريوف . كيف هذا ، ارجوك ! كانت المسألة كلها . . . ثم كيف ؟ معقول ان الحياة الزوجية لا تعجبك ؟

بودكليسين . لا . . . تعجبنى .

كوتشكاريوف . ماذا ، اذن ؟ ما الذي اوقفك ؟

بودكليسين . لم يوقفني شيء . ولكن غريب . . .

كوتشكاريوف . ما وجه الغرابة ؟

بودكليسين . غريب طبعاً . كنت طول عمري اعزب . والآن على غفلة اصير متزوجاً .

كوتشكاريوف . آوه ، آوه ، الا تخجل من نفسك ؟ يتهيأ لي أن الكلام معك يجب أن يكون بجد . سأتكلم بصراحة ، كما يتكلم أب مع ابنه . طيب ، انظر ، انظر الى نفسك بامعان ، كما تنظر

اليّ الآن ، مثلاً . طيـــب . اى شيء انت الآن ؟ مجـرد خشبة ، وليست لك اية اهمية . طيب ، لاي شيء تعيش ؟ طيـــب ، انظر إلى نفسك فى المرآة ، ماذا ترى امامـــك ؟ وجهاً ابله ولا اكثر . فى حين ، ولك ان تتخيل ، سيكون حولك اطفال ، وليس اثنين او ثلاثة ، بل ستة ، ربما ، وكلهم يشبهونك شبـــه قطرة بقطرة . انت الآن وحيد ، موظف من الدرجة الراقية ، رئيس أو مدير ادارة والله اعلم . ولكن عندما ستتزوج ، تصوّر ، سيحوم حولك ستة صغار ممن سيكونون موظفين من الدرجة الراقية ، ومدراء ادارات ورؤساء اقسام ، وصغير آخر عفريت يمد لك يديه الصغيرتيـــن يريد ان يمسك فودك ، بينما انت تنبح عليـــه كالكلب لتخيفه : واو ، واو ، واو ! طيب قـــل لى : هـــل هناك احسن مـــن هذا ؟

بودكليسين . لن يكونوا إلا شاطرين فى المشاكسة . يتلفون كل شيء ، ويبعثرون الاوراق .

كوتشكاريوف . ليشاكسوا . ولكنهـــم سيكونـون مثلك في الشكل . وهذه هي النعمة .

بودكليسين . صحيح ، بالفعل ، بـــل ومضحك . الشيطان يعلم . ربما سيكون لي طفل صغير ، ذو وجـــه مدور ، جرو ، يشبهني في الشكل .

كوتشكاريوف . وكيف لا ، مضحك بالطبع . طيب ، لنذهب .

بودكليسين . اتفقنا ، لنذهب .

كوتشكاريوف . يا ستيبان ! إسرع وساعد سيدك على ارتداء ملابسه .

بودكليسين . (يرتدى ملابسه امام المرآة) اظن احسن لـــو لبست الصدار الأبيض .

كوتشكاريوف . سخافة . لا اهمية لذلك .

بودكليسين . (يلبس الياقة) الغسالة الملعونة نشّت الياقـة بشكل سيء فلا تنتصب على رقبتي . قـل لها ، يا ستيبان ، لهذه الحمقاء ، اذا كانت ستكـــوي البياضات بهذا الشكل فسأستخدم غسالة اخرى . اظنها تقضي وقتها مع عشيقها ولا تكوي .

كوتشكاريوف . طيب ، يا أخ ، استعجل ! انت بطيء !

بودكليسين . حالاً ، حالاً (يلبس سترة الفـراك ، ويجلس) اسمع ، يا ايليا فوميتش . اتدرى ؟ اذهب انت لوحدك .

كوتشكاريوف . معاذ الله ، هل فقدت عقلك ؟ اذهب لوحدي ! ولكن مَنْ سيتزوج من بيننا : أنا ام انت ؟

بودكليسين . فى الحقيقة ، ليست لدي رغبة . الافضـل ان نؤجلها الى الغد .

كوتشكاريوف . هل لديك ذرة من العقل ؟ أهبـــل انت أم كيف ؟ تهيأت تماماً ، وفجأة «ليس لدي رغبة !» قل لي ارجوك ماذا اسميك بعد هذا : خنزيراً أم وغداً ؟

بودكليسين . ولم هذه الشتيمة ؟ باى موجب ؟ ما فعلت لك ؟

كوتشكاريوف . أحمق ، احمق مكعب . كل انسان سيصفـك بذلك . بليد ، بليد تماماً ، ولو انـت رئيس قسم . ولأي شيء اجاهد انا ؟ لفائدتك . اللقمة تستل من فمـــك . الاعزب الملعون مستلق على فراشه ! خبرني ارجوك ، اي شيء انـــت ؟ خرقة ، طرطور ، كنت اريد ان استعمل كلمة اخرى . . . ولكن لا يليق بى . حرمة ! اسوأ من حرمة !

بودكليسين . وانت صاف مصفى ! (بصوت خافت) هل عقلك معك ؟ الخادم واقف هنا ، وانت تشتم في حضوره ، وباية كلمات ايضاً . لم تجد مكاناً آخر تشتم فيه .

كوتشكاريوف . وكيـــف لا اشتمك ؟ ومَنْ يمكـــن ان لا يشتمك ؟ ومَنْ يصطبر عليك ولا يشتمك ؟ انت كرجل معتبـــر قررت ان تتزوج ، واستهديت بالعقل والحصافة ، وفجأة ، فقدت رشدك ، يا راس الخشب . . .

بودكليسين . طيب ، يكفى . انا ذاهب . فلم هذه الشتيمة ؟

كوتشكاريوف . ذاهب ! بالطبع . لا بد ان تذهب (لستيبان) اعطه القبعة والمعطف .

بودكليسين . (عند الباب) اي انسان غريب ، حقاً ! معاشرته مستحيلة تماماً . يشتم فجأة بلا سبب ولا موجب . لا يفهم أيـــة معاملة .

كوتشكاريوف . بالطبع ، لا اشتم الآن .

(ينصرفان)

المشهد الثاني عشر

(غرفة في بيت اغافيا تيخونوفنا)

(**اغافيا تيخونوفنا** تستخير الورق ، ومن فوق يدهـا تنظر عمتهـا ارينا بانتيليمونوفنا) .

اغافيا تيخونوفنا . مرة أخرى يكشف الورق عن طريق ، يـا عمة . وملك دينارى مهتم ، دموع ، ورسالة غرام . ومن الجانب الايسر ملك آخر اسباتى يظهر حنّية كبيرة . ولكن إحدى الشريرات تعيقه .

ارينا بانتيليمونوفنا . ومَنْ سيكون ملك الاسباتى حسـب ظنك ؟

اغافيا تيخونوفنا . لا اعرف .

ارينا يانتيليمونوفنا . ولكن انا اعرف مَنْ ؟

اغافيا تيخونوفنا . مَنْ ؟

ارينا بانتيليمونوفنا . التاجر اللطيف فـى سوق الاقمشة ، الكسي دميتريبفيتش ستاريكوف .

اغافيا تيخونوفنا . قطعاً لا ! أراهن بكل شيء على ذلك .

ارينا بانتيليمونوفنا . لا تجادلي ، يا اغافيا تيخونوفنا . شعره اشقر كتاني . لا يوجد ملك اسباتى غيره .

اغافيا تيخونوفنا . لا ، ابداً . ملـك الاسباتى يعنى هنا نبيلاً . وأين التاجر من ملك الاسباتي .

ارينا بانتيليمونوفنا . آه ، يا اغافيا تيخونوفنا ، ما كنـت ستقولين ذلك ، لو كان المرحوم أبوك تيخون بانتيليمونوفيتش على قيد الحياة . كان سيضرب بكل اصابعه الخمس على الطاولة ويصرخ قائلاً : «ابصق على الذي يخجل من كونه تاجراً . ولن ازوج ابنتي على عقيد . وليفعل الآخرون ذلك . وابني ايضاً لن اسمح له بان يخدم . يعنى الا يقدم التاجر خدمـة للدولة كأي شخص آخر ؟» ومرة ثانية كان سيضرب بكل اصابعه الخمس عـلى الطاولة ، وينتهي الامر . كانت يده بحجم الجردل ، عملاقة ! اذا اردت الحق

هو الذي اهلك أمك من الضرب المستمر . ولولاه لعاشت المرحومة والدتك اكثر .

اغافيا تيخونوفنا . وتريدين ان يكون لي مثـل هذا الزوج الغليظ القبيح ! لن اتزوج تاجراً ابداً .

ارينا بانتيليمونوفنا . ولكن الكسى دميتريبفيتش ليس كذلك .

اغافيا تيخونوفنا . لا اريد ، لا اريد ! له لحية * ، وحيـن يأكل يسيل كل شيء على لحيته . لا ، لا ، لا أريد !

ارينا بانتيليمونوفنا . ولكن من اين نحصل على نبيل جيد . لن تجديه مبذولاً في الشارع .

اغافيا تيخونوفنا . ستجده فيكلا ايفانوفنا . وعدتنى بان تجد لي احسن نبيل .

ارينا بانتيليمونوفنا . ولكنها كذابة ، يا عمري .

المشهد الثالث عشر

(الاثنتان وفيكلا)

فيكلا . لا ، يا ارينا بانتيليمونوفنا ، عيـب عليك ان تفتري عليّ بدون داع .

اغافيا تيخونوفنا . آه ، هذه فيكلا ايفانوفنا ! هيا ، حدثيني ! هل يوجد ؟

فيكلا . يوجد ، يوجد ، دعيني التقط انفاسي اولاً . تعبـت من المشاوير ! بناء على ما طلبت مني مررت على كل البيوت وبحثت في الدوائر ، وفتشت في الويزرات ، ومشيـت الى الحرس . . . وليتك تعرفين ، يا ابنتي ، كادوا يضربونني ، وحـق الرب ! والعجوز التى زوجت ابن افيروف هاجمتني شاتمة : «انت يا كذا وكذا ، تقطعين الرزق عني ، تحولي فى حدود منطقتك» . فقلـت لها على المشكوف : «انا مستعدة لمولاتي ، فلا تغضبي ، مستعدة دائماً لارضاء رغبتها» . عـلى كل حال وفرت لـك عرساناً واي عرسان ! اقصد الدنيا كانت قائمة ، وما تزال قائمة ، لكن لـم

---

* كان التجار في ذلك العهد يطلقون لحاهم . **المترجم** .

تشهد مثلهم قط . اليوم سيزورك بعضهم . جئت خصيصاً لأنبهك .

اغافيا تيخونوفنا . كيـــف اليوم ؟ يا روحي ، يا فيكـــلا ايفانوفنا ، انا خائفة .

فيكلا . لا تخافي ، يا بنتي ! المسالة بسيطـــة . سيأتون ويعاينون ، ولا اكثر . وانـــت ايضاً عاينى ، واذا لم يعجبوك ، اتركيهم يذهبون .

ارينا بانتيليمونوفنا . اظن الذين اغريتهم أناس معتبرون .

اغافيا تيخونوفنا . وكم عددهم ؟ كثيرون ؟

فيكلا . ستة رجال .

اغافيا تيخونوفنا . (تندّ عنها صرخة) آوه !

فيكلا . ولِمَ هذه الرفرفة ، يا بنتي ؟ الاختيار احسن . اذا لا يعجبك هذا ، يعجبك ذاك .

اغافيا تيخونوفنا . وهل هم نبلاء ؟

فيكلا : واحد احسن من الآخر . نبلاء كبار بلا مثيل .

اغافيا تيخونوفنا . طيب ، كيف هم ، كيف هم ؟

فيكلا . اماجد كلهم ، لطيفون ، مهندمـــون ، الأول بالتازار بالتازاروفيتش جيفاكين ، ممتاز ، خدم في البحرية . على مرامـــك تماماً . يقول إنه يحتاج إلى عروس ممتلئة الجسم ، ولا يحـــب النحيفات ابداً . وايفان بافلوفيتش ، الذي يعمل مسعول إدارة ، فى غاية الوقارة يخاف الناس حتى الاقتراب منه . مهيب الشكـــل سمين ، يصيح بي على حين غرة : «لا تثرثري عـــلي بأنها كذا وكيت ! وقولي صراحة كم لديها من المنقولات وغير المنقولات ؟» فاقول : «كذا وكذا ، يا مولانا» فيقول : «تكذبين ، يا بنـــت الكلب !» وشتمني بكلمة عيب عليّ أن اقولها لك . وحدست رأساً انه سيد وجيه من كل بد .

اغافيا تيخونوفنا . طيب ، ومَنْ بعد ؟

فيكلا . يوجد ، بعد ، نيكانور ايفانوفيتش انوتشكين . وهـو محدَّب جداً ! وشفته حمرة مثل الرمان تماماً ، يا بنتي ! لطيـــف ظريف . يقول لي : «اريد عروساً حلوة متعلمـــة ، تعرف الكلام بالفرنسي» . صحيح ، رجل صافي الاخلاق ، تحفة المانية ! وهـــو نحيف ، ورجله نحيلة ، عصاية .

اغافيا تيخونوفنا . لا ، هؤلاء النحاف لا يحلوون في العين . . . لا اعرف . . . لا ارى فيهم شيئاً .

فيكلا . اذا كنت تريدين أسمن ، خـــذي ايفان بافلوفيتش . احسن منه لا يمكـــن ان تختاري . ما عليه مأخذ . رجل ، نعـم الرجل ، لا يكاد يدخل في هذا الباب لضخامته . ما الطفه .

اغافيا تيخونوفنا . كم عمره ؟

فيكلا . ما يزال شاباً ، بالخمسين ، وحتى أقل من الخمسين .

اغافيا تيخونوفنا . ما اسم عائلته ؟

فيكلا . يايتشنيتسا ، ايفان بافلوفيتش يايتشنيتسا * .

اغافيا تيخونوفنا . اي اسم هذا ؟

فيكلا . اسمه هكذا .

اغافيا تيخونوفنا . آوه ، يا ربى ، اي اسم عائلة هذا ! كيف اذن ، يا فيكلا ، اذا تزوجته واخذت اسم عائلته يسمونني اغافيا تيخونوفنا يايتشنيتسا ؟ يعنى بيض مقلى ، اى شيء هذا !

فيكلا . ولكن فى روسيا ، يا عزيزتى ، ألقـــاب اذا سمعتها تبصقين فقط وترسمين علامة الصليب . تفضلي ، اذا كان اللقب لا يعجبك خذي بالتازار بالتازاروفيتش جيفاكين . عريس ممتاز .

اغافيا تيخونوفنا . واي شعر له ؟

فيكلا . شعر لطيف .

اغافيا تيخونوفنا . وانفه ؟

فيكلا . وانفه لطيف ايضاً . كل شيء في مكانه . وهو نفسه لطيف . لكن لا تغضبي . في شقته لا يوجد غير غليون واحد ، ولا اي أثاث .

اغافيا تيخونوفنا . ومَنْ بعد ؟

فيكلا . اكينف ستيبانوفيتش بانتلييف ، موظف من رتبـــة متوسطة ، ولكنه يتمتم قليلا ، ومقابل ذلك متواضع بالشكل . . .

ارينا بانتيليمونوفنا . ما هذا الالحاح ، موظف ، موظف ! خير لك ان تخبرينا : يحب ان يشرب ام لا ؟

فيكلا . يشرب ، ولا أنكر . ولماذا لا يشرب فهو موظف مـــن رتبة متوسطة ولكنه صموت لا ينطق بكلمة .

* بالعربية تعنى البيض المقلى . **المترجم** .

اغافيا تيخونوفنا . لا ، لا اريد أن يكون لي زوج سكير .

فيكلا . كما تريدين ، يـــا بنتي ! اذا لا تريد واحداً خذي آخر . على العموم لا يهم اذا شرب اكثر من اللازم احياناً . ما هـــو طول الاسبوع سكران . في بعض الأيام يكون صاحياً .

اغافيا تيخونوفنا . طيب ، ومَنْ بعد ؟

فيكلا . يوجد آخر ، ولكن ليس عليه حسرة ! **هؤلاء انبـــل** واحسن .

اغافيا تيخونوفنا . طيب ، مَنْ هو ؟

فيكلا . ما اردت أن اتكلم عنه . اظنه برتبة مقلّم . ويحمـل شارة ، لكنه ثقيل جداً في الحركة ، لا يخرج من البيت .

اغافيا تيخونوفنا . ومَنْ بعد ؟ هؤلاء خمسة فقط . **وانـــت** قلت ستة .

فيكلا . قليلون عليك ؟ عاينى كيف انفتحت شهيتك على غفلة . بينما كنت في الأول خائفة .

ارينا بانتيليمونوفنا . وماذا فـــى هؤلاء ، اصحابك النبلاء ؟ ولو كانوا ستة تاجر واحد يعادل الجميع فعلاً .

فيكلا . لا ، يا ارينا بونتيليمونوفنا ، النبيل اكثر إحتراماً .

ارينا بانتيليمونوفنا . وماذا يعني الاحترام ؟ هـــذا الكسي دميتريفيتش يلبس قبعة من فراء السمور ، ولـــه زلاجة يروح ويجيء فيها . . .

فيكلا . والنبيل يمر به والنوجوم تلمع على كتفـه ، ويقول : «ما هذا يا تاجر حقير ؟ اطلع عن طريقي !» أو «يـا معلّم ، ارني قوام احسن مخمل عندك !» والتاجر يقول : «يا مولاى ، تفضل !» ويقول له النبيل . «إخلع قبعتك يا قليل الادب !»

ارينا بانتيليمونوفنا . ولكن اذا أراد التاجر امتنع عن البيـــع له ، عند ذاك سيسير النبيل عارياً ، ولا يجد ما يلبسه !

فيكلا . النبيل سيطعن التاجر .

ارينا بانتيليمونوفنا : والتاجر سيشتكيه عند الشرطة .

فيكلا . والنبيل سيشتكي على التاجر عند الحاقم .

ارينا بانتيليمونوفنا : والتاجر عند الوالى حاقم الولاية .

فيكلا . والنبيل . . .

ارينا بانتيليمونوفنا : تكذبيـــن ، تكذبين . . . النبيل . . . حاقم الولاية اعلى من الحاقم . انظري الى ايـــن صعدت بنبيلك ! بينما نبيلك هذا هو ، عند الحاجة ، يرفع قبعته أيضاً .

(رنين جرس في الباب)

يتهيأ لى أن الجرس يدق .

فيكلا . ياه ، هؤلاء هم !

ارينا بانتيليمونوفنا : مَنْ هم ؟

فيكلا . هم . . . واحد من الخطّاب .

اغافيا تيخونوفنا . (تندّ عنها صرخة) العياذ !

ارينا بانتيليمونوفنا . يا قديسون ، ارحمونا ، نحن المذنبين ! الحجرة غير مرتبة ابداً . (تلتقط كل ما عـــلى المائدة وتركض متململةً في الحجرة) والفوطة ، والفوطة على المائدة سوداء مـــن الوساخة . دونياشكا ، دونياشكا !

(تظهر دونياشكا)

هاتى فوطة نظيفة بسرعة ! (ترفع الفوطة وتتململ فى الحجرة)

اغافيا تيخونوفنا . آه ، يا عمة ، ماذا افعل ؟ ليس علىّ غيـــر قميص النوم !

ارينا بانتيليمونوفنا . آه ، يا بنتي ، إسرعي والبسي ثيابك ! (تركض فى الحجرة)

(دونياشكا تجلب فوطة . رنين جرس في الباب)

اذهبى وقولى . «حالاً» !

(دونياشكا تصيح من بعيد : «حالاً !»)

اغافيا تيخونوفنا . ولكن فستانى بلا كوي ، يا عمتي .

ارينا بانتيليمونوفنا . آه ، يا رب يـــا ساتر ، لا تتركنـا نضيع . البسي فستاناً آخر .

فيكلا . (تدخل راكضة) لماذا لا تاتيـــن ؟ اغافيا تيخونوفنا ، اسرعي ، يا بنتي !

(رنين جرس)

ياه ، لسه ينتظر على الباب !

ارينا بانتيليفونوفنا . دونياشكا ، ادخليـــــه ، وترجيه أن ينتظر قليلاً .

(تهرع دونياشكا الى الرواق ، وتفتح الباب . تسمع اصوات : «الآنسة موجودة ؟» «موجودة ، تفضلوا الى الغرفة» . النســـاء الثلاث يحاولن

جميعا النظر من ثقب المفتاح)

اغافيا تيخونوفنا . (تصيح) آه ، سمين جداً !

فيكلا : انه يقترب !

(جميعهن يهرولن)

المشهد الرابع عشر

(ايفان بافلوفيتش يايتشنيتسا والخادمة)

الخادمة : انتظروا هنا . (تخرج)

يايتشنيتسا . تفضلي ، ننتظر ، فقط أن لا يطيلوا . تغيبت عن الدائرة لبعض الوقت فقط . ربما سيقول الجنرال * : «اين مسؤول الادارة ؟» – «ذهب ليعاين عروسة» . وستقوم القيامة ! على كل حال لانظر في قائمة الموجودات مرة اخرى . (يقرأ) «بيت آجري على اساس حجرى . . . (يرفع ناظريه الى الاعلى ويفحص الغرفة) موجود ! (يتابع القراءة)» جناحان : «جناح بأساس حجري ، وجناح خشبى . . .»الجناح الخشبي فى حالة سيئة . «عجلة صغيرة ، زلاجة ذات مقعدين فيها نحوت ببساط كبير ، وبساط صغير . . .» ربما

* كان للسلك العسكرى والمدنى فى الجهاز القيصرى نفس الرتب . **المترجم .**

تكون غير صالحة إلا للخردة ؟ على كل حال ، العجوز تؤكد انها من اول صنف . طيب ، ولتكن من اول صنف . «دوزينتان من الملاعق الفضية . . .» بالطبع ، البيت يحتاج الى ملاعق فضية . «معطفان من فراء الثعلب . . .» احم . . . «اربع حشايا من الريش كبيرة ، واثنتان صغيرتان . . .» (يطبق شفتيه بدلالة .) ستة من الفساتين الحريرية ، وستة من الفساتين القطنيـــة ، وروبان للمنـــام ، واثنان . . .» . هذه الخانة لا تهمني ! «بياضات ، فوط . . .» ليكن ذاك كما تريد . على العموم يجب التاكد من ذلك كله بعيني . اليوم يعدون البيوت والعربات ، ولكن حالما تتزوج لا تجد غير حشايا ومخدات الريش .

(رنين جرس . تركض دونياشكا خلال الحجرة على عجل ، وتفتح الباب . يتردد صوتان : «الآنسة موجودة ؟» «نعم ، موجودة»)

المشهد الخامس عشر

(ايفان بافلوفيتش وانوتشكين)

دونياشكا . انتظروا هنا . الآنسة ستحضر حالا . (تنصرف)

(انوتشكين يتبادل الانحناءات مع يايتشنيتسا)

يايتشنيتسا . اهلاً وسهلاً !

انوتشكين . هل الذى اتشرف فى الحديث معه والد ربة البيت الفاتنة ؟

يايتشنيتسا . لا ، ابداً . لا مع الوالد اطلاقا . ليس لى اطفال بعد .

انوتشكين . آه ، ارجو المعذرة ! المعذرة !

يايتشنيتسا . (جانباً .) خلقة هذا الرجل تريبني . ربما جاء لنفس الغرض الذي جئت من اجله . (بصوت مسموع .) العلك تحتاج الى ربة البيت في شأن من الشؤون ؟

انوتشكين . لا . . . ابداً . . . لا يوجد اي شأن . مجرد انني مررت بعد النزهة .

يايتشنيتسا . (جانباً .) يكذب ، يكذب . بعد النزهة ! السافل يريد ان يتزوج !

(رنين جرس . تركض دونياشكا عبر الحجرة لتفتح الباب . صوتان في الرواق : «الآنسة موجودة ؟» «نعم ، موجودة .»)

المشهد السادس عشر

(نفس الشخصين مع **جيفاكين** ترافقه الخادمة) .

جيفاكين . (للخادمة .) ارجوك ، يا روحي ، نظفيني قليلاً . . . انت تعرفين : الغبار في الشارع كثير . هنا ، ارجوك ، انفضي تلك الريشة الصغيرة . (يستدير .) حسناً ، شكراً ، يا روحي ! وانظري هناك ، احس وكان عنكبوتاً صغيراً يدبّ ! وفي الخلف ، الا يوجد شيء على الطرفين ؟ ، شكراً ، يا عزيزتي ! وهنا ايضاً ، على ما يبدو . (يمسّد بيده على ردن فراكه ، ويختلس النظر الى انوتشكين ويايتشنيتسا .) الجوخ انقليزي ! ممتاز متين ! . . في عام ١٧٩٥ عندما كانت عمارتنا الحربية راسية في صقلية ، اشتريته وانا ما ازال ضابط صف آنذاك ، وفصلت منه بزة . في عام ١٨٠١ ، في عهد القيصر بافل بيتروفيتش كنت قد ترقيت الى ملازم ، والجوخ ما يزال جديداً للغاية . في عام ١٩١٤ قمت بجولة حول العالم ، عند ذاك فقط ظهر تآكل بسيط على الدروز . في عام ١٩١٥ تقاعدت فبعد هذا فقط قلبته على وجهه الآخر ، وها قد مضت عشر سنين وانا البسه ، فهو حتى الآن جديد تقريباً . شكراً ، يا روحي ، يا . . . ست الحسن ! (ويربت على خدها ، ويتقدم من المرآة ، وينفش شعره قليلاً .)

انوتشكين . وكيف صقلية ، لو سمحت بأن نعرف ؟ . . فانت تكرمت وقلت : صقلية . أهي بلاد جميلة ؟

جيفاكين . آه ، رائعة ! بقينا هناك اربعة وثلاثين يوماً . اؤكد لكم انها فاخرة ! جبال هنا وشجرة رمان هناك . . والايطاليات في كل مكان ، الورد آخر حلاوة تود لو تقبلهن .

انوتشكين . ومثقفات جيداً ؟

جيفاكين . بشكل فاخر جداً ! مثقفات في مستوى الكونتيسات عندنا ولا اقل . احياناً اسير في الشارع ، يعني ملازم روسي . . . بالطبع ، كتافية هنا وكتافية هنا ، (يشير الى كتفيه .) مطرزة بالذهب . . . وتطل الحسناوات السمراوات . . عند كل بيت لهن شرفة صغيرة ، والسطوح مثل ارض الغرفة هذه مسطحة كلياً . والقي نظرة كالعادة ، فأرى حسناء مثل الوردة قاعدة . وانحني . . . طبيعي لا امرغ وجهي بالوحل . . . هكذا (ينحني ويرسل قراعه في الهواء .) وهي ايضاً نفس الحركة . (يحرك يده حركة انسيابية ليصور رد التحية .) ملابسها تحفة : قطعة قماش ناعم وخيوط واقراط نسائية متنوعة . . يعني باختصار ، قطعة حلوى . . .

انوتشكين . هل يمكن ان اطرح على حضرتك سؤالاً : بأية لغة يتفاهمون في صقلية ؟

جيفاكين . الجميع بالفرنسية ، بالطبع .

انوتشكين . وجميع الاوانس يتكلمن دون استثناء الفرنسى ؟

جيفاكين . الجميع دون استثناء . بل وربما لا تصدقونني حين اقول لكم : بقينا اربعة وثلاثين يوماً ، وطوال هذه المدة لم نسمع منهم ولا كلمة واحدة بالروسي .

انوتشكين . ولا كلمة ؟

جيفاكين . ولا كلمة . وانا لا اتحدث عن النبلاء والسينيوريين الآخرين ، اقصد ضباطهم من مختلف المراتب . ولكن خذوا اي موجيك ، اي فلاح بسيط على سبيل المثال ، وهو يحمل على عاتقه مختلف الاشياء الحقيرة ، وحاولوا ان تقولوا له بالروسية : «اعطني ، يا اخ ، قطعة من الخبز» . لن يفهمكم قطعاً ، لن يفهمكم والله العظيم ، ولكن قولوا له بالفرنسية : Dateci del pane أو portate vino • يفهم ، ويركض ويجلب لكم ما تريدون بالضبط .

يايتشنيتسا . من كلامك لا بد ان تكون صقلية هذه بلاد ممتعة تثير الفضول . انت تقول موجيك . فكيف هو ، . . . مثل الموجيك الروسي عريض المنكبين للغاية ويحرث الارض ؟

جيفاكين . لا استطيع ان اجيبك . لم الحظ ما اذا كان يحرث

• اعطني خبزاً . . . اجلب لي نبيذاً (بالايطالية) .

الارض ام لا . ولكن اذا سألتني عن استنشاق السعوط ، فاقول لك عن علم : كلهم جميعاً لا يستنشقون السعوط فقط ، بل ويضعونه خلف شفاههم . النقل ايضاً رخيص جداً . المياه فى كل مكان تقريبا ، والجندولات . . . وطبيعي ان ترى ايطالية ، مثل الوردة ، لابسة صداراً حلواً وشالاً لطيفاً . وكان معنا ضباط انقليز . خلق مثل رجالنا ، بحارة . في البداية كانت الحالة غريبة جداً . احدنا لا يفهم الآخر . ولكن فيما بعد تعارفنا جيداً . بدأنا نتفاهم بطلاقة . حين تشير الى زجاجة او قدح ، يعرفون حالاً ان ذلك يعني تريد ان تشرب ، وحين تضم قبضتيك قرب فمك بهذا الشكل ، وتحرك شفتيك فقط : باف ، باف ، يعني تريد تدخين الغليون . وعلى العموم اللغة الانجليزية سهلة جداً . بحارتنا خلال ثلاثة ايام صاروا يتفاهمون تماماً .

يايتشنيتسا . يعني من كلامك ، الحياة في البلدان الاخرى رائعة جداً . انا مسرور للغاية بمعاشرة رجل شاف الدنيا . هل لى ان اعرف مع من اتشرف بالكلام ؟

جيفاكين . جيفاكين ، ملازم متقاعد . ومن جانبي اسمح لي ان اسأل ، مع من اسعد بمبادلة الكلام ؟

يايتشنيتسا . مسؤول الادارة ايفان بافلوفيتش يايتشنيتسا .

جيفاكين . (لم يسمع جيداً .) نعم ، وانا ايضاً اكلت * . انا اعرف الطريق سيكون مرهقاً نوعاً ما . والجو يميل الى البرودة . فاكلت سمك رنجة مع الخبز .

يايتشنيتسا . يبدو لي انك اخطأت الفهم . اسم عائلتي يايتشنيتسا .

جيفاكين . (ينحني .) آه ، اعذرني ! انا ثقيل السمع قليلاً . فتصورت بالفعل انك اكلت بيضاً مقلياً ، يايتشنيتسا .

يايتشنيتسا . ما العمل ؟ اردت انا ان اطلب من الجنرال ان يسمح بأن يدعوني «يايتشني تسين» . ولكن زملائي منعوني من ذلك قائلين انه سيشبه «سباتشي سين» ** .

جيفاكين . على كل حال ، هذا يحصل ! عمارتنا الحربية الثالثة

* فهم من اسم العائلة معناه المباشر : «البيض المقلي» . **المترجم** .
** بالروسية تعني ابن الكلبة . **المترجم** .

كلها ، جميع الضباط والبحارة كانت لهم اسماء عوائل غاية في الغرابة ! المزبل ، سكيروف ، الملازم متعفنوف . كان المرحوم الكسي ايفانوفيتش قائد عمارتنا يقول عادة : «يبدو ان الشيطان قد عمد جميع افراد عمارتي البحرية الثالثة !» بل ان احد ضباط الصف ، وكان ضابط صف جيداً ، كان يدعى «الثقب» . فكان القبطان ، يناديه «انت ، يا ثقب ، تعال الى هنا !» . وكانوا يمزحون معه دائماً ويقولون : «آه ، منك ، يا ثقب !» .

(رنين جرس فى الرواق . تركض **فيكلا** عبر الحجرة لتفتح الباب)

يايتشنيتسا . مرحباً ، يا محترمة !

جيفاكين . مرحباً ، كيف الحال ، يا روحي ؟

انوتشكين . مرحباً ، يا ست فيكلا ايفانوفنا .

فيكلا . (تركض مستعجلة .) شكراً ، يا حضرات ! بخير ، بخير . (تفتح الباب .)

(يصدر في الرواق صوتان : «الآنسة موجودة أ» ، «موجودة» . ثم بعض الكلمات غير المسموعة تقريباً ترد عليها فيكلا في انزعاج : «آه ، يا لك !»)

المشهد السابع عشر

(نفس الاشخاص وكوتشكاريوف وبودكليسين وفيكلا)

كوتشكاريوف . (لبودكليسين .) تذكر ، ما عليك الا التظاهر بالشجاعة ، ولا اكثر (يتلفت ، ويوزع الانحناءات في شيء من الاستغراب ، يقول مع نفسه .) اوه ، كم من الناس ! ماذا يعني هذا ؟ كلهم خطاب ؟ (يلكز فيكلا ، ويقول لها بخفوت .) من كل القيعان جمعت الغربان . ها ؟

فيكلا . (بصوت خافت .) لا يوجد غربان هنا ، كلهم اناس نزيهون .

كوتشكاريوف . (لها .) الضيوف ارتال والقفاطين اسمال .

فيكلا . انظر الى غطاك ولا تحاسب سواك . ليس لك ما تفخر به . هندام بلا ادام .

كوتشكاريوف . اظن زبائنك النبلاء الموسرون هـؤلاء بجيوب فارغة . (بصوت مسموع .) طيب ، مـــاذا تفعل الآن ؟ اظن هذا الباب يؤدي الى مخدعها ؟ (يقترب من الباب .)

فيكلا . عديم الحياء ! قيل لك ما تزال تلبس ثيابها .

كوتشكاريوف . وكانها مصيبة ! مـاذا في ذلك ؟ انظر ، ولا اكثر . (ينظر فى ثقب المفتاح .)

جيفاكين . اسمح لي ان اتطلع ايضاً .

يايتشنيتسا . اسمح لي انا ان القي نظرة .

كوتشكاريوف . (يتابع النظر .) ولكن لا شيء يرى ، يا سادة . غير معروف ما هذا الابيض هناك : امرأة ام مخدة ؟

(ومع ذلك يتجمهر الجميع في الباب ويتزاحمون لينظروا)

شش . . . شخص قادم .

(الجميع يتراجعون)

المشهد الثامن عشر

(نفس الاشخاص مع **ارينا بانتيليمونوفنا** و**اغافيا تيخونوفنا** . الجميـــع يتبادلون الانحناءات) .

ارينا بانتيليمونوفنا . اية مناسبة دعتكم الى تكريمنا بالزيارة ؟

يايتشنيتسا . عرفت من الجرائد انكم ترغبون في الحصول على مقاولة تزويد اخشاب وحطب ، وبمـا انني اشغل وظيفة مسؤول ادارة في دائرة حكومية ، فقـــد جئت لاستفسر عن نوع الخشب وكميته ، والموعد الذي يمكن ان تنجزوا فيه هذه العملية .

ارينا بانتيليمونوفنا . نحن مسرورون بالمجيء ، وان كنا لا نتعهد بأية مقاولات . ما اسم حضرتك ؟

يايتشنيتسا . ايفان بافلوفيتش يايتشنيتسا مسؤول ادارة .

ارينا بانتيليمونوفنا . تفضلوا بالجلوس . (تتحول الى جيفاكين ، وتنظر اليه .) وهل يمكن ان اعرف . . .

جيفاكين . انا ايضاً قرأت في الجرائد عن شيء مـــا ، فقلت

لنفسي ، لاذهب واري . والجو جميل . وفي كل مكان في الطريق يطلع عشب غض . . .

ارينا بانتيليمونوفنا . وكيف ادعوك ؟

جيفاكين . الملازم المتقاعد بالتـازار بالتازاروفيتش جيفاكين الثاني . كان عندنا جيفاكين الاول ، وقد خرج الى التقاعد قبلي . جرح ، يا محترمة ، تحت الركبة ، والرصاصة ، وهذا شيء غريب ، مرت دون ان تصيب الركبة ، ولكنها اصابت العرق ، وكانمـــا خيطته بابرة ، فكان الواحد ، اذا وقف جنبه ، يتصور دائماً انه يريد ان يرفسه بركبته من الخلف .

ارينا بانتيليمونوفنـــا . تفضلـــوا بالجلوس . (تلتفت الى انوتشكين .) وانتم بأي مناسبة ؟

انوتشكين . بدافع الجوار . انا قريب جداً منكم . . .

ارينا بانتيليمونوفنا . العلكم تسكنون في بيت زوجة التاجر تولوبوفا ، المقابل لبيتنا ؟

انوتشكين . لا ، انا ما ازال في مسكني القديم في بيسكي ، ولكن لدي نية ان انتقل ، بمرور الزمن ، الى جواركم هنا ، فى هذا الجزء من المدينة .

ارينا بانتيليمونوفنا . تفضلـــوا ، بالجلوس . (تتحـول الى كوتشكاريوف .) واسمح لي بان اعرف . . .

كوتشكاريوف . ولكن هل معقول انك لم تعرفيني ؟ (ملتفتاً الى اغافيا تيخونوفنا .) وانت ، ايضاً ، يا آنسة ؟

اغافيا تيخونوفنا . بقدر ما يتهيأ لي لم ارك من قبل قط .

كوتشكاريوف . على كل حال تذكري . اعتقد انك رأيتني في مكان ما .

اغافيا تيخونوفنا . في الحقيقـــة ، لا ادري . الا اذا عند آل بيريوشكين ؟

كوتشكاريوف . بالضبط ، عند آل بيريوشكين .

اغافيا تيخونوفنا . آه ، ربما لا تعرف اي حكاية حصلت لها .

كوتشكاريوف . بالطبع . تزوجت .

اغافيا تيخونوفنا . لا ، سيكون ذلك جيداً ، لو حصل . ولكن رجلها انكسرت .

ارينا بانتيليمونوفنا . والكسر شديد . كانت عائدة الى البيت في عربة ، في ساعة متاخرة الى حد ما ، وكان الحوذي سكران ، فاسقطها من العربة .

كوتشكاريوف . بالضبط ، هذا ما اتذكره : اما ان تكون قد تزوجت او انكسرت رجلها .

ارينا بانتيليمونوفنا . ما اسم حضرتك ؟

كوتشكاريوف . كيف ، اسمي ايليا فوميتش كوتشكاريوف . نحن اقارب . زوجتي تتحدث دائماً عن . . . عن اذنك ، عن اذنك (ياخذ بيد بودكليسين ، ويقربه) هذا صديقي بودكليسين ايفان كوزميتش ، الموظف من الدرجة الراقيـة ، رئيس شعبة ، وحده يقوم بكل الاعمال ، ويحسن القسم المناط به بشكل ممتاز جداً .

ارينا بانتيليمونوفنا . ولقبه ؟

كوتشكاريوف . بودكليسين ، ايفان كوزميتش . المدير نصب لمجرد الرتبة ، بينما هو يقوم بكل الاعمـال ، ايفان كوزميتش بودكليسين .

ارينا بانتيليمونوفنا . طيب ، تفضلوا بالجلوس .

المشهد التاسع عشر

(نفس الاشخاص مع ستاريكوف) .

ستاريكوف . (ينحنى بحيوية وعجل ، على طريقـة التجار . متخوصراً قليلاً .) مرحباً ، ايتها المحترمة ارينا بانتيليمونوفنا . الزملاء في سوق المدينة قالوا انك تعرضين صوفاً للبيع ، يـا محترمة !

اغافيا تيخونوفنا . (تستدير عنه باستهانـة ، وتقول بصوت خافت ، ولكنه مسموع له .) ليس بيتنا دكان بيع وشراء !

ستاريكوف . عجيبة ! لم نات في الوقت المناسب ؟ ام الطبخة تمت بدوننا ؟

ارينا بانتيليمونوفنا . تفضل ، تفضل ، يا الكسي دميتريفيتش . ولو اننا لا نبيع صوفاً ، ولكننا مسرورون بقدومك . تفضل اجلس .

(جلس الجميع . صمت) .

يايتشنيتسا . الطقس غريب اليـوم . في الصباح كان ينذر بالمطر تماماً ، والآن يبدو وكان الغيوم قد تبددت .

اغافيا تيخونوفنا . نعـم ، هذا الطقس متقلب جداً . صاح احياناً ، وممطر كلياً في احيان أخرى . شيء غير مريح مطلقاً .

جيفاكين . في صقلية ، يا محترمة ، كنا مع العمارة الحربية في فصل الربيع ، وهو قياساً الى ما عندنا مثل شهر شباط . احياناً كنا نخرج لنتنزه ، والنهار مشمس ، وبعد ذلك ينزل مطر خفيف . وبالفعل تنظر ، فاذا بالجو ماطر .

يايتشنيتسا . ازعج الحـالات ، حين ينغلق الانسان في بيته وحيداً في مثل هذا الطقس . حالة المتزوج تختلف تماماً . لا يضجر ، بينما في الوحدة ، المسالة تماماً . . .

جيفاكين . اوه ، موت ، موت مؤكد !

انوتشكين . نعم ، يمكن ان يقال . . .

كوتشكاريوف . يا ويلاه ! عذاب أليم ! لن تسرك الحياة . الله يعوذنا من ذلك الوضع . . .

يايتشنيتسا . طيب ، ماذا ، يا آنستـي ، لو كان عليك ان تختاري القريب الى قلبك ؟ اسمحي لنا ان نعرف ذوقك . واعذريني على الصراحة . اي وظيفة تعتبر ينها أليق بزوجك ؟

جيفاكين . اتريدين ، يـا آنستي ، ان يكون لك زوج شهد العواصف البحرية ؟

كوتشكاريوف . لا ، لا ، في رايي احسن زوج هو الرجل الذي يدير لوحده تقريباً كل شؤون الدائرة .

انوتشكين . ولم هذا التحامل ؟ لماذا تريد ان تستهين بالرجل الذي ، وان كان قد خدم في سلاح المشاة ، الا انه ، مع ذلك ، يحسن التصرف في المجتمع الراقي .

يايتشنيتسا . يا آنستي ، كوني حكماً !

(اغافيا تيخونوفنا تصمت)

فيكلا . اجيبي ، يا كريمتي . قولي لهم شيئاً .

يايتشنيتسا . كيف ، يا محترمة ؟ . .

كوتشكاريوف . ما رأيك ، يا اغافيا تيخونوفنا ؟

فيكلا . (تقول لها بصوت خافت .) قولي ، قولي ، اشكركم ، انا سعيدة جداً . غير لطيف ان تسكتي هكذا .

اغافيا تيخونوفنا . (بخفوت .) اخجـــل ، صحيح ، اخجـــل ، سانصرف ، انصرف حقاً ، اجلسي ، يا عمة ، نيابة عني .

فيكلا . ياه ، لا تفضحينا هذه الفضيحة . لا تنصرفي . يا له من عيب . الله يعلم ماذا سيفكرون .

اغافيا تيخونوفنا . (بنفس الصوت الخافت .) لا ، سانصرف ، حقاً ، انصرف ، انصرف ! (تركض هاربة .)

(فيكلا وارينا بانتيليمونوفنا تنصرفان في اثرها) .

المشهد العشرون

(**نفس الاشخاص** ما عدا النساء) .

يايتشنيتسا . عجيبة ! انصرفن كلهن ! ماذا يعني هذا ؟

كوتشكاريوف . اظن شيئاً قد حصل .

جيفاكين . شيء يتعلق بزينـــة السيدات . يعني ، يعدلـــن شيئاً . . . يدبسن . . . قبة صدار .

(تدخل فيكلا . يلتقونها جميعاً بالاسئلة : «وماذا حصل ؟»)

كوتشكاريوف . هل حدث شيء؟

فيكلا . وكيف يمكن ان يحدث . لم يحدث شيء ، والله !

كوتشكاريوف . فلماذا خرجت اذن ؟

فيكلا . اربكتموها ، ولهذا خرجت . ارتبكت تماماً ، فلم تقدر ان تبقى في مكانهـــا . ترجو الاعتذار . تفضلوا على قدح شاي في المساء . (تنصرف)

يايتشنيتسا . (جانباً) يا ويلي من قدح الشاي هذا ! للسبب ذاته لا احب الخطوبة . تطويل دائـم . اليوم غير ممكن ، تفضل غداً ، ثم بعد غد على قدح شاي ، ثم لازم ان افكر . بينما القضية بسيطة ، ولا تحتاج الى وجع دماغ . اللعنة ، وانا صاحب وظيفة ، وليس عندي وقت .

كوتشكاريوف . (لبودكليسين)العروسة حلوة ، ها ؟

بودكليسين . نعم ، حلوة .

جيفاكين . العروسة جميلة .

كوتشكاريوف . (جانبا) عليه اللعنة . وقع الاحمق في غرامها . اظنه قد يعرقلنا . (بصوت مسموع) غير جميلة مطلقاً ، غير جميلة ابداً .

يايتشنيتسا . انفها كبير .

جيفاكين . لا ، ابداً . الانف لم يلفت نظري . انها مثل . . . الوردة .

انوتشكين . رايي من رايهما . ليست كما يجب ، لا . . . بل واستبعد انها تحسن التصرف في المجتمع الراقي . ثـم هل تعرف الكلام بالفرنسي ؟

جيفاكين . طيب ، لو سمحت ان اسال لماذا لم تجرب ولـــم تتكلم معها بالفرنسي ؟ ربما هي تعرف .

انوتشكين . وتحسبني اعرف فرنسي ؟ لا ، لم يسعدني الحظ لأتلقى هذا التعليم . كان ابي حقيراً ، بهيمة . فلم يخطر على باله قط ان يعلمني اللغة الفرنسية . كنت آنذاك ما ازال طفلاً ، وكان من السهل تعليمي . ما كان سيكلفـــه الامر الا ان يجلدني جلداً جيداً ، وعند ذلك ساتعلم . ساتعلم حتما .

جيفاكين . طيب ، واذا كنت لا تعـــرف الفرنسي ، فمـــاذا ستربح ، اذا كانت . . .

انوتشكين . لا ، لا . الامر مع المراة يختلف تماماً . يجب ان تعرف حتماً ، بدون هذا ، عندها كذا وكذا . . . (يشير بايماءات) غير مناسب قطعاً .

يايتشنيتسا . (جانبا .) دع غيري بهذا . سأذهب انا الى الفناء لأتفقد البيت ، والجناحين ، واذا كان كل شيء على ما يرام ، ساتم

المسألة اليوم مساء . هؤلاء الخطـــاب غير خطرين عليّ . اناس خفاف . لا وزن لهم تقريباً . والعرائس لا يحببن مثل هؤلاء .

جيفاكين . انا ذاهب لأدخن غليوني . الا يوجد احد في طريقي ؟ اين تسكن ، لو سمحت ؟

انوتشكين . في بيسكي ، زقاق بيتروفسكي .

جيفاكين . آها ، فيها لفة لو مشينـــا سوية . أنا في جزيرة فاسيليفسكي ، الشارع الثامن عشر . ومع ذلك سأرافقك .

ستاريكوف . لا ، الجو مليان عجرفة . فيما بعد ستتذكرينا نحن ايضاً ، يا اغافيـــا تيخونوفنا . احتراماتي ، يا سادة (ينحني مودعا وينصرف .)

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين وكوتشكاريوف)

بودكليسين . طيب ، لننصرف نحن ايضاً ، فماذا انتظر ؟

كوتشكاريوف . بالفعل العروسة جميلة ، أليس كذلك ؟

بودكليسين . يعني ! بصراحة لم تعجبني .

كوتشكاريوف . عجيبة ! ما هذا ؟ انت نفسك وافقت على انها جميلة .

بودكليسين . ولكنها ليست كما يجب . انفها طويل ، ولا تتكلم بالفرنسي .

كوتشكاريوف . اي شيء هذا بعد ؟ ومـا يهمك ان تتكلـــم بالفرنسي ؟

بودكليسين . على كل حال ، العروسة لازم تعرف فرنسي .

كوتشكاريوف . ولماذا ؟

بودكليسين . لأنه . . . لا اعرف لماذا ، ولكن لن تكون كما يجب .

كوتشكاريوف . هكذا ، احد الحمقى قـال ذلك قبل لحظات ، فالتقف كلامه . انها ست الحسن ، ست الحسن تماماً ، لن تجد مثل هذه العروسة في الدنيا كلها .

بودكليسين . انا ايضاً اعجبني شكلها في البداية ، ولكن بعد ان اخذوا يقولون : انفها طويل ، انفها طريل ، دققت النظر فرأيت بنفسي انفها طويلاً .

كوتشكاريوف . آه ، منك ، نصاب ، لم تعثر على الباب ! هم يقولون ذلك عن عمد ليصرفوك ، وانا ايضاً لم امتدحها . هذه هي الاصول . انها ، يا اخ ، آنسة واية آنسة ! امعن النظر في عينيها : الشيطان وحده يعرف اية عينين لها : تنطقان ، تتنفسان ! والانف ، احير كيف اصفه . في نصاعة المرمر الابيض ! ولكن كيف يمكن تشبيه المرمر به . تمعن بنفسك جيداً .

بودكليسين . (مبتسماً) اي نعم ، يبدو لي ثانية انها جميلة .

كوتشكاريوف . طبيعي ، جميلة ! اسمع ، ما داموا قد انصرفوا كلهم ، تعال نذهب اليها ، ونطرح عليها الموضوع ، وننهى كـــل شيء .

بودكليسين . اوه ، لن افعل هذا .

كوتشكاريوف . والسبب ؟

بودكليسين . ما هذه الوقاحة منـــا ؟ نحن كثيرون ، فليكن الاختيار لها .

كوتشكاريوف . ولأى شيء تكثرت بهم . تخاف المزاحمة ؟ هل تريد ان اصرفهم جميعاً في لحظة واحدة ؟

بودكليسين . وكيف ستصرفهم ؟

كوتشكاريوف . هذا شأن يخصني . فقط ان تقطع لي عهداً بأنك لا تمتنع بعد ذلك .

بودكليسين . ولم لا اقطع ؟ تفضل . لا امتنع . اريـــد ان اتزوج .

كوتشكاريوف . هات يدك !

بودكليسين . (يمد يده) هاك !

كوتشكاريوف . هذا الذي اريده بالضبط .

(ينصرفان)

الفصل الثاني

(حجرة في بيت اغافيا تيخونوفنا)

المشهد الأول

(اغافيا تيخونوفنا لوحدها ، ثم كوتشكاريوف)

اغافيا تيخونوفنا . صحيح ، اي صعوبة في الاختيار ! لو كان رجل واحد ، اثنان ، ولكنهم اربعة . فتفضلي واختاري . نيكانور ايفانوفيتش ليس قبيحاً ، ولو انه نحيف ، بالطبـــع . وايفان كوزميتش ليس قبيحاً ايضاً . وكذلك ايفان بافلوفيتش ، اذا اردت الحقيقة ، ولو انه سمين ، ولكنه بارز الطلعة جداً . فماذا افعل ، يا ترى ؟ وبالتازار بالتازاروفيتش هو الآخر رجـــل له محاسن . الاختيار صعب بشكل لا يوصف ، صعب . فلو تجمع شفتا نيكانور ايفانوفيتش مع انف ايفان كوزميتش ، وشيء من طلاقة بالتازار بالتازاروفيتش ، ثم تضاف الى ذلك صخامة ايفان بافلوفيتش ، لاتخذت قراري في الحال ! ولكن الآن علـّى ان اقعد وافكر ! راسي صار يوجعني حقاً . احسن طريقـــة ، في رأيي ان اسحب قرعة . واترك كل شيء لمشيئة الله واتوكل عليه ! ومن يطلع اسمه بالقرعة اتزوجه . سأكتب اسماءهم جميعاً على قصاصات ورق ، والفّها ، وليكن ما يكون . (تقترب من الطاولة ، وتاخـــذ من هناك مقصاً وورقة ، وتقصّها الى قصاصات ، وتلفها ، ماضية في الكلام) ما اتعس حظ الفتاة ، لا سيما اذا كانت عاشقـــة . لا احد من الرجال يفهم ذلك ، بل ولا يريد ان يفهمه . الآن هيأتهم جميعاً ، ولم يبق الا ان القيهم في حقيبة يدوية ، واغمض عيني ، وليكن ما يكون . (تضع قصاصات الورق في حقيبة يدوية ، وتخلطها بيدها .) انا خائفة . . . آه ، لو ان الله جعلني اسحب نيكانور ايفانوفيتش . لا ، ولم هو بالذات ؟ ايفـــان كوزميتش احسن . ولم ايفـــان كوزميتش ؟ وهل الآخرون سيئون ؟ وبأي شيء ؟ لا ، لا اريد . . . من يطلع في يدي سيكون هو الفائز . (تخلط قصاصات الورق بيدها

في الحقيبة ، وبدلاً من ان تخرج قصاصة واحدة تخرج القصاصات كلها) اوه ! طلع الجميـــع ! وقلبي شديد الخفقان ! لا ، واحد ، واحد ! . . لا بد ان اسحب واحداً ! (تضع قصاصات الورق في الحقيبة اليدوية وتخلطها .)

(في ذلك الوقت يدخل **كوتشكاريوف** خلسةً ، ويقف وراءها)

آه ، لو اسحب بالتازار . . . ماذا جرى لي ؟ اردت ان اقـــول نيكانور ايفانوفيتش . . . لا ، لا اريد ، لا اريد . . . ليقرر القدر من !

كوتشكاريوف . اختاري ايفان كوزميتش . فهو احسنهم .

اغافيا تيخونوفنا . آه ! (تندّ عنها صرخة ، وتغطي وجهها بيديها ، خائفة من النظر الى الخلف .)

كوتشكاريوف . ولم ارتعبت ؟ لا تخافي ، هذا انا . صحيح ، اختاري ايفان كوزميتش .

اغافيا تيخونوفنا . آه ، انا خجلانة . كنت تتسمع وانا لا ادري .

كوتشكاريوف . لا شيء ، لا شيء ! فانا من الاهـــل ، من اقربائكم ، ولا حاجة الى الخجل مني . اكشفي عن وجهك .

اغافيا تيخونوفنا . (تكشف نصف وجهها) صحيح ، انا خجلانة .

كوتشكاريوف . طيب ، اختاري ايفان كوزميتش .

اغافيا تيخونوفنا . آه ! (تندّ عنها صرخة فتغطي وجهها بيديها من جديد .)

كوتشكاريوف . رجل رائع حقاً ، كم انيط به من اعمال . . . رجل عجيب حقاً .

اغافيا تيخونوفنا . (تكشف وجههـــا تدريجياً .) كيف هذا ، والآخر ؟ نيكانور ايفانوفيتش ؟ هو ايضاً رجل جيد .

كوتشكاريوف . ارجوك ، هذا تافـــه بالقياس الى ايفـــان كوزميتش .

اغافيا تيخونوفنا . والسبب ؟

كوتشكاريوف . السبب واضح . ايفان كوزميتش رجل بصراحة ، رجل . . . لن تجدي له مثيلاً .

اغافيا تيخونوفنا . طيب ، وايفان بافلوفيتش ؟

كوتشكاريوف . ايفان بافلوفيتش تافه هو الآخر ! كلهم تافهون . تافهون .

اغافيا تيخونوفنا . معقول كلهم ؟

كوتشكاريوف . نعم ، وما عليك الا ان تحكمي ، ان تقارني . هذا هو ايفان كوزميتش ، على كل حال ، وليس تافها من يدعى ايفان بافلوفيتش ، او نيكانور ايفانوفيتش ، ومن على هذه الشاكلة !

اغافيا تيخونوفنا . صحيح انهم . . . متواضعون جداً .

كوتشكاريوف . اي متواضعين هم ! انهم معربدون متهورون للغاية . وكأنك تريدين ان تضربي في اليوم الثاني بعد الزفاف .

اغافيا تيخونوفنا . آه ، يا ربي ! هذه مأساة ! هذا أتعس ما يمكن ان يكون .

كوتشكاريوف . بالطبع ! لا يمكن ان تتصوري شيئاً اتعس من ذلك .

اغافيا تيخونوفنا . اذن ، تنصحني باختيار ايفان كوزميتش ؟

كوتشكاريوف . ايفان كوزميتش ، طبيعي ايفان كوزميتش . (جانباً) اظن المسألة مشت . بودكليسين جالس في محل حلويات . ساذهب واجيئ به .

اغافيا تيخونوفنا . اذن ، تعتقد ان اختار ايفان كوزميتش ؟

كوتشكاريوف . من كل بد ، ايفان كوزميتش .

اغافيا تيخونوفنا . وارفض الآخرين ؟

كوتشكاريوف . ارفضيهم ، بالطبع .

اغافيا تيخونوفنا . ولكن كيف افعل ذلك ؟ اخجل .

كوتشكاريوف . ولماذا تخجلين ؟ قولي لهم : ما زلت شابة ، ولا اريد الزواج .

اغافيا تيخونوفنا . ولكنهم لا يصدقون . سيسألون : كيف ولماذا ؟

كوتشكاريوف . طيب ، اذا كنت تريدين ان تنهي المسألة دفعة واحدة قولي : «اغربوا عني ، يا حمقى !»

اغافيا تيخونوفنا . وكيف يمكن ان اقول ذلك ؟

كوتشكاريوف . طيب ، حاولي . اؤكد لك انهم سيولون هاربين جميعاً .

اغافيا تيخونوفنا . ولكن هذه كالشتيمة في حقهم .

كوتشكاريوف . انت لن تريهم بعد ذلك . فما الفرق عندك ؟

اغافيا تيخونوفنا . على كل غير لطيف . . . سيغضبون .

كوتشكاريوف . وماذا يهم ، ان غضبوا ؟ لو كان سينجم شيء عن ذلك ، لكان الامر يختلف ، ولكن اسوأ الاحتمالات ان يبصق احدهم في عينيك ، لا اكثر .

اغافيا تيخونوفنا . ها انت ترى !

كوتشكاريوف . اية مشكلة في هذا ؟ هناك اشخاص تلقوا البصقات عدة مرات ، وحق الرب ! بل اعرف احدهم . وهو رجل رائع الجمال ، متورد الخدين تماماً ، كان يزعج ويتزلف الى رئيسه ليظفر بزيادة في مرتبه ، حتى ضجر الرئيس ، ونفد صبره اخيراً ، فبصق في وجهه فعلاً ، والله ، قائلاً : «هذه هي الزيادة لك ، فحلّ عني ، يا شيطان !» ولكنه خصص له الزيادة على كل حال . يعني ماذا لو بصقوا ؟ سيختلف الامر لو كان المنديل بعيداً ، ولكن المنديل موجود في الجيب . فاخرجه ، وامسح البصقة .

(رنين جرس في الرواق)

الجرس يرن . اظن احدهم قادماً . لا احب ان التقي بهم الآن . هل في بيتكم مخرج آخر ؟

اغافيا تيخونوفنا . يوجد سلم خلفي . ولكن جسمي كله يرتعش ، حقاً .

كوتشكاريوف . لا بأس . المهم ان تسيطري على نفسك . الى اللقاء ! (جانباً) ساسرع في الاتيان ببودكليسين .

المشهد الثاني

(اغافيا تيخونوفنا ويايتشنيتسا)

يايتشنيتسا . جئت ، يا سيدتي ، مبكراً قليلاً عن قصد ، لاتحدث اليك على انفراد ، في وقت الفراغ . طيب ، يا سيدتي ،

افترض انك تعرفين رتبتي : انا موظف من الدرجة الراقية ، محبوب من الرؤساء ، مطاع من المرؤوسين . . . ينقصني فقط رفيقة حياة لي .

اغافيا تيخونوفنا . نعم .

يايتشنيتسا . والآن اجد هذه الرفيقة . رفيقة حياتي أنتِ . قولي لي بصراحة : نعم ام لا ؟ (ينظر من خلال كتفها . ويقول جانباً) اها ، ليست هي كالالمانيات النحيلات . يوجد عليها شيء !

اغافيا تيخونوفنا . انا ما ازال في اول الشباب ، ولا يجدر ان اتزوج في الوقت الحاضر .

يايتشنيتسا . يا سلام ! ولماذا تتعب الخطابة نفسها ؟ ولكن ربما تريدين ان تقولي شيئاً آخر ؟ وضحي . . .

(رنين جرس)

اللعنة ، لن يتركوني اشوف شغلي .

المشهد الثالث

(نفس الشخصين وجيفاكين)

جيفاكين . اعذريني ، يا سيدتي ، ربما جئت مبكراً جداً . (يلتفت ويرى يايتشنيتسا .) آه ، يوجد زائر . . . احتراماتي لايفان بافلوفيتش !

يايتشنيتسا . (جانباً) اوه ، ليأخذك الشيطان انت واحتراماتك ! (بصوت مسموع) اذن ، يا سيدتي ؟ قولي كلمة واحدة : نعم ام لا ؟

(رنين جرس . يايتشنيتسا يبصق في غيظ)

الجرس مرة اخرى .

المشهد الرابع

(نفس الاشخاص مع انوتشكين)

انوتشكين . ربما ، يا سيدتي ، ابكر مما تقتضي وتسمح اصول اللياقة . . . (وحين يرى الآخرين تندّ منه آهة استغراب ، وينحنى لهما) احتراماتي !

يايتشنيتسا . (جانبا) ابق احترماتك لك ! لعنة الله على الذي جاء بك . اتمنى ان تنكسر رجلاك الممصوصتان ! (بصوت مسموع) قرري ، اذن ، يا سيدتي . انا رجل مرتبط بوظيفة ، ووقتي قليل . نعم ام لا ؟

اغافيا تيخونوفنا . (في الارتباك) غير لازم . . . غير لازم . . . (جانبا) لا افهم شيئاً مما اقول .

يايتشنيتسا . كيف غير لازم ؟ باى خصوص غير لازم ؟

اغافيا تيخونوفنا . لا شيء ، لا شيء . . . لم ارد . . . (تستجمع شجاعتها) اغرب عني ! . . (جانباً) آه ، يا إلهي ، ما هذا الذى قلته ؟

يايتشنيتسا . كيف «اغرب عني» ؟ ماذا يعني «اغرب عني» ؟ اسمحي لى ان اعرف ماذا تقصدين بهذا ؟ (يتخوصر ، ويتقدم نحوها مهددا .)

اغافيا تيخونوفنا . (بعد ان تحدق فى وجهه تصيح .) اوه ، يضربني يضربني ! (تخرج راكضة)

(يايتشنيتسا يقف فاغر الفم . تركض ارينا بانتيليمونوفنا داخلة على الصيحة ، وتحدق في وجهه ، وتصيح ايضا واوه ، يضربني !» وتخرج راكضة)

يايتشنيتسا . اي لغز هذا . والله حكاية !

(رنين جرس في الباب ، واصوات تسمع)

صوت كوتشكاريوف . ادخل ، ادخل ، لماذا توقفت ؟

صوت بودكليسين . ادخل انت في المقدمة . سأتأخر دقيقة ، اصلح هندامي ، انحلت حمالة الجورب .

صوت كوتشكاريوف . وتهرب من جديد .

صوت بودكليسين . لا ، لن اهرب ! وحق الرب لن اهرب !

المشهد الخامس

(نفس الاشخاص مع **كوتشكاريوف**)

كوتشكاريوف . وكانه ضروري جداً ان يشدّ الحمالة .

يايتشنيتسا . (مخاطباً اياه) قل لي من فضلك : هل العروس بلهاء ام ماذا ؟

كوتشكاريوف . وكيف ؟ هل حصل شيء حقاً ؟

يايتشنيتسا . تصرفات غير مفهومة . ركضت ، وهي تصرخ : «يضربني ، يضربني !» الشيطان يعرف ما هذا !

كوتشكاريوف . اي نعم ، هذا ما يلاحظ عليها . انها بلهاء .

يايتشنيتسا . قل لي هل انت قريبها ؟

كوتشكاريوف . قريبها ، بالطبع .

يايتشنيتسا . واية قرابة ، لو سمحت ان اعرف ؟

كوتشكاريوف . في الحقيقة لا اعرف . احدى عمات امي هي احدى اقارب ابيها ، او ابوها احد اقارب عمتي . زوجتي تعرف ذلك . هذا شغلهن .

يايتشنيتسا . والبله عندها منذ زمان ؟

كوتشكاريوف . منذ الصغر .

يايتشنيتسا . نعم ، كان الافضل بالطبع ، لو كانت اكثر ذكاء . ومع ذلك فالبلهاء ايضاً مقبولة . شرط ان يكون صداقها في حالة جيدة .

كوتشكاريوف . ولكنها لا تملك شيئاً .

يايتشنيتسا . وكيف ذاك ، والبيت الآجري ؟

كوتشكاريوف . بيت آجري بالاسم فقط . ولكن ليتك تعرف كيف بُني : الجدران اقيمت بقشرة من الآجر فقط ، وفي الوسط حشيت بمختلف النفايات ونشارة الخشب .

يايتشنيتسا . معقول ؟

كوتشكاريوف . طبيعي . وكأنك لا تعرف كيف يبنون البيوت في هذه الايام ؟ لا لشيء الا ليرهنوها في المصرف العقاري .

يايتشنيتسا . على كل ، البيت غير مرهون .

كوتشكاريوف . ومن قال لك ؟ هذا هو صلب الموضوع . ليس فقط مرهونا ، بل ولم توضع عليه الفوائد المصرفية المفروضة لمدة سنين . كما ان لها اخاً في المحكمة العليا يضع عينه على البيت ايضاً ، لا مثيل له في الولع باقامة الدعاوى في المحاكم . انتزع ، الكافر ، من امه آخر تنورة لها .

يايتشنيتسا . وكيف قالت لي العجوز الخطابة . . . اه ، انها مكارة ، حثالة جنس البشر . . . (جانبا) ومع ذلك يمكن ان يكذب . . . سأستجوب العجوز استجواباً عسيراً ، ولو طلع ذلك حقيقة . . . طيب . . . ساريها النجوم في الضحى .

انوتشكين . اسمح لي ايضاً ان اضايقك بسؤال : بصراحة لكوني لا اعرف الفرنسية يصعب عليّ جداً ان اعرف بنفسي ما اذا كانت المرأة تعرف الفرنسية ام لا . فكيف ربة البيت ، هل تعرف ؟ . .

كوتشكاريوف . لا ، ولا حرف .

انوتشكين . صحيح ؟

كوتشكاريوف . وكيف لا ؟ انا اعرف ذلك جيداً . كانت تتعلم مع زوجتي في مدرسة داخلية واحدة ، وكانت معروفة بالكسل . كانت دائماً تعاقب . بل كان معلم الفرنسية يضطر الى ضربها بالعصا .

انوتشكين . تصور انني اول ما رايتها كنت اتحسس انها لا تعرف الفرنسية .

يايتشنيتسا . طيب ، لتذهب الفرنسية الى الجحيم ! ولكن كيف الخطابة الملعونة . . . آه ، ايتها المكارة ، يا مشعوذة ! ليتك تعرف باية كلمات رسمتها لي . كما يرسم رسام بالضبط ! «بيت ، جناحان على اسس ، ملاعق فضية ، زلاجة» – والآن اجلس فيها وتتنزه ! وباختصار نادراً ما تجد مثل هذه البلاغة في رواية . آه ، منك ، ايتها السافلة الهرمة ! فقط لو اظفر بك . . .

المشهد السادس

(نفس الاشخاص مع فيكلا)

(حين يرونها يخاطبونها جميعاً بهذه الكلمات)

يايتشنيتسا . آى ! هذه هي ! تعالي الى هنا ، ايتها الزنديقة العجوز ! تعالي الى هنا !

انوتشكين . كيف خدعتني ، يا فيكلا ايفانوفنا ؟

كوتشكاريوف . اي نعم ، شددوا الخناق عليها !

فيكلا . لا افهم اي كلمة : طرشت تماماً !

يايتشنيتسا . البيت مبنى بقشرة من الآجر ، ايتها السافلة الهرمة . بينما كذبت وقلت بشرفات وبهذا وذاك .

فيكلا . لا ادري بذلك ، لم ابنه انا . ربما كان من الضروري ان يبنوه بقشرة آجر فقط ، فبنوه بهذا الشكل .

يايتشنيتسا . ومرهون ايضاً ! عسى ان يبتلعك الشيطان ، يا مشعوذة ، يا ملعونة ! (يضرب الارض بقدمه)

فيكلا . قف عند حدك ! ويشتم علاوة . غيرك كان سيشكرني بارتياح على همتي نحوه .

انوتشكين . نعم ، يا فيكلا ايفانوفنا ، ولي ايضاً قلت انها تعرف بالفرنسي .

فيكلا . تعرف ، يا عزيزي ، كل شيء تعرف ، بالالماني وبكل شيء ، تعرف تتصرف بأية طريقة تريدها .

انوتشكين . لا ، اظنها لا تتكلم الا بالروسي .

فيكلا . وما العيب في ذلك ؟ الانسان بالروسي يفهم احسن ، ولهذا تتكلم بالروسي . واذا كانت تعرف بالاعجمي ، سيكون اسوأ لك . لن تفهم منها شيئاً . ليس هناك داع لان تثرثر عن اللسان الروسي ! معروف اي لسان هو . كل القدسين كانوا يتكلمون بالروسي .

يايتشنيتسا . تعالي هنا ، يا ملعونة ! اقتربي مني !

فيكلا . (تتراجع باتجاه الباب) لا اقترب . انا اعرفك . انت رجل قبيح ، تضرب بدون اي سبب .

يايتشنيتسا . طيب ، انتظري ، يا حلوة ، لن تسلمي من ذلك ! عندما احيلك الى الشرطة ستعرفين اي جزاء ستتلقين من خداع الناس الشرفاء . سترين ! وقولي للعروس انها سافلة ! قولي لها من كل بد . (ينصرف)

فيكلا . قف عند حدك ! يا للشجاعة ! لانه سمين يتصور لا احد يوازيه . طيب ، اقول لك انت نفسك سافل ، هكذا !

انوتشكين . بصراحة ، يا محترمة ، ما كنت اتصور انك ستخدعين بهذا الشكل . لو كنت اعرف ان العروس بهذا المستوى من التعليم ما كنت . . . نعم ، ما كانت قدمي تطأ هذا البيت . هكذا ! (ينصرف)

فيكلا . اما جنوا او شربوا اكثر من اللازم ! يا لهم من المتحذلقين ! القراءة والكتابة لخبطت عقولهم .

المشهد السابع

(فيكلا وكوتشكاريوف وجيفاكين)

(**كوتشكاريوف** يضحك بملء حنجرته ، وهو ينظر الى فيكلا ويشير اليها باصبعه)

فيكلا . (في غيظ) ما لك تمزق حنجرتك ؟

(كوتشكاريوف ماض في قهقهته)

اصابته نوبة !

كوتشكاريوف . اما والله خطابة ! خطابة ! استاذة في الزواج ! تعرف كيف تدبر الامور ! (ويمضي في قهقهته)

فيكلا . ساح في الضحك . يبدو ان المرحومة امك فقدت عقلها ، ساعة ولدتك ! (تخرج مغتاظة)

المشهد الثامن

(كوتشكاريوف وجيفاكين)

كوتشكاريوف . (وهو ما يزال يقهقه) اوه ، سأموت من الضحك ، اموت ، حقاً ! طاقتي لا تتحمل ، اشعر بالضحك يمزقني ! (يمضي في ضحكه)

(جيفاكين يبدأ بالضحك ايضاً ، وهو ينظر اليه)

(يسقط على المقعد من الاعياء) اوه ، صحيح ، قواى خارت . اشعر بان آخر عروقي ستتمزق لو واصلت الضحك .

جيفاكين . يعجبني مرح طبعك . كان عندنا في عمارة القبطان بولديريف ضابط صف يدعى بيتوخوف انتون ايفانوفيتش . هو ايضاً كان مرح الطبع . كان ما ان تريه اصبعاً واحدة هكذا دون اى شيء آخر ، حتى ينفجر ضاحكاً ، وحق الرب ، يضحك حتى المساء . واذا نظرت اليه تشعر انت نفسك برغبة في الضحك ، واذا بك الآخر تضحك بعد برهة ، نعم ، في الحقيقة .

كوتشكاريوف . (يلتقط انفاسه .) اوه ، يا إلهي ، ارحمنا ، نحن الخاطئين ! طيب ، ماذا تصورت ، الحمقاء ؟ هيهات ان تزوج احداً ، وهل هي بقادرة على ذلك ؟ انا اذا اخذت على عاتقي ، سأزوج حسب الاصول .

جيفاكين . الله ؟ يعني تقدر ان تزوج بجد ؟

كوتشكاريوف . مؤكد ! اي رجل على اي امراة .

جيفاكين . طيب ، اذا كان كذلك زوجني ربة البيت هذه .

كوتشكاريوف . ازوجك انت ؟ ولكن لماذا تريد ان تتزوج ؟

جيفاكين . كيف لماذا ؟ دعني اقول لك : سؤال فيه بعض الغرابة ! معروف لماذا .

كوتشكاريوف . ولكنك سمعت انها بلا جهاز بالمرة .

جيفاكين . وليكن ما دام هو والعدم سواء . بالطبع ، هذا شيء مؤسف . ولكن يمكن بلا جهاز ايضاً ، لما للانسة من لطف شديد وحسن سلوك . الحجرة صغيرة (يقيسها بذراعيه) يعني هنا رواق صغير ، وحاجز نوم صغير ، او شيء فاصل . . .

كوتشكاريوف . وما الذي اعجبك فيها بهذا الشكل ؟

جيفاكين . اذا اردت الحقيقة ، اعجبتني لانها امراة ممتلئة . وانا غاو كبير من ناحية امتلاء المراة .

كوتشكاريوف . (ينظر اليه من طرف عينه ، ويقول جانباً .) هو نفسه لا يملأ العين ابداً . مثل كيس تبغ افرغت منه محتوياته . (بصوت مسموع) لا ، لا يجوز لك ان تتزوج اطلاقاً .

جيفاكين . ولماذا ؟

كوتشكاريوف . هكذا . واي قوام لك ، اذا كان الكلام بيننا ؟ الساق كساق الديك . . .

جيفاكين . ساق الديك ؟

كوتشكاريوف . بالطبع . واي شكل لك !

جيفاكين . كيف ساق الديك على كل حال ؟

كوتشكاريوف . بالضبط ، ساق الديك .

جيفاكين . يبدو لي ، على اية حال ، انك تهين كرامتي . . .

كوتشكاريوف . وانا اقول ذلك لانني اعرف انك رجل متفهم . لغيرك ما كنت ساقوله ابداً . تفضل ، سأزوجك ، ولكن امراة اخرى .

جيفاكين . لا ، لم اطلب ان ازوج امراة اخرى . اعمل معروفاً ! زوجني هذه .

كوتشكاريوف . تفضل ، ازوجك ! فقط على شرط ان لا تتدخل في اى شيء ، وان لا تقع عين العروسة عليك . وسأفعل كل شيء بدونك .

جيفاكين . كيف تقوم بكل شيء بدوني ؟ على كل حال لازم اريها نفسي .

كوتشكاريوف . غير لازم ابداً . اذهب الى بيتك وانتظر هناك . وفي هذا المساء سيتم كل شي ؟

جيفاكين . (يفرك يديه) هذا شيء لا اروع منه ! يعني لاتلزم الشهادة بالمؤهلات ولا سجل الخدمة ؟ ربما العروسة تحب الاطلاع ؟ سأهرع لجلبها حالاً .

كوتشكاريوف . لا لزوم لاى شيء . المهم ان تتوجه الى البيت . واليوم اخبرك بالنتيجة . (يرافقه فى الخروج) العين بصيرة واليد قصيرة ، لن يكون ذلك ! ما هذا ؟ لماذا لا يأتي بودكليسين . شيء غريب ، على كل حال . معقول لحد الآن مشغول بشدّ الحمالة ؟ يعني لازم اركض وراءه ؟

المشهد التاسع

(كوتشكاريوف واغافيا تيخونوفنا)

اغافيا تيخونوفنا . (تجيل النظر فيما حولها) يعني انصرفوا ؟ لا يوجد احد ؟

كوتشكاريوف . انصرفوا ، انصرفوا ، لا يوجد احد .

اغافيا تيخونوفنا . آه ، ليتك تعرف كم كنت ارتجف بكل جسمي . لم يحدث هذا معي قط . ولكن اي انسان مخيف يايتشنيتسا هذا ! لا بد انه سيكون طاغية على زوجته . حتى الآن يبدو لي انه سيعود من لحظة الى أخرى .

كوتشكاريوف . اوه ، لن يعود ابداً . اراهن على راسي ، اذا مد واحد منهما انفه هنا .

اغافيا تيخونوفنا . والثالث ؟

كوتشكاريوف . اي ثالث ؟

جيفاكين . (يمد راسه من الباب) كم اود ان اعرف ماذا ستقول عني بفمها الجميل يا وردة الحب !

اغافيا تيخونوفنا . وبالتازار بالتازاروفيتش ؟

جيفاكين . حلت اللحظة ! حلت اللحظة ! (يفرك يديه)

كوتشكاريوف . اوه ، ازعجتني ! تصورت انك تتكلمين عن انسان محترم . الشيطان نفسه يعرف اي شخص هو . احمق راسخ .

جيفاكين . ما هذا ؟ بصراحة ، لا افهم اى شيء هذا .

اغافيا تيخونوفنا . ولكنه من حيث الشكل يبدو انساناً جيداً جداً .

كوتشكاريوف . سكير !

جيفاكين . غير فاهم ، وحق الاله !

اغافيا تيخونوفنا . وعلاوة على ذلك سكير ؟ معقول ؟

كوتشكاريوف . صدقيني ، حقير متأصل في حقارته .

جيفاكين (بصوت عال) . لا ، يا حضرة المحترم . لم ارج منك ان تقول هذا ابداً . مسألة اخرى ان تقول شيئاً لصالحي . ان

تمتدحني . اما هذه الطريقة ، هذه الكلمات فاطلقها على شخص آخر غيري ، اما بخصوصي فلا مؤاخذة ، لا داعي !

كوتشكاريوف . (جانبا) ما الذي وسوس له ليعود ؟ (لاغافيا تيخونوفنا بصوت خافت) عايني ، عايني ، لا يكاد يقف على قدميه . كل يوم يترنح بهذا الشكل . اطرديه ، وينتهي الامر ! (جانباً) وبودكليسين لم يأت لحد الآن . آه ، الحقير ! سانتقم منه ! (يخرج)

المشهد العاشر

(اغافيا تيخونوفنا وجيفاكين)

جيفاكين . (جانبا) اردته عونا طلع لى فرعونا ! رجل في منتهى الغرابة ! (بصوت مسموع) يا سيدتي ، لا تصدقي . . .

اغافيا تيخونوفنا . اعذرني ، انا متوعكة . . . عندي صداع . (تهم بالخروج)

جيفاكين . ربما يوجد شيء لا يعجبك فى ؟ (يشير الى راسه) لا تنظري الى بقعة الصلع الصغيرة في راسي . انها لا شيء ، آثار حمى ولت . وسينمو الشعر حالاً .

اغافيا تيخونوفنا . لا يهمني اي شيء عندك .

جيفاكين . انا ، يا سيدتي ، اذا ارتديت بدلة فراك سوداء لاح لون وجهي اكثر بياضاً .

اغافيا تيخونوفنا . هذا احسن لك . مع السلامة . (تخرج)

المشهد الحادى عشر

(جيفاكين وحده ، يقول في اثرها)

سيدتي ، من فضلك ، قولي السبب : لماذا ؟ لأى شيء ؟ هل علىّ مأخذ كبير ؟ انصرفت ! . . غريبة جداً ! هذا يحدث لي للمرة السابعة عشرة ، في كل مرة بنفس الطريقة تقريباً . في البداية يبدو كل شيء على ما يرام ، وما ان تصل المسألة الى نقطة الحسم ، حتى اجد بنفسي مرفوضاً . (يروح ويجيء في الحجرة فى تأمل) نعم ، هذه هي الخطيبة السابعة عشرة ، بالتأكيد ! على كل حال ، ماذا تريد ؟

ماذا كانت يعني ، مثلاً . . . السبب والمسبب . (بعد تفكير قصير .) مسألة تحير ، تحير الى ابعد حد ! لا بأس لو كان لي عيب او نقيصة (يجيل البصر فيما حوله) لا اظن ان هذا موجود . كل شيء بحمد الله ، الطبيعة لم تبخل عليّ بشيء . غريبة ! ربما اذهب الى البيت ، وافتش في صندوقي ؟ كانت فيه اشعار ، تعويذة ، لا تصمد اية امرأة امامها . . . والله ، هذا لا يتقبله العقل ! في البداية وفقت ، فيما بدا . . . والظاهر انني سأعود بخفّي حنين . خسارة ، بالفعل خسارة ! (ينصرف)

المشهد الثاني عشر

(**بودكليسين وكوتشكاريوف** يدخلان ، والاثنان يلتفتان الى الخلف)

كوتشكاريوف . لم يلحظنا ! هل رأيت كيف طلع خائباً ؟

بودكليسين . معقول انه رفض ايضاً مثل هؤلاء ؟

كوتشكاريوف . رفض رفضاً باتاً .

بودكليسين . (بابتسامة الرضى عن النفس) على كل حال ، لا بد ان يكون مربكاً جداً ان يرفض من الخاطب .

كوتشكاريوف . بالطبع !

بودكليسين . لحد الآن لا اصدق انها اعلنت صراحة بأنها تفضلني على الجميع .

كوتشكاريوف . لا تفضلك فقط ! بل هي مدلهة بك كلياً . حب مشبوب . انت لا تدرى بأي اسماء تحبب سمّتك ! غرام عاصف فوار ، بالفعل !

بودكليسين . (فاغراً فمه بارتياح) صحيح ، اذا احبت المرأة لن تبخل بالكلمات . تبتكر ما لا تبتكره انت طول عمرك من اسماء الولع : يا حلاوة بوزك ، يا صريصور ، يا سمرمر . . .

كوتشكاريوف . قليلة هذه الكلمات ! ستتزوج وسترى بنفسك في الشهرين الاولين اي اسماء ستطلق عليك . تجعلك تذوب ، يا اخ ، بالتأكيد .

بودكليسين . (يبتسم بشيء من التشكك) معقول ؟

كوتشكاريوف . كلمة شرف من انسان شريف ! على كل حال ، اسمع الآن ، لندخل الموضوع بسرعة . ابح لها بحبك ، واكشف لها مشاعرك على الفور ، واطلب يدها .

بودكليسين . ولكن كيف على الفور ؟ ما هذا منك ! . .

كوتشكاريوف . على الفور ، حتماً . . . ها هي نفسها قادمة .

المشهد الثالث عشر

(**نفس الشخصين مع اغافيا تيخونوفنا**)

كوتشكاريوف . جئتك يا سيدتي ، بعبدك الذي ترينه . لم يقع احد في العشق الذي وقع فيه مطلقاً . الله يستر ، لا اريد ذلك حتى لعدوّي .

بودكليسين . (يلكز من يده ، ويقول بخفوت) اوه ، يا اخ ، زودتها كثيراً !

كوتشكاريوف . (له) لا بأس ، لا بأس . (لها ، بخفوت) كوني اجراً . انه وديع جداً . حاولي ان تكوني معه على اكثر ما يمكن من الطلاقة . يعني ، اقلبي حاجبيك بهذا الشكل ، خفّضي بصرك ، ارفعيه عليه ، السافل ، او مطي كتفك بشكل ما ، ودعي هذا الرذيل ، يرى ! خسارة انك لم تلبسي فستاناً بردنين قصيرين . ولكن هذا جميل ، على كل حال . (بصوت مسموع .) طيب ، ساترككم في صحبة لطيفة ! لحظة لألقي نظرة على غرفة الطعام عندكم ، وعلى المطبخ . يجب ان ادبّر الامور . بعد قليل سيأتي النادل الذي اوصيته ليخدمنا في العشاء . وقد تكون زجاجات النبيذ قد وصلت . الى اللقاء ! (لبودكليسين) شد حيلك ، تجرأ اكثر . (يخرج)

المشهد الرابع عشر

(**بودكليسين واغافيا تيخونوفنا**)

اغافيا تيخونوفنا . تفضل بالجلوس .

(يجلسان ويصمتان)

بودكليسين . اتحبين الركوب ، يا سيدتى ؟
اغافيا تيخونوفنا . ماذا تقصد بالركوب ؟
بودكليسين . في الريف كم يحلو ركوب الزورق صيفاً !
اغافيا تيخونوفنا . نعم ، احياناً نتنزه مع الاصحاب .
بودكليسين . غير معروف اي صيف سيكون هذا العام .
اغافيا تيخونوفنا . حبذا لو يكون لطيفاً .

(الاثنان يصمتان)

بودكليسين . أية زهور تحبين اكثر يا سيدتي ؟
اغافيا تيخونوفنا . التي لها اريج اكثر ، زهور القرنفل .
بودكليسين . السيدات تناسبهن الزهور كثيراً .
اغافيا تيخونوفنا . نعم ، شغلة تحلو للنفس .

(صمت)

في اي كنيسة صليت يوم الاحد الماضي ؟
بودكليسين . في كنيسة فوزنيسينسكي . وقبل اسبوع صليت في كاتدرائية كازان . على العموم ، لا يهـــم في اى كنيسة يصلي المرء . سوى ان الزينات فيها اجمل .

(صمت . بودكليسين ينقر باصابعه على الطاولة)

عن قريب سيحل موعد الحفلة في ايكاترينغوف .
اغافيا تيخونوفنا . نعم ، اظن بعد شهر .
بودكليسين . وحتى اقل من شهر .
اغافيا تيخونوفنا . لا بد ان تكون حفلة ممتعة .
بودكليسين . اليوم اليوم الثامن من الشهر . (يعد بأصابعه) التاسع ، العاشر ، الحادي عشر . . . بعد اثنين وعشرين يوماً .
اغافيا تيخونوفنا . تصور ، قريب جداً !
بودكليسين . وانا لم احسب هذا اليوم .

(صمت)

اي شعب جسور ، هذا الشعب الروسي !
اغافيا تيخونوفنا . كيف !

بودكليسين . اقصد الشغيلة . واحد يقف في الاعلى تماماً . كنت امر امام البيت ، فرأيت ملاطاً هناك ، ولا يخاف شيئاً .
اغافيا تيخونوفنا . غير معقول ! في اى مكان ؟
بودكليسين . في الطريق الذي اسلكه كل يوم في الذهاب الى الدائرة . فأنا كل يوم اذهب للدوام .

(صمت . ويعود بودكليسين ينقر باصابعه من جديد ، واخيراً يتنـــاول قبعته ، وينحنى مودعاً)

اغافيا تيخونوفنا . يعني تنصرف . . .
بودكليسين . نعم . اعذريني ، ربما اضجرتك .
اغافيا تيخونوفنا . مستحيل ! على العكس يجب ان اشكرك على تمضية الوقت بهذا الشكل .
بودكليسين . (مبتسماً)بينما ، فى الحقيقـــة ، ظننت انني اضجرتك .
اغافيا تيخونوفنا . لا ، بالفعل .
بودكليسين . طيب ، اذا كان لا ، فاسمحي لي ان ازورك مرة اخرى ، في احدى الاماسي . . .
اغافيا تيخونوفنا . مسرورة جداً .

(يتبادلان الانحناءات . بودكليسين ينصرف)

المشهد الخامس عشر

(**اغافيا تيخونوفنا** وحدها) .

اي رجل معتبر ! الآن فقط عرفته جيداً . حقـــاً ، لا يمكن إلا ان تقع في حبه . متواضع وحصيف . وصديقه كان محقاً في قوله قبل حين . خسارة فقط انه انصرف بهذه السرعة ، بينما كنت اريد ان استمع اليه اكثر . ما الطف الحديث معه ! المهم واللطيف فيه انه لا يتكلم ابداً كلاماً فارغاً . وكنت ايضاً اريد ان اقول له كلمة او كلمتين ، ولكنني تهيبـــت ، بصراحة ، وصار قلبـــي يدق

بسرعة . . . رجل ممتاز حقاً ! لأذهـــب الى عمتي ، واحكي لها .
(تخرج)

المشهد السادس عشر

(**بودكليسين وكوتشكاريوف** يدخلان)

كوتشكاريوف . ولِمَ ذهابك الى البيـــت ؟ اي سخافة هذه ! لِمَ الى البيت ؟

بودكليسين . ولماذا ابقى هنا ؟ قلـــت كل شيء حســـب الاصول .

كوتشكاريوف . يعني فتحت قلبك لها ؟

بودكليسين . الا هذا ، لم افتح قلبي بعد .

كوتشكاريوف . يا سلام ! لماذا لم تفتحه ؟

بودكليسين . كيف تريدني ان اعلن لها دفعة واحدة «دعيني اتزوجك يا سيدتي» دون مقدمات عن اشياء أخرى ؟

كوتشكاريوف . ما هي التوافه التي تحدثت عنها طوال نصف ساعة ؟

بودكليسين . طيب ، تحدثنا عن كل شيء ، وانا مرتـاح جداً بصراحة . قضيت الوقت بمتعة كبيرة .

كوتشكاريوف . طيب ، اسمع ، احكم بنفسك متى سنلحـــق ان نقوم بكـــل هذا ؟ بينمـــا يجب علينـــا ان نذهب الى الكنيسة بعد ساعة لعقد القران .

بودكليسين . هل جننت ؟ اليوم عقد القران !

كوتشكاريوف . ولِمَ لا ؟

بودكليسين . اليوم عقد القران !

كوتشكاريوف . ولكن انت الذي قطعت العهد ، وقلت سأتزوج حالما يطرد الخطاب .

بودكليسين . وانا الآن ايضاً عند عهدي . ولكن ليس حالاً . بعد شهر ، على الاقل . يجب ان اعطى فترة استراحة .

كوتشكاريوف . لشهر !

بودكليسين . نعم ، بالطبع .

كوتشكاريوف . هل فقدت عقلك ام كيف ؟

بودكليسين . نعم ، لا يمكن اقل من شهر .

كوتشكاريوف . ولكنني اوصيت النادل على عشاء ، يا بليد ! طيب ، ارجوك ، يا ايفان كوزميتش ، لا تعاند ، يا روحي ، وتزوج الآن .

بودكليسين . ارجوك ، يا اخي ، ما هذا الذي تقوله ؟ كيف الآن ؟

كوتشكاريوف . ايفان كوزميتش ، اتوسل اليك . اذا كنت لا تريد لنفسك ، فلخاطري على الاقل .

بودكليسين . ولكن غير ممكن ، وحق الرب .

كوتشكاريوف . ممكن ، يا روحي ، كل شيء ممكن . طيب ، ارجوك ، لا تركب رأسك ، يا قلبي !

بودكليسين . ولكن غير ممكن فعلاً . فيـــه احراج . احراج خالص .

كوتشكاريوف . ما هو الاحراج ؟ من قال لك هذا ؟ احكـــم بنفسك ، فانت رجل ذكي . وانا اقول لك ذلـــك لا تزلفاً اليك ، ولا لأنك رئيس شعبة ، بل عن حب لا غير . . . طيب ، كفاية ، يا روحي ، قرر ، وانظر بعين الرجل الحصيف .

بودكليسين . لو كان ذلك ممكناً لما . . .

كوتشكاريوف . ايفان كوزميتش ! يا حياتي ، يا روحي ! هل تريد ان اركع امامك ؟

بودكليسين . ولِمَ هذا ؟ . . .

كوتشكاريوف . (يركع) طيب ، ها انا ذا راكع ! ها انـــت ترى ، اتوسل اليك . لن انسى فضلك مدى العمر ، لا تعاند ، يـا روحي !

بودكليسين . غير ممكن ، يا اخ ، غير ممكن حقاً .

كوتشكاريوف . (ينهض ، غاضبا) خنزير !

بودكليسين . تفضل ، اشتم كما تريد .

كوتشكاريوف . غبي ! لم ار مثلك في حياتي .

بودكليسين . اشتم ، اشتم .

كوتشكاريوف . لمن اذن جاهدت ، لأى شيء بذلـــت قصارى

جهدي ؟ كل ذلك لمنفعتك ، ايها الاحمق . فاي مصلحة لي بذلك ؟ سأتركك حالاً ، فماذا يهمني ؟

بودكليسين . ومن طلب منك ان تتعب نفسك ؟ تفضل ، اتركني .

كوتشكاريوف . ولكنك ستهلك ، بدوني لا تستطيع ان تفعل شيئاً . اذا لم ازوجك ، ستظل احمق طول عمرك .

بودكليسين . وما يخصك في هذا ؟

كوتشكاريوف . انا اسعى لصالحك ، يا رأس الخشب .

بودكليسين . لا اريد مساعيك .

كوتشكاريوف . طيب ، اذهب في ستين داهية !

بودكليسين . طيب ، اذهب .

كوتشكاريوف . هيا ، اطلع .

بودكليسين . طيب ، سأذهب .

كوتشكاريوف . اذهب ، اذهب ، عسى ان تنكسر رجلك حالاً . من صميم قلبي اتمنى لك ان يغرز عربجي سكران عريش عربته في لوزتك ! انت خرقة ، لا رجل ! اقسم لك ان كل شيء بيننا قد انتهى ، فلا ترني وجهك بعد الآن .

بودكليسين . طيب ، لن اريك . (ينصرف)

كوتشكاريوف . الى جهنم ، سلم على اللى هناك ! (يفتح الباب ، ويصيح فى اثره) احمق !

المشهد السابع عشر

(**كوتشكاريوف** لوحده ، يسير رواحا ومجيئا في انفعال شديد)

معقول ان الدنيا شهدت في يوم ما مثل هذا الرجل ؟ احمق حقيقة ! اي نعم ، ولكن الحقيقة انا ايضاً لا اصنف مع الرجال الاسوياء . قولوا لي من فضلكم وانا استشهدكم جميعاً : ألست أهبل ، الست احمق . لأي شيء اجاهد ، اصيح ، حتى جفت حنجرتي ؟ قولوا لي : من هو بالنسبة لي ؟ قريبي ؟ وهل انا له دادة ، عمة ، حماة ، عرابة ؟ اي شيء جعلني اتعب

نفسي من اجله ، ولا يقر لي قرار ، عساه يروح فى داهية ؟ لا ادري لأي شيء وحق الشيطان ! حاولوا ان تسألوا انساناً لماذا يفعل هذا او ذاك ! يا وضيع ! يا بوز الحقارة والسفالة ! بودّي لو امسكك ، يا بهيمة الغباء ، وانقرك باصبعي على انفك ، على اذنيك ، على فمك ، على اسنانك ، وعلى كل كيانك ! (ينقر بأصابعه عدة نقرات فى الهواء بغضب) والمزعج انه خرج غير مبالٍ بشيء ، صافياً مصفى وكأن لم يكن شيء ، وهذا الذي لا يحتمل ! وسيذهب الى شقته ، ويتمدد ، ويشعل غليونه . اى مخلوق كريه ! احياناً تصادف سحنات كريهة ، ولكن لا يمكنك ان تبتكر مثل سحنته ، مستحيل ان تركبها ، مستحيل ، والله ! ولكن سأذهب قصداً ، واعيده ، الخامل . ولن اتركه يزيغ ، انا ذاهب لأجلب السافل .

المشهد الثامن عشر

(**اغافيا تيخونوفنا** تدخل)

هذا الخفقان الشديد في قلبي يصعب عليّ ان ادركه حقاً . اينما ادير وجهي ارى ايفان كوزميتش ماثلاً امامي . صحيح ما يقال : لا مفر من القدر . قبل حين ، كنت اريد ان افكر في شيء آخر ، والآن ، مهما وبأي شيء اشتغلت – الف خيوطاً او اخيط محفظة – اجد ايفان كوزميتش يمثل امامي . (تصمت قليلا) ها انذا اجابه اخيراً بتغير فى حالتي ! سيأخذونني ، ويقودونني الى الكنيسة . . . وبعد ذلك يتركونني لوحدي مع رجل . اوف ! كياني يرتجف كله . وداعاً ، يا حياة بكارتي السابقة ! (تبكى) كم من سنة قضيتها بهدوء . . . عشت ، وعشت ، والآن عليّ ان اتزوج ! المشاغل وحدها ما اكثرها : اطفال ، صبيان ، مشاكسون ميالون الى العراك ، وقد ارزق ببنات ايضاً . ويكبرن ، وتعالى زوجيهن . لطيف ، لو تزوجن طيبين ، ولكن ماذا لو تزوجن سكيراً او شخصاً مستعداً في الحال ان يقامر بكل ما لديه وعليه ! (تعود شيئاً فشيئاً الى النحيب مجدداً) لم الحق ان اتمتع بحالة العزوبة ، حتى الآن لم اتم السابعة والعشرين . . . (تغير صوتها) لماذا تأخر ايفان كوزميتش هذه المدة الطويلة ؟

المشهد التاسع عشر

(اغافيا تيخونوفنا وبودكليسين)

(**كوتشكاريوف** يدفعه من الباب الى المسرح بكلتا يديه)

بودكليسين . (يتلعثم) جئت ، يا سيدتي ، لاوضح لـــك امراً . . . اودّ فقط ان اعرف قبل هذا الا يبدو ذلك غريباً لك ؟

اغافيا تيخونوفنا . (تخفض بصرها) ما هو ؟

بودكليسين . لا ، يا سيدتي ، قولي مقدماً : الا يبدو غريباً لك ؟

اغافيا تيخونوفنا . (فى نفس الوضعية) لا اقدر ان اعرف مـا هو .

بودكليسين . ولكن اقري : هل يبدو لك غريباً بالفعل مـــا سأقول لك .

اغافيا تيخونوفنا . ارجوك ، كيف يمكن ان يكون غريباً ، كل ما اسمعه منك لطيف .

بودكليسين . ولكن هذا لم تسمعيه مني قط .

(**اغافيا تيخونوفنا** تغض بصرها اكثر ، وفي تلك اللحظة يدخل **كوتشكاريوف** خلسة ، ويقف وراء كتفيه)

المسألة . . . ولكن الاحسن ان اخبرك فيما بعد .

اغافيا تيخونوفنا . ولكن ما هو ؟

بودكليسين . هو . . . بصراحة كنت اريد ان اعلنه لـــك الآن . ولكن ما زلت متشككاً .

كوتشكاريوف . (مع نفسه ، طاويا ذراعيه) اوه ، يـا ربي ، اي رجل هذا ! هذا مجرد جزمـــة نسائية بالية ، لا انسان بـــل اضحوكة من الانسان ، هجاء للانسان .

اغافيا تيخونوفنا . ولماذا تتشكك ؟

بودكليسين . الشك يساورني على اية حال .

كوتشكاريوف . (بصوت مسموع) ما اسخف هذا ، ما اسخفه !

ولكنك يا سيدتي ترين ، انه يطلب يدك ، يريد ان يعلن انـه لا يستطيع العيش بدونك ، لا يستطيع البقاء في الوجود . وهـــو لا يسأل الا : اموافقة انت على اسعاده ؟

بودكليسين . (يكاد يكون مذعورا ، يلكـــزه وينبس ببعض الانفعال) ارجوك ، ما هذا منك !

كوتشكاريوف . كيف ، اذن ، يا سيدتي ! هل تعزمين عـــلى توفير السعادة لهذا العبد الفاني .

اغافيا تيخونوفنا . لا اجرؤ ابـــداً ان اتصور ان في امكاني ان اوفر سعادة . . . ولكنني موافقة .

كوتشكاريوف . رائع ! عظيم ! كان الاحرى ان يكون ذلك منذ زمان . هاتا يديكما !

بودكليسين . حالاً ! (يريد ان يسر لـــه شيئاً فى اذنه . كوتشكاريوف يلوح له بقبضته ، ويعقـــد حاجبيه . بودكليسين يعطى يده)

كوتشكاريوف . (يجمع اليدين) الله يباركما . ! انا موافق واصادق على رباطكما . الزواج قضية مهمة . . . وهو ليس مثـــل استئجار عربة ، وركوبها الى حيث يريد المرء . انه التزام من نوع مختلف تماماً ، انه التزام . . . طيب ، ليس لي وقت الآن ، وفيما بعد سأخبرك اي التزام هو . حسناً ، يـا ايفان كوزميتش ، قبّل عروستك . الآن تقدر ان تفعل ذلك ، بل الآن يجب ان تفعل ذلك .

(اغافيا تيخونوفنا تخفض بصرها)

لا شيء ، لا شيء ، يا سيدتي . هذا ما ينبغى . دعيه يقبّلك .

بودكليسين . نعم ، يا سيدتي ، لازم ان تسمحـــي لي الآن . (يقبلها ويمسك يدها) اية يد جميلة ! لماذا لك هذه اليد الجميلة يا سيدتي ؟ . . نعم ، اسمحي لي ، يا سيدتي ، اريد ان اعقـــد القران عليك الآن ، والآن بكل تاكيد .

اغافيا تيخونوفنا . كيف الآن ؟ ربما سيكون ذلـــك استعجالاً بالغاً .

بودكليسين . لا اريد ان اسمع شيئاً ! اريده اسرع ، ليعقد القران في هذه اللحظة .

كوتشكاريوف . احسنت ! ممتاز ! رجل نبيل . وبصراحة كنت دائماً انتظر منك الكثير في المستقبل ! بالفعـــــل ، يا سيدتي ، استعجلي الآن ، والبسي بسرعة . واذا اردت الحقيقة فقد ارسلت في طلب مركبـــة ، ودعوت الضيوف . وجميعهم الآن في الطريق الى الكنيسة مباشرةً . وملابس الزفـــــاف جاهزة عندك على حـــد معرفتي . . .

اغافيا تيخونوفنا . نعم ، جاهزة منذ زمان . سألبس حالاً .

المشهد العشرون

(كوتشكاريوف وبودكليسين)

بودكليسين . شكراً ، يا اخ ! الآن استطيع ان اقدر اية خدمة قدمت لي . ما كان ابي الحقيقي سيفعل ما فعلته انت . وانا متأكـد انك كنت تتصرف بوحي الصداقة . شكراً ، يا اخ ، سأظل اتذكر فضلك طول عمري . (متأثراً) في الربيع القادم سأزور قبر ابيـــك مؤكداً .

كوتشكاريوف . لا بأس ، يا اخ . انا نفسي مسرور . طيـب ، تقرب لأقبلك . (يقبله من هذا الخد ثم من الخد الآخر) حفظـــك الله لتعيش في رغد (يتبادلان القبلات) في راحـــــة واكتفاء ، وان يرزقك بالكثير من الاطفال . . .

بودكليسين . اشكرك ، يا اخ . الآن فقط عرفت اخيراً ما هي الحياة . الآن انفتح امامي عالم جديد تماماً . الآن اشعر ان كـــل شيء يتحرك ، يحيا ، يشعر ، فيتصاعد منه البخار ، هكذا ، بحيث لا تعرف نفسك ماذا يجري . من قبل لم اكن ارى شيئاً من هذا ، ولا افهم ، يعني كنت مجرد انسان محروم من اية معرفة ، لم اكن اناقش ، ولا اتعمق ، وكنت اعيش كأي انسان يعيش .

كوتشكاريوف . مسرور ، مسرور . الآن انا ذاهب لأرى كيـف رتبوا المائدة ، وساعود حالاً . (جانباً) الافضل ان اخبىء قبعته ، للاحتياط . (يتناول القبعة ويأخذها معه)

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين وحده)

صحيح ماذا كنت الى هذه اللحظة ؟ هل كنت افهم معنى الحياة ؟ لم اكن افهم ، لم اكن افهم شيئاً . وماذا كانت حياتـي العزوبية ؟ ماذا كنت أساوي ، ماذا كنت اعمل ؟ كنـــت اعيش ، واعيش ، واخدم ، واتردد على الدائرة واتغدّى ، وانام ، وباختصار كنـــت اتفه انسان في الدنيا واكثر الناس ابتذالاً . والآن فقط ، أرى كم هم حمقى اولئك الذين لا يتزوجون ، ولكن اذا امعنت النظر وجدت كم من الناس ما يزالون في عماهم هذا . ولو كنت ملكاً او قيصراً لأصدرت أمري بأن يتزوج الجميع ، كلهم دون استثناء ، فلا يبقى في دولتي اعزب واحد . . . صحيح ، يصعب ان اتصور : بعد بضع دقائق اصيـــر متزوجاً . واتذوق النعيم الذي لا يوجـــد الا في الحكايات ، والذي لا يمكن ان تصفه ، ولا تجد الكلمات للتعبير عنه . (بعد صمت قصير) ومع ذلك ، فمهما قلـــت ، فإنه لشيء رهيب ، اذا فكرت في المسألة جيداً . فأنت على كل حال ، ستربط نفسك طول الحياة ، طول العمر وبعد ذلك لا تنفع ذرائع ولا حجج ، ولا توبة ، ولا حاجة . حسم الامر وانتهى الى الابد الآبدين . وحتى الآن لا يمكن التراجع اطلاقاً ، بعد دقيقة ، سيعقـد القران ، ولا رجوع عن الموضوع . وصلـــت المركبة وكل شيء جاهز وعلى اهبـــة الاستعداد . يعني صحيح لا يمكن الرجوع عن الموضوع ؟ بالطبع ، لا يمكـــن . الناس واقفـــون على الابواب وفي كـــل مكان . وسيسألونك : ما هذا ؟ ممنوع . ولكن الشباك مفتوح . ماذا لـــو من الشباك ؟ لا ، لا يجوز . غير لائـــق ، والشباك مرتفع ايضاً . (يتقدم من الشباك) اوه ، ليس مرتفعاً جـداً . في مستوى الاساس فقط ، والاساس واطئ . لا ، لا يمكن . حتى القبعة ليست معي . وكيف اخرج بدون قبعة ؟ غير لائق . طيـــب ، وماذا يعني بدون قبعة ؟ وماذا لو اجرب ؟ اجرب ، ها ؟ (يقف على قاعـدة الشباك ، بعد قوله : «باركني ، يا رب» يقفز الى الشارع . يتنحنح ويتأوه وراء خشبة المسرح) اوه ، صحيح مرتفع ! هاي ، يا عربجي !

صوت العربجي . الى اين ؟

صوت بودكليسين . الى كانوفكا ، قرب جسر سيمينوفسكي .
صوت العربجي . عشرة كوبيكات ، بدون بقشيش .
صوت بودكليسين . موافق . تحرك !

(تتردد قرقعة عربة مبتعدة)

المشهد الثاني والعشرون

(**اغافيا تيخونوفنا** تدخل في ثوب العرس خجولة مطرقة الرأس)

انا نفسي لا اعرف ماذا يحصل لي ! من جديد اشعر بالخجل ، وارتجف بكل كياني . آه ! اتمنى ان لا يكون الآن في الحجرة ، ولو لدقيقة ، اتمنى ان يكون قد خرج لشأن من الشؤون ! (تجيل بصرها بتهيب) نعم ، اين هو ؟ لا يوجد احد . الى اين خرج ؟ (تفتح الباب المؤدى الى المدخل ، وتقول لمن هناك) اين خرج ايفان كوزميتش ، يا فيكلا ؟

صوت فيكلا : موجود هناك .

اغافيا تيخونوفنا . واين هناك ؟

فيكلا . (داخلة) كان جالساً هنا ، في الحجرة .

اغافيا تيخونوفنا . ولكنه غير موجود ، ها انت ترين .

فيكلا . لم يخرج من الحجرة ابداً . كنت جالسة في المدخل .

اغافيا تيخونوفنا . ولكن اين هو ؟

فيكلا . لا ادري اين . ربما خرج من منفذ آخر ، من السلم الخلفي ، ام لعله يجلس في حجرة ارينا بانتيليمونوفنا ؟

اغافيا تيخونوفنا . يا عمة ، يا عمة !

المشهد الثالث والعشرون

(**المرأتان** مع **ارينا بانتيليمونوفنا**)

ارينا بانتيليمونوفنا . (في ثياب انيقة) ماذا هناك ؟

اغافيا تيخونوفنا . ايفان كوزميتش عندك ؟

ارينا بانتيليمونوفنا . لا ، لا بد ان يكون هنا . لم يأتِ الى حجرتي .

فيكلا . وفي المدخل لم يكن ايضاً . كنت جالسة هناك .

اغافيا تيخونوفنا . غير موجود هنا اطلاقاً ، هل انتما تريان .

المشهد الرابع والعشرون

(**نفس الاشخاص** مع **كوتشكاريوف**)

كوتشكاريوف . ماذا حصل ؟

اغافيا تيخونوفنا . ايفان كوزميتش غير موجود .

كوتشكاريوف . كيف غير موجود ؟ خرج ؟

اغافيا تيخونوفنا . لا ولم يخرج ايضاً .

كوتشكاريوف . كيف غير موجود ولم يخرج ايضاً ؟

فيكلا . واين يمكن ان يروح ؟ هذا لا يدخل في عقلي . طوال الوقت كنت جالسة في المدخل ، ولم اترك مكاني .

ارينا بانتيليمونوفنا . من غير الممكن ان يطلع من السلم الخلفي ابداً .

كوتشكاريوف . وكيف اذن ؟ ومن غير الممكن اطلاقاً ان يختفي ، اذا لم يخرج من الحجرة . ربما اختبأ ؟ يا ايفان كوزميتش ! اين انت ؟ لا تتحامق ، يكفي ، اخرج بسرعة ! ما هذه الألاعيب ؟ وقت التحرك الى الكنيسة حان منذ زمان . (ينظر وراء الدولاب ، بل وينظر من طرف عينه تحت المقاعد) غير مفهوم ! من غير الممكن ان يكون قد خرج ، غير الممكن اطلاقاً . انه هنا . وقبعته في الحجرة المجاورة ايضاً . وضعتها هناك خصيصاً .

ارينا بانتيليمونوفنا . هل نسأل الخادمة ؟ كانت طول الوقت في الشارع ، فلربما تعرف . . . دونياشكا ! دونياشكا !

المشهد الخامس والعشرون

(**نفس الاشخاص** مع **دونياشكا**)

ارينا بانتيليمونوفنا . اين ايفان كوزميتش ، ألم تريه ؟

دونياشكا . قفز من الشباك .

(اغافيا تيخونوفنا تصرخ ، وتبسط يديها)

الثلاثة جميعاً . من الشباك ؟

دونياشكا . نعم ، وبعد ان قفز استقل عربة ، ورحل .

ارينا بانتيليمونوفنا . أصحيح ما تقولينه ؟

كوتشكاريوف . تكذب ! غير ممكن !

دونياشكا . والله ، قفز ! والبائـــع في دكان الخردوات رآه ايضاً . اتفق مع العربجي على عشرة كوبيكات ، ورحل .

ارينا بانتيليمونوفنا . (تتقدم من كوتشكاريوف) ما هذا ، يا حضرة ؟ ضحك على الذقون ؟ عنّ لكم ان تضحكوا منا ؟ هل تريـد ان تفضحنا امام الناس ؟ انا الآن في العقد السادس من عمري ، ولم اشهد حتى الآن مثل هذا العار . على ذلك سأبصق بوجهك ، يـا حضرة المحترم ، اذا انت انسان شريف . ولكنك سافل بعـد هذه الفعلة ، وان كنت انساناً شريفاً . تشيـــن فتاة امام العالم كله ! انا من اصل فلاحي ، ولكني لا اقدم على ذلك . وتقول انك نبيل ! الظاهر ان نبلك لا يكفي الا للخساسة والنصب ، لا اكثر (تنصرف غاضبة ، وتأخذ معها العروسة)

(كوتشكاريوف يقف كالمصعوق)

فيكلا . ها ؟ هذا الذي يعرف كيف يقوم بالأمر ! يطبخ عرساً بدون خطابة ! طيب ، ليكن خطابي مَنْ هب ودب ، منشوفـــى الريش ، وغير ذلك ، ولكن ان يطفروا مـــن الشباك ؟ لا والعياذ بالله .

كوتشكاريوف . هذا غير معقول ، لا بـــد في المسألة خطأ ، سأجرى وراءه واعيده ! (يخرج)

فيكلا . اي نعم ، يعوده ! كأنك لا تعرف كيف تتم الخطبـة ؟ شيء آخر لو هرب من الباب ، وان يطفر العريس من الشباك يعني خلاص ! ومع السلامة !

شارع نيفسكي

لا أفضل من شارع نيفسكي ، في بطرسبورغ على الأقل ، فهو كل شيء بالنسبة لها . وبأي شيء لا يتألق هذا الشـارع ، درة عاصمتنا ! أنا اعرف ان أي ساكن من سكانـه الشاحبي الوجوه وذوي المناصب العالية لا يستبـــدل بشارع نيفسكي كل خيرات الدنيا . ليس فقط مَنْ له من العمر خمسة وعشرون عاماً ، وشاربان جميلان ، وبزة مفصّلة بشكل رائع ، بـــل ومَنْ تطلع الشعرات البيض على ذقنه ، ورأسه أملس كماعون من فضة ، فحتى هذا في غبطة عظيمة بشارع نيفسكي . والسيدات ! آوه ، إنه اكثر متعة وجاذبية بالنسبة للسيدات . ولكن مَنْ من الناس لا يجد متعة في شارع نيفسكي ؟ ما إن تخرج اليه حتى تراه يعبق بالنزهـــة وحدها . وحتى لو كان لديك شغل شاغل لا غنى عنه ، فانك عندما تطلع اليه ستنسى ، في الغالب ، اي شغل لديك . إنه المكان الوحيد الذي يظهر فيه الناس لا بحكم الضرورة ولا بدافع الحاجة والمنفعة التي تأكل بطرسبورغ كلها . والرجل الذي تلقاه في شارع نيفسكي يبدو اقل أنانية من الذي تلقاه في شارع مورسكايا ، وغوروخوفايا ، وليتيني ، وميشانسكايا ، وفي الشوارع الأخرى ، حيث ينعكس الطمع والجشع والمنفعة على السائرين والمنطلقين في المركبـات والعربات . وشارع نيفسكي موضع تلتقي فيه بطرسبورغ كلها .

فساكن ناحية بطرسبورغ او ناحية فيبورغ الذي لم يزر صديقه في بيسكي او بوابة موسكو ، لسنين عديدة قد يكون متاكداً من انه سيلتقيه هناك لا محالة . ما من دليل عناوين ولا مكتب استعلامات يقدم الخبر الصحيح مثلما يقدمه شارع نيفسكي . شارع نيفسكي القدير على كل شيء ! السلوى الوحيدة لبطرسبورغ الفقيرة الى الحفلات والتنزه ! ما انظف ارصفته المكنوسة جيداً ، وما اكثر الاقدام التي تترك آثارها عليه ! جزمة قذرة بالية لجندي متقاعد يبدو وكان الغرانيت نفسه يتصدع تحت ثقلها ، وحذاء صغير ، خفيف كالدخان ، لسيدة شابة تدير راسها الجميلة نحو نوافذ مخزن لامعة ، مثلما يدير عباد الشمس راسه الى الشمس ، وسيف مجلجل لضابط صغير مفعم في الآمال ، يترك فيه حزاً حاداً — كل شيء يخلف آثاره من جبروت قوة إلى سلطان ضعف . وما اسرع ما يجري فيه من تقلبات عجيبة خلال اليوم الواحد ! وكم من التغيرات يتحمل خلال نهار وليلة ! لنبدأ من بكرة الصباح ، حيث تكون بطرسبورغ كلها فواحة برائحة الخبز الساخن المخبوز لتوه ، مملوءة بعجائز في ملابس ممزقة يقمن بغزواتهن على الكنائس والسابلة الحنونين . شارع نيفسكي خالٍ في تلك الساعة . اصحاب المخازن المكتنزون ومساعدوهم ما يزالون نائمين في قمصانهم الهولندية او يصوبنون خدودهم الكريمة ، ويحتسون القهوة . والمتسولون يجتمعون عند ابواب حوانيت الحلويات ، حيث الخادم الناعس الذي جرى وركض البارحة كالذبابة بالشوكالاته ، يخرج ، والمكنسة في يده بلا ربطة عنق ، ويقذف لهم بالكعك اليابس ، والفضلات . والشعب العامل يسير في الشوارع في ونى ، واحياناً يقطعه حرفيون روس مسرعون الى العمل في جزم ملطخة بالجص لا تستطيع ان تغسلها حتى مياه قناة يكاترينا المعروفة بنقائها . وفي هذا الوقت لا يليق عادة بالسيدات أن يخرجن الى الشارع ، لأن الشعب الروسي يحب أن يستخدم تعابير حادة لا تسمع ، في اغلب الظن ، حتى في المسرح . واحياناً يمر موظف ناعس متأبطاً محفظته ، إذا كان طريقه إلى دائرته يمر عبر شارع نيفسكي . ويمكن القول بثقة إن شارع نيفسكي ، في هذا الوقت ، اي حتى الساعة الثانية عشرة قبل الظهر ، لا يُستهدف من قبل احد ، أياً كان ، فهو ليس إلا معبراً ،

يمتلئ شيئاً فشيئاً بأناس لهم اشغالهم ، وهمومهم ، ومتاعبهم غير مفكرين به ابداً . الريفي الروسي يتحدث عن قطع زهيدة من النقود ، والشيوخ والعجائز يشمرون اذرعهم او يتكلمون مع انفسهم ، واحياناً باشارات دقيقة بما فيها الكفاية ، ولكن احداً لا يستمع اليهم ولا يضحك منهم ما عدا الصبيان من الخدم في جلابيبهم المخططة من القماش الخشن حاملين الدنان الفارغة او الأحذية الجاهزة ، راكضين خطفاً في شارع نيفسكي . في ذلك الوقت لا يلحظ احد ما انت لابسه ، حتى ولو كان على راسك ما يشذ عن بقية هندامك ، او كان طرفا ياقتك بارزين عن ربطة عنقك اكثر من اللازم .

في الساعة الثانية عشرة يتعرض شارع نيفسكي إلى تدفق موجات من مربي الأطفال الخصوصيين من مختلف الأمم ، ومعهم تلامذتهم بياقاتهم الشفافة . الانجليز من غرار «جونس» والفرنسيون من غرار «كوك» يسيرون متأبطين اذرع الصغار الذين عهدت اليهم رعايتهم الأبوية ، ويوضحون لهم برصانة محتشمة أن اللافتات تعلق فوق المخازن لكي يكون في الامكان أن يعرف الناس بواسطتها ما يوجد داخل المخازن . والمربيات سواء الانجليزيات الشاحبات ، أو السلافيات المتوردات يسرن بعظمة ووقار وراء فتياتهن الخفيفات الكثيرات الحركة ، مشيرات لهن بأن يرفعن اكتافهن قليلاً الى الأعلى ، ويسرن منتصبات . وخلاصة القول أن شارع نيفسكي تربوي في هذا الوقت . ولكن كلما دنت الساعة من الثانية قل عدد المربين والمعلمين والأطفال ، واخيراً تصبح الغلبة لأبائهم الارقاء الذين يسيرون متشابكي الأذرع مع زوجاتهم المبرقشات الملونات ، الضعيفات الاعصاب . وشيئاً فشيئاً ينضم إليهم جميع الذين أنهوا اشغالهم البيتية المهمة بما فيه الكفاية ، من مثل التحدث مع طبيبهم عن الطقس وعن بثرة صغيرة طلعت على الانف ، والتعرف على صحة خيولهم واطفالهم الذين ظهرت عليهم ، بالمناسبة ، مخايل مواهب كبيرة ، وقراءة الاعلانات ومقالة مهمة في الجرائد عن القادمين والمغادرين ، وشرب فنجان من القهوة او الشاي اخيرا ، يلتحق بهم اولئك الذين شاء القدر الاريحي أن يحملوا الرتبة المباركة ، رتبة الموظفين للمهمات الخاصة . وينضم اليهم ايضاً اولئك الذين

يعملون في نظارة الشؤون الخارجية ، ويتميزون بنبل اشغالهم وعاداتهم . آوه ، يا رب ، كم من الوظائف والمناصب الرائعة ! وكم تسمو بالنفس وتؤنسها ! ولكن ، واحسرتاه ! لست موظفاً ، وأنا محروم من الاستمتاع برؤية الروؤساء يعاملونني هذه المعاملة الرقيقة . إن كل ما تلقاه في شارع نيفسكي يطفح حشمة : الرجال في سترات طويلة ، وايديهم في جيوبهم ، والسيدات في رداينغوتات من الأطلس الوردي والأبيض والازرق الشاحب ، وقلنسوات . وتجد في الشارع افواداً فريدة ، مرسلة إلى تحت ربطة العنق بحذق عجيب مذهل ، افواداً مخملية ، ملساء ، سوداء كفراء السمور أو الفحم ، ولكنها ، واأسفاه وقف على موظفي نظارة الخارجية فقط . فان العناية الإلهية حرمت الموظفين في الدوائر الأخرى من الأفواد السود ، وصار عليهم أن يطلقوا أفواداً صهباء ، رغم كل ما يسبب ذلك لهم من ازعاج . وتلتقي في الشارع بشوارب في منتهى الروعة لا تستطيع اية ريشة أو فرشاة أن ترسمها ، شوارب كُرّس لها النصف الافضل من العمر ، وصارت موضع رعاية ابدية في الليل والنهار ، شوارب سكبت عليها عطور وطيوب في منتهى السحر ، وطليت بكل صنوف المراهم الشذية الغالية والنادرة الى اقصى حد ، شوارب تغلّف في الليل بدرق رقيق أبيض ، وتشي بافتنان أصحابها المؤثر والكلي بها ، وتثير حَسَد المارة . آلاف الاصناف من القلنسوات والفساتين والمناديل الزاهية ، الخفيفة ، التي تظل صاحباتها مفتونات بها خلال يومين احياناً ، تغشي بصر أي انسان في شارع نيفسكي . فكأن بحراً متكاملاً من الفراشات قد ارتفع فجأة من سيقان العشب ، وتماوج كالغيمة اللامعة فوق الخنافس السود من الجنس الخشن . هنا تلتقي بخصور لا تراودك ابداً حتى في الحلم . خصور نحيلة رقيقة لا تزيد عن سُمك عنق زجاجة ، تجد نفسك ، حين تلتقي بها ، تتنحى عنها باحترام ، خشية أن تبدر منك حركة ساهية فتمسها بكوع غير مؤدبة ، وتعتري قلبك حيرة ورعب ، حتى من أن يفسد نَفَسُك غير الحذر هذه التحفة الفريدة الخلاّبة للطبيعة والفن . ثم اية اكمام نسائية تلتقي في شارع نيفسكي ! آه ، الفتنة بعينها ! لها بعض الشبه بمنطادين يمكن أن ترتفع السيدة بهما في الهواء بغتة ، اذا لم يمسكها رجل ،

لأن رفع سيدة في الهواء أمر يسير ومريح كقدح مملوء بالشمبانيا مرفوع إلى الفم . ما من مكان تتبادل فيه الانحناءات عند الملتقى بنفس القدر من الرشاقة والنبل ، كذلك الذي تشعر به في شارع نيفسكي . فيه تلتقي بابتسامة فريدة ، بابتسامة ما فوق الفن ، بابتسامة يمكن احياناً أن تذوّبك من اللذة ، واحياناً تجد نفسك فجأة أوطأ من العشب ، فتنكس رأسك ، واحياناً تشعر بنفسك أعلى من برج الادميرالية ، فترفعه الى فوق . هنا تلتقي بمن يتحدثون عن الحفلات الموسيقية ، أو عن الطقس بنبل غير اعتيادي ، وشعور بكرامة النفس . هنا تلتقي بآلاف من الشخصيات والظواهر الخارقة . يا رب الخليقة ! بأية شخصيات غريبة يحفل شارع نيفسكي ! هناك عدد كبير من الناس ، اذا التقيت بهم ، تجدهم ينظرون إلى حذائك لا محالة ، وحين تتخطاهم يلتفتون الى الخلف لينظروا إلى شق سترتك الخلفي . وأنا لحد الآن لا اعرف لِمَ يحدث هذا . في البداية كنت أظنهم إسكافين ، ولكن لا شيء من هذا ، البتة ، معظمهم يتردد على مختلف الدوائر والكثيرون منهم يستطيعون أن يكتبوا كتباً وعرائض رسمية ممتازة من دائرة حكومية الى دائرة حكومية أخرى ، أو أناس يمارسون النزهات وقراءة الجرائد في محلات الحلويات ، وباختصار معظمهم أناس معتبرون . في هذا الوقت المؤاتي من الساعة الثانية حتى الثالثة بعد الظهر ، والذي يمكن أن يُسمى وقت الزحام المتحركة في شارع نيفسكي ، يجري المعرض الرئيسي لجميع النماذج الفضلى لبني البشر . أحدهم يعرض سترة انيقة بأحسن فراء القندس ، وآخر أنفاً اغريقياً رائعاً ، وثالث فودين رائعين ، ورابعة عينين جميلتين وقلنسوة مدهشة ، وخامس طُلسُماً في خاتم على خنصر بظفر طويل ، وسادسة ساقاً في حذاء ساحر ، وسابع ربطة عنق تثير الدهشة ، وثامن شاربين تدفعان إلى الذهول . ولكن الساعة تدق معلنة الثالثة ، وينتهي المعرض ، ويقل الزحام . . . وفي الساعة الثالثة تغير جديد . يهل الربيع على شارع نيفسكي فجأة . فيتغطى كلية بالموظفين في بزاتهم الخضر . الموظفون الجياع من شتى الرتب يجاهدون حث الخطى بكل ما لديهم من قوة . والشبان من ذوي الرتب الصغيرة يسرعون اكثر مستغلين الوقت ليتمشوا في شارع

نيفسكي بهندام لا يشي بأنهم قعدوا ست ساعات في الدائرة . ولكن الموظفين الاكثر رتبة وعمراً يسيرون بسرعة منكسي الرؤوس ، لا تعنيهم رؤية السابلة . فهم لم ينقطعوا نهائياً عن متاعبهم بعد ، وفي رؤوسهم ضوضاء ، وارشيف كامل من القضايا التي بدنت ولم تنته بعد . وستظل تتراءى لهم طويلاً صورة ملفّ الاوراق أو وجه مدير المكاتبات الممتلئ بدلاً من اللافتات .

منذ الساعة الرابعة يفرغ شارع نيفسكي ، ومن المستبعد أن تصادف فيه حتى موظفاً واحداً . تعبر خياطة أحد المخازن شارع نيفسكي تحمل علبة ، وموظف بائس يسترحم حاكماً مغرماً بالرشاوى يسير في هذا العالم بمعطف من القماش الخشن ، وغريب اطوار جاء من بعيد ، كل الساعات لديه سواء ، وانجليزية طويلة القامة تحمل بيديها حقيبتها اليدوية وكتاباً ، وكاسب ، روسي الاصل في سترة طويلة من القماش القطني المتين مخصوصرة عند الظهر ، ذو لحية ضئيلة يقضي حياته كلها على سد الرمق ، يرتجف كل شيء فيه : ظهره ، ويداه ، ورجلاه ، ورأسه ، حين يسير على الرصيف بوقار ، واحياناً يظهر حرفي قصير ، ولن تصادف اكثر من هؤلاء في شارع نيفسكي .

ولكن حالما يهبط الغسق على البيوت والشوارع ، ويتغطى شرطي الحراسة بقماشة من الجنفاص ، ويصعد السلم ليشعل مصباح الشارع ، وتطل من النوافذ الواطئة للمخازن تلك الرسوم التي لا تجرؤ على الظهور في وضح النهار ، تعود الهمة الى شارع نيفسكي من جديد ، ويبدأ بالتململ . عند ذاك يحل ذلك الوقت الغامض الذي تضفي فيه المصابيح على كل شيء ضوءاً خادعاً عجيباً . ستلتقي بالعديد جداً من الشبان ، معظمهم عزاب ، في سترات دافئة ومعاطف . في ذلك الوقت يتولّد شعور بوجود غاية ، أو الأفضل ، بوجود ما يشبه الغاية ، شيء غير محسوس بشكل مفرط : خطوات الجميع تتسارع وتصير عموماً جد متخلخلة . والظلال الطويلة تتراءى على الجدران والجادة ، حتى لتكاد تصل برؤوسها إلى جسر بوليتسيسكي . والموظفون الصغار الشبان يتمشون لوقت طويل جداً ، ولكن الموظفين الشيوخ الاكثر رتبة ، يلازمون بيوتهم في الاغلب ، إما لكونهم متزوجين ، أو لأن الطباخات

الالمانيات اللواتي يعشنّ في بيوتهم يحسنّ طهي الطعام لهم . ستلتقي هنا شيوخاً محترمين كانوا يتنزهون في شارع نيفسكي بعظمة ووجاهة مذهلة في الساعة الثانية بعد الظهر . وستراهم الآن يسيرون في خطو حثيث كالموظفين الشبان ليسترقوا النظر الى ما تحت قبعة سيدة راوحا من بعيد تحظى شفتاها الممتلئتان ووجنتاها المضرجتان بالحمرة باعجاب العديدين من المتنزهين ، ولا سيما باعة المخازن ، والكسبة ، والتجار الذين يتنزهون دائماً في سترات المانية جماعات ، متلازمي الايدي .

في ذلك الوقت صاح الملازم بيروغوف وقد جذب شاباً كان يصاحبه في بدلة فراك ومعطف خريفي من ردنه :

– قف ! هل رأيت ؟

– رأيت . مذهلة ، كبيانكا في لوحة بريشة بيروجينو تماماً .

– ولكن عمّن تتحدث ؟

– عنها ، عن ذات الشعر الأسود . ثم اي عينين ! يا رب ، اي عينين ! السمت ، الاعطاف ، تقاطيع الوجه ، كل ذلك اعاجيب !

– أنا أكلمك عن الشقراء التي سارت وراءها في ذلك الجانب . ولماذا لا تلاحق ذات الشعر الأسود إذا كانت قد اعجبتك بهذا الشكل ؟

– اهذا ممكن ! – هتف الشاب في بدلة الفراك وقد احمرّ وجهه – كأنها من اللواتي يتمشّين في شارع نيفسكي في المساء . أظنها سيدة من عائلة راقية جداً – مضى يقول متنهداً – المعطف الذي تلبسه وحده يساوي ما يصل إلى ثمانين روبلاً .

– ساذج ! – صاح بيروغوف ، وهو يدفعه قهراً الى الجهة التي كان يرفرف فيها المعطف الزاهي – اذهب ، يا أهبل ، ستفوتك ! وسألحق أنا الشقراء .

وافترق الصديقان .

«نحن نعرفكن قاطبة» – كان بيروغوف يفكر مع نفسه بابتسامة الكبرياء والاعتداد بالنفس ، واثقاً من أن أي جمال لن يقاوم وسامته .

سار الشاب في بدلة الفراك والمعطف الخريفي بخطوات متهيبة متحيرة الى الجانب الآخر من الشارع ، حيث كان المعطف النسائي

الزاهي يرفرف من بعيد ملتمعاً تارة في سطوع بمقدار اقترابه من ضوء المصباح ، وغارقاً في الظلام فوراً بمقدار ابتعاده عنه . كان قلب الشاب يخفق ، فكان يغذ خطاه لاارادياً . كان لا يجرؤ حتى على التفكير بأن يكون له حق في التفات إهتمام هذه الحسناء المنطلقة في البعيد ، وأكثر من ذلك تقبّل الفكرة السوداء التي لمّح لـه الضابط بيروغوف بها ، ولكنه كان يريد فقط أن يرى البيت ، ويلحظ اين يسكن هذا الكائن الفاتن الذي بدا وكأنه هبط من السماء إلى شارع نيفسكي رأساً ، وسيمضي ، في الأغلب ، مختفياً في مكان مجهول . كان يسير بسرعة خاطفة ، حتى كان على الدوام يدفع سادة رصينين ذوي أفواد شائبة مزيحاً اياهم عن الرصيف . كان هذا الشاب ينتمي الى طبقة تشكل عندنا ظاهرة غريبة بما فيه الكفاية ، وانتماؤه إلى أهل بطرسبورغ لا يزيد عن انتماء شخص نراه في الحلم إلى العالم الواقعي . إن هذه الفئة الاستثنائية غير مألوفة جداً في مدينة كل مَنْ فيها إما موظفون أو تجار أو حرفيون ألمان . إنه رسام . أفليس هو ظاهرة غريبة ؟ رسام بطرسبورغي ! رسام في ارض الثلوج ، رسام في بلاد الفنلنديين ، حيث كل شيء رطب ، صقيل ، منبسط ، شاحب ، رمادي ، مضبب . إن هؤلاء الرسامين لا يشبهون على الاطلاق الرسامين الايطاليين ، الأنوفين ، المضطرمين كايطاليا وسمائها . إنهم على العكس من ذلك ، أناس معظمهم طيبون وادعون ، خجولون ، خليو البال ، يحبون فنهم بهدوء ، ويحتسون الشاي مع صديقين من اصدقائهم في حجرة صغيرة ، ويتحدثون بتواضع عن الموضوع المحبب ، ولا يهتمون بالشيء الزائد . إنه على الدوام يدعو الى بيته متسولة عجوزاً ، ويجعلها تجلس طوال ست ساعات لينقل الى الجنفاص سحنتها البائسة العديمة الاحساس ، ويرسم منظر حجرته من الداخل ، وفيها تظهر التفاهات الفنية بكل انواعها : أيدٍ وارجل من الجبس جعلها القِدَم والغبار بلون القهوة ، ومنصات رسم مكسورة ، ولوحة مقلوبة لمزج الالوان ، وصديق يعزف على القيثار ، والجدران الملطخة بالاصباغ ، والنافذة المفتوحة يتراءى من ورائها نهر النيفا الشاحب ، والصيادون الفقراء بقمصان حمراء . جميع هولاء الرسامين تقريباً يفضلون ، وفي كل شيء ، الالوان الرمادية الكدرة — طابع

الشمال الراسخ لا يمحى . ومع كل ذلك ينكبون على عملهم بمتعة حقيقية ، وينطوون ، في الغالب ، على موهبة اصيلة . فلو أن هواء ايطاليا النقي هبّ عليهم ، لتفتحت ، بالتأكيد ، بتلك الحرية والسعة والسطوع التي يتفتح فيها نبات أُخرج اخيراً إلى الهواء الطليق من حجرة مغلقة . هؤلاء عموماً هيّابون كثيراً . النياشين والرتب العالية توقعهم في ارتباك شديد ، حتى انهم يخفّضون ثمن اعمالهم بشكل لاارادي ، ويحبون إظهار الاناقة في اللباس ، ولكن هذه الاناقة الظاهرية تبدو دائماً صارخة غريبة ، فكأنها رقعة الى درجة ما . تلقاهم احياناً في بدلة فراك ممتازة ، ومعطف مبقع ، في صدار مخملي غالي الثمن وسترة طويلة مزررة ملطخة كلها بالاصباغ . وبنفس هذا الاستهتار في اللبس ترى احدهم يعالج منظراً طبيعياً لم يتمّ رسمه بعد ، قد رسم عليه تخطيطات صورية مقلوبة الرأس على الطلاء المبقع لعمل كان قد بدأ في رسمه باستمتاع في وقت ما دون ان يجد لها مكانا آخر . إنه لا ينظر في عينيك مباشرة ، واذا نظر فبكدر وبشكل غير محدد . إنه لا يغرز فيك نظرة المراقب ، الشبيهة بنظرة الصقر ، أو نظرة ضابط الخيالة ، الشبيهة بنظرة الباز . وذلك لأنه ، في آن واحد ، يرى ملامحك وملامح هرقل من الجبس واقف في حجرته ، أو يتخيل لوحة لم يبدأ في رسمها بعد . وبسبب ذلك غالباً ما يردّ بلا ترابط ، واحياناً بغير مقتضى الحال ، والمواضيع المضطربة في رأسه تزيد من تهيبه . من هذا القبيل كان الشاب الذي وصفته ، الرسام بيسكاريوف ، الخجول ، المتهيب ، والمنطوية نفسه ، في ذات الوقت ، على شرارات من العاطفة متهيأة ، في اللحظة المناسبة ، الى أن تنقلب ضراماً . اسرع في انفعال خفي يحث الخطى وراء بُغيته التي بهرته بشدة ، بدا وكأنه هو نفسه مندهشاً من جسارته هذه . وفجأة ادارت رأسها هذه المخلوقة المجهولة التي جذبت اليها بهذا الشكل عينيه وافكاره ومشاعره ، ورمقته بنظرة . يا رب ، أية قسمات إلَهية ! كان الجبين الفتّان ببياضه الباهر للأبصار محفوفاً بشعر رائع كالعقيق تتلوى خصلاته المذهلة ، ويتساقط بعضه من تحت القلنسوة ، ويلامس الوجنة التي مستها برودة المساء بحمرة خفيفة نضرة . وكانت الشفتان مطبقتين على أطياف اجمل الاحلام .

ان كل ما يتبقى من ذكريات الطفولة ، وما يبعث على التمنّي والوحي الهادئ على ضوء المصباح ، كان يبدو وكأنه قد التحم وامتزج ، وانعكس في شفتيها المتناسقتين . رمقت بيسكاريوف بنظرة ، وفي هذه النظرة أخذ قلبه يضطرب . كانت نظرتها صارمة ، وشعور الاستياء طفح على وجهها ، من رؤيتها لهذه الملاحقة السليطة . ولكن الغيظ نفسه كان فاتنا في هذا الوجه الجميل . توقف وقد نكّس بصره ، يمتلكه الاستحياء والحيرة ، ولكن كيف يضيع هذه الربئة ، دون أن يعرف حتى الحَرَم الذي هبطت اليه ضيفا ؟ طافت هذه الافكار في راس الحالم الشاب فعزم على متابعة الملاحقة . ولكنه ، لتمويه نيته تخلّف الى مسافة اكبر ، واجال بصره يَمْنَة ويَسْرة بلا غاية ، وراح ينظر الى اللافتات وخلال ذلك لم يفوّت الغريبة عن مجال بصره خطوة واحدة . أخذ السابلة يقلون ، والشارع يهدأ اكثر فاكثر ، والتفتت الحسناء ، وخيل اليه أن ابتسامة خفيفة رفّت على شفتيها . سرت الرعشة في كيانه كله ، ولم يصدق بعينيه . لا ! هذا هو فانوس الشارع رسم بضوئه الخادع ما يشبه الابتسامة على وجهها ، هذه احلامه تضحك منه . ولكن انفاسه إرتفعت في صدره ، وتحول كل شيء فيه إلى رجفة غريبة ، والتهبت كل مشاعره ، وتضبب كل شيء أمامه . الرصيف الذي كان يلتهمه بخطواته ، والعربات بخيولها المنطلقة بدت كالساكنة ، والجسر يتمدد ، ويتكسر عند تقوسه ، والبيت يقف وسقفه الى الاسفل ، والكشك يتداعى وهو يقترب منه ، ومِطْرد الحارس يلمع وكأنما قرب رموش عينيه سوية مع كلمات اللافتة الذهبية والمقص المرسوم . كل ذلك بفعل نظرة واحدة ، إلتفاتة واحدة من رأس جميل . فانطلق يتابع الخطوات الخفيفة لتينك القدمين الجميلتين ، دون أن يسمع أو يرى أو يعي ، محاولاً من جانبه أن يخفف من سرعة خطواته ، المتلاحقة على إيقاع نبضات قلبه . احياناً كان يخامره الشك فيما اذا كان تعبير وجهها متعاطفاً حقاً ، وعند ذاك كان يتوقف لحظة ، ولكن خفقان القلب ، وقوة قاهرة ، وتأجج المشاعر كلها كان يدفعه الى الامام ، حتى أنه لم يلحظ كيف برزت أمامه فجأة عمارة من اربعة طوابق ، وتطلعت اليه كل الصفوف الاربعة من نوافذها المضاءة دفعة واحدة واعترضته السلالم عند

المدخل بصدمتها الحديدية . رأى المجهولة تنهب السلّم ، تلتفت ، تضع اصبعاً على شفتيها ، إشارة إلى أن يتبعها بسكوت . ارتجفت ركبتاه ، والتهبت مشاعره وافكاره ، واخترق برق الفرح قلبه بألم لا يطاق . لا ، لم يعد هذا أمنيـة ! يا رب ! كم من السعادة في لحظة واحدة ! أية حياة رائعة ستحلّ بعد دقيقتين !

ولكن لعل هذا كله حلم ؟ هل من المعقول أن تلك التي كان مستعداً الى أن يضحي بحياته لقاء نظرتها السماوية وحدها ، وكان يعتبر الاقتراب من مسكنها هناءة الهية ، هل من المعقول أن هذه الآن ميّالة اليه ، مهتمة به الى هذا الحد ؟ أرتقى السلم مسرعاً . ولم يكن يشعر بأي تفكير دنيوي ، لم يكن يشتعل بلهب هوى مبتذل ، بل كان ، في تلك اللحظة ، نقياً طاهراً كشاب عذري ما يزال يتنسم بعد حاجة الحب النفسية غير المحددة . وحتى الذي كان من الممكن أن يثير في الرجل الفاسق امنيات وقحة فَعَمِل العكس ، فجعل هذه الامنيات اكثر قدسية . إن هذه الثقة التي اولاها اياه مخلوق ضعيف جميل فرضت عليه عهد الصرامة الفروسية ، عهد القيام بكل أوامرها بطاعة العبد . كان يرجو فقط أن تكون هذه الأوامر اكثر ما يمكن من الصعوبة والتعجيز ، حتى يخف لتذليلها بمزيد من الجهد . لم يكن يشك في أن شيئاً غامضاً ومهماً في الوقت ذاته قد حصل ، وجعل هذه الغريبة تلتفت اليه ، وأن خدمات جليلة ستطلب منه ، على الارجح ، فكان يشعر في نفسه القوة والعزم على كل شيء .

التوى السلم ، والتوت معه احلامه السريعة . «سر بحذر اكثر !» صدر هذا الصوت الرخيم كالقيثار ، وملأ كل عروقه بانفعال جديد . في سطحية الطابق الرابع المظلمة دقّت المجهولة الباب . فانفتح ، ودخل الإثنان . استقبلتهما إمرأة على قدر كاف من الملاحة تحمل شمعة ، ولكنها رمقت بيسكاريوف بنظرة غريبة ووقحة جعلته يغض بصره لاارادياً . دخلوا حجرة . وقعت عيناه على ثلاث نساء في مختلف اركان الحجرة . كانت احداهن تستخير الورق ، والأخرى تجلس الى بيانو ، وتعزف باصبعين ما يشبه بصورة رديئة لحناً قديماً للبولونيز . وكانت الثالثة تجلس إلى المرآة تمشط شعرها الطويل بمشط ، ولم تنوِ قط أن تترك زينته عند دخول الشخص

الغريب . كان يسود كل شيء نوع من الاهمال المذموم كذلك الذي يمكن ان تجده في حجرة اعزب غير مكترث . كان الغبار يعلو قطع الاثاث الجيد الى حد ما ونسيج العنكبوت يبرقع افريزاً جبسياً مزخرفا ومن خلال باب مفتوح لحجرة اخرى التمع حذاء طويل العنق بمهماز ، ولاحت حاشية حمراء لسترة رسمية . ارتفع صوت رجالي عال وضحك نسائي بدون اي تحفظ .

يا رب ، اين دخل الفتى ! في بادئ الأمر لم يرد أن يصدق ، واخذ يتمعن اكثر في الاشياء التي تملأ الحجرة . ولكن الجدران العارية والنوافذ الخالية من الستائر لم تكن تدل على اي وجود لربة بيت مهتمة بأمور بيتها . والوجوه الممحولة لهذه المخلوقات البائسة التي كانت أحداهن امام أنفه تقريباً تتفحصه بلا إكتراث كما تتفحص بقعة في ثوب اخرى ، كل ذلك كان يؤكد له انه دخل وكراً كريهاً عشش فيه الفجور الحقير وليد التعليم الكاذب المبهرج واكتظاظ العاصمة الرهيب بالسكان . هنا ، في هذا الوكر ، سحق الانسان بفظاظة وكفر ، وسخر من كل ما هو طاهر ومقدس يزين الحياة ، وتحولت المرأة ، حسناء العالم ، جوهرة الخليقة إلى كائن غريب مزدوج ، وتجردت الى جانب نقاء الروح من كل ما هو انثوي ، واتخذت لنفسها بشكل مقزز عادات ووقاحة الرجل ، ولم تعد ذلك الكائن الضعيف الجميل المتميز عنه بشدة . تفحصها بيسكاريوف من أخمص قدميها حتى رأسها بعينين مذهولتين ، وكأنما ما يزال يريد ان يعرف بشكل مؤكد اهي نفس المرأة التي سحرته وجذبته في شارع نيفسكي بذلك القدر ؟ ولكنها وقفت امامه جميلة كما هي . شعرها جميل كما كان ، وعيناها ما تزالان على سماويتهما العلوية . كانت غضة ، لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة ، والظاهر ان الفجور المريع لم يكن قد اصابها منذ زمن بعيد . لم يجرؤ بعد ان يمس وجنتيها ، اللتين كانتا نضرتين ملونتين بحمرة خفيفة . لقد كانت رائعة الحسن .

وقف أمامها بلا حراك ، وكان متهيئاً إلى أن يسرح عقله بسذاجة ، كما سرح من قبل . ولكن الحسناء سئمت هذا الصمت الطويل ، وابتسمت ابتسامة ذات مغزى ، ناظرة في عينيه . غير ان ابتسامتها هذه كانت تنم عن وقاحة حقيرة . كانت غريبة جداً ،

ولا تناسب وجهها إلا بقدر ما تناسب التقوى وجه مرتش أو دفتر الحسابات شاعراً . سرت فيه رعشة . افرجت شفتيها الجميلتين ، واخذت تتكلم عن شيء ما . غير ان كل ذلك كان سمجاً مبتذلاً . . . كان عقل الانسان يفارقه مع طهارته . لم يعد الشاب يريد أن يسمع شيئاً . كان مضحكا الى اقصى حد ، وساذجاً كالطفل . وبدلاً من ان يستفيد من هذه الحظوة ، وبدلاً من أن يغتبط بهذه الفرصة التي سيغتبط بها ، دون شك ، اي انسان آخر في مكانه ، اطلق رجليه للركض ، كالماعز الوحشي ، وخرج الى الشارع مسرعاً .

جلس في حجرته منكس الرأس ، مرتخي اليدين ، كالفقير الذي وجد لؤلؤة لا تقدر بثمن ، وفي اللحظة التالية سقطت منه في البحر . «مثل هذه الحسناء ، مثل تلك القسمات الآلهية . واين ؟ في اي مكان ! . . .» وهذا كل ما استطاع ان يقوله .

وبالفعل لا يتملكنا الرثاء بتلك القوة التي يتملكنا بها ، حين نرى جمالاً مسه زفير الفجور المهلك . والأمر يهون لو صاحب الفجور القبح ، ولكن الجمال ، الجمال الرقيق . . لا يمتزج في اذهاننا إلا بالطهر والنقاء . إن الحسناء التي فتنت بيسكاريوف المسكين بهذا القدر كانت ، بالفعل ، ظاهرة مذهلة غير مألوفة . ودخولها ذلك الوسط الحقير بدا اكثر بعداً عن المألوف . كانت قسماتها كلها غاية في الكمال ومسحة وجهها البديع كلها موسومة بالنبل الرفيع ، حتى ليتعذر التفكير ابدا في أن الفجور انشب فيها اظافره الرهيبة . كان من الممكن أن تكون جوهرة لا تقدر بثمن ، أن تكون العالم كله ، الجنة كلها ، كل الثروة لزوج مشبوب العاطفة . كان من الممكن أن تكون نجمة جميلة هادئة في وسط عائلي منزوٍ ، تصدر بحركة واحدة من شفتيها الجميلتين اوامر حلوة . كان من الممكن ان تكون الهة في صالة كثيرة الناس ، على ارضية وضاءة ، في ألق الشموع ، في وسط الإجلال الصامت لجمهور عشاقها المرتمين على قدميها . ولكن ، واأسفاه ! لقد شاء جني من الجحيم متعطش لتحطيم الحياة المستقيمة أن يلقيها ، بمشيئته المريعة ، في هاويتها السحيقة وهو يقهقه ملء صدره .

جلس بيسكاريوف أمام شمعة مسخمة الفتلة يغمره رثاء ممزق . انتصف الليل منذ زمان ، ودق جرس البرج نصف الساعة

الواحدة ، وهو ما يزال جالساً جامداً ، آرقاً ، خامل الحياة . وحين اخذ النعاس يتسلل اليه من خلال خموله ويغلبه ، والحجرة تبدأ بالاختفاء ، وصار ضوء الشمعة وحده شاهداً على الأحلام التي غمرته ، جعله طرق مفاجئ على الباب يجفل ، ويفيق من نومه . انفتح الباب ، ودخل خادم في بزة خدم فاخرة . لم يحصل قط ان دخلت حجرته المنعزلة بزة خدم فاخرة ، وعلى الاخص في هذا الوقت غير المعتاد . . . تحيّر ، ونظر الى الخادم الداخل بفضول عجول .

قال الخادم بانحناءة إحترام :

– السيدة التي كنت عندها قبل ساعات أمرت بأن أرجو منك ان تزورها ، وارسلت عربة لتقلّك .

وقف بيسكاريوف في دهشة صامتة : «عربة ، خادم في بزة خدم ! . . . اظن في الأمر خطأ . . .»

قال في ارتباك :

– إسمع ، يا محترم ! اظنك قد اخطأت العنوان . سيدتك ارسلتك إلى شخص آخر دون شك وليس اليّ .

– لا ، يا مولاي ، انا لم اخطئ . هل انت الذي تفضلت وصاحبت السيدة الى بيتها في شارع ليتينايا ، الى حجرتها في الطابق الرابع ؟

– نعم .

– اذن ، ارجو ان تسرع ، فان السيدة تود أن تراك من كل بدّ ورجت ان تتفضل الى بيتهم راساً .

هبط بيسكاريوف السلم راكضا . كانت هناك عربة واقفة في الفناء فعلاً . ركب فيها . واغلقت الابواب ، وقرقعت احجار الجادة تحت العجلات والحوافر . وتلاحق من وراء نوافذ العربة الامتداد المضاء للبيوت بلافتاتها اللامعة . اخذ بيسكاريوف يفكر طوال الطريق ، ولم يعرف كيف يوضح هذه المغامرة . البيت المملوك ، والعربة ، والخادم ببزته الفاخرة – كل ذلك لم يستطع أن يربطه بالحجرة في الطابق الرابع ، بالنوافذ المغبرة ، بالبيانو غير المضبّط .

توقفت العربة أمام مدخل مبنى ساطع الاضاءة ، بهره على الفور صف العربات ، وثرثرة الحوذية ، والنوافذ الساطعة الأنوار ،

واصوات الموسيقى . اعانه الخادم ذو البزة الفاخرة في النزول من العربة ، وقاده باحترام الى رواق ذي اعمدة مرمرية ، فيه حاجب مكسو بالذهب ، ومعاطف وفروات مبعثرة ، ومصباح ساطع . وثمة سلم رشيق ذو سلالم لامعة ، معطر بالطيوب ، يؤدي إلى الأعلى . تسلّقه ، ودخل الصالة الاولى ، واذا به يرتد مذعوراً منذ الخطوة الأولى لاكتظاظها بالناس . اسلمته برقشة الوجوه غير الاعتيادية إلى الارتباك التام ، فقد بدا له وكان عفريتاً سحق العالم كله الى قطع عديدة ، وجمع كل هذه القطع سوية دون معنى ولا مغزى . اكتاف نسائية لامعة ، بدلات فراك سود ، ثريات ، مصابيح ، ثياب خفيفة طائرة ، شرائط شفافة ، وكونترباس سميك يلوح من وراء سلالم شرفة للموسيقى – رائعة – كل ذلك بهر بصره . راى في نظرة واحدة قدراً عظيماً من الشيوخ المحترمين واشباه الشيوخ والناشين تزين بدلاتهم الفراك ، وقدراً عظيماً من السيدات يتخطرن بخفة وانفة وظرف او يجلسن صفوفاً ، وسمع قدراً عظيماً من الكلمات الفرنسية والانجليزية ، كما راى الشبان ايضاً في بدلات الفراك السوداء كانوا مفعمين نبلاً ، يتحدثون او يصمتون بعزة رائعة ، ويشطون عن الافراط في كلامهم ، يمزحون بعظمة ، ويبتسمون بجلال ، ويزدهون بأفوادهم الطويلة الرائعة ، ويحسنون ، في حذق ، عرض أيديهم الممتازة ، يعدلون بها ربطات عنقهم ، والسيدات كم كن خفيفات ، مفعمات براحة النفس التامة والنشوة ، يغضضن ابصارهن بشكل فاتن حتى ان . . . ولكن منظر بيسكاريوف الخنوع وحده ، وهو يتكئ على عمود بتهيب ، وشي بذهوله التام . في ذلك الوقت تجمع الجمهور ليحيط بجماعة راقصة . فاندفعت ملفوفة بابداع باريس الشفاف ، بأثواب منسوجة من الهواء نفسه ، وتمس الارض بأقدامها اللامعة بدون اكتراث ، وحتى لو لم تمسسها لكانت اخف من الأثير . ولكن واحدة من بينهن احسن الجميع ، واترف الجميع ، وابهى ثياباً – إتساق في الذوق مرهف يتعذر وصفه كان يشيع في ملبسها بكامله ، ومع كل ذلك بدت وكأنها لا تحفل بذلك مطلقاً فكان يتجلّى من تلقاء نفسه ، وبدون إرادة منها . كانت ترمق جمهور المتفرجين المحيطين بها بنصف نظرة ، وتنسبل رموشها الطويلة الجميلة بلا اكتراث ،

وتصير نصاعة وجهها المتألقة اكثر ابهاراً للابصار ، حين يغشى ظل خفيف جبينها الفاتن ، عند انحناءة راسها .

استخدم بيسكاريوف كل قواه ليشق الحشد ويتمعنها . ولكن راساً ضخماً ذا شعر اجعد داكن كان يحجبها باستمرار ، مما سبب انزعاجاً شديداً له ، وفضلاً عن ذلك كان حشد الناس يضغط عليه فلم يستطع التقدم الى الامام ولا التراجع الى الخلف ، خائفاً من أن يدفع بشكل من الاشكال موظفاً عالي المقام . ولكنه افلح اخيراً في الانسلال الى الأمام ، ونظـــــر الى ثيابه يريد أن يعدّل هندامه . يا رب الخليقة ، ما هذا ! كان في سترة مبقعة كلهـــــا بالاصباغ ، فقد نسي في عجالة الخروج حتى أن يستبدل لباســـه بثياب لائقة . احمرّ حتى اذنيه ، واطرق راسه ، واراد أن يغيب عن الأنظار ، لكن لم يكن ثمة مجال على الاطلاق ، فإن بعض النبلاء الشبان في بزات لامعة تراصوا من خلفه كجدار متين . كان يود أن يبتعد قدر الإمكان عن الحسناء ذات الجبين الجميل والرموش . رفع بصره بخوف ليعرف هل كانت تنظر اليه . يا رب ! كانت تقف امامه . . . ولكن ما هذا ؟ «هذا هي !» صاح بأعلى صوته تقريباً وفي حقيقة الأمر كانت هي ، تلك التي التقاها في شارع نيفسكي ، ورافقها الى عقر دارها .

وخلال ذلك رفعت رموشها ، ورمقت الجميع بنظرة صافية . «ياه ، ياه ، ما اجملها ! . .» لم يستطع إلا أن ينطق بذلك مبهور الانفاس . طافت بعينيها على كل الحلقة التي كانت تتنافس متعطشة لتستوقف انتباهها . ولكنها سرعان مـــا عافتهم بشيء من التعب والإهمال ، والتقى بصرها ببصر بيسكاريوف . آوه ، اية سماء ، اي فردوس ! أيها الخالق ، هبني القوة لأتحمـــل هذا ! الحياة لا تستوعبه . سيحطم النفس ، ويزهق الروح ! اشارت لا بيدها ، ولا بانحناءة من راسها ، ولكن هذه الاشارة انعكست في عينيهـــا المدمرتين بتعبير دقيق مستتر لم يستطع احد أن يراه . ولكن بيسكاريوف رآه ، وفهمه . امتدت الرقصة طويلاً ، والموسيقى المتعبة بدت وكأنها قد انطفأت كلياً وهمدت ، ثم طلعت ثانية ، وزعقت ، وهدرت ، واخيراً جاءت النهاية ! جلست ، وصدرها يعلو ويهبط في الغبش الخفيف للقماش الشفاف . ويدها (ايها الخالق ،

اي يد رائعة !) سقطت على ركبتها . حشرت ثوبها الخفيف تحتها ، فبدا وكأن الثوب يستنشق موسيقى ، ولونه الليلقي الخفيف عمّق اكثر النصاعة الباهرة ليدها الجميلة . فليته يمسها ، ويكتفي ! وما من رغائب أخرى ، فكلها طائشة . . . وقف وراء مقعدها ، غير متجرئ على الكلام ، غير متجرئ على التنفس . ونطقت هي :

– هل ضجرت ؟ أنا ايضـــاً ضجرت – واضافت تقول وقد اسبلت رموشها الوطف – أرى أنك تكرهني . . .

– اكرهك ! أنا ؟ انا . . . – اراد بيسكاريوف المربوك كلياً أن ينطق ولاطلق حتما ، جملة من الكلمات المفككة تماماً ، ولكن واحداً من نبلاء البلاط اقبل في تلك اللحظة بملاحظات حادة لطيفـــة ، والناصية على راسه ملتفة ، وبطريقة لطيفة بما فيه الكفاية ابدى صفاً من الاسنان اللطيفة بما فيه الكفاية . وغرز بكل ملاحظة حادة مسماراً حاداً في قلبه . واخيراً ، ولحسن الحظ تقدم أحد الغرباء من هذا النبيل في مسألة .

– لا اتحمل ذلك ابداً ! – قالت بعد ان رفعت اليه عينيهـــا السماويتين – ساجلس في الطرف الآخر من الصالة ، فكن هناك !

وانسلّت بين حشد الناس ، واختفـــــت . دفع زحام الناس كالمجنون ، ووصل الى هناك .

تلك هي ! كانت تجلس كالقيصرة افضل الكل ، واجمل الكل ، وتبحث عنه بعينيها .

– انت هنا – نبست بصوت خافت – ساكون صريحة معك . أظن الظروف التي احاطت بلقائنا كانت غريبة عليك . هل يعقل أن تظن ان من الممكن أن اكون من تلك الطبقة المحتقرة من المخلوقات التي وجدتني بينها ؟ تصرفاتي تبدو لك غريبة ، ولكنني ساكشف لك السر . فهل ستقدر – نطقت بذلك متفرّسة بعينيه – أن تصونه الى الأبد ؟

– اوه ، اقدر ! اقدر ! اقدر !

غير أن رجلاً في ذرى الكهولة تقدم في تلك اللحظة واخـــذ يتحدث معها بلغة غير مفهومة لبيسكاريف ، وقدّم لها يده . القت على بيسكاريوف نظرة متضرعة ، واشارت له بأن يبقى في مكانه ، وينتظر مجيئها ، ولكنه في نوبة نفاد الصبر لم يكن قادراً على

اطاعة اية اوامر حتى من شفتيها . سار في إثرها ، ولكن الحشد فصلهما . فلم يعد يبصر الثوب الليلقي ، تنقل من حجرة إلى أخرى في قلق ، ودفع كل مَنْ التقاه بلا رحمة ، ولكن وجهاء القوم كانوا يجلسون في الحجرات كلها وراء طاولات لعب الورق ، غارقين في صمت الاموات . وفي احد اركان حجرة كان بعض الكهول يتجادلون عن افضلية الخدمة العسكرية على الخدمة المدنية ، وفي ركن آخر كان رجال آخرون في بدلات فراك فاخرة يلقون ملاحظات خفيفة عن اعمال شاعر دؤوب تضم مجلدات كثيرة . وشعر بيسكاريوف أن كهلاً ذا مظهر جليل امسك بزرّ من ازرار فراكه ، وراح يطرح في حكمه ملاحظة له منصفة جداً ، إلا أن بيسكاريوف دفعه بغلظة ، حتى دون ان يلحظ الوسام الرفيع المعلق على رقبته . انتقل مسرعاً الى حجرة اخرى ، فلم يجدها . وفي الثالثة ايضاً . «اين هي ؟ هاتوها لي ! آه ، لا استطيع أن اعيش دون ان اتطلع اليها ! اودّ ان اسمع ما كانت تريد ان تقوله» . إلاّ أن كل بحوثه لم يأتِ بطائل . انكمش في زاوية قلقاً متعباً ، واخذ ينظر الى جمهور الناس . ولكن عينيه المشدودتين اخذتا تصوران له كل شيء بشكل غير واضح . وفي آخر الامر اخذت تتراءى له بوضوح جدران حجرته . رفع بصره ، فرأى أمامه الشمعدان تكاد النار تخمد في اعماقه . ذابت الشمعة كلها ، وانسكب الشمع المذاب على منضدته .

كان نائماً ، إذن ! يا رب ، اي حلم هذا ! ولِمَ استيقظ من نومه ؟ ولم ينتظر دقيقة واحدة ، فقد تظهر من جديد ! أطل من نافذته ضوء مرهق بالقه الشاحب الكريه . الحجرة في فوضاها الرمادية الكالحة الى درجة ان . . . اوه ، اي واقع مقزز ! وما هو ازاء الحلم ؟ خلع ثيابه سريعاً ، واستلقى على سريره ، وقد التفّ في اللحاف ، يريد أن يسترجع الحلم الخاطف لحظة واحدة . وبالفعل لم يتأخر الحلم في المجيء اليه ، ولكنه تمثّل له على عكس ما كان يريده تماماً . فمرة يظهر الضابط بيروغوف ومعه غليون ، ومرة حارس اكاديمية الفنون ، ومرة موظف من رتبة معتبرة ، ومرة رأس الفنلندية التي رسم لها صورة في وقت ما ، وغير ذلك من السفاسف .

ظل راقداً في السرير حتى الظهر يريد أن يستدرج النوم ، ولكن

النوم لم يأتِ . على الأقل لو أبدت قسماتها الرائعة لحظة ، وهفهفت مشيتها الخفيفة لحظة ، على الأقل لو لمعت أمامه ذراعها العارية الناصعة كثلج قمم الجبال ، وراء الغمام .

وظل جالساً زاهداً في كل شيء ناسياً كل شيء ، مسحوقاً باديء الياس ، يملؤه الحلم الذي رآه وحده . ولم يفكر في أن يمس أي شيء . كانت عيناه تنظران بدون أي احساس ، بدون اي حياة ، في النافذة المطلة على الفناء ، حيث كان السقاء القذر يصب ماء يتجمد في الحال ، وحيث كان صوت البائع المتجوّل الشبيه بصوت الماعز يهزج : «اللي عنده اشياء قديمة للبيع» . كانت اصوات الواقع اليومية تشده سمعه بشكل غريب . وهكذا ظل قاعداً حتى المساء ، وبعدها ارتمى على السرير بشوق . صارع الارق طويلاً ، وتغلب عليه اخيراً . وحلم مرة أخرى بحلم ، حلم مبتذل حقير . «ارفق بي ، يا رب ، وارِنها دقيقة واحدة ، على الاقل ، لحظة واحدة» . وعاد ينتظر المساء من جديد ، وغفا مرة أخرى ، وحلم مرة اخرى بموظف كان موظفاً ومزماراً في آن واحد . آوه ! هذا لا يطاق ! واخيراً تراءت ! راسها وخصلات شعرها . . . تنظر . . . ولكن لوقت قصير ! ومرة أخرى ضباب ، ومرة أخرى حلم سخيف .

واخيراً صارت الاحلام حياته كلها ، ومنذ ذلك الحين اتخذت حياته كلها انعطافاً غريباً . فقد كان ، كما يقال ، ينام في اليقظة ، ويستيقظ في النوم . فلو أن احداً رآه نائماً في صمت أمام المنضدة الفارغة أو ماشياً في الشارع لاعتبره بالتأكيد سائراً في نومه أو رجلاً حطمته المشروبات القوية . كانت نظرته خالية من أي مدلول ، والذهول الطبيعي قد اشتد ، وتسلطن وأفرغ وجهه من كل المشاعر ، من كل عاطفة . فلم يكن ينتعش إلا عند حلول الليل .

زعزعت هذه الحال قواه ، وجابه افظع عذاب له ، حين أخذ النوم اخيراً يتخلى عنه كلياً . فصار يستخدم كل الوسائل لاعادته رغبة منه في انقاذ ثروته الوحيدة هذه . سمع أن هناك وسيلة لإعادة النوم ، تحتاج إلى تعاطي الافيون لا غير . ولكن اين يحصل على هذا الافيون ؟ تذكر فارسياً صاحب مخزن للشالات ، كان اذا التقاه يطلب منه دائماً تقريباً أن يرسم له حسناء . فعزم على التوجه

اليه مفترضاً أن لديه ، بالتأكيد ، هذا الافيون . استقبله الفارسي ، وهو متربع على اريكة . سأله :

– وما حاجتك الى الافيون ؟

فحكى له بيسكاريوف عن أرقه .

– طيب ، ساعطيك الافيون ، شرط ان ترسم لي حسناء . على أن تكون الحسناء حلوة ! وان يكون حاجباها اسودين ، وعيناها واسعتين كزيتونتين ، وان اكون أنا مستلقياً جنبها ، ادخّن الغليون ! تسمع ؟ شرط ان تكون حلوة ! وأن تكون حسناء !

وعده بيسكاريوف بكل شيء . فخرج الفارسي لدقيقة ، وعاد بعلبة صغيرة مملوءة بسائل داكن ، صبَّ جزءاً منه في علبة أخرى بحرص ، واعطاها بيسكاريوف مع وصية بأن لا يتناول منها اكثر من سبع قطرات في الماء . اختطف بيسكاريوف بلهفة هذه العلبة الفائقة الثمن التي ما كان سيتخلى عنها لقاء كومة من الذهب ، وانطلق يعدو الى بيته .

وحين وصل الى البيت صبَّ بضع قطرات في قدح من الماء ، وجرعه ، وانطرح لينام .

يا رب ، اية بهجة ! هي ! مرة اخرى هي ! ولكنها في هيئة مختلفة تماماً . آه ، ما ألطف جلوسها عند نافذة بيت ريفي وضاء ! هندامها يشي ببساطة لا تتمثل إلا في ذهن الشاعر . وتصفيفة شعرها . . . ايها الخالق ، كم هي بسيطة هذه التصفيفة ، وكم هي تناسبها ! كان شالها القصير ملقى بخفة على جيدها الأهيف ، وكل ما فيها متواضع ، كل ما فيها مفعم احساساً بالذوق خفياً لا يدرك . وما ألطف مشيتها الرشيقة ! وكم هو موسيقي حفيفُ خطوها وثوبها البسيط ! وما أحلى يدها المطوَّقة بسوار من الخيوط المفتولة ! وتقول له ، والدموع في عينيها : «لا تحتقرني ! أنا لست التي حسبتني اياها مطلقاً . انظر اليَّ ، انظر اليَّ امعنْ ، وقل لي : أحقاً انني قادرة على ما تظن بي ؟» – «أوه ! لا ! لا ! عسى ذلك الذي يتجاسر على الظن ، عسى ذلك . . .» ولكنه استيقظ متأثراً ، متمزقاً ، مغرورق العينين بالدموع «كان من الأفضل أن لا تكوني موجودة أبداً ! ان لا تعيشي في العالم ، بل ان تكوني صنع رسام ملهم ! عندئذ كنت سألازم اللوحة ،

اتطلع اليك أبداً ، واقبلك . عندئذ كنت سأعيش واتنفس بك ، كاروع حلم ، عندئذ ساكون سعيداً . وما كنت لأطمح بأية امنيات أخرى . وكنت سأستدعيك كملاكي الحارس قبيل النوم وعند اليقظة ، وانتظرك حين يحدث أن أصور شيئاً ألوهياً قدسياً . ولكن الآن . . . اية حياة فظيعة ! ما الفائدة من أنها تعيش ! وهل حياة المجنون مريحة لأقربائه واصدقائه ، الذين كانوا يحبونه في وقت ما ؟ يا رب ، اية حياة نحيا ! الحلم في نزاع أبدي مع الواقع .»

من مثل هذه الافكار كانت تشغل باله دائماً . لم يكن يفكر في شيء ، ولا يكاد يأكل شيئاً ، ويظل ينتظر المساء والحلم المرغوب بلهفة وهوى عاشق . واخيراً اكتسب انصباب افكاره الدائم على شيء واحد سلطاناً قوياً على معيشته كلها ومخيلته ، حتى صارت الصورة المحببة تتراءى له كل يوم تقريباً ، ودائماً في وضع يناقض الواقع ، لأن افكاره كانت نقية للغاية كافكار طفل . ومن خلال هذه الاحلام صار المحلوم به نفسه اكثر نقاء ، وصورته تتغير كلياً .

كانت جرعات الأفيون تلهب افكاره اكثر ، واذا كان هناك متيَّم الى آخر درجات الجنون يعشق باندفاع وبطريقة مريعة ، ساحقة ، متمردة ، فان ذلك التعيس كان هو ، بيسكاريوف .

ومن بين جميع الأحلام كان ثمة حلم هو الأبهج له ، حين كان يحلم بمرسمه ، وبنفسه مرحاً باستمتاع بالغ ولوحة مزج الاصباغ في يده ! وهي هناك ايضاً ، وقد اصبحت زوجته . تجلس بالقرب منه ، تستند بكوعها الساحر على ظهر مقعده ، وتنظر الى عمله . وفي عينيها الرقيقتين المتعبتين يرتسم رَهق الهناءة . كل ما في حجرته يعبق بالجنة . فقد كانت غاية في النظافة ، نيّرة وضاءة . يا رب الخليقة ! اسندت على صدره رأسها الفاتن . . ولم يكن قد رأى قط أحسن من هذا الحلم . نهض بعده اكثر نضارة وأقل ذهولاً من ذي قبل . تولّدت في رأسه أفكار غريبة . فراح يفكر : «ربما اوقعتها في الفسق مصادفة مريعة ضد ارادتها . ربما نزعات روحها ميّالة إلى الندم ، ربما كانت نفسها تود أن تفلت من حالتها المريعة . وهل من المعقول أن يتركها تهلك بدون اكتراث ، لا سيما وأن انقاذها من الهلاك لا يكلفه إلا أن يمد يده اليها ؟ وسارت افكاره الى ابعد من ذلك ، فراح يقول لنفسه : «لا

احد يعرفني ، ثم اي شأن لأحد بي ، كما لا شأن لي بأحد . واذا ما أبدت ندمها الحقيقي ، وغيرت حياتها ، فساتزوجها . يجب أن اتزوجها ، والحقيقة انني بذلك سافعل افضل كثيراً من العديدين الذين يتزوجون قهرماناتهم ، وحتى احقر البهائم في بعض الحالات . ولكن مأثرتي ستكون منزّهة ، بل وربما عظيمة . فساعيد الى العالم أروع زيناته» .

وبعد أن وضع هذه الخطة الطائشة احس بالحمرة تلهب وجهه ، فتقدم من المرآة ، وافزعه تغوّر خديه ، وشحوب وجهه . فأخذ يهندم نفسه بعناية . اغتسل ، وصفّف شعره ، ولبس فراكاً جديداً ، وصداراً انيقاً ، والقى معطفاً على كتفيه ، وخرج الى الشارع . استنشق الهواء الطلق ، واحس بطراوة في قلبه ، كالناقه الذي عزم على الخروج الى الشارع لأول مرة ، بعد مرض طويل . خفق قلبه ، حين كان يقترب من الشارع الذي لم يطرقه منذ ذلك اللقاء الوبيل .

بحث طويلاً عن المبنى . تبيّن ان ذاكرته قد خانته . قطع الشارع مرتين ، ولم يعرف امام اي مبنى يتوقف . واخيراً بدا له أحد المباني شبيهاً ببيتها . ركض بسرعة على الدرج ، وطرق الباب ، فانفتح . فمن خرج لاستقباله ؟ مثاله ، صورته الخفية ، اصل لوحاته الحالمة ، تلك التي عاشها برعب ، عاشها بعذاب وعذوبة . كانت بنفسها تقف امامه . سرت الرعشة في أوصاله فكان لا يكاد يقف على قدميه من الضعف ، مأخوذاً بموجة فرح . وكانت هي تقف امامه ، بنفس الجمال ، رغم أن النعاس في عينيها ، ودبيب الشحوب على وجهها الذي لم يكن بنضارته السابقة ، ولكنها كانت رائعة الحسن .

– ها ! – صاحت ، حين رأت بيسكاريوف ، وفركت عينيها . (كانت الساعة الثانية بعد الظهر آنذاك) – ولِمَ هربت منا حينذاك ؟

ولضعفه جلس على مقعد ، ونظر اليها .

– استيقظت لتوي . جاءوا بي في الساعة السابعة صباحاً – واضافت بابتسامة – كنت في سكر شديد .

اوه ، ان تكوني خرساء محرومة من النطق تماماً افضل من أن تنطقي هذه الكلمات ! فجأة اظهرت له كل حياتها بالتمام . ومع ذلك

فقد ضغط على قلبه ، وعزم على أن يجرب ما اذا كانت مواعظه تؤثر فيها . جمع شجاعته ، وبدأ يصوّر لها بصوت راعش ومتحمّس في آن واحد بشاعة وضعها . اصغت اليه بادية الإهتمام ، وبذلك الشعور من الدهشة الذي نظهره عادة عند رؤية شيء غير متوقع وغريب . نظرت ، بابتسامة خفيفة ، الى صاحبتها التي كانت تجلس في زاوية ، والتى تركت تنظيف مشطها ، وراحت تصغي ايضاً إلى الواعظ الجديد بانتباه .

واخيراً قال بيسكاريوف بعد وعظ طويل فيه عبرة :

– أنا فقير ، بالفعل . ولكننا سنشتغل ، ونجاهد ، يسابق احدنا الآخر ، في تحسين حياتنا . ليس هناك ألطف من أن يكون الانسان مديناً لنفسه في كل شيء . ساعكف أنا على رسم اللوحات ، وانت في جلوسك قربي تطرزين او تمارسين اي شغل إبرة تبثين الروح في اعمالي . ولن يعوزنا شيء عند ذاك .

– غير ممكن ! – قاطعت كلامه بشيء من الازدراء – لست غسالة ولا خياطة لأمارس شغلا .

يا رب ! كانت هذه الكلمات تعكس كل الحياة الوضيعة المحتقرة ، الحياة التي يملؤها الفراغ والتكاسل اليفا الفجور الوفيان .

– تزوجني ! – بادرت صاحبتها بوقاحة ، بعد أن ظلت صامتة في الزاوية وقتاً طويلاً – حين ساكون زوجة ساجلس هذه الجلسة !

وابدت سحنة بليدة على وجهها الحقير اضحكت بها الحسناء كثيراً .

آوه ، غاية في الوقاحة ! لا يمكن ان يطاق . فاندفع خارجاً فاقد الشعور والعقل . تشوش ذهنه ، فراح يهيم النهار كله ببلاهة وبلا هدف ، لا يرى ولا يسمع ولا يشعر . ولم يتمكن احد من أن يعرف هل قضى ليلته في مكان ما ، أم لا ، وفي اليوم التالي فقط ، وبغريزة متبلدة جاء الى بيته شاحباً مرعب المنظر ، منفوش الشعر ، وعلائم الجنون بادية على وجهه . اغلق عليه باب حجرته ، ولم يسمح لأحد بالدخول ، ولم يطلب شيئاً . ومرّت اربعة أيام ، وحجرته المغلقة تفتح قط ، واخيراً انقضى اسبوع ، والحجرة

ما تزال مغلقة . هرع الناس إلى باب حجرته ، ونادوه ، ولم يظفروا بجواب وفي آخر الأمر كسروا الباب ووجدوا جثته الهامدة وحنجرته منحورة . والموسى المدماة ملقاة على الأرض . وكان من الممكن الاستدلال من ذراعه المطروحة بتشنج ، ومن منظره المشوه الرهيب أن يده لم تكن تطيعه ، وأنه ظل يتعذب طويلا قبل أن تغادر روحه الخاطئة جسده .

وبهذا الشكل هلك ضحية للهوى المجنون بيسكاريوف المسكين ، الهادئ ، المتهيب ، المتواضع ، البسيط القلب كالطفل ، الذي كان ينطوي على شرارة نبوغ كان من الممكن ، مع مرور الوقت ، أن يتوهج في سطوع واتساع . لم يبك احد عليه ، ولم يُشاهد قرب جثته الهامدة غير الشخص المعتاد للشرطي المكلف بحراسة الحيّ والسحنة اللاأبالية للطبيب الشرعي . ونُقِل تابوته إلى اوختا * بهدوء ، وحتى بدون المراسيم الدينية . ولم يبك وراء نعشه غير الجندي الحارس ، وحتى هذا لم يبك إلا لأنه احتسى دورقا من الفودكا زيادة . وحتى الملازم بيروغوف لم يأت ليلقي نظرة على جثمان المسكين البائس الذي كان يخلع عليه رعايته السامية في حياته . وبالمناسبة لم يكن له الوقت لذلك . فقد كان مشغولاً بحادثة استثنائية . سنعود اليه بعد حين .

انا لا احب الجثث والأموات ، واشعر دائماً بعدم الارتياح حين يعترض طريقي موكب تشييع طويل وجندي معوّق ، يرتدي قلنسوة فضفاضة ، يستنشق التبغ بيده اليسرى ، لأن اليمنى مشغولة بالمشعل . واشعر بضيق في قلبي دائماً ، حين أرى عربة فاخرة لنقل الموتى ، وتابوتاً مخملياً ، ولكن ضيقي هذا يخالطه الأسى ، حين أرى سائق كرّاجة تجر تابوتَ فقيرٍ أحمر عارياً لم يغط بشيء ، ولا يسير وراءه إلا متسولة تصادفه في مفترق الطريق ، لأنه ليس لها عمل آخر تفعله .

يبدو اننا تركنا الملازم بيروغوف عند افتراقه عن بيسكاريوف المسكين ، وملاحقته الشقراء . كانت هذه الشقراء مخلوقة نحيفة القوام وجذابة بما فيه الكفاية . كانت تتوقف امام كل مخزن ،

---

* حي في بطرسبورغ كان يسكن فيه الفقراء وعامة الناس . **المترجم** .

وتتفرج على ما تعرضه الواجهات من أحزمة ومناديل رأس ، واقراط ، وقفازات ، وغيرها من الخردوات وتستدير باستمرار ، تنظر في كل الجهات ، وتلتفت الى الخلف . وكان بيروغوف يقول بغرور «انت لي ، يا حلوة !» ويستمر في ملاحقتها مغطياً وجهه بياقة معطفه ، حتى لا يلتقي أحداً من المعارف . ولكن لا ضير في تعريف القارئ بالملازم بيروغوف .

إلا أنه قبل أن نقول من هو الملازم بيروغوف لا ضير في أن نتحدث عن ذلك المجتمع الذي ينتمي اليه بيروغوف . هناك ضباط يؤلفون في بطرسبورغ طبقة متوسطة من المجتمع . وانتم ستجدون دائماً واحداً منهم في المسية او غداء عند موظف متوسط الدرجة كسب هذه الوظيفة بأربعين عاماً من الخدمات . له بضع بنات شاحبات ، وبلا لون تماماً كبطرسبورغ نفسها ، بعضهن تجاوز سن الحلم منذ زمان طويل ، ترتبط عنده طاولة الشاي الصغيرة ، والبيانو ، والرقصات البيتية ارتباطاً لا فكاك له بالكتافية العسكرية المتألقة التي تتلألأ في ضوء المصباح بين الشقراء المستقيمة الخلق وبدلة الفراك السوداء لأخيها أو لواحد من معارف العائلة . إن هؤلاء الآنسات الباردات يصعب للغاية تحريكهن أو حملهن على الضحك . فان ذلك يحتاج إلى حذاقة كبيرة ، والأصح القول ، لا يحتاج الى اي حذاقة اطلاقاً . يجب ان تتكلم بطريقة غير مفرطة في الذكاء ، ولا في الإضحاك ، وأن يكون في كل شيء تقوله تلك الصغائر التي تحبها النساء . وفي هذا المضمار ينبغي الاقرار بفضل سادة معينين فهم يملكون مقدرة خاصة لحمل هؤلاء الحسناوات الخاليات من اي لون على الضحك وقدرة على الإستماع إليهن . والهتافات التي يطلقنها مخنوقة بالضحك : «آه ، يكفي ! الا تخجل من أن تضحكنا بهذا الشكل ؟» هي في الغالب المكافاة الكبرى لهؤلاء السادة . وفي الطبقة العليا نادراً ما تجدونهم ، والأصح القول ، لا تجدونهم اطلاقا . يقصيهم عنها كلياً ما يسمون في ذلك المجتمع بالارستقراطيين ، ولكنهم يعتبرون ، على كل حال اناساً متعلمين ذوي تربية . يحبون التحدث عن الأدب ، ويمتدحون بولغارين ، وبوشكين ، وغريتش ، ويتحدثون عن الاديب اورلوف بازدراء ، وبلذعات مستطرفة . وهم لا يفوتون أية محاضرة عامة سواء اكانت

عن المحاسبة وحتى عن رعاية الغابات . ودائماً تجدون واحداً منهم في المسرح ، مهما تكن المسرحية ، إلا اذا كانوا يمثلون فودفيلاً على غرار «فيلاتكا» يهين كثيراً ذوقهم المرهف . إنهم في المسرح على الدوام . فهم انفع الناس بالنسبة لادارة المسرح . وهم يحبون في المسرحية بشكل خاص الاشعار الجيدة ، كما يحبون ايضاً ان يستدعوا الممثلين باصوات عالية للطلوع على المسرح . والكثيرون منهم ، في تدريسهم بالمؤسسات التعليمية الحكومية ، او التحضير الى المؤسسات التعليمية الحكومية ، يقتنون في آخر الأمر عربة من ذوات العجلتين وزوجاً من الخيول . وعند ذاك تصير دائرتهم اوسع ، ويتوصلون اخيراً الى الزواج من إبنة تاجر تجيد العزف على البيانو ، ولها مائة ألف روبل او نحوها نقداً بدلاً من الصداق ، وثلثة من الاقارب الملتحين . إلا انهم لا يستطيعون بلوغ هذا الشرف إلا بعد ان يصلوا في خدمتهم الى رتبة عقيد على الاقل . لأن الملتحين * الروس ، رغم أن رائحة الكرنب ما تزال تصدر منهم بعض الشيء ، لا يريدون ، بأي صورة من الصور ، ان يروا بناتهم متزوجات بغير الجنرالات او العقداء ، على اقدر تقدير . تلك هي الصفات الرئيسية لهذا الصنف من الشبان . ولكن الملازم بيروغوف كان يملك عدداً من المواهب العائدة له خصيصاً . فقد كان ينشد بشكل ممتاز اشعاراً تعود الى بعض الشعراء الروس ، وله فنه الخاص في نفث الدخان من غليونه بحلقات وبتوفيق شديد ، يصل بها إلى حوالي عشر حلقات احياناً ، ينظمها واحدة وراء الأخرى دفعة واحدة . ويحسن ان يروي بطريقة طريفة جداً نادرة عن أن المدفع شيء ، ووحيد القرن شيء آخر . وعلى العموم يصعب الى حد ما تعداد المواهب التي وهبها القدر لبيروغوف . كان يحب الحديث عن الممثلة والراقصة ، ولكن ليس بالقطعية التي يعبر فيها عادة الضابط الشاب الأقل رتبة ، حين يتكلم في هذا الموضوع . وكان راضياً جداً برتبته ، التي رُقي اليها قبل وقت

---

* يقصد التجار الروس فقد كان هؤلاء في الماضي يطلقون لحاهم عادة . **المترجم** .

ليس بالطويل ، ورغم أنه كان يقول احياناً ، حين يستلقي على الأريكة : «اوه ، اوه ، هباء ، كل شيء هباء . فما النفع في أن اكون بهذه الرتبة ؟» إلا أن المنقبة الجديدة كانت ترضي غروره في قرارة نفسه ، فكان في حديثه غالباً ما يلمح اليها وكانما عرضاً ، وذات مرة صادفه في الشارع كاتب اوراق بدا له غير مهذب وقليل الادب ، فأوقفه على الفور ، وبكلمات مقتضبة ولكنها حادة ، جعله يلتفت الى أن الواقف أمامه ملازم وليس ضابطاً برتبة اخرى . وقد جاهد ، بشكل خاص ، لأن يعرض ذلك بمزيد من البلاغة ، لأن سيدتين على قدر كبير من الملاحة كانتا تمران به في ذلك الوقت . وبيروغوف ، عموماً ، كان يبدي ولعاً بكل ما هو بديع ، وكان يشجع الرسام بيسكاريوف . وعلى كل حال ، ربما كان ذلك بسبب رغبته القوية في رؤية سيمائه الرجولية في صورة شخصية . ولكن كفانا حديثاً عن صفات بيروغوف . الانسان مخلوق مدهش الى حد يتعذر معه تعداد جميع مناقبه دفعة واحدة ، وكلما تفحصته ظهر الجديد من خصائصه وصار وصفها لا ينتهي .

وهكذا واصل بيروغوف ملاحقة الغريبة ، شاغلاً اياها من حين لآخر بالاسئلة التي كانت ترد عنها بحدة ، وتقطع ، وهمهمة . عبرا بوابة قازان المعتمة إلى شارع ميشانسكايا ، شارع حوانيت التبغ والخردوات والحرفيين الالمان والحوريات الفنلنديات . كانت الشقراء تسرع اكثر ، حتى دلفت إلى بوابة بيت مبقع كثيراً . وحذا بيروغوف حذوها . صعدت سلّما ضيقاً مظلماً ، ودخلت باباً ، انسلّ فيه بيروغوف ايضاً بجرأة . فوجد نفسه في حجرة كبيرة ، جدرانها سوداء ، وسقفها مسودّ بالسخام . وعلى منضدة فيها كومة من القلاويظ الحديدية ، وأدوات السمكرة ، وابارىق القهوة اللامعة والشمعدانات . والأرض مقذّرة بقراضات النحاس والحديد . حدس بيروغوف على الفور أنها بيت حرفي . وبعد ذلك اندفعت الغريبة في باب جانبي . تريث بيروغوف لحظة ، ولكنه عزم على التقدم ، مستهديا بالقاعدة الروسية . فدخل حجرة لا تشبه الحجرة الأولى على الاطلاق . حجرة مرتّبة جيّدًا كانت تدل على أن صاحبها ألماني . وانبهر بمنظر غريب الى حد غير اعتيادي .

رأى شيللر جالساً امامه . ليس شيللر الذي كتب «هيّوم تل»

و«تاريخ حرب الثلاثين عاماً» ، بل شيللر المعروف ، الماهر في السمكرة في شارع ميشانسكايا . وقد وقف الى جانبه هوفمان ، لا هوفمان الكاتب ، بل الإسكاف المعتبر من شارع اوفيتسرسكايا ، وصديق شيللر المقرب . كان شيللر سكران يجلس على كرسي ضارباً الارض بقدمه ، متحدثاً بشيء في حماس . وكل ذلك لم يدهش بيروغوف بعد ، ولكن الذي ادهشه وضع الشخصين الغريب للغاية . فقد كان شيللر يجلس وقد رفع رأسه الى فوق ، وعَرَض أنفه اللحيم بما فيه الكفاية . أما هوفمان ، فقد كان يمسك هذا الأنف باصبعين ، ويدير حدّ سكينه الذي يشق بها الجلد على سطح أنفه تماماً . وكان كلاهما يتكلم باللغة الالمانية ، ولهذا فان الملازم بيروغوف الذي كان لا يعرف من الالمانية غير «غوت مورغين» لم يفهم شيئاً من كل هذه الحكاية . وكلمات شيللر ، على كل حال ، كانت تتلخص فيما يلي . كان يقول مشمراً ذراعيه :

– لا أريد ، لست بحاجة الى أنف . انا اصرف على الانف وحده ثلاثة ارطال من النشوق في الشهر . وأنا ادفع لمخزن روسي عفن ، لأن المخزن الالماني لا يبيع النشوق الروسي . أنا ادفع لمخزن روسي عفن ، اربعين كوبيكا للرطل الواحد . هذا يعني روبلاً وعشرين كوبيكا ، واثنتا عشرة مرة روبل وعشرين كوبيكا تساوي اربعة عشر روبلاً واربعين كوبيكا . هل تسمع يا صديقي هوفمان؟ على الانف وحده اربعة عشر روبلاً واربعين كوبيكاً ! كما انني في الأعياد استنشق سعوطاً غالياً ، لانني لا أريد ان استنشق النشوق الروسي العفن في الاعياد ! أستنشق سنويا رطلين من السعوط الغالي ، بسعر روبلين للرطل الواحد . ستة واربعة عشر ، يعني عشرين روبلاً واربعين كوبيكا ، للتبغ وحده . هذا نهب ! اسألك ، يا صديقي هوفمان ، أليس كذلك ؟ – فكان هوفمان الذي كان نفسه سكران يرد بالايجاب ، – عشرين روبلاً واربعين كوبيكاً ! انا ألماني شفابي ، وعندي ملك في المانيا . أنا لا أريد انفاً ! اقطع انفي ! هذا أنفي امامك !» .

ولو لا ظهور الملازم بيروغوف المفاجئ لكان هوفمان قد قطع انف شيللر حتماً ، وبدون أي شك ، لأنه كان يمسك السكين وكأنه يريد ان يقطع نعالاً .

وبدا لشيللر أن من المزعج جداً أن يظهر شخص غريب غير مدعو في هذا الوقت المناسب ويعيقه . ورغم انه كان في السديم المسكر للبيرة والنبيذ ، فقد شعر ببعض الحرج من الظهور في هذه الهيئة وفي هذه الفعلة بحضور شاهد غريب . وفي اثناء ذلك حيّا بيروغوف بانحناءة خفيفة ، وقال باللطف المطبوع عليه :

– اعذروني . . .

أجابه شيللر ماطاً كلمته :

– إنقلع !

اذهل ذلك الملازم بيروغوف . فإن هذه المعاملة جديدة عليه تماماً . فجأة غارت الابتسامة التي كانت قد اطلت على وجهه قليلاً . وقال بشعور الكرامة المكلومة :

– أنا استغرب ، يا حضرة المحترم . . . اظنك لم تنتبه . . . انا ضابط . . .

– وماذا يعني الضابط ! أنا الماني شفابي . . . انا نفسي (وبذلك ضرب شيللر الطاولة بقبضته) سأكون ضابطاً . سنة ونصف في المدرسة العسكرية ، وسنتان ملازماً ، وغداً ، حالاً ، ضابط . ولكن لا اريد أن اخدم . أنا مع الضابط أنفخ هكذا : فو ! – وخلال ذلك بسط كفه ، ونفخ عليها .

رأى الملازم بيروغوف انه لم يبق له ، بعد هذا ، غير الانصراف . إلا أن هذا التصرف غير اللائق برتبته اطلاقاً ازعجه ، فتوقف على السلم عدة مرات ، وكأنما يريد أن يلمّ شتات نفسه ، ويفكر في طريقة يشعر بها شيللر بوقاحته . واخيراً اهتدى الى أن من الممكن إعذار شيللر لأن رأسه كان مملوءاً بالبيرة ، وفي الوقت ذاته تخيّل الشقراء الجميلة ، وعزم على نسيان الاهانة . وفي اليوم التالي جاء الملازم بيروغوف إلى ورشة السمكري في الصباح الباكر . استقبلته الشقراء الجميلة في الحجرة الاولى ، وسألت بصوت صارم جداً يناسب وجهها كثيراً :

– ماذا تريد ؟

– مرحباً يا عزيزتي ، ألم تعرفيني يا شاطرة؟ يا لها من عينين رائعتين ! – ولدى ذلك اراد الملازم بيروغوف ان يرفع ذقنها الى

الأعلى بلمسة من اصبعه غاية في الرقة والرشاقة . الا أنه ندّت عن الشقراء آهة متهيّبة وهي تسأل بنفس الصوت الصارم :

– ماذا تريد ؟

– لا اريد اكثر من أن اراك . – قال الملازم بيروغوف مبتسماً ابتسامة على قدر كاف من اللطافة ، متقدماً منها ، ولكنه اضاف حين لمح أن الشقراء المتخوفة تريد الانسلال من الباب – أريد ، يا عزيزتي ، أن اوصي على مهمازين . هل تستطيعون أن تصنعوا لي مهمازين ؟ رغم أن حبك لا يحتاج الى اي مهماز ، بل إلى شكيمة في الأحرى . اية يدين لطيفتين لك !

كان الملازم بيروغوف دائماً دمثاً جداً في هذا النوع من المكاشفات .

– سأدعو الآن زوجي – نادت الالمانية ، وانصرفت . وبعد بضع دقائق رأى بيروغوف شيللر يخرج بعينين ناعستين ، وهو لم يكد يفيق من سكر البارحة . نظر الى الضابط ، وتذكر ما حصل يوم امس ، وكأنما في حلم مغبّش . لم يكن يتذكر في اي هيئة كان ، ولكنه كان يشعر بأنه فعل حماقة ، ولهذا استقبل الضابط بمظهر شديد الصرامة .

– لا يمكنني أن آخذ على المهمازين اقل من خمسة عشر روبلاً ، – قال راغباً في التملص من بيروغوف ، لأنه ، كالماني شريف ، يخجله كثيراً ان ينظر الى مَنْ رآه في هيئة غير لائقة . فقد كان شيللر يحب أن يشرب بدون اي شهود ، مع صديقين او ثلاثة ، وينقطع في ذلك الوقت حتى عن شغيلته .

قال بيروغوف بلطف :

– ولِمَ بهذا الغلاء ؟

– شغل الماني – قال شيللر ببرود اعصاب ، ممسداً على ذقنه – الروسي يقبل عمل ذلك بروبلين .

– موافق ! كي أبرهن على أنني احبكم ، واود التعارف معكم ، ادفع لكم خمسة عشر روبلاً .

لبث شيللر دقيقة واحدة يتأمل . فهو ، كالماني شريف ، احس بشيء من الخجل . فأراد نفسه أن يقدم صاحب الطلب على التخلي عن طلبه ، واعلن أنه لا يستطيع أن ينتهي منه إلا بعد ما لا يقل

عن اسبوعين . إلا أن بيروغوف اعلن عن موافقته التامة دون اي اعتراض . استغرق الالماني يفكر وراح يتأمل طريقة فضلى لجعل عمله يساوي خمسة عشر روبلاً بالفعل . وفي تلك اللحظة دخلت الشقراء الورشة ، واخذت تنبش في المنضدة المتناثرة عليها اباريق القهوة . استغل الملازم استغراق شيللر في التفكير وتقدم منها ، وضغط على ذراعها المعراة حتى الكتف . إمتعض شيللر من ذلك كثيراً . صاح :

– يا زوجتي !

اجابت الشقراء :

– ماذا تريد ؟

– اذهبي الى المطبخ • !

إنصرفت الشقراء . قال بيروغوف :

– اذن ، بعد اسبوعين ؟

– نعم ، بعد اسبوعين ، – اجاب شيللر في تأمل – عندي الآن اشغال كثيرة جداً .

– الى اللقاء ! سآتي اليك .

– الى اللقاء !

ردّ شيللر ، وهو يغلق الباب خلفه .

عزم الملازم بيروغوف على مواصلة ملاحقة الشقراء ، رغم صدود الالمانية الواضح عنه . لم يستطع أن يفهم كيف يمكن صده ، لا سيما وأن لطفه ورتبته اللامعة كانا يعطيانه تمام الحق في الإلتفات اليه . ومع ذلك يقتضي القول ايضاً إن زوجة شيللر كانت بلهاء جداً رغم ملاحتها . وللبلاهة ، بالمناسبة ، سحر خاص في الزوجة المليحة . فأنا ، على الأقل ، اعرف ازواجاً كثيرين في غبطة شديدة من بلاهة زوجاتهم ، ويرون فيها كل علائم البراءة الطفولية . والجمال يصنع عجائب حقيقية . وجميع النقائص الروحية في الحسناء تصير جذابة الى حد بعيد ، بدلاً من أن تثير الاشمئزاز ، والعيب نفسه يظفح حلاوة فيها ، ولكن اذا اختفى الجمال ، احتاجب المرأة الى أن تكون عشرين مرة اذكى من الرجل لتوحي بالاحترام ، على الاقل ،

• وردت الجمل الثلاث في الاصل باللغة الالمانية تلفظا . **المترجم** .

إن لم يكن بالحب . وزوجة شيللر كانت ، على العموم ، وفية دائما برابطتها ، رغم كل بلاهتها ، ولهذا كان صعباً على بيروغوف بما فيه الكفاية التوفيق في مشروعه الجريء ، ولكن التغلب على العقبات ينطوي على متعة دائماً ، وصارت الشقراء امتع في عينيه من يوم الى يوم . اخذ يستفسر عن المهمازين بكثرة حتى ضجر شيللر اخيراً . فكان يستنفر كل جهوده لينتهي في اقرب وقت من المهمازين اللذين بدا في صنعهما ، وفي آخر الأمر صار المهمازان جاهزين .

صاح الملازم بيروغوف حين رأى المهمازين :

– آه ، أي عمل ممتاز ! اي صناعة جيـــدة ، يا رب ! ليس لجنرالنا مثل هذين المهمازين .

شاع الشعور بالرضى في نفس شيللر . واخذت عيناه تنظران بمرح كاف ، وتصالح مع بيروغوف كلياً . وكان يفكر مع نفسه : «الضابط الروسي رجل ذكي» .

– يعني وتستطيع أن تصنع قرابـاً للخنجر ، او للأشيـاء الاخرى ؟

قال شيللر بابتسامة :

– جداً .

– طيب ، اصنع لي قرابـاً للخنجر . سأجلبه لك ، عندي خنجر تركي جيد جداً ، ولكن كنت اريد أن اصنع له قراباً آخر .

وقع ذلك على شيللر وقوع الصاعقة . تغضّن جبينه فجاة ، وفكر مع نفسه : «اخذني من حيث لا ادري !» وشتم نفسه سراً على تورطه بنفسه في هذا العمل . ولكنه اعتبر الرفض غير لائق ، لا سيما وأن الضابط الروسي امتدح عملـه . هزّ راسه قليلاً ، وابدى قبوله . ولكن القبلة التي طبعها بيروغوف على شفتي الشقراء الجميلة بطريقة وقحة ، اوقعته في حيرة تامة .

لا أرى من نافلة القول تعريف القارئ على شيللر تعريفـاً أوثق . كان شيللر المانياً قحاً . بكل معنى هذه الكلمة . منذ أن كان في العشرين من العمر ، منذ تلك السن السعيدة التي يتيه فيها الروسي خلي البال ، نظم شيللر كل حياته ، ولم يخرج عن هذا النظام قط . عزم على أن يستيقظ في الساعة السابعة ، ويتناول غداءه في الثانية ، وأن يكون دقيقاً في كل شيء ، ويسكر كل يوم

احد . لقد الزم نفسه على أن يجمع خلال عشرة اعوام رأسمالاً من خمسين الف روبل ، وكان ذلك قراراً طبيعياً لا مردّ له كالقدر ، لأن تهاون الموظف في الاهتمام برئيسه اقرب من أن يتخلى الالماني عن كلمته . لم يكن يزيد مصروفاته في اي ظرف كان ، واذا ارتفع سعر البطاطس اكثر من المعتـاد بمقدار كبير ، لم يكن يضيف كوبيكا واحداً ، ولكنه كان يقلل من كمية البطاطس فقط ، ورغم انه كان يظل جائعاً بعض الشيء ، إلا انه كان يتعود ذلك . وقد وصلت دقته الى حد انه قرر أن لا يقبل زوجته اكثر من مرتين في اليوم ، ولكي يجنب نفسه قبلة زيادة ، كان لا يضع في حسائه اكثر من ملعقة من الفلفل ؛ غير انه كان في ايـام الآحاد لا يتمسك في هذه القاعدة بصرامة شديدة ، لأن شيللر كان يشرب في ذلك اليوم زجاجتين من البيرة ، وزجاجة من الفودكـا المطعمة بالاعشاب التي كان يشتمها دائماً . وكان في شربـه يختلف تماماً عن الانجليزي الذي يغلق عليه البـاب بالمزلاج بعد الغداء مباشرة ، ويسكر وحده . كان على العكس من ذلك ، فهو ، باعتباره المانيـاً ، كان يشرب دائماً باريحية إما مع الاسكاف هوفمان وإمـا مع النجار كونتس الالماني ايضاً ، والسكير الضليع . ذلك هو خلق شيللر النبيل الذي وجد نفسه اخيراً في ورطة كبيرة . ورغم انه كان بارد المزاج والمانياً ، إلا أن تصرفات بيروغوف اثارت فيه مـا يشبه الغيرة . اتعب ذهنه ، ولم يستطع أن يهتدي الى طريقة يتخلص بها من هذا الضابط الروسي . وخلال ذلك ، كان بيروغوف ، وهو يدخن غليونه وسط رفاقه – لأن العناية الإلهية شاءت أن توجد الغلايين حيث يوجد الضباط – يلمح بدلالة وابتسامة لطيفة عن علاقته الغرامية مع المانية مليحة رفع الكلفة معها كلياً ، على حد تعبيره ، بينما كان ، في واقع الأمر ، يكاد يفقد الأمل في جذبها اليه .

وذات يوم ، بينما كان يتمشى في شارع ميشانسكايا ينظر إلى البيت الذي كانت تزدهي عليه لافتـة شيللر بأباريق القهـوة والسماورات ، رأى ، وسط فرحه الشديد ، رأس الشقراء يطل من النافذة ، ويتطلع الى السابلة . توقف ، وأومأ لها بيده ، وقال : «غوت مورغين !» فانحنت له الشقراء كاحد المعارف .

– هل زوجك في البيت ؟
اجابت الشقراء :
– نعم .
– ومتى يغيب عن البيت عادة ؟
– في ايام الآحاد يغيب عن البيت عادة .
قالت الشقراء البلهاء . ففكر بيروغوف مع نفسه : «هذا لا بأس به ، ويجب استغلاله» .

وفي يـــوم الأحد التالي هبط على الشقراء هبوط الثلج على الراس . وكان شيللر متغيباً عن البيت بالفعل . فزعت ربة البيت الجميلة . ولكن بيروغوف تصرف في هذه المـــرة بحذر كافٍ ، وتعامل باحترام شديد ، ولدى انحنائه ابدى كل جمال قوامه اللدن الممشوق المحزم عند الخصر . ومزح مزاحاً لطيفاً جداً ومهذباً ، إلا أن الالمانية البلهاء كانت ترد على كل شيء بكلمة من مقطـــع واحد . واخيـراً ، وبعد أن جرب كل شيء ، ووجد أنْ لا شيء يستهويها ، عرض عليها أن يرقصا . وافقت الالمانية على الفور ، لأن الالمانيات يهوين الرقص دائماً . وكان بيروغوف يبني أمله على ذلك الى درجة كبيرة جداً . فـان ذلك ، اولاً ، يوفر لهـــا متعة ، وثانياً ، يمكن أن يظهر قوامه وخفته ، وثالثاً في الرقص يكون على اقرب مسافة ممكنة منها ، يحتضن الالمانية الجميلة ، ويضع الاساس لكل شيء . وباختصار كان يؤدي كل ذلك الى نجاح وفي اكمل وجه . بدأ رقصة فرنسية قديمة عارفاً ان الالمانيـــة تحتاج الى تدرج . طلعت الالمانية الجميلة إلى منتصف الحجرة ، ورفعت ساقاً رائعـة . وقد اعجب بيروغوف بهذا الوضع حتى أنه اندفع يقبلها . بدأت الشقـراء في الصراخ وزادت بذلك فتنتهـــا وسحرها في رأي بيروغوف فاغدق عليهـــا التقبيل . واذا بالباب يُفتح ، ويدخل شيللر وهوفمان والنجار كونتس . وجميع هؤلاء الحرفيين المعتبرين كانـــوا سكارى ، بالشكل الذي يسكر بـه الاسكافون عادة .

ولكنني اترك للقراء انفسهم أن يتصوروا مدى غيظ شيللر وحنقه .

– جلف ! – صاح بحنـــق بالغ – كيف تجسر على تقبيـــل

زوجتي ؟ أنت نذل ، ولست ضابطاً روسياً . اللعنة ، يا صديقي هوفمان ، أنا الماني ، ولست خنزيراً روسياً .

وافقه هوفمان على ذلك .

– اوه ، أنـــا لا اريد أن تطلع لي قـــرون ! امسكه ، يا صديقـــي هوفمان ، مـــن ياقته ، أنـــا لا اريـــد – مضى يقول مشمراً ذراعيه بقوة ، بينما كان وجهـــه احمر بلون قماشة صداره – اعيش في بطرسبورغ منذ ثمانية اعوام ، وعندي في شفابيا أم ، وعمـــي في نيورنبورغ وانا الماني ، ولست ثوراً مقرناً ! جرده من ثيابه ، يا صديقي هوفمان ، امسكـــه من يده ورجله ، يا رفيقي كونتس !

وامسك الالمان بيروغوف من يديه ورجليه .

جاهد بيروغوف ليخلص نفسه ولكـــن هيهات . كان هؤلاء الحرفيون الثلاثة اقوى الالمان في بطرسبورغ جميعاً ، وقد تصرفوا معه بخشونة وفظاظة حتى انني ، بصراحة ، لا اجـــد الكلمات لتصوير هذه الحادثة المأساوية .

وانا واثق من أن شيللر كان في اليوم التالي مصاباً بحمـــى شديدة ، وانه كان يرتجف كالورقة ، متوقعاً من لحظة الى اخرى وصول الشرطة ، والله يعلم كم كان سيدفع ليكون كل ما حدث مجرد حلم رآه في نومه . ولكن ما وقع يستحيل الرجوع عنه . ولا شيء يمكن أن يقارن بغيظ بيروغوف واستيائه . كـــان مجرد التفكير بهذه الاهانة الفظيعة يسعّر الحنق في نفسه . كان يعتبـر النفي الى سيبيريا ، والجلد اصغـــر عقوبتين في حق شيللر . انطلق الى بيته ، ليغير ملابسه ، ويذهب من هنـاك الى الجنرال مباشرة ، ويصف لـــه بأكثر الالوان تعبيراً عربدة الحرفييـــن الالمان . وكـــان يريد أن يقـــدم في الوقـــت ذاته طلبـاً خطياً إلى الاركـــان العامـــة . واذا مـــا اصدرت الاركان العامة عقوبة غير كافية ، فانه سيلجأ إلى مجلس الدولـة راساً ، وإلا فإلى القيصر نفسه .

ولكن كل ذلك انتهى بنهاية غريبة . ففي طريقة الى البيت دخل محل حلويات ، وأكل قطعتين من الفطائر المطبّقة ، وقرأ شيئاً من صحيفة «سيفرنايا بتشيلا» ، وخرج وقد خفت شدة غيظه . ثم ان

المساء الطري واللطيف إلى حد كاف ، جعله يتمشى قليلاً في شارع نيفسكي ، وفي نحو الساعة التاسعة كان قد هدأ ، ورأى من غير اللائق أن يزعج الجنرال في يوم أحد ، ومن المؤكد أيضاً أنه قد استدعي إلى جهة ما ، ولهذا توجه ليقضي امسيته عند احد مدراء مصلحة التدقيق والاحصاء ، حيث كان يوجد جمع لطيف جداً من الموظفين والضباط . وقد قضى امسيته هناك باستمتاع ، وبرّز في رقصة المازوركا حتى انه لم يكتف بخلب ألباب السيدات فقط ، بل والفرسان أيضاً .

«دنيانا عجيبة ! كنت أفكر في ذلك وأنا اتمشى في شارع نيفسكي يوم امس الأول ، واسترجع في ذهني هذين الحادثين – وما اغرب لعب القدر بنا ، هذا اللعب غير المفهوم ! فهل سنحصل في يوم ما على ما نصبو اليه ؟ وهل سنبلغ ما يبدو وكأن قوانا قد أُعدت له خصيصاً ؟ كل شيء يحدث بالعكس . مَنْ حباه القدر بجياد رائعة ، ينطلق عليها غير مكترث ، وغير فاطن إلى جمالها قط بينما الذي يلهب قلبَه حبُ الجياد يسير على قدميه ، ويكتفي بالتمطق بلسانه ، حين يمرّ به جواد عَدّاء . مَنْ يُعطى طاهياً ماهراً ، يكون فمه صغيراً ، يا حسرة ، لا يستطيع أن يمرر به اكثر من لقمتين بينما الذي له فم كبير بحجم قوس الاركان العامة مضطر ، واأسفاه ، الى أن يقتصر على غداء زهيد من البطاطس . آه ، ما اغرب لعب القدر بنا !

ولكن اغرب الحوادث كلها ، هي التي تحصل في شارع نيفسكي . اوه ، لا تصدقوا بشارع نيفسكي ! دائماً حين أسير فيه ، أحكم شدّ معطفي على جسدي ، وأحاول أن لا انظر ابداً الى الاشياء التي اصادفها . كل شيء خداع ، كل شيء وهم ، كل شيء ليس بالشكل الذي يبدو فيه . هل تتصوّرون أن ذلك السيد الذي يتنزه في سترة حسنة التفصيل غني جداً ؟ لا ، قطعاً . كل قيمته في سترته . هل تتصوّرون أن ذينك السيدين البدينين اللذين توقفا امام كنيسة في طور البناء يتناقشان في معمارها ؟ لا ، ابداً . بل يتحدثان عن الطريقة الغريبة التي حط بها غرابان احدهما مقابل الآخر . هل تظنون أن هذا المتحمس الذي يشمر بذراعيه يحكي كيف أن زوجته ألقت شيئاً من النافذة لتثير انتباه

ضابط غريب عليه تماماً ؟ لا ، قطعاً ، إنه يتكلم عن لافايت * . وتظنون أن هذه السيدات . . . ولكن صدقوا بالسيدات اقل من اي شخص آخر . وقللوا من النظر في واجهات المخازن ، فالخردوات المعروضة فيها رائعة ، إلا أنها تنذر بكمية رهيبة من اوراق النقد . ولكن الله يحفظكم من النظر في وجوه السيدات تحت القلنسوات ! أنا لن يثير فضولي أبداً رفيف معطف حسناء من بعيد ، ولن الحقها ! ابتعدوا ، ابتعدوا عن مصباح الشارع ، بحق الرب ، واجتازوه أسرع ما في مستطاعكم . فسيحالفكم الحظ ، إن نجوتم منه بتلطيخ ستراتكم الأنيقة بزيته العفن فقط . ولكن الخداع يلف كل شيء ، لا المصباح وحده . إن شارع نيفسكي هذا يكذب طوال الوقت ، ولكنه يكذب بشكل خاص ، حين يكلكل الليل عليه بجنحه الكثيف ، ويفصل جدران البيوت البيضاء والفاتحة الصفرة ، حين تتحول المدينة كلها إلى هدير ولمعان ، وتسرح آلاف مؤلّفة من العربات من القناطر ، ويصيح مساعدو الحوذية ، ويتواثبون على الخيول الامامية ، وحين يوقد الجنيّ نفسه المصابيح لا لشيء ، إلا ليجعل كل شيء يبدو في غير صورته الحقيقية .

---

* لافايت – شخصية سياسية فرنسية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . **المترجم** .

القسم الأول

الصورة

لم يتوقف خَلْق في اي مكان بتلك الكثرة التي توقف بها أمام دكان الصور في سوق تشوكين . كان هذا الدكان يجمع بالفعل اكثر الغرائب تنوعاً : لوحات رُسِم معظمها بالالوان الزيتية ، مطلية بدهان داكن الخضرة ، في اطر مزَوقة قاتمة الصفرة ، موضوعاتها الاعتيادية شتاء باشجار بيض ، وشفق احمر كليـــا ، مثل وهج حريق ، وريفي فلامندي يغليونه وذراعه المخلوعة ، لا يشبه انسانا بقدرما يشبه ديكا رومياً مزرقش الريش . والى هذا يجب أن نضيف بعض صور الكرافيك : صورة الامير الفارسي خسرو مرزا يعتمر قبعة من فراء الغنم ، وصور جنرالات في قبعـات ثلاثية ، وانوف معكوفة . وبالاضافة الى ذلك عادة مـا تعلق على أبواب مثل هذه الدكاكين ربطات من الرسوم المطبوعة على اوراق كبيرة والمذيلة بمأثور الاقوال ، شاهدة على إصالة الموهبة لدى الروسي . على احد هذه الاوراق صورة ابنة القيصر ميليكتريسا كيربيتيفنا بطلة الحكاية الشعبية ، وعلى أخرى مدينـة القدس ، وقد ساح اللون الأحمر على دورها وكنائسها بلا كلفة ، وسرح على جزء من الأرض ، وعلى إثنين من الريفيين الروس يصليان في قفافيزهما . ومشترو

هذه الرسوم غير كثيرين في العادة ، ولكن المتفرجين ، على العكس من ذلك ، كثار . بينهم خادم مقصر ، يطيل الوقوف أمامها ، وفي يده محمل آنية لغداء سيده جاء به من الحانة ، وليس من شك في أن هذا السيد سيأكل حساءه فاتراً . وأمامه ، على الارجح ، جندي في معطف ، هو اليف سوق الاشياء المستعملة ، يبيع مطواتين . وبائعة من منطقة نائية ، تحمل علبة مملوءة بالأحذية . وكل واحد منهم يبدي اعجابه على طريقته الخاصة . القرويون عادة يشيرون بسباباتهم ، والجنود يتفحصون بجدية ، والخدم الصبيان ، وغلمان الحرفيين يتضاحكون ، ويناكد بعضهم بعضاً بالصور الكاريكاتورية . وعجائز الخدم في معاطفهم القطنيـــة السميكة ينظرون لمجرد أن يتلكأوا في مكان ما . أما البائعات ، العاميات الروسيات الشابات فيهرعن بفطرتهن ليسمعن مـــا يقول الناس ، وينظرن الى مـــا ينظرون اليه .

في ذلك الوقت صادف أن كان الرسـام الشاب تشارتكـوف ماراً بذلك الدكان فوجد نفسه يتوقف امامه لاراديا . كان معطفه القديم وملبسه غير المتانق يشيران الى أنه رجل متفان في عمله بنكران ذات ، مشغول عن الاهتمام بهندامه ، يتملك دائما تلك الجاذبية الخفية الخاصة بسن الشباب . توقف امام الدكان ، وفي اللحظة الأولى ضحك في سره من تلك اللوحات المشوَهة . ولكنه اخيراً تملكه استغراق لاارادي . فقد اخذ يفكر : ترى من اولئك الذين يمكن أن تستهويهم هذه الأعمال . لم يبد له غريباً أن يتطلع الروس إلى «يروسلان لازاريفيتش» و«الشره والشريب» والى «فوما ويريومـــا» . فان هذه الموضوعات المرسومة كانت ميسورة جداً ومفهومة من قبل العامة . ولكن اين الذين يشترون هذه اللوحات الزيتية المبرقشـــة القذرة ؟ مَنْ بحاجـــة إلى هـــؤلاء الريفيين الفلامنديين ، الى هذه المناظر الطبيعية الحمراء والزرقاء التي تدعي علو قدم في الفن ، بينما هي تنحط به انحطاطا شديدا ؟ والظاهر أنها لم تكن حتى اعمال طفل يتعلم الرسم بنفسه . وإلا لانبثق منها دفق عفوي حاد ، رغم كل كاريكاتوريتها المجردة من المشاعر ، بكليتها . ولكن الرائي لم يكن يرى فيها غير كلل الذهن ، والسطحية العاجزة السقيمة التي جعلت نفسها في مصاف الفنون اعتباطاً ، بينما

المكان اللائق بها أن تكون بين الحرف الدنيا ، السطحية ، التي كانت ، على كل حال ، وفية الى مهمتها ، فادخلت حرفتها في الفن ذاته . ومما يدل على ذلك الاصباغ ، والطريقة ، واليد المجربة المتعددة ، التي يمكن أن تنسب الى آلة غير متقنة الصنع ، اكثر مما تنسب الى انسان ! . . وقف الرسام طويلا امام هذه اللوحات القذرة ، حتى لم يعد يفكر فيها اخيراً ، وفي غضون ذلك كان صاحب الدكان ، وهو رجل حقير المظهر في معطف قطني سميك وبرى لم يحلق وجهه منذ يوم الأحد ، يحادثه منذ وقت طويل ، ويغريه في الشراء ، ويساومه على الثمن ، حتى دون أن يعرف ماذا اعجبه ، وماذا يبتغيه .

– استطيع أن اعطي صورة هؤلاء الريفيين ، ولوحة المنظر الطبيعي لقاء عشرين روبلا ! رسم ممتاز ! لا تشبع العين من النظر اليه . تسلمتها من البورصة قبل لحظات ، لم يجف الطلاء منها بعد . أو منظر الشتاء هذا . خذه ! بخمسة عشر روبلا ! الاطار وحده يساوي مبلغاً محترماً . انظر اى شتاء هذا ! – وفي تلك اللحظة نقر البائع قماشة اللوحة نقرة خفيفة ، ليظهر جودة الشتاء ، على الارجح . – هل تأمر أن اربطها سوية ، وأرسلها وراءك ؟ أين تسكن ، لو سمحت ؟ هاى ، يا غلام ، هات حبلاً .

– انتظر ، يا اخ ، لا تستعجل – قال الرسام وقد افاق على نفسه ، ورأى البائع الحرك يأخذ يربطها عن جد . شعر بشيء من الخجل من عدم شرائه شيئاً ، بعد وقفته الطويلة هذه في الدكان ، فقال :

– انتظر ، لعلي سأرى شيئاً في هذا المكان يصلح لي ، – وانحنى ، وأخذ يرفع من الأرض الرسوم الرخيصة القديمة المقشرة الاصباغ ، المغبرة ، المكوّمة ، التي لم تحظ بتقدير أحد ، كما يبدو . كانت هناك صور عائلية قديمة ، ربما لم يعد وجود على الأرض حتى لأحفادها ، وصور مجهولة تماماً ، قماشاتها ممزقة ، وأطر مذهبة مقشّرة . وباختصار ، كل ما هو سقط متاع . ولكن الرسام أخذ ينظر فيها مفكراً في سره : «لعلي أجد شيئاً ما .» وكان قد سمع غير مرة حكايات عن لوحات فنانين عظام عُثر عليها احيانا بين ركام بائعي الصور الرخيصة .

شاهد صاحب الدكان توغل الرسام ، فكفّ عن لغطه وعاد الى وضعه الطبيعي ، ملتزماً جانب الوقار ، ووقف من جديد عند الباب ، داعياً المارة ، ومشيراً لهم الى الدكان بيد واحدة : «تفضل ، يا محترم ، عندى لوحات ! ادخل ، ادخل . جاءت من البورصة توا» . وبعد أن شبع من الصياح ، ومعظم الوقت بدون جدوى ، وتحدث بما فيه الكفاية مع بائع الخردوات ، الذى كان واقفاً ايضاً قبالته عند باب دكانه ، وتذكر أخيراً بأن في دكانه مشترياً ، ادار ظهره الى الناس ، ودخل الدكان . «هل اخترت شيئا ، يا حضرة ؟» ولكن الرسام كان منذ بعض الوقت واقفاً بلا حراك أمام صورة في أطار كبير كان بديعاً في زمانه ، ولكن آثار القشرة الذهبية لا تكاد الآن تلمع عليه .

كانت هذه الصورة لشيخ ذى وجه برونزى اللون ، ناتئ الوجنتين ، عليل المظهر . وقد التقطت قسمات الوجه في لحظة حركة متشنجة ، فهي لا توحي بقوة الشمال . وكانت الظهيرة اللاهبة مطبوعة عليها . كان يرفل في ملابس آسيوية فضفاضة . وعلى الرغم مما في الصورة من تلف ، واغبرار ، إلا أن الرسام ، حين استطاع أن يزيح الغبار عن الوجه ، رأى لمسات عمل فنان رفيع . وتبين أن الصورة لم تكن كاملة ، ولكن قوة الريشة كانت مذهلة . وكانت العينان اعجب ما في الصورة . فقد بدا وكأن رسامها صبّ فيهما كل قوة ريشته ، وكل جهده الدائب . كانت العينان تحدقان بحياة ، تحدقان حتى من الصورة نفسها ، وكأنما بحيوتهما الدافقة الغريبة تكملان نسق الصورة . وحين قرّب الصورة من الباب ، صارت العينان ترنوان بقوة أشد . ونفس هذا الوقع تركته الصورة في الناس ايضاً . فقد صاحت المرأة التي كانت واقفة وراءه : «يحدق ، يحدق» وتراجعت الى الوراء . وكان الرسام يشعر باحساس مقلق غير مفهوم حتى لنفسه ، فوضع الصورة على الأرض .

قال صاحب الدكان : – يعني تشتريها !

قال الرسام : – بكم ؟

– ولماذا ابالغ في ثمنها ؟ خذها بخمسة وسبعين كوبيكاً .

– لا .

– طيب ، كم تدفع ؟

– عشرين كوبيكا .

قال الرسام ، وهمّ بالانصراف .

– ما ابخس الثمن ! الاطار وحده يساوي اكثر من عشرين . يبدو انك لا تنوي أن تشتريها ؟ سيد ، سيد ، ارجع ! على الأقل لو اضفت عشرة كوبيكات أخرى . خذها ، خذها . وهات عشرين كوبيكا . حقاً ، لاستفتح البيع ، لا غير . فانت أول مشترٍ .

وبعدها شمّر ذراعه ، وكأنما يقول : «وليكن ما يكون . وعلى الصورة العفاء !»

وعلى هذا النحو اشترى تشارتكوف صورة قديمة بطريقة غير متوقعة تماماً ، وفي نفس الوقت كان يفكر : «وعلام اشتريتها ؟ وما حاجتي اليها ؟» ولكن الأمر وقع ولا مفر منه . أخرج عشرين كوبيكا من جيبه ، واعطاها لصاحب الدكان ، ووضع الصورة تحت ابطه ، وحملها معه . وفي الطريق تذكر أن العشرين كوبيكا التي اعطاها للبائع هي آخر ما لديه من نقود . وأدلهمت افكاره فجأة . وفي الحال غمره كدر وخواء زاهد . وقال بشعور الروسي حين تضيق عليه أموره : «الشيطان ! تف على الدنيا !» وسار بخطوات سريعة وبحركة آلية تقريبا ، يملؤه النفور من كل شيء . كان لون الشفق الأحمر ما يزال يغمر نصف السماء ، وضوؤه الدافئ ما يزال ينير قليلاً البيوت المواجهة لذلك الجانب . بينما كانت زرقة الهلال الباردة تشتد . وكانت البيوت واقدام السابلة تلقي على الأرض كالذيول ظلالاً خفيفة شبه شفافة . وكان الرسام قد أخذ يرمق شيئا فشيئا السماء المنوّرة بنور رهيف شفاف موهم ، وفي ذات الوقت تقريباً كانت هذه الكلمات تند من بين شفتيه : «اية مسحة خفيفة !» وهذه الكلمات : «مؤسف ، يا للشيطان !» وحث خطاه ، وهو يعدّل الصورة التي كانت دائماً تسرح من تحت ابطه .

وصل الى بيته متعباً مسربلاً بالعرق . وكان بيته في الصف الخامس عشر في جزيرة فاسيليفسكي . صعد الدرج بصعوبة وبوقفات ، وكان الدرج مبلولا بمياه الغسيل ، مزيناً بفضلات القطط والكلاب . لم يرد أحد على طرقه للباب . كان الخادم متغيباً عن البيت . اتكأ على النافذة ، وهيأ نفسه للانتظار بصبر ، حتى

ترددت وراءه اخيراً خطوات شاب في قميص ازرق ، هو مساعده ، وموديله والرجل الذى يمزج له الاصباغ ويكنس ارضية غرفه ، ويبقعها في نفس اللحظة بآثار حذائه الطويل . كان هذا الشاب يدعى نيكيتا ، يقضي طوال وقته خارج البوابة ، حين يكون السيد غائباً . جاهد نيكيتا طويلاً ليدخل المفتاح في ثقب الباب ، المحجوب بالظلام . واخيراً فتح الباب . ودخل تشارتكوف في رواق شقته البارد الى حد لا يحتمل ، كما هو دائماً في بيوت الرسامين ، وهو شيء ، لا يلحظونه ، بالمناسبة . لم يعط تشارتكوف معطفه لنيكيتا ، ودخل به مرسمه ، وهو حجرة مربعة كبيرة ، ولكنها واطئة السقف ، متجمدة النوافذ ، يتناثر فيها كل ما لدى الرسام من متاع : قطع اذرع جبسية ، اطارات شدّت عليها قماشة الرسم ، وتخطيطات اولية مهملة ، واغطية تناثرت على الكراسي . كان شديد التعب ، فالقى عنه معطفه ، ووضع الصورة بشرود ذهن بين جنفاصتين غير كبيرتين ، وارتمى على أريكة ضيقة لا يمكن أن يقال عنها انها مغلفة بالجلد ، لأن صف المسامير الصغيرة النحاسية التي كانت تثبت الجلد قد تحرر منه منذ زمان ، كما أن الجلد تحرر منها ايضا ، وبقى يغطى الاريكة من فوق حتى أن نيكيتا كان يحشر تحته الجوارب السوداء ، والقمصان ، وكل الثياب الداخلية غير المغسولة . جلس قليلاً ، واستلقى بقدر ما كانت هذه الاريكة الضيقة تسمح بالاستلقاء ، واخيراً طلب شمعة . فقال نيكيتا :

– لا توجد شمعة .

– كيف لا توجد شمعة ؟

فقال نيكيتا :

– حتى يوم امس لم تكن .

وتذكر الرسام أن البيت بالفعل كان بلا شمعة يوم امس ، فهدأ باله ، وسكت . وجعل خادمه يخلع له ثيابه ، ولبس روبه الذى طال عليه الاستعمال وتهرأ .

قال نيكيتا :

– والشيء الثاني صاحب البيت جاء .

– اها ، جاء على الفلوس ؟ اعرف .

قال الرسام ، بعد ان هزّ ذراعه . فقال نيكيتا :

– ولكن لم يات وحده .

– مع من جاء ؟

– لا اعرف ، مع من . . . مع شرطي .

– والشرطي لاى غرض ؟

– لا اعرف لاى غرض . يقول لان ايجار الشقة لم يدفع .

– طيب ، وماذا يترتب على ذلك ؟

– لا اعرف ماذا يترتب . كان يقـــول اذا كان لا يريد ان يدفع ، فليخرج من الشقة ، اذن . يريدان ان ياتيا غدا كليهما .

– فليأتيا .

قال تشارتكوف بعدم اكتراث شجي . واستولى عليه مزاج عكـر .

كان تشارتكوف الشاب رساماً موهوبـاً يعد بالكثير . كانت ريشته بتوهجاتها ولمساتها الخاطفة تشي بدقة الملاحظة ، وتوقد الذهن ، والاندفاع الجارف للاقتراب اكثر من الطبيعة . وقد قال له استاذه غير مرة : «حذار ، يا اخ ، ان لك موهبة ، ومن الخطيئة ان تقتلها . ولكنك قليل الصبر . ما ان يغريك شيء ، أو يعجبك شيء حتى تنغمس فيه . وما عداه تفاهة بالنسبة لك ، ما عداه لا يساوى لديك شيئاً ، بل ولا تريد النظر اليه . احذر حتى لا تطلع رساماً على الموضة . الالوان عندك منذ الآن تاخذ بالاعلان عن نفسها بشدة بالغة . والتخطيط غير دقيق ، بل واحياناً ضعيف للغاية . والخط لا يرى . انت تركض وراء الانارة على الموضة ، وراء ما يبهر البصر من اول نظرة . حذار ، فستسقط بهذه الطريقة في النمط الانجليزى . احترس . بدات الدنيا تغريك . احياناً ارى على رقبتك لفاحا انيقا ، وقبعة على الموضة . . . شيء مغر ، ومن الممكن الانجراف في رسم اللوحات على الموضة ، صور لقاء نقود . ولكن ذلك يقتل الموهبة ولا يطورها . اصبر . تروّ في كل عمل . واترك الاناقة . دع الآخرين يجمعون الفلوس . وستظفر بما هو لك في آخر المطاف» .

وكان الاستاذ مصيباً بعض الشيء . فان رسامنا كان احياناً يحب بالفعل أن يلهو ، ويتانق ، وباختصار أن يظهر شبابه في

مكان ما . ولكن مع هذا كله كان يستطيع السيطرة على نفسه . واحياناً كان يستطيع أن ينسى كل شيء ، منغمراً بريشته ، متمسكاً بها تمسك النائم بحلم جميل . وكان ذوقه يتطور بشكل ملحوظ . ورغم انه لم يكن يفهم بعد كل مـا في روفائيل من عمق ، الا ان ريشة غفيدو السريعة العريضة كانت تستهويه ، وكان يتوقف امام صور تيتسيان ، ويعجب بالرسامين الفلامنديين . ومع انه لـــم يلحق بعد أن يدرك سر اللوحات القديمة بسطحها المسوّد ، الا انه استطاع أن يتلمس شيئاً فيها ، ولو أنه في دخيلة نفسه لم يكن يوافق مع الاستاذ على أن المبدعين القدامى قد سبقونا بمراحل لا نصل اليها ، بل كان يبدو له أن القرن التاسع عشر تفوق عليهم كثيراً بشيء ما ، وان محاكاة الطبيعة اضحت الآن أسطع ، واحفل بالحياة ، واكثر قربـــاً . فهو ، باختصار ، كان يفكـــر من هذه الناحية ، كما يفكر شاب حقق شيئاً ما ، وكان يشعر بذلك في داخل واعيته الفخور . وكان احياناً يحس بالكدر ، حين كان يرى رساماً وافداً ، فرنسياً كان أو المانياً ، بل واحياناً ليس رساماً بمَلَكتِه ، بل بالطريقة التى ألفها ، وعرامة ريشته وصراخ الالوان ، يثير ضجة عامة ، ويجمع لنفسه راسمالاً من النقود في لمحة عين . وكان هذا لا يخطر في باله ، حين يكون منغمراً بعمله ، فقد كان ، عند ذاك ، ينسى الأكل والشرب والعالم اجمع ، ولكنه كان يخطر ، حين لا يكون له مايشترى به فرشاً واصباغاً ، وحين كان صاحب البيت الملحاح يتردد عليـــه عشر مرات في اليوم يطالبه بايجار الشقة . حينذاك كانت ترتسم في مخيلته الجائعة قسمة رسام غني محظوظ ، حينذاك كانت تراوده حتى الفكرة التي كثيرا ما تراود ذهن الروسي : أن يهمل كل شيء ، وينغمس في الخمرة نكاية بكل شيء . والآن كان يواجه هذه الحالة او ما يقاربها .

نبس في ضيق :

– نعم ! اصبر ، اصبر ! فان للصبر نهاية ، في آخر الأمر . اصبر ! وباى فلوس سآكل غدا ؟ لا أحد يقبل أن يقرضني . واذا حملت كل لوحاتي ورسومي ، فلن اتقاضى عنها جميعاً غير عشرين كوبيكا . انها مفيدة ، بالطبع ، وأنا اشعر بذلك . فكل واحدة لم ترسم عبثاً ، فقد تعلمت شيئاً منهـا . ولكن اية فوائد ؟ رسوم

تخطيطية ، محاولات هي مجرد رسوم تخطيطية ومحاولات لا نهاية لها . ثم من يشتريها ، اذا لم يكن اسمي معروفـــا لديه ؟ ومَنْ بحاجة الى رسوم تنقل تماثيل القدامى او موديلات عصرية او لوحتي «حب بسيشه» التي لم اتممها بعد ، او حجرتي ، او صورة خادمي نيكيتا ، ولو انها في الحقيقة ، احسن من صور اى رسام محدث ؟ ما هذا في الواقـــع ؟ لِمَ اتعذب ، وانكب على الأبجدية كالتلميذ بينما في امكاني ان ألمع لمعاناً لا يقل عن لمعان الآخرين ، واكون مثلهم ذا مال .

وبعد ان نطق الرسام بذلك ، أخذ يرتعش فجأة ، ويشحب فقد راى وجهاً مشوهاً متشنجاً ينظر اليه من وراء قماشة مثبتة ، وتنفذ عيناه الرهيبتان فيه ، وكانهمـــا تستعدان لالتهامه . وعلى الشفتين وعيد آمر بالسكوت . ارتعب الرسام ، وهمّ بأن يصرخ ويدعو نيكيتا الذى لحق أن يطلق شخيره المارد في الرواق . ولكنه توقف فجأة ، وضحك . وزايله الشعور بالرعب بطرفة عين ، حين عرف أنها الصورة التي اشتراها ، ونسيها تماما . وكان نور القمر الساطع الذى اضاء الغرفة قد سقط عليها ، ومدّها بحيوية غريبة . اخذ يدقق فيها النظر ، ومسحها . وضع اسفنجة في الماء ، ومررها عليها عدة مرات ، وازال عنها كل او معظم ما لصق بها من غبار ووساخة ، وعلقها على الحائط امامـــه ، وزاد اعجابه بهذا العمل الخارق . كانها الحياة سرت في الوجه او كادت ، وراحت العينان تحدقان فيه بشكل جعلت الرعدة تسرى فيه أخيراً ، فتراجع ، وقال بصوت ذاهل : «يحدق ، يحدق بعيني انسان !» وتذكر فجأة حكاية كان قد سمعها من استاذه منذ زمن بعيد ، عن صورة ليوناردو دافينتشي الشهير ، ظل هذا المعلم العظيم يعمل عليها عدة سنوات ، ومع ذلك كان يعتبرها غير مكتملة ، ولكنها ، على حد قول فازارى ، كان الجميع يعتبرونها أكمل وأتم عمل فني . كانت أتمّ ما فيها العينان اللتان كانتا تذهلان المعاصرين ، وحتى العروق الضئيلـة التي لا تكاد تبين فيهما لم تهمل ورسمت بالكامل . ولكن في هذه الصورة التي كانت امامه الآن شيئاً غريباً . ان هذا لم يكن فناً ، بل تحطيماً حتى لنسق الصورة . هاتان عينان حيتـــان ، عينان انسانيتان ! كان يبدو وكانهما قلعتا من وجه انسان حيّ ، ووضعتا

في الصورة . لم تكن هناك تلك المتعة الرفيعة التى تغمر النفس عند النظر الى عمل رسام ، مهما كان رهيبا الموضوع الذى يرسمه . كان ثمة احساس ممرض منهك . ووجد الرسام يسائل نفسه لا ارادياً : «ما هذا ؟ هذا ، على أية حال ، منقول من موديل ، حي . فمن اى شيء يتولد هذا الاحساس الغريب المزعج ؟ أم أن المحاكاة العبودية الحرفية للاصل قد تحولت الى جرم ، وصارت كصرخة حادة ناشزة ؟ أم انك حين تتناول موضوعاً ببرودة بلا احساس ، وبدون أن تتعاطف معه ، لا يخرج من بين يديك الا على حقيقته الواقعية المريعة ، دون أن يستنـــار بنور الفكرة العصية الكامنة في كل شيء ، يخرج على حقيقته التي لا تتكشف الا حين تتسلح ، وانت تريد التوصل الى الانسان الرائع ، بمبضع المشرح ، وتشق جوفه ، فترى فيه انساناً منفراً ؟ لماذا يظهر الموضوع البسيط الوضيع لدى رسام يشع بضوء ما بمظهر لا يخلف لديك انطباعاً وضيعاً ، بل على العكس تحس وكانك تتلذذ ، وكل شيء حولك يسير بعد ذلـــك ويتحرك على نحو أهدأ واكثر انبساطاً . ولِمَ يبدو هذا الموضوع نفسه لدى رسام آخر حقيراً قذراً ، بينما كان هذا الرسام امينا عليه ؟ ولكن ليس فيه ما ينوّر . تماما كالمنظر الطبيعي ، فانه مهما يكن رائعا فسيظل ينقصه شيء اذا كانت السمـــاء بلا شمس» .

ودنا من الصورة مرة أخرى ، ليمعن النظر في تينك العينين العجيبتين ، ولاحظ مرتعباً بانهما تحدقان فيه بالفعل . لم تكن منقولة عن طبيعة حية ، بل كانت تلك الحياة الغريبة التي تنعكس في وجه ميت لو قام من قبره . وفجأة شعر بالرهبة من البقـــاء وحده في الحجرة ، لسبب مجهول ، لعله ضوء القمر الذى يحمل معـه هوس الحلم ، ويغلف كل شيء في صور أخرى تخالف حقيقتها في النهار او ربما هو شيء آخر . ابتعد عن الصورة بهدوء ، وادار وجهه الى ناحية أخرى ، وحاول تحاشي النظر الى الصورة ، بينما كانت عينه تحول من تلقاء نفسها ، وبدون ارادته ، لتلقي نظرة عليها . واخيراً صار يرعبه حتى التمشي في الغرفة ، وصار يتوهم ان شخصاً آخر سيسير وراءه بين لحظة وأخرى ، فكان في كل مرة يتلفت الى الوراء بتهيب . لم يكن جباناً قط ، ولكن خياله واعصابه كانت مشحوذة ،

وفي ذلك المساء لم يستطع هو نفسه أن يفسر خوفه اللاارادى . جلس في ركن ، ولكن حتى هنا ، خيّل اليه أن شخصاً سيحدق في وجهه بين لحظة واخرى ، من وراء كتفه . وحتى شخير نيكيتا الصادر من الرواق لم يطرد هذا الخوف . واخيراً نهض من مكانه متهيباً غير رافع بصره ، واتجه الى مضجعه وراء الحاجز ، واستلقى على الفراش . ومن خلال شق الحاجز رأى حجرته المضاءة بضوء القمر ، ورأى قدامه الصورة المعلقة على الحائط . كانت العينان تنغرزان فيه اكثر رهبة واقوى تعبيراً ، وخيل اليه أنهما تتقصدانه تقصداً ، ولا تنظران الى شيء آخر . وتجرأ على مغادرة الفراش مفعماً باحساس ثقيل ، واختطف ملاءة واقترب من الصورة ، ولفها بها .

وبعد أن فعل ذلك استلقى على الفراش أهدأ بالاً ، وراح يفكر في فقر وبؤس نصيب الرسام ، وفي الطريق الشائك الماثل امامه في هذه الدنيا ، وخلال ذلك كانت عيناه تنظران لا ارادياً ، من خلال شق الحاجز ، الى الصورة الملفوفة بالملاءة . كان ألق القمر يزيد من بياض الملاءة ، فكان يتصور أن العينين الرهيبتين صارتا تشفان حتى من خلال الملاءة . وتفرّس بذعر في الصورة اكثر ، وكانما يريد أن يتأكد من أن ذلك مجرد وهم . ولكنه في آخر الأمر ، في الواقع الآن . . . يرى ، يرى بوضوح أن الملاءة انزاحت والصورة مكشوفة بكليتها ، تحدق فيه تماما دون ان تنظر الى كل ما حوله ، تحدق لتنفذ الى دخيلته . وتجمد قلبه . ويرى العجوز يتململ ، ويستند فجاة على الأطار بكلتا يديه . واخيراً يرفع جسده على يديه ، ويدفع كلتا قدميه ويقفز من الاطار . . . ومن خلال شق الحاجز لم تعد العين ترى غير الاطار الفارغ . وتردد وقع اقدام في الحجرة ، صار اخيراً يقترب من الحاجز اكثر فاكثر . وصار قلب الرسام المسكين يخفق اشد فاشد . وراح يترقب محتبس الانفاس رعباً أن يطل العجوز عليه من وراء الحاجز . وقد اطل ، بالفعل ، من وراء الحاجز بنفس ذلك الوجه البرونزى مقلّباً عينيه الوسيعتين . جاهد تشارتكوف ان يصرخ – ولكنه أحس بأن صوته قد فارقه ، وجاهد أن يتململ ، أن يقوم بحركة . ولكن اطرافه لا تتحرك . فنظر فاغر الفم مكتوم الانفاس الى هذا الشبح الرهيب ذى القامة الطويلة في جلباب اسيوى فضفاض ، وانتظر

ما سيفعله . جلس العجوز قرب قدميه تقريباً ، وبعد ذلك أخرج شيئا من تحت طية جلبابه العريض . فاذا به كيس . فكّه العجوز ، وامسكه من طرفيه ، ونفضه . فتساقطت على الأرض بصوت مكتوم صرر ثقيلة على شكل لفائف طويلة ، كل واحدة لُفّت بورقة زرقاء ، وعلى كل واحدة طبع : «١٠٠٠ روبل ذهبي» . اخرج العجوز يديه العظميتين الطويلتين من ردنيه العريضين ، واخذ يفك الصرر . ولمع الذهب . ورغم كل ما كان الرسام يستشعره من احساس مرهق كبير ، ورعب شديد فقد بحلق بكل بصره في الذهب ، يراقبه بلا حراك يتكشف في اليدين العظميتين متلألئاً ، يرن رنينا ناعماً وعميقاً ، ويعود ينغلق . وفي تلك اللحظة لمح صرة تدحرجت أبعد من الاخريات ، عند قائمة سريره ، عند موضع راسه . التقطها بما يشبه التشنج ، ونظر والرعب يملؤه لعل العجوز قد لحظه . ولكن العجوز بدا مشغولاً جداً . جمع كل صرره ، ووضعها في الكيس ثانية ، سار الى ما وراء الحاجز دون أن ينظر اليه . خفق قلب تشارتكوف بشدة ، حين راح يسمع في الحجرة خفق خطوات تبتعد . عصر صرته في يده بقوة أشد ، مرتعشاً بكل جسده خائفاً عليها ، وفجاة سمع الخطوات تقترب ثانية من الحاجز . والظاهر ان العجوز تذكر أن صرة من صرره ناقصة . وها هو ينظر اليه مرة أخرى من وراء الحاجز . استحوذ الجزع على الرسام ، فاطبق يده على الصرة بكل قوته ، واستجمع كل جهده ليقوم بحركة ، وصرخ ، واستيقظ من نومه .

كان العرق البارد ينضح من كل جسمه ، وكان قلبه يخفق باشد ما يمكن من الخفقان ، وكان صدره مختنقاً وكان آخر نفس يوشك أن يغادره . قال وقد امسك راسه بكلتا يديه : «أيعقل أن ذلك كان حلماً ؟» ولكن وضوح الرؤية الرهيب لم يكن يشبه الحلم . فقد راى ، وقد استيقظ ، كيف دخل العجوز اطاره ، بل حركة ذيل جلبابه العريض ، وكانت يده تحس بوضوح أنها كانت قبل لحظة من ذلك ، تحمل شيئاً ثقيلاً . كان ضوء القمر ينير الغرفة ، ملتقطاً من الزوايا المظلمة جنفاصة هنا ، ويداً جبسية هناك ، والغطاء المنشور على كرسي في مكان ثالث ، والبنطلون والحذاء الطويل غير الممسوح في مكان رابع . وفي تلك اللحظة

فقط فطن الى انه ليس في سريره ، بل يقف على قدميه امام الصورة تماماً . ولم يستطع قط ان يفهم كيف وصل الى هناك . والذى ادهشه اكثر ان الصورة كانت مكشوفة كلية ، والملاءة لم تكن عليهـــا بالفعل . نظر الى الصورة برعب متجمـد ، ورأى عينين انسانيتين حيتين تنفذان فيه . تصبب عرق بارد على وجهه ، وأراد ان يبتعد ،. ولكنه شعر وكأن قدميه قد انغرزتا في الأرض . ويرى ان ذلك ليس حلماً ، فان ملامح العجوز تحركت ، وشفتاه صارتا تتمطيان نحوه ، وكأنما تريدان امتصاصه . . . فقفز متراجعاً الى الوراء بصيحة استماته ، واستيقظ .

«أيعقل ان ذلك كان حلماً ايضاً ؟» وتلمس فيما حوله بيديه ، وقلبه يكاد يتقطع في صدره من الوجيب . نعم ، كان يرقد في الوضع الذى اتخذه قبل ان يستغرق في النوم . وامامه الحاجز ، وضوء القمر يملأ الغرفة . وكانت الصورة تلوح من خلال الشق في الحاجز ، مغطاة بالملاءة ، حسب الاصول ، وكما غطاها هو نفسه . اذن ، فقد كان ذلك حلماً ايضاً ! ولكن اليد المضمومة تستشعر حتى الآن وكان فيها شيئـــاً . كان خفقان قلبه شديداً ، يكاد يثير الرعب . والثقل في الصدر لا يحتمل . سمّر عينيه في الشق ، ونظر متفرساً في الملاءة . واذا به يرى بوضوح الملاءة تأخذ بالانفتاح ، وكان يدين تتحركان بسرعة تحتها ، وتحاولان ازاحتهـــا . صاح بيأس راسماً علامة الصليب : «يا الهي ، يـا ربي ، مـا هذا !» واستيقظ .

وكان ذلك حلماً ايضاً ! وثب من السرير ، كالمخبول ، ذاهل اللب ، ولم يعد يقدر أن يفسر ما يجرى له : أهو ثقل كابوس او جني ، او هذيان حمى ، او رؤية حية . حاول أن يهدئ من روعه قليلاً ، ومن الدم الفوّار الذى كان ينبض بشدة في كل عروقه ، فتقدم من النافذة ، وفتح كوة التهوية . انعشته هبة النسيم البارد . ونور القمر ما زال ممدداً على السطوح وجدران البيوت البيضاء ، رغم أن غيوماً صغيرة صارت تطوف في السماء اكثر من ذى قبل . كان الصمت يلف كل شيء : ومن حين لآخر يلتقط سمعه كركبة بعيدة لعربة حوذى كان ينام في زقاق لا يـراه ، يهدهده حصانه الهزيل الخامل ، وهو يترقب راكباً متأخراً . ظل ينظر طويلاً مطلاً

برأسه من الكوة . كانت بشائر الفجر الداني تظهر في السماء ، وأخيراً شعر بدنو النعـاس ، فأغلق الكوة ، وغـــادر النافذة ، واستلقى على السرير ، وسرعان ما غط بنوم عميق كالحجر .

استيقظ في ساعة متأخرة جداً ، واحس بحالة ضيق كتلك التي تتملك انساناً بعد اختناق . وكان صداع مزعج يطوق رأسه . وكان ضوء الغرفة شاحباً ، ورطوبة ثقيلة تشيع في الهواء ، وتنفذ من خلال شقوق نوافذه ، المسدودة باللوحات أو الجنفاص المفروش بالطلاء الأولي . جلس على أريكته المزقة القماشة ، جهماً متضايقاً ، مثل ديك مبلل ، لا يعرف علام يقدم ، وماذا يفعل ، وتذكر اخيراً كل حلمه . وكان هذا الحلم ، بقدرما يتذكره ، يتمثل في مخيلته حياً بشكل مرهق ، حتى أنه راح يتشكك في أن يكون حلماً أو مجرد هلوسة ، أو لعله شيء آخر ، أو لعله رؤيا . أزاح الملاءة ، وراح يتفحص الصورة المرعبة في ضوء النهار الآن . كانت العينان بالفعل تبهرانه بما فيهما من حيوية غير اعتيادية ، ولكنه لم يجد فيهما ما يرعب ، سوى أن شعوراً مبهماً غير مريح كان يساور نفسه . ومع كل هذا لم يستطع أن يقتنع تماماً بأن ذلك كان حلماً . كان يبدو له وكان شريحة رهيبة من الواقع كانت تخالط هذا الحلم . كان يبدو وكان ثمة شيئاً في نظرة العجوز نفسهـــا وتعابير وجهه تنطق بأنه كان في غرفته تلك الليلة ، وكانت يده تشعر بالثقل الذى كان يرقد فيها منذ حين ، والذى انتزع منه قبل لحظة من استيقاظه . وخُيّل اليه أنه لو كان قد امسك بالصرة بشكل اقوى ، لكان من المحتمل ان تبقى في يده بعد تيقظه ايضاً .

«يا إلهي ، ولو جزء من تلك النقود !» قال وتنفس نفســـاً ثقيلاً ، وطفق خياله يتصوّر ما رآه من كل تلك الصرر ذات الرقم المغرى «١٠٠٠ روبل ذهبي» تتساقط من الكيس . ظلت الصرر تنفتح ، والذهب يلمع ، ثـــم تنغلق من جديد . وظل هو جالساً مثبتاً عينيه بجمود وهبل في الهـواء الخاوى . وهو غير قادر على صرفهما عن ذلك الشيء ، كالطفل الجالس امام صحن من الحلوى ، يبلع ريقه ، وهو يرى الآخرين يأكلون . وأخيراً صدر طرق على الباب ، جعله يصحو بشكل مزعج . ودخل صاحب البيت مع شرطي الحيّ الذى كان ظهوره بالنسبة للناس الصغار ، كما هو معروف ،

اكثر ازعاجاً من ظهور مسترحم ، بالنسبة للاغنياء . كان صاحب البيت الصغير الذى يسكن فيه تشارتكوف أحد المخلوقات التي هي عادة مالكة بيوت في الخط الخامس عشر من جزيرة فاسيليفسكي في حى بطرسبورغسكي أو في حى كولومنا النائي ، مخلوقا من تلك المخلوقات التي تحفل بها روسيا ، والتي يصعب تحديد طباعها ، كما يصعب تحديد لون سترة خَلَق . كان في شبابه برتبة رائد وكان مشاكساً ، كما تقلّب في مناصب مدنيـة ، وكان ماهراً في الجلد ، كما كان شديد الحركة ، محباً للاناقة ، وبليداً ، ولكنه في شيخوخته خلط في نفسه كل هذه الصفات الحادة في شيء كامد غير قابل على التحديد . وقد ترمل ، وتقاعد وصار في حالة لا يمكن ان يتانق فيها ، ولا يتباهى ، ولا يشاكس ، فاقتصر على حبه لشرب الشاى ، واطلاق لسانه بالشرثرة اثناء ذلك ، وكان يذرع الغرفة ، ويعدّل ذوب الشموع ، وكان دقيقـاً في زيارة كل مستأجر من مستأجريه في آخر كل شهر ليستوفي الايجار ، ويخرج الى الشارع والمفتاح في يده ليلقي نظرة على سطح بيته ، ويُخرج بوابه من خُنه عدة مرات حين يراه منزوياً هناك نائماً . وباختصار كان رجلاً متقاعداً لم تبق له غير عاداته الرذيلة بعد حياة حافلة باللهو ، والتنقل في العربات العمومية .

– تفضل ، وانظر بنفسك ، يا باروخ كوزميتش – قال صاحب البيت مخاطباً شرطي الحي باسطاً ذراعيه : – لا يدفع ايجار الشقة ، لا يدفع .

– وماذا أفعل اذا ليست لدى نقود ؟ انتظر قليلاً ، وسأدفع .

– لا يمكن لي أن انتظر ، يا عزيزى – قال صاحب البيت مغتاظاً ، ملوحاً بالمفتاح الذى كان في يده : – عندى بوتوغونكين ، المقدم ، يسكن في بيتي منذ سبـع سنوات ، وآنا بيتروفنـا بوخميستروفا ، تستأجر السقيفة ومعلفين في الاسطبل ولديها ثلاثة خدم . هؤلاء هم نزلائي . واقول لك بصراحة لست متعوداً على ان لا يدفع المستأجر ايجار شقته . تفضل ، إدفع النقود الآن ، وانتقل الى حيث تشاء .

– نعم ، ادفع اذا كنتم قد تعاقدتم على ذلك .

قال شرطي الحي ، بهزة صغيرة من رأسه ، ووضع إصبعه تحت زر سترته الرسمية .

– باى شيء أدفع ؟ لا ادرى . أنا لا أملك الآن فلساً واحداً .

قال الشرطي :

– في هذه الحال قايض ايفان ايفانوفيتش بمصنوعات حرفتك . فقد يوافق على قبول لوحات .

– لا ، يا عزيزى ، اعوذ بالله من اللوحات . لا بأس لـو كانت لوحات عن موضوعات نبيلة ، بحيث استطيع أن اعلقها على الجدار ، على الأقل لو كانت هناك صورة جنرال بنيشان ، أو صورة الأمير كوتوزوف . ولكن ها انت تراه قد رسم ريفياً ، في قميص فلاحي ، هو خادمه الذى يحضر له الألوان . وهذا الخنزير ، الذى لا يستأهل مني غير ضربة على القفا يرسم له صورة . ان هـذا النصّاب اقتلع كل المسامير من مزاليج بيتي . هاك ، انظر ، اية موضوعات هي : يرسم حجرته . لا بأس لو أنه رسمها نظيفـة مرتّبة ، ولكن انظر كيف رسمها بكل قاذوراتها وسقط متاعها . انظر كيف وسّخ لي الغرفة ، عاين بنفسك . بينما كل نزيل من نزلائي يسكن سبع سنوات ، ضباط برتب عالية ، بوخميستروفا آنا بيتروفنا . . . لا ، انا على يقين : لا يوجد مستأجر اسـوا من الرسام . الخنزير يظل خنزيراً . اللهم سلّم .

وكان على الرسام المسكين ان يسمع كل هذا بصبر . وفي غضون ذلك كان شرطي الحي منشغلاً في معاينة اللوحات والتخطيطات ، واظهر في الحال انه أرق نفساً من صاحب البيت ، بل ولا يفتقر الى احاسيس فنية .

– خه – قال ، وقد اشار بأصبعه الى لوحة تصور امـرأة عارية – الموضوع ، يعني . . . طائش . اما هذا الرجل فما هذا الأسود تحت أنفه ؟ نثار تبغ ؟

– ظل – أجاب تشارتكوف عن ذلك بحدة ، ولم يلتفت اليه بنظرة .

قال الشرطي :

– طيب ، حبذا لو ينتقل الى مكان آخر . ولكن ما تحت الأنف حيّز ظاهر جداً . وهذه الصورة لمن ؟ – مضى يقول متقدماً مـن

صورة العجوز – مخيف ، اكثر من اللازم . كما لو كان هذا الرجل المخيف موجوداً في الواقع . يا للعجب ! اية تحديقة له ! آه ، يا بائع نفسه للشيطان ! عن اى شخص رسمته ؟

– عن شخص . . . – قال تشارتكوف ، وقبل ان يتم جملته ، صدرت قرقعة . كان شرطي الحي ، كما يبدو ، قد ضغط بقوة شديدة جداً على اطار الصورة ، وبفعل التكوين الخشن ليديه ، يدى شرطي ، انكسرت اللوحتان الصغيرتان الجانبيتان فوقعتا الى الداخل ، وسقطت احداهما على الأرض ، ومعها سقطت صرة ملفوفة في ورقة زرقاء ، في صريف ثقيل . وجذب بصر تشارتكوف رقم «١٠٠٠ روبل ذهبي» . فاندفع كالمجنون لالتقاطها ، واختطف الصرة ، وعصرها بتشنج في يده التي ارتخت الى الاسفل من ثقل الصرة .

– يبدو ان نقوداً رنت – قال شرطي الحي ، وقد سمع رنين شيء سقط على الأرض ، ولم يلحق أن يعرفه بسبب حركة تشارتكوف السريعة حين اندفع لألتقاطه .

– وما شأنك في أن تعرف ما عندى ؟

– شأني أن تدفع الآن ايجار الشقة لصاحب البيت من كل بد . عندك نقود ، ولكنك لا تريد ان تدفع . هذا هو الأمر .

– طيب ، سأدفع له اليوم .

– طيب ، ولماذا لم ترد ان تدفع من قبل ، وتسبب العناء لصاحب البيت ، والازعاج للشرطة ايضاً ؟

– لأنني لم ارد أن اتصرف بهذه الفلوس . سأدفع له الحساب كله اليوم مساء ، وانتقل من الشقة غداً ، لانني لا أريد البقاء في بيت صاحب ملك مثله .

قال شرطي الحي مخاطباً صاحب البيت :

– طيب ، يا ايفان ايفانوفيتش . سيدفع لك . أما اذا لا يدفع حسب الاصول مساء اليوم ، عندئذ لا مؤاخذة ، يا حضرة الرسام .

وبعد أن قال ذلك لبس قبعته الثلاثية ، وخرج الى الرواق ، وتبعه صاحب البيت مطاطا الرأس ، وفي هيئة تأمل وتفكير ، كما يبدو .

– حمداً لله على أن الشيطان أخذهما الى حيث ! – قال تشارتكوف حين سمع الباب يغلق في الرواق . نظر في الرواق ، وارسل نيكيتا لحاجة ما ، ليخلو الى نفسه ، وأغلق عليه الباب ، وعاد الى حجرته ، وأخذ يحل الصرة وقلبه يرتجف بشدة . فرأى فيها قطعاً نقدية ذهبية جديدة كلها متوقدة كالنار . جلس على كومة الذهب ، كالمجنون ، وهو لا يفتأ يسأل نفسه : ألعلّ كل ذلك حلم ؟ الصرة تحتوى على ألف روبل ذهبي بالضبط وكان مظهرها كمظهر تلك الصرة التي رآها في الحلم . ظل يقلبها لبضع دقائق ويتفحصها ، وهو ما يزال غير مسيطر على نفسه . وانبعثت في خياله فجأة كل الحكايات عن الكنوز والحقق بصناديقها المخفية التي كان الاجداد يخلفونها لاحفادهم المعوزين في ثقة قوية بأن هؤلاء سيبذرون اموالهم في المستقبل . وراح يفكر بهذا الشكل : «أفلا يمكن ان يكون احد الاجداد ، في هذه الحالة ايضاً ، قد فكر في أن يترك لحفيده هدية ، فاخفاها في اطار هذه الصورة العائلية» . وأخذه الهوس الرومانسي ففكر حتى في امكان ان تكون للأمر صلة خفية بما كان القدر يخبئ له ، وان يكون لوجود الصورة صلة بوجوده هو ، وان شراءه لها بحد ذاته يمكن ان يكون قسمة كُتبت له ؟ وأخذ يتفحص اطار الصورة بفضول . في احد جانبيها تقعير صغير سُدّ بلوح بشكل ماهر لا يُلحظ ، ولو لم تحدث يد الشرطي الثقيلة كسراً فيه لبقيت النقود بأمان الى أبد الدهر . وعاد يتعجب ، اثناء تفحصه للصورة ، بهذا العمل الرفيع ، وبرسم العينين الفذ . لم تعد العينان ترعبانه الآن ، ومع ذلك فقد كان في كل مرة ينظر اليهما ، يشعر بنفس ذلك الشعور المنفّر اللاارادى . قال لنفسه : «لا يهمني جد مَنْ انت ، سأضعك وراء الزجاج في كل الأحوال ، واصنع لك اطاراً ذهبياً» . وعند ذاك القى يده على كومة الذهب امامه ، ووجب قلبه وجيباً شديداً من هذه الملامسة . وفكر ، وهو يحدق بالقطع الذهبية : «ما افعل بها ؟ أنا الآن موفور الحال ، على الاقل لثلاثة اعوام استطيع أن أختلي في حجرتي وأعمل . عندى الآن ما اشتري به الاصباغ ، والغذاء ، والشاي ، وعندى الآن ما أنفقه على المعيشة ، وايجار الشقة . الآن لن يعيقني احد او يضايقني سأشترى لنفسي مانيكاناً ممتازاً من جبس واصيغ سيقاناً ، وانصب

فينوس ، واشترى كرافيك عن احسن اللوحات . واذا ما عملت ثلاثة اعوام لنفسي دون استعجال ، وليس للبيع بززت الجميع ، واستطعت ان اصير رساماً مجيداً» .

وعلى هذا النحو كان يتكلم في سره كما يوحي له عقله ، ولكن صوتاً آخر كان يتردد في داخله اكثر سماعاً ، وأبعد صدى . ولكن حين نظر مرة أخرى الى الذهب لم يكن ذلك ما حدثته به سنة الاثنتان والعشرون وشبابه اللاهب . لقد كان في سلطانه الآن كل ما كان يرمقه من قبل بعينين حاسدتين ، وكل ما يتشهاه من بعيد ، بالعاً لعابه . آه ، كم خفق فؤاده ، ما ان راح يفكر في ذلك ! ان يلبس بدلة فراك عصرية ، ويفطر بعد صوم طويل ، ويستأجر له شقة ممتازة ، ويتردد في الحال على المسرح ، على مقهى حلويات . وعلى غير ذلك . فأختطف النقود ، وخرج الى الشارع .

واول ما فعله ان عرج على خياط ، وكسى نفسه من راسه الى قدميه ، وكالطفل راح يتملّى نفسه بلا انقطاع . واشترى عطوراً ، وطيوباً ، واستأجر ، دون مماكسة ، أول شقة ممتازة عثر عليها في شارع نيفسكي ذات مرايا ، وزجاج نوافذها قطعة واحدة ، واشترى نظارة يدوية غالية وقعت في يده رغم انه لم يكن في نيته ان يشتريها وبنفس الطريقة ايضاً اشترى حزمة ضخمة اكثر مما يحتاج اليه من اربطة العنق . وجعّد شعره عند حلاق ، واكترى عربة مرتين يجوب المدينة ، دون أى داعٍ ، واكل ما لا حساب له من الحلوى في مقهى للحلويات ، وذهب الى مطعم فرنسي كان حتى ذلك الحين يسمع عنه اشاعات غامضة ، كما لو عن دولة الصين . وتغدى هناك مرفوع الهامة متخوصراً ، ملقياً على الآخرين نظرات فيها الكفاية من الانفة ، مصلحاً أمام المرآة خصلاته المجعّدة باستمرار . وشرب هناك زجاجة شمبانيا كان أيضاً لا يعرفها ، من قبل ، الا بالسماع . واسكرته الخمرة بعض الشيء وخرج الى الشارع بادى الحيوية ، خفيف الحركة ، لا تسعه الأرض ، كما يقول المثل الروسي . سار على الرصيف معتداً ، يوجه نظارته اليدوية الى الجميع . وعلى الجسر لحظ استاذه السابق ، فتجاوزه بسرعة ، وكأنما لم يلحظه اطلاقاً حتى أن هذا الاستاذ انصعق ، ووقف على الجسر طويلاً ، لا يتحرك ، وقد ارتسمت على وجهه علامة الاستفهام .

في ذلك المساء نُقلت كل اشيائه وما يملك من حاملات اللوحات وجنفاص ولوحات الى الشقة الممتازة . وضع أحسن ما لديه في اماكن بارزة ، والقى الاسوا في ركن ، وراح يذرع الغرف الرائعة ، ناظراً في المرايا بلا انقطاع . وانبعثت في نفسه رغبة قاهرة في أن يقتنص المجد من ذيله على الفور ، ويظهر نفسه للعالم . وصار يتخيل الهتافات بالفعل : «تشارتكوف ، تشارتكوف ! هل رأيتم لوحة تشارتكوف ؟ اية فرشاة سريعة لدى تشارتكوف ! اية موهبة عظيمة لدى تشارتكوف !» فكان يذرع غرفته ببهجة غامرة ، ويسرح مع الخيال . وفي اليوم التالي اخذ عشرة روبلات ذهبية ، وقصد ناشر صحيفة واسعة الانتشار ، طالباً مساعدة اريحية . استقبله الصحفي ببشاشة ، مخاطباً اياه راساً «بسعادة المحترم» شاداً على كلتا يديه ، سائلاً بالتفصيل عن اسمه الكامل ومحل اقامته ، وفي اليوم التالي ظهرت في الصحيفة بعد اعلان عن شموع مبتكرة جديدة ، مقالة تحت عنوان «**حول مواهب تشارتكوف الفذة**» جاء فيها : «نسرع لنزف الى سكان العاصمة المتنورين تحفة رائعة من كل النواحي اذا صح القول . ان الجميع متفقون على أن لدينا الكثير من السحنات الفائقة الروعة والوجوه الفائقة الوسامة ، ولكن لم تكن لدينا حتى الآن الوسيلة الى نقلها الى الجنفاص الخلّاق لتبقى ارثاً للخَلَف . ولكن هذه النقيصة قد سُدت الآن تماماً . فقد ظهر الرسام الذى يجمع في نفسه كل ما هو لازم . والآن تستطيع الحسناء أن تكون على ثقة من انها ستُرسم بكل ما لجمالها من بهاء ، خفيفة ، رقيقة ، ساحرة ، رائعة ، كالفراشات المرفرفة بين زهور الربيع . وسيرى رب الأسرة المبجل نفسه محاطاً بافراد اسرته . والتاجر والعسكرى والمواطن ، ورجل الدولة ، وكل انسان سيمضي في مضماره باندفاعة جديدة . فاسرعوا ، اسرعوا ، وزوروا الرسام غِبَّ نزهتكم ، زيارتكم لصديق ، لابنة عم ، لمتجر فخم . اسرعوا اليه ، حيثما كنتم . فان مرسم الرسام الرائع (شارع نيفسكي رقم كذا) يضم الصور التي ابدعتها ريشته اللائقة بريشة فان ديك وتيتسيان وامثالهما . ان المرء ليحار بمَ يدهش : بالامانة والشبه بالاصول ، أم ببهاء الريشة الفريد ونضارتها . طوبى لك ، أيها الرسام ! لقد وقعتَ يدك على الورقة

الرابحة في اليانصيب . فيفا ، يا اندريه بتروفيتش (الظاهر أن الصحفي كان يحب رفع الكلفة) ! اشتهر واشهرنا معك . فنحن نعرف قيمتك . وسيكون مكافأة لك اقبال الجمهور ومعه المال الذى سيعترض عليه بعض اخواننا الصحفيين» .

قرأ الرسام هذا الاعلان برضى خفي . وتألق وجهه . صاروا يتحدثون عنه في الصحافة . وهذا خبر سار له . أعاد قراءة السطور عدة مرات . واشبعت غروره كثيراً مقارنته بفان ديك وتيتسيان . كما أن عبارة «فيفا ، يا اندريه بتروفيتش !» أعجبته كثيراً ايضاً . يخاطبونه باسمه الكامل في الصحافة ، وهو شرف لم يعرفه من قبل قط . أخذ يذرع الغرفة بسرعة ، وينفش شعره . كان يجلس على المقاعد تارة ، ويثب منها تارة أخرى ، ليقعد على الاريكة ، متصوراً باستمرار كيف سيستقبل الزائرين والزائرات ، ويقترب من جنفاصة ، ويرفع فرشاته بحركة سريعة ، محاولاً أن يطوّع يده لحركات رشيقة . وفي اليوم التالي دق الجرس على بابه ، فهرع ليفتحه . دخلت سيدة يتقدمها خادم في معطف خاص بالخدم مبطن بالفراء . ودخلت مع السيدة فتاة شابة في الثامنة عشرة ، هي ابنتها . قالت السيدة :

– هل انت مسيو تشارتكوف ؟ .

انحنى الرسام محيياً .

– كم يكتبون عنك في الصحف . يقولون ان صورك تفوق الكمال – قالت السيدة ذلك ، ووضعت نظارتها اليدوية على عينيها ، وأجالت بصرها بسرعة في الجدران التي لم يعلق عليها شيء . – ولكن اين صورك ؟

قال الرسام بشيء من الارتباك :

– ينقلونها . منذ حين فقط انتقلت أنا الى هذه الشقة . واللوحات ما تزال الآن في الطريق . . لم تصل بعد .

– هل كنت في ايطاليا ؟ – قالت السيدة موجهة نظارتها اليدوية اليه ، وهي لم تجد شيئاً آخر يمكن ان توجهها اليه .

– لا ، لم اكن ، ولكن اردت . . . على العموم ، أجلت ذلك الآن . . . ها هنا مقاعد ، هل تعبت ؟ . . .

– شكرا . جلست طويلاً في المركبة . ها أنا اخيراً أرى

عملك ! – قالت السيدة ، وقد هرعت الى الجدار المقابل ، ووجهت نظارتها اليدوية الى تخطيطاته ، ورسومه الاولية ، ومناظره ولوحاته المركونة على الأرض . C'est charmant ! Lise, Lise, venez ici * الغرفة رُسمت على اسلوب تينر . انظرى : بلا ترتيب ، طاولة عليها تمثال نصفي ، يد ، لوحة ألوان ، وهذا غبار – انظرى كيف رُسم الغبار ! C'est charmant . وفي لوحة اخرى امرأة تغسل وجهها . Quelle jolie figure ! ** آه ، ريفاوي *** ! Lise, Lise ريفاوى روسي في قميص ! انظرى أى ريفاوى ! يعني انت لا ترسم صور الاشخاص فقط ؟

– أوه ، هذا لا شيء . . . مجرد عبث . . . تخطيطات .

– قل لي ما هو رأيك في رسامي الصور اليوم ؟ أليس صحيحاً لا يوجد الآن مثل تيتسيان ؟ لا توجد تلك القوة في التلوين ، لا توجد تلك . . . خسارة انني لا استطيع ان اعبرّ لك بالروسية (كانت السيدة محبة للرسم ، وقد طافت بنظارتها اليدوية على كل معارض الصور في ايطاليا) . على كل حال ، مسيو نول . . . آه ، ما ابدع رسومه ! اية ريشة فريدة له ! حتى انني أجد في وجوهه تعابير اقوى مما لدى تيتسيان . هل تعرف مسيو نول ؟

فسأل الرسام :

– مَنْ هو نول هذا ؟

– مسيو نول ، آه ، اية موهبة ! رسم لها صورة ، حين كانت في بداية سنها الثانية عشرة . عليك ان تزورنا من كل بد . ليزا ، اريه البومك . الحقيقة أننا جئنا لتشرع برسم صورتها فورا .

– بالطبع ، أنا مستعد في هذه الدقيقة .

وفي لحظة خاطفة قرب حامل لوحات عليه جنفاصة مفروشة مهيأة للرسم ، امسك لوحة الالوان في يده ، وتفرس بعينيه في وجه الابنة الشاحب . ولو كان عارفاً بالطبيعة الانسانية لقرأ فيه على الفور بداية الولع الصبوى بحفلات الرقص ، بداية الوحشة والتشكي

---

* هذا فاتن . ليزا ، ليزا ، تعالي هنا (بالفرنسية في الأصل) .

** اى قوام جميل ! (بالفرنسية في الأصل) .

*** صيغة تحبب وتصغير من «ريفي» . **المترجم** .

من طول الوقت حتى موعد الغداء ، وبعد الغداء ، والرغبة في الركض اثناء النزهة في الفستان الجديد ، والعلائم المرهقة لما تفرضه الأم على ابنتها من اجتهاد عقيم في الفنون المختلفة بغية السمو في روحها ومشاعرها . ولكن الرسام لم ير في هذا الوجه الصغير الناعم غير ما يغرى الفرشاة من شفافية في الجسد كشفافية الخزف الصيني ، والاسترخاء الخفيف الجذاب ، والجيد الأهيف الناصع ، ورشاقة القوام الارستقراطية . وتهيأ مسبقاً في اظهار تفوقه وخفة والق فرشاته التي لم تكن حتى ذلك الحين ترسم الا الملامح القاسية للموديلات الغليظة ، والتماثيل القديمة الصارمة ، ونسخاً عن اعمال الكلاسيكيين . وكان يتصور في ذهنه كيف سيطلع من بين يديه هذا الوجه الصغير الرقيق .

قالت السيدة وبشيء من التاثر ايضاً ظهر على وجهها :

– كنت أود . . . هـــل تدرى . . . هي الآن في ثـــوب . . . بصراحة ، ما كنت اريد ان تكون في هذا الثوب الذى تعودنا عليه كثيراً ، كنت أود أن ترسم ، وهي في ثياب بسيطة ، وان تكون جالسة في ظل خضرة ، في منظر حقل يلوح فيه من بعيد قطيع او دغل . . . بحيث لا يفطن الرائي الى انها ذاهبة الى حفلة راقصة أم الى أمسية عصرية . حفلاتنا الراقصة ، بصراحة ، تقتل الروح ، وتفتك ببقايا المشاعر . . . بساطة ، اريد المزيد من البساطة .

أواه ! كان وجها الأم والابنة كلاهمـــا ينطقان بأن الأثنتين ادمنتا على الرقص في الحفلات الراقصة حتى صارت كلتاهما شمعيتين او ما اشبه .

تهيأ تشارتكوف للعمل ، واجلس النموذج ، وتمثل كل ذلك في ذهنه قليلاً ، وادار الفرشاة في الهواء ، متصوراً النقاط ذهنياً ، وقلّص احدى عينيه بعض الشيء ، وتراجع الى الوراء ، ونظر من بعيد ، وفي ساعة واحدة بدأ وفرغ من التخطيط . ورضي به ، فأخذ يرسم ، وشدّه العمل . فنسي كل الشيء ، نسي حتى كونه في حضرة سيدتين ارستقراطيتين ، بل وأخذ يبدى احياناً بعض الحركات التي يبديها الرسامون ، وتمتم باصوات مختلفة مسموعة ، مترنماً احياناً ، كما يحدث لرسام منغمر في عمله بكل كيانه . بحركـــة واحدة من فرشاته ، وبدون اية كلفة ، اجبر النمـوذج على ان

ترفع راسها ، وقد اخذت في آخر الأمر تتململ بشدة ، وتعبر عن تعبها الشديد .

قالت السيدة :

– يكفي ، هذا يكفي للمرة الأولى .

فقال الرسام النشوان :

– دقائق اخرى .

– لا ، حان الوقت ! Lise الساعة الثالثة ! – قالت السيدة ، وهي تخرج ساعة صغيرة معلقة بسلسلة ذهبية في نطاقهـــا ، وصاحت :

– آه ، تأخرنا كثيراً !

– لحظة فقط – قال تشارتكوف بصوت طفل ساذج متضرع .

ولكن السيدة لم تكن تبدو مستعدة في هذه المرة لتلبيـــة حاجاته الفنية ، ووعدت بدلاً من ذلك ان تمكث مدة أطول في مرة اخرى .

وفكر تشارتكوف مع نفسه : «هذا مزعج ، على كل حال . بعد ان بدأت يدى لتوها بالاستجابة لي» . وتذكر أن احداً من موديلاته لم يقاطعه أو يوقفه ، حين كان يعمـــل في مرسمـــه في جزيرة فاسيليفسكي . كان نيكيتا يجلس في مكان واحد لا يريم ، ويتركه يرسم قدر ما يشتهي . بل كان يغفو وهو في الوضع الذى أُمر ان يكون فيه . وضع الرسام فرشاته ولوحة ألوانه على الكرسي غير مرتاح ، وتوقف متكدراً أمام الجنفاصة ، والاطراء الذى قالتـــه السيدة الراقية ايقظه من انسراحه . اندفع مسرعاً نحو البـــاب ليرافقهما ، وعلى الدرج تلقى دعوة للزيارة ، والمجيء في الاسبوع القادم للغداء ، فعاد الى غرفته بادى المرح . لقد سحرته السيدة الارستقراطية تماما . كان ، حتى هذا الحين ، ينظر الى مثلها من المخلوقات ككائنات منيعة لم تخلق الا لتنقل على مركبات فاخرة ، بصحبة خدم في بزات الخدم ، وحوذية انيقي اللباس ، لتلقي نظرة عليه وهو يمشي في معطفـــه البائس . واذا بواحدة من هـــذه المخلوقات تدخل عليه غرفته ، وها هو يرسم صورة ، ويُدعى الى غداء في بيت ارستقراطي . استولى عليه ارتياح غير اعتيادى . كان نشوان تماماً ، فكافأ نفسه على ذلك بغداء ممتاز ، وبحضور عرض

مسائي ، ومرة اخرى راح يجوب المدينة في عربة ، بلا اى داع .

طوال تلك الأيام لم يخطر العمل الاعتيادى على باله قط . فقد كان يتهيأ فقط ، وينتظر اللحظة التى يرن فيها جرس الباب . واخيراً جاءت السيدة الارستقراطية مع ابنتها الشاحبة . دعاهما للجلوس . وقرّب الجنفاصة ، بخفة في هذه المرة ، منتحلاً اداب السلوك الراقية ، واخذ يرسم . وساعده كثيراً النهار المشمس والاضاءة الجيدة . ورأى في نموذجه الرقيق الماثل امامه الكثير مما لو ألتقط ونُقل الى القماشة لكان من الممكن ان يعطي للصورة قيمة رفيعة . رأى ان في الامكان القيام بشيء متفرد ، فيما لو نفذ كل شيء بذلك الكمال الذى كان الآن النموذج يتبدى له فيه . بل ان قلبه اخذ يضطرب قليلاً ، حين شعر بأنه يعبر عما لم يلحظه الآخرون بعد . واستغرقه العمل كلياً ، وانغمر في الفرشاة ، وقد نسي ثانية أصل نموذجه الارستقراطي . ورأى ، وهو محتبس الانفاس ، ان الملامح الرقيقة وهذا الجسم الشفاف تقريباً لفتاة في السابعة عشرة تستجيب ليده . التقط كل مسحة من لون ، والصفرة الخفيفة ، والازرقاق الذى لا يكاد يُلحظ تحت العينين ، وحين تهيأ لان يلتقط حتى تلك البثرة الصغيرة فوق الجبين ، سمع فجأة صوت الأم فوق رأسه : «آه ، لماذا هذا ؟ لا حاجة لذلك – كانت الأم تقول – عندك ايضاً . . . هنا ، في بعض المواضع . . . كأنما هناك صفرة ، وهنا ، بقع داكنة تماماً» . شرع الرسام يشرح لها ان لهذه البقع الصغيرة والصفرة تأثيرها الجيد ، وانها تشكل تلاوين الوجه اللطيفة والناعمة . ولكنه رُدّ بأنها لا تشكل اى تلاوين ، وليس لها اى تأثير ، وان هذا ما يتوهمه لا غير . قال الرسام بطيبة نفس : «ولكن اسمحي لي هنا ، في موضع واحد فقط ، ان أمرر اللون الاصفر قليلاً» . ولكن حتى هذا لم يُسمح به . واوضح له ان Lise اليوم فقط متعكرة المزاج قليلاً ، وان الصفرة لا تعتريها ابداً ، والوجه يبهر الناس بنضارة لونه بشكل خاص . واخذ الرسام يسوى بحزن ما أجبرته فرشاته على أن يضعه في الصورة . واختفى الكثير من الملامح غير الملحوظة تقريباً ، واختفى معه جزء من الشبه بالاصل . واخذ يعطي لها ذلك التلوين العمومي الذى يُرسم عن ظهر قلب ، ويحوّل حتى الوجوه المرسومة من

الطبيعة الى تلك الوجوه الباردة المثالية التي تشاهد في البرامج الدراسية . ولكن السيدة كانت راضية من ان التلوين الذى كدّرها أُزيل تماماً . سوى أنها أبدت دهشتها من أن العمل يستغرق وقتاً طويلاً ، واضافت أنها سمعت مَنْ يزعم بأنه ، اى الرسام ، يفرغ من رسم الصورة تماماً في جلستين فقط . ولم يستطع الرسام أن يرد على ذلك بشيء . نهضت السيدتان ، وتهيئتا للخروج . وضع الرسام الفرشاة ، وصحبهما حتى الباب ، وبعد ذلك وقف منفعلاً في مكان واحد ، امام الصورة ، ولوقت طويل . نظر اليها ببلاهة ، وخلال ذلك طافت في ذهنه تلك الملامح الانثوية الرقيقة ، وتلك التلاوين واللمسات الخفيفة ، التي التقطها ، وقضت عليها فرشات من بعد بلا رحمة . وغصت نفسه بما التقطه ، فنحى الصورة جانباً ، وبحث عن رأس «بسيشه» المهجور في مكان ما ، والذى كان قد خططه على قماشة ذات مرة ، منذ زمن بعيد . كان وجهاً رسم ببراعة ، ولكنه مثالي تماماً ، بارد ، ليس فيه غير الملامح العامة ، ولم يكتسب الجسد الحي . ولما لم يكن له شيء يفعله الآن اخذ يعالجه ، مضفياً عليه كل ما سنح له ان يلحظه من وجه الزائرة الارستقراطية . واستقرت الملامح والتلاوين والالوان التي كان قد التقطها ، بذلك الشكل المصفّى الذى تظهر فيه ، حين يكون الرسام وقد تشبع بالنظر الى النموذج ، قد انفصل عنه ، لينتج ما يماثله من ابداعه . واخذت الحياة تنبث في «بسيشه» ، واخذت الفكرة في بدء اطلالتها تتجسد ، شيئاً فشيئاً ، في جسد منظور . وطراز وجه الفتاة الارستقراطية الشابة ينتقل ، لا ارادياً ، الى «بسيشه» ، وبسبب ذلك صارت لها سمة فريدة تعطيها الحق في ان تسمى عملاً اصيلاً حقا . وبدا وكأنه استثمر كل ما مدّه به الأصل جزءاً جزءاً وبكليته فانغمس في عمله تماماً . وفي مدى عدة أيام لم يشتغل الا به . وعندما زارته السيدتان وجدتاه وراء عمله هذا . حتى لم يلحق أن يرفع اللوحة عن المحمل . أصدرت كلتا السيدتين صيحة اندهاش فرحة ، وضربتا كفا بكف .

– Lise, Lise ! آه ، ما اكثر الشبه ! Superbe, superbe • . لطيف انك جعلتها في ثياب اغريقية . آه ، اية مفاجأة !

• فائق ، فائق (بالفرنسية في الأصل) .

ولم يعرف الرسام كيف ينتزع السيدتين من ضلالهما الهانيء . قال بهدوء خجلاً منكس الراس :

– هذه بسيشه .

– على هيئة بسيشه ؟ C'est charmant ! – قالت الأم مبتسمة ، وابتسمت الأبنة ايضاً . – اليس صحيحاً يا ليزا ان من الانسب لك ان ترسمي على هيئة بسيشه ؟ Quelle idée délicieuse ! • ولكن يا له من عمل ! انه كوردج . بصراحة كنت قد قرأت وسمعت عنك ، ولكن لم اكن اعرف أن لك مثل هذه الموهبة . انا الأخرى يجب أن ترسم لي صورة من كل بد .

والظاهر أن السيدة ايضاً كانت تريد أن ترسم على هيئة بسيشه .

وفكر الرسام مع نفسه : «ماذا عليّ أن أفعل معهما ؟ اذا كانتا تريدان ذلك ، فلتكن بسيشه ما تريدانه» . وقال بصوت مسموع :

– تحملي الجلوس دقائق اخرى ، لأضع بعض اللمسات .

– آه ، أخشى ان تكون . . . الصورة الآن تشبهها تماما .

ولكن الرسام فهم أنهما تتخوفان من الصفرة ، فطمئنهما قائلاً انه لا يريد الا أن يعطي للعينين المزيد من اللمعان والتعبير . وفي الحق كان خجلاً جداً ، ويريد على الأقل أن يعطي للصورة شبهاً اكثر قليلاً بالنموذج ، حتى لا يتهمه أحد بانعدام الحياء كلياً . وبالفعل اخذت أخيراً ملامح الفتاة الشاحبة تبرز من محيا بسيشه بوضوح اكثر .

– كفاية !

قالت الأم ، وقد بدأت تخاف ان يكون الشبه كبيراً بشكل صارخ ، في آخر المطاف .

وكوفئ الرسام بكل شيء : بابتسامة ، ونقود ، وثناء ، ومصافحة ودية ، ودعوة الى الغداء . وباختصار ، حصل على ألف جائزة مغرية . وأثارت الصورة ضجة في المدينة . عرضتها السيدة على صديقاتها ، وانبهر الجميع بالمهارة التي استطاع الرسام بها أن يحتفظ بالشبه ، ويضفي الجمال على النموذج فضلاً عن ذلك .

• أية فكرة لذيذة ! (بالفرنسية في الأصل) .

والملاحظة الاخيرة لم تنقل ، بالطبع ، دون مسحة خفيفة من الحسد ظهرت على الوجوه . وفجأة أثقل الرسام بالطلبات . وبدا وكأن اهل المدينة بأسرهم يريدون أن يرسمهم . وكان جرس الباب يدق كل دقيقة . وكان يمكن أن يكون هذا ، من ناحية ، مفيداً ، اذ يوفر للرسام مراناً مستديماً على رسم الوجوه العديدة المختلفة السمات . ولكن ، من سوء الحظ ، أن اصحاب الطلبات كانوا جميعاً أناساً ممن يصعب ارضاؤهم ، أناسا عجولين ، مشغولين أو من الطبقات الراقية ، اى اكثر انشغالاً من اى صنف آخر ، ولهذا كانوا لهوفين الى اقصى حد . وكان الجميع يطالبون بأن تكون الصورة جيدة وسريعة . وأدرك الرسام أن من المستحيل تماماً ان يوفي العمل حقه ، وأن عليه أن يستعيض عن كل شيء بالبراعة وعجالة الفرشاة السريعة وأن يمسك فقط بالسمات العامة الكلية ، والصفة العامة ولا يتعمق بفرشاته في التفاصيل الدقيقة . وبعبارة واحدة كان من المستحيل كلياً تتبع المرسوم بدقائقه . وبالاضافة الى ذلك يمكن أن نضيف أن جلّ الذين رسمهم كانت لهم متطلبات أخرى في اشياء متنوعة . فقد كانت السيدات يطالبن بأن تعطى الاولوية في رسم صورهن ، للنفسية والطبع ، والتغاضي احياناً عن بقية الاشياء كلياً ، وصقل كل النتوءات ، وتخفيف جميع العيوب ، بل وحتى تحاشيها كلياً اذا كان هذا ممكناً . وباختصار أن يجذب الوجه النظر ، ان لم يكن العشق كلياً . وبنتيجة ذلك كن يجلسن ليرسمن ، يضفين على وجوههن احياناً تعابير كانت تذهل الرسام . فهذه تحاول أن ترسم على وجهها السوداوية ، واخرى الانسراح في الأحلام ، والثالثة كانت تريد أن تصغر فمها بكل صورة ، فتطبقه حتى كان يتحول اخيراً الى نقطة ليست اكبر من رأس الدبوس . ورغم كل ذلك كن يطالبنه بالشبه وبالعفوية الطبيعية . كما أن الرجال لم يكونوا اقل مطلباً من السيدات أبداً . كان احدهم يريد أن يرسم في إلتفاتة راس قوية طافحة في الحيوية ، والآخر بعينين ملهمتين مرفوعتين الى السماء ، وطالب ضابط حرس بأن يظل مارس اله الحرب من عينيه من كل بد . والحّ موظف مدني على ان يكون وجهه على اكبر قدر من الاستقامة والنبل ، وأن تكون يده متكئة على كتاب ، كتب عليه بحروف واضحة : «كان في صف الحقيقة دائماً» .

في البداية كانت هذه المطالب تغرقه بالعرق . فقد كان يجب أن يستوعب كل ذلك ويتروى فيه ، وفي الوقت ذاتـــه كانت المدد المحددة لانهاء الرسم قصيرة جداً . واخيراً توصل الى كبد الموضوع ، فلم يجد صعوبة البتة . وكان يفهم من كلمتين او ثلاث بأى صورة كان صاحب الطلب يريد أن يُرسم . فمن أراد ان يكون مارس حشر مارس في وجهه ، ومن جاهد ليتشبه بباير ون جعله يقعد في وضع بايرون ولفتته ، والتي احبت أن تكون كورينا أو اوندينا أو اسبازيا من السيدات وافق على كل شيء مطواعاً، واضاف من عنده لكل واحدة ما يشبع النفس من القسامة التي لن تضر ، كما هـــو معروف ، وبسببها يُغفر للرسام احياناً تجاوزه للشبه . وسرعان ما اخذ هو نفسه يندهش من سرعة فرشاته العجيبة وخفتها . وطبيعي ان المرسومين كانوا في غاية الانشراح ، حتى صاروا ينعتونـــه بالعبقرية .

وصار تشارتكوف رساماً عصرياً من كل النواحي واخذ يتردد على موائد الغداء ، ويصطحب السيدات الى معارض الصور ، وحتى للنزهة ، ويتأنق ، ويؤكد علناً أن الفنان يجب أن ينتمـــي الى المجتمع الراقي ، ويهتم بمكانته ، وأن فنانينا يلبسون ، كما يلبس الاساكفة * ولا يحسنون التصرف ، ولا يراعـــون آداب السلوك الرفيعة ، وليست لهم اية ثقافة . وفي بيته ومرسمـــه حافظ على النظافة والنظام في اعلى درجة واتخذ لنفســـه خادمين فاخرين ، وتلامذة أنيقين ، وكان يغير بدلاته عدة مرات في اليوم على مختلف ساعات الصباح ، ويجعد شعره ، ويتمرن على تحسين الطرائـــق المختلفة التي يستقبل بها الزوار ، ويهتم بتزيين هيئته بكـــل الوسائل الممكنة ليترك بها أثراً لطيفاً لدى السيدات . وباختصار سرعان ما صار من غير الممكن التعرف في شخصه على ذلك الرسام المتواضع الذي كان يعمل مغموراً في مسكنـــه البائس في جزيرة فاسيليفسكي . وصار يصرح تصريحات حادة عن الفنانين والفن . فقد كان يؤكد أن مكرمات كثيرة للغاية نسبت الى الفنانين القدامى ، وأنهم جميعاً الى عهد روفائيل لم يرسموا شخوصاً حية ، بل أشكالاً نحيفة منحولة ، وان الفكرة الزاعمة بأن في هذه الاشكال قدسية لا

* جمع اسكاف : صانع الاحذية . **المعرب** .

وجود لها الا في مخيلة المشاهد ، وحتى روفائيل نفسه لم تكن كل رسومه جيدة ، والكثير من اعماله احتفظت بالشهرة بالاسطورة لا غير ، وان ميكل انجلو متبجح ، لأنه كان لا يريد الا ان يتباهى بمعرفته بالتشريح ، وأنه لا يملك اية طرافة وان البهاء الحقيقي ، وقوة الريشة والالوان ، اذ كانت موجودة فيجب البحث عنها الآن فقط ، في عصرنا الراهن . وطبيعي أن يتطرق تلقائياً الى نفسه .

كان يقول :

– أنا لا افهم عناء الآخرين في الجلوس والانكباب على العمل . ان الرجل الذي ينكب عدة شهور على لوحة ليس فناناً في رأيي ، بل كادح . لا اصدق بأنه يملك موهبة . العبقريـــة تبدع باقتدار وسرعة . ها انذا مثلاً – كان يقول مخاطبـــاً الزوار في العادة – رسمت هذه الصورة في يومين ، وهذا الراس في يوم واحد ، وهذا في بضع ساعات ، وهذا في اكثر من ساعة بقليل . انا . . . انا بصراحة لا اعتبر فناً ما ينجز ببطء شديد خطأ في خيط . هذا حرفة ، وليس فناً .

كان يتحدث الى زواره بهذا الشكل ، وكان الزوار يدهشون باقتدار وسرعة فرشاته ، بل وتند منهم آهات الاعجاب ، بعد أن يسمعوا بالسرعة التي انتجت فيها صورهم ، وفيما بعد كان أحدهم يقول للآخر : «هذه موهبة ، موهبة حقيقية ! انظروا كيف يتحدث ، كيف تتألق عيناه .

Il y a quelque chose d'extraordinaire dans toute sa figure! *

وكان الرسام ينتشي لسماع هذه الشائعات عنه . وحين كانت المجلات تنشر ثناء عليه كان يفرح كالطفل ، رغم أنه اشترى هذا الثناء بفلوسه . وكان يوزع هذا المطبوع في كل مكان ، ويريه الى معارفه واصدقائه ، وكأنما لا يتقصد ذلك ، وكان هذا يسليـــه بسذاجة وبساطة نفس تامتين . وارتفع صيته . وكانت الاعمال والطلبات تزداد . حتى صار يضجر من تكرار الصور والوجوه التي صار يرسم اوضاعها ولفتاتها بحكم التعود . فكان يرسمها دونما رغبة كبيرة ، محاولاً أن يخطط الراس وحده بطريقة ما ، ويعطي تلامذته ليتموا الباقي . في الماضي كان ، على اية حال ، يسعى الى أن يعطي للنموذج وضعاً جديداً ، ويبهر بالضلاعة والتأثير . والآن

* هناك شيء غير اعتيادي في كل مظهره (بالفرنسية في الأصل) .

حتى هذا صار مضجراً لـــــه . وكان فكره قد تعب من الابتكار والتروى ، فصار لا يطيقهما ، كما لم يكن له وقت يصرفه على ذلك . والحياة السارحة ، والمجتمع الذي كان يحاول أن يقوم بدور الرجل الراقي فيه ابعداه كثيراً عن العمل والأفكار . وبردت فرشاته واصابها الكلال ، وتقوقع ، دون ان يشعر ، في أشكال رتيبـــة محدودة مستهلكة منذ زمان . والوجوه الرتيبة الباردة والمعتنى بها ابداً ، والمغلقة ، كمـــا يمكن أن يقـــال ، للموظفين عسكريين ومدنيين ، ضيّقت مجال الحرية للفرشاة ، فنسيت رسم الثياب الرائعة ، والحركات القوية ، والصبوات . ناهيـــك عن الصور الجماعية ، والدراما الفنية ، وحبكتها الرفيعة . فلم تكن امامه غير السترات الرسمية ، ومشدات الخصر النسويـــة ، وبدلات الفراك التي يشعر الرسام بالبرودة امامها ، ويتلاشى اي خيال . واختفت من اعماله هذه حتى ابسط القيم ، ومع ذلك ظلت تحظى بالشهرة ، رغم ان العارفين الحقيقيين والرسامين كانوا ، اذا نظروا الى اعماله الاخيرة ، اكتفوا بهز اكتافهم . وبعض الذين كانـــوا يعرفـــون تشارتكوف من قبل لم يستطيعوا ان يفهموا كيف أمكن أن تختفي الموهبة التي لاحت مخايلها عليه ساطعة منذ البداية ، وحاولوا دون جدوى ان يحدسوا كيف يمكن ان تخمد المَلَكة في انسان بلغ لتوه أعلى شاو من تطور قواه كلها .

ولكن الرسام النشوان لم يكن يسمع هذه الاقوال . وكان قد بدا يصل الى عهد رصانة العقل والعمر ، وصار يسمن ، ويترهل بشكل ملحوظ . واخذ يقرأ في الصحف والمجلات نعوتاً من مثـــل «اندريه بيتروفيتشنا المحترم» و«اندريه بيتروفيتشنا المكرّم» . وصاروا يعرضون عليه مناصب محترمة في الوظيفة ، ويدعونه الى الامتحانات واللجان . وشرع ، كما هو دائماً حين يبلغ الفنان سن الكهولة ، يتشدد في التزام جانب رافائيل ، والرسامين القدامى ، لا لأنه اقتنع تماماً بعلو باعهم في الفن ، بل ليفند بهم الرسامين الشبان . واخذ ، كما هي العادة عند جميع الذين بلغوا هذا العمر ، يعيّر الشبان قاطبة بانعدام الخلق ، وسوء السريرة . وصار يؤمن بأن كل ما في الدنيا يتم ببساطة ، ولا وجود للوحي من الأعلى ، وان كل شيء يجب أن يخضع حتماً لنظام واحد صارم من الدقـــة

والرتابة . وباختصار بلغت حياته السن التي يأخذ فيها بالتقلص كل ما يدفع الانسان الى الطموح ، فلا يصل صوت الوتر الجبار الى النفس الا ضعيفاً واهناً ، دون أن يهز القلب برناته النافذة ، السن التي تكف ملامسة الجمال فيها عن تحويل الطاقات العذراء الى نار ولهب ، ولكن المشاعر الهامدة كلها تظل اكثر استجابـــة لرنين الذهب ، واكثر التفاتاً الى موسيقاه المغرية ، حتى تتيح لهذه الموسيقى شيئاً فشيئاً أن تنيمه كلياً دون ان يشعر . والمجد لا يمكن أن يمد بالمتعة مَنْ سرقه ، ومَنْ لا جدارة له به . فهو لا يهز الا مشاعر الذين يستحقونه ولهذا اتجهت كل مشاعر تشارتكوف وتطلعاته الى الذهب . وصار الذهب هوسه ، ومثاله ، ورعبه ، ولذته ، وغايته . وازدادت ضبات النقود في الصناديق ، وأخذ كاي شخص يسقط في حبائل هذه الهواية الفظيعة ، يصير ملولاً ، لا يتطامن الا للذهب ، بخيلاً بلا داع ، وكانز امـــوال مستهتراً ، واوشك أن يتحول الى واحد من تلك المخلوقات الغريبة المتوافرة في عالمنا المعدوم الاحساس والتي ينظر اليها فزعاً الانسان المفعم حياة وعاطفة ، اذ تبدو له توابيت حجرية متحركة في صدورهـــا قلوب ميتة . ولكن حدثاً واحداً هزّه بقوة ، وايقظ كل كيانه .

في احد الايام راى على طاولته رسالة صغيرة رجته فيها اكاديمية الفنون ، كعضو مبجل فيها ، أن يأتي ليدلي برايه في عمل جديد ارسل من ايطاليا صنعه رسام روسي كان يطور مهارته هناك . وكان هذا الرسام أحد رفاقه السابقين كان عمره مولعاً بالفن منذ نعومة اظفاره ، يغرق فيه بكل روحه بقلب الكادح الملتهب ، وقد هجر اصدقاءه وأقاربه ، وعاداته الأليفة ، واسرع الى حيث يزدهر مشتل الفنون العظيم في ظل سماوات رائعة ، الى روما المدهشة التي يدق قلب الرسام الملتهب بقوة وبكل طاقته لدى ذكرى اسمها . وهناك انعكف على العمل ، كالناسك ، وانقطع الى الدراسة لا يصرفه شيء عنها . ولم يكن يهمه ماذا كانوا يقولون عن طبعه ، وعن جهله في مخاطبة الناس ، وعدم مراعاته للعادات الراقية ، وعن مهانته للقب الرسام بضئالة ملبسه وهندامه . ولم يكن يهمه أن يغضب عليه زملاؤه او لا يغضبـــوا . فقد اهمـــل كل شيء ، ووهب كل شيء للفن . كان يتردد على معارض الصـــور دون كلال ،

ولساعات طوال يقف أمام أعمال الاساتذة العظام ملتقطاً ومتتبعاً الفرشاة العجيبة . ولم يكن يتم شيئاً دون أن يدقق عمله عدة مرات مع اولئك المعلمين العظام ، ويستخلص من أعمالهم نصيحة صامتة وبليغة له . ولم يكن يشترك في المناظرات والنقاشات الصاخبة ، ولم يكن ضد المحافظين في الرسم ولا معهم . فقد كان يعطي لكل شيء ما يستحقه تماماً ، مستقياً من كل شيء ما هو جميل فيه فقط ، وأخيراً جعل لنفسه معلماً واحداً هو رافائيل الرائع . ومثل شاعر مبدع عظيم قرأ العديد من مختلف الابداعات الزاخرة بالكثير من الروائع والبدائع العظيمة ، اصطفى له اخيراً «الياذة» هوميروس كتاباً ملازماً له ، وقد اكتشف أنه يحتوى كل ما يلذ للنفس ، ويعبر عن كل شيء في غاية الكمال والعمق ولكنه أخذ من مدرسته فكرة الابداع العظيمة ، وجمال الفكر الجبار ، والسحر الرفيع للريشة الملهمة .

عندما دخل تشارتكوف القاعة وجد حشداً هائلاً من الزوار المجتمعين أمام اللوحة . كان السكوت العميق الذي نادراً ما يكون بين متذوقي الفن ، حين يحتشدون بكثرة ، يسود المكان كله في هذه المرة . اسرع ليتخذ سمة العارف المهيبة ، واقترب من اللوحة . ولكن ، يا إلهي ، علام وقعت عيناه !

كانت لوحة الرسام تقف أمامه نقية ، طاهرة ، جميلة كعروس ، وتسمق فوق كل شيء بتواضع وفتنة ، وبراءة وبساطة ، كالعبقرية . وبدا وكأن شخوصها السماوية الذاهلة من كثرة الابصار المصوبة نحوها ، قد أسبلت رموشها الجميلة حياء . وكان خبراء الفن يتفحصون عمل هذه الريشة الجديدة الفريدة يغمرهم شعور دهشة لا ارادية . كان كل شيء يبدو وقد توحد فيها في كل واحد : دراسة رافائيل المنعكسة في نبل الاوضاع الرفيع ، ودراسة كوريدجيو المتبدية في كمال الرسم التام . ولكن اقوى ما قد ظهر في الصورة هو موهبة الابداع التي كانت قد تغلغلت في روح الرسام نفسه . فينفذ حتى الى اصغر ما في اللوحة من أشياء ، وكان القانون والطاقة الداخلية يتحكمان في كل شيء . وانسيابية الخطوط السبطة الكامنة في الطبيعة محسوسة في الصورة كلها ، تلك الانسيابية التي لا تراها الا عين الفنان المبدع وحدها ، والتي تبرز

لدى الناسخ ناتئة . وكل شيء مأخوذ من العالم الخارجي كان واضحاً أن الفنان غاص في داخله اولاً ، ومن هناك ، من ذلك الينبوع الروحي ، أطلق نشيده المتهلل المنسّق الموحّد . وصار واضحاً حتى لغير المطلعين أية هوية سحيقة تفصل بين الابداع وبين مجرد الاستنساخ من الطبيعة . لقد كان من المستحيل تقريباً وصف ذلك السكون غير الاعتيادي الذي شمل لا ارادياً كل الذين شخصت ابصارهم الى اللوحة ، فلا صوت ولا نأمة . بينما كانت اللوحة تبدو وكأنها ، من لحظة الى اخرى ، تسمو أعلى فأعلى ، تنفصل عن كل شيء اكثر تنوراً وأروع فتنة ، لتتحول كلها اخيراً ، الى ومضة واحدة ، الى ثمرة فكرة هبطت على الرسام من السماء ، الى ومضة ليست الحياة الانسانية كلها الا تحضيراً لها . كانت الدموع توشك أن تسيل لا ارادياً على وجوه الزوار المحيطين باللوحة . وبدا وكأن جميع الاذواق ، جميع شذوذات الذوق الخاطئة اندمجت في نشيد تمجيد صامت لهذا العمل الرائع . وقف تشارتكوف امام اللوحة جامداً فاغر الفم ، وأخيراً ، حين أخذ الزوار والخبراء يضجون شيئاً فشيئاً ، وصاروا يتناقشون في قيمة العمل ، وحين رجوه اخيراً بأن يدلي برأيه ، أفاق على نفسه ، وأراد أن يتخذ مظهراً طبيعياً لا ابالياً ، أراد أن ينطق برأي اعتيادي مبتذل كذلك الذي يطلقه الرسامون المتصلبون ، من مثل : «نعم ، بالطبع ، لا يجوز حقاً انكار ما للرسام من موهبة . يوجد شيء ما . يبدو أنه كان يريد أن يعبّر عن شيء . ومع ذلك فان ما يتعلق بالشيء الاساسي . . .» وبعد ذلك ، يضيف ، بالطبع ، ثناءات تسيء الى الرسام . اراد أن يفعل ذلك ، ولكن الكلمات ماتت على لسانه ، وانفلتت الدموع والنشجات المنقطعة لتتكفل بالجواب ، وخرج من القاعة راكضاً كالمجنون .

وفي مرسمه الفاخر وقف لحظة جامد الحركة فاقد الاحساس . واستيقظ كل كيانه ، كل حياته ، في لحظة واحدة ، وكان شبابه قد عاد اليه ، وكان شرر الموهبة الخامد تتطاير من جديد . وانقشعت الغشاوة عن عينيه فجأة . يا الهي ! وادرك انه أضاع بهذه القسوة أفضل سنوات شبابه هباء ، سحق واطفأ شرارة نار ، ربما كانت وامضة تحت الرماد في الصدر ، ربما كانت ستتوهج الآن في جلال

وجمال ، وتدر ايضاً دموع الذهول والامتنان ! يضيع كل شيء ، يضيع بدون أية شفقة ! وبدا وكان قد انبعثت في هذه اللحظة في روحه فجأة ودفعة واحدة تلك الصبوات والسورات التي كانت مألوفة له في وقت ما . تناول الريشة واقترب من قماشة الرسم . ورشح وجهه بعرق الجهد . تحول كله الى رغبة واحدة ، والتهب بفكرة واحدة ، كان يريد أن يصوّر ملاكاً ساقطاً . فان هذه الفكرة كانت الاكثر تلاؤماً مع حالته النفسية . ولكن واحرستاه ! كانت شخوصه ، واوضاعها ، والمجموعات ، والأفكار تخرج من بين يديه متكلفة مفككة . لقد كانت ريشته وخياله محصورين كلياً في قالب واحد ، وكان انتفاضه العاجز على الحدود والقيود التي صفّد بها نفسه يوقعه في الانحراف والخطأ . لقد استخف بالسلم المتعب الطويل للمعارف التدريجية والقوانين الاساسية الأولى للعظمة ، اذا أريد لها أن تهل . فاستولى عليه الشعور بالأسى . أمر بأن تقصى من مرسمه كل أعماله الأخيرة ، كل اللوحات العصرية الخالية من الحياة ، كل صور الضباط الفرسان ، والسيدات والموظفين المدنيين الكبار . وحبس نفسه في حجرته ، وأمر أن لا يسمح لأحد بالدخول . وانغمر في العمل كلية . جلس وراء عمله كشاب صبور ، كتلميذ . ولكن باي جحود لا رأفة فيه كان يتمخض الجهد المبذول في كل ما خطته ريشته ! وكان الجهل في ابسط المبادئ الاولية يوقفه في كل خطوة . وكان الميكانيزم البسيط التافه يبرّد كل حماس ، ويقف عقبة منيعة في وجه الخيال . وكانت الريشة تعود لا ارادياً الى الاشكال المتقولبة ، فتطلع اليدان في وضع مألوف ولم يستطع ان يعطي للراس لفتة غير اعتيادية ، وحتى طيات الثوب طلعت مكرورة ، تتهيب المطاوعة والتلابس مع وضع للجسد غريب . وقد شعر هو نفسه بذلك . شعر به ورآه !

وقال اخيراً : «ولكن اتراني املك موهبة حقاً ؟ الم اكن اخادع نفسي ؟» وبعد أن تفوه بذلك تقدم من اعماله السابقة التي كان قد رسمها ، في وقت ما ، بنقاء وتفان ، هناك ، في مسكنه البائس ، في جزيرة فاسيليفسكي النائية ، بعيداً عن الناس والترف وكل الاهواء . اقترب الآن منها ، وصار يتفحصها جميعاً بانتباه ، ومعها أخذت تتراءى في ذاكرته كل حياته البائسة السابقة . فقال في يأس :

«اجل . كانت لي موهبة . مخايلها وبصماتها مرئية في كل مكان ، في كل شيء . . .»

توقف ، واهتزّ كل جسده فجأة . فقد التقت عيناه بعينين مثبتتين فيه بلا حراك . انها تلك الصورة الفذّة التي كان قد اشتراها في سوق تشوكين . كانت طوال الوقت مغطاة ، ومطمورة وراء لوحات أخرى ، وقد غابت عن ذهنه كلياً . والآن ، حين ازيحت جميع الصور واللوحات العصرية التي كانت تملأ المرسم ، طلعت الى فوق ، وكأنما عن عمد ، سوية مع أعمال شبابه السابقة . وحالما تذكر كل حكايتها الغريبة ، وتذكر أن هذه الصورة الغريبة مسؤولة بعض الشيء عن الانقلاب الذي حدث في حياته ، وأن كنز النقود الذي حصل عليه بتلك الطريقة العجيبة ولّد فيه كل الرغائب اللاهية التي قتلت موهبته ، اوشك أن يستولي على نفسه ما يشبه الجنون . فأمر على الفور باخراج هذه الصورة الكريهة . الا أن القلق النفسي لم يهدأ . فكانت كل مشاعره وكل جوارحه تهتز من الاساس ، فذاق ذلك العذاب الرهيب الذي يصيب أحياناً وكاستثناء مذهل ، النفس البشرية ، حين تجاهد الموهبة الضعيفة لتتخطى حدودها ، فلا تستطيع ، العذاب الذي يخلق شيئاً عظيماً في الشباب ، لكنه يتحول في نفس الذي تخطى سن الآمال الى لهفة عقيمة ، العذاب الرهيب الذي يجعل الانسان قادراً على ارتكاب الفظائع الشنيعة . وتملكه حسد مريع ، حسد الى حد الجنون . وكانت الصفراوية تعلو وجهه ، حين كان يرى عملاً عليه طابع الموهبة . فيصرف باسنانه ، ويلتهمه بنظرة الجني الماحقة . وتنبعث من اغواره اشنع نية خامرت نفس انسان في وقت من الاوقات ، ويندفع بقوة مسعورة لينفذها . وأخذ يشتري أفضل ما انتجه فن الرسم . فاذا اشترى لوحة ، بثمن غال ، يحملها الى غرفته بحذر ، ويهجم عليها بشراسة ذئب ، ويقطعها ، ويمزقها ارباً ، ويسحقها بقدميه ، مشفعاً ذلك بضحك التلذذ . وكانت الثروات الهائلة التي جمعها توفر له كل الوسائل لتطمين هذه الرغبة الجهنمية . كان يفك جميع أكياس الذهب عنده ، ويفتح الصناديق . وما من غول للجهل قضى على ذلك القدر الذي قضى عليه هذا المنتقم الشرير من الأعمال الجميلة . وفي كل المزادات التي يظهر فيها كان اليأس من اقتناء عمل

فني يصيب اي انسان مسبقاً . وبدا وكان السماء الساخطة انزلت هذه القارعة الرهيبة على العالم عن قصد لتنتزع منه كل ما فيه انسجام . والقت هذه النزوة المريعة ظلاً مخيفاً عليه . فكانت الصفراوية المستديمة تلازم وجهه . وكانت ادانة العالم ، انكاره ، تظهر على قسمات وجهه تلقائياً . وبدا وكان العفريت الرهيب الذي صوره بوشكين أمثل تصوير قد تجسد فيه . ولم تكن من بين شفتيه غير الكلمة السامة والتذمر الدائم . وكان الناس وحتى معارفه ، اذا رأوه من بعيد في الشارع ، يحاولون الاستدارة وتحاشي هذا اللقاء كما يتحاشى لقاء احدى الهاربيات * الكواسر ، قائلين أنه يكفي لتسميم اليوم كله بعد ذلك .

ومن حسن حظ العالم والفن أن مثل هذه الحياة المتوترة القائمة على العنف ما كان من الممكن أن تستمر طويلاً . فان حجم الاهواء كان غير قياسي وضخماً جداً بالنسبة لقواها الضعيفة . واخذت نوبات السعار والجنون تتتابع ، حتى تحولت اخيراً الى أفظع مرض . واجتاحته حمى قاسية مصحوبة بسل سريع التفشي ، حتى لم يبق منه خلال ثلاثة ايام غير ظل . واضيفت الى ذلك بوادر جنون لا شفاء منه . احياناً كان لا يستطيع عدة اشخاص كبح جماحه . واخذت تتراءى له العينان الحيتان المنسيتان منذ زمان ، عينا تلك الصورة الفريدة ، وعند ذاك كان جنونه يصير فظيعاً . وكان يتخيل جميع الذين كانوا يحيطون بسريره صوراً فظيعة . وكانت الصورة تزدوج في عينيه وتتزايد ، وتبدو كل الجدران مملوءة بالصورة التي تثبت فيه عيونها الحية الجامدة . وكانت هذه الصور الرهيبة تحدق من السقف ، من الارضية ، وتتسع الغرفة ، وتمتد الى ما لا نهاية لتستوعب عدداً اكبر من هذه العيون الجامدة . حاول الدكتور الذي التزم بمعالجته ، والذي كان قد سمع شيئاً عن حكايته الغريبة أن يجد ، بكل وسيلة ممكنة ، الصلة الخفية بين الرؤى التي كانت تتراءى له ، وما حصل في حياته من أحداث ، ولكنه لم يظفر بطائل . كان المريض لا يدرك شيئاً ، ولا يشعر بغير العذابات ، وكان لا يصدر غير العويل المتكرر المريع والهمهمات الغامضة . واخيراً

* الهاربيات : من بنات الوحش في الأساطير الاغريقية ، صورهن فيرجيل كحارسات أبواب الجحيم . **المترجم** .

انبترت حياته في احتضار صامت معذب . وكانت جثته رهيبة . ولم يستطع الناس أن يجدوا شيئاً من ثرواته الهائلة ، ولكنهم وجدوا مزقاً من تلك الاعمال الفنية الرفيعة التي تجاوزت قيمتها الملايين ، فادركوا سرّ استخدامه المربع لها .

القسم الثاني

كان عدد كبير من مختلف العربات والمركبات تقف امام مدخل البيت الذي كان يجري فيه بيع بالمزاد العلني لحاجيات احد هواة الفن الاثرياء الذين قضوا حياتهم كلها في حلم لذيذ ، مولعين برقص الاقنان ، والذين اشتهروا ببراءة ذمة كحماة العلم والفن ، فكانوا من اجل ذلك ينفقون بأريحية ، الملايين التي جمعها اباؤهم الاكفاء ، بل وحتى في كثير من الاحيان باعمالهم الذين كانوا قد زاولوها سابقاً . والآن لا وجود لهؤلاء الحماة ، كما هو معروف ، فقد اتخذ قرننا التاسع عشر منذ زمان سحنة الصيرفي المضجرة ، الصيرفي الذي يتمتع بملايينه على شكل ارقام فقط مسجلة على ورقة . كانت القاعة الطويلة مملوءة بجمهرة ذات الوان شتى من الزوار جاءت منقضة كالطيور الكاسرة على جسد مرمي . فكان في الصالة فصيل كامل من التجار الروس من سوق غوستيني وحتى من سوق الخردوات ، في ستر المانية زرقاء . وكانت هيئتهم وسمات وجوههم هنا اكثر صلابة وحرية ، ولم يكونوا يتميزون بتلك المخدومية المفرطة ، والملحوظة لدى التاجر الروسي ، حين يكون في حانوته امام المشتري . فهم هنا لم يحتشموا قط ، رغم أن القاعة كانت تضم عدداً كبيراً من الارستقراطيين الذين كان التجار اذا وقفوا امامهم في مكان آخر مستعدين الى ان يمسحوا مع انحناءاتهم ، الغبار الذي حملته احذيتهم . اما هنا فكانوا طلقاء يتلمسون الكتب واللوحات بلا كلفة يريدون أن يعرفوا جودة البضاعة ، ويزايدون بجسارة على السعر الذي رفعه الكونتات الخبراء . وكان في القاعة الكثيرون من زوار المزايدات الدائميين الذين قرروا المجيء اليها بدلاً من الافطار ، والارستقراطيين الخبراء الذين كانوا يرون لزاماً عليهم أن لا يفوتوا فرصة لزيادة مجموعتهم ، ولم يجدوا عملاً آخر

يشغلهم من الساعة الثانية عشرة ، حتى الواحدة ، واخيراً من اولئك السادة النبلاء الفقراء في اللباس والجيب ، والذين يأتون كل يوم بدون اية مصلحة نفعية ، بل لغرض وحيد هو أن يروا عم يسفر الأمر ، ومَنْ سيطرح سعراً أعلى ومَنْ أقل ، ومَنْ يزايد على الآخر ، وعلى مَنْ ترسي المزايدة . وكان عدد كبير من اللوحات قد تناثر بلا نظام تماماً واختلط بالاثاث ، والكتب وعليها طغراءات مالكها السابق الذي ربما لم يكن له قط حب استطلاع محمود للنظر فيها . كانت المزهريات الصينية ، وصفائح الموائد المرمرية ، والاثاث الجديد والقديم ذو الخطوط المعكوفة ، وتماثيل طائر الرخم وتماثيل ابي الهول ، وبراثن الأسود المذهبة وغير المذهبة ، والثريات ، وفوانيس الزيت ، كل ذلك يتكدس على بعضه مفتقراً كلياً الى النظام المعهود في الحوانيت . وكل شيء كان كمثل فوضى للفنون . ان الشعور الذي يخامرنا عموماً لدى مرأى مزاد علني لشعور فظيع فكل شيء فيه يوحي بما يشبه الموكب الجنائزي . القاعة التي يجري فيها كئيبة دائماً . والنوافذ التي تراكمت عليها الاثاث واللوحات تشح ضوءاً هزيلاً ، والسكون الذي يرين على الوجوه ، والصوت الكئيب للمنادي الضارب بالمطرقة ، المرتّل قداساً للفنون البائسة التي التقت هنا بشكل غريب . كل ذلك ، يبدو ، وكأنه يزيد اكثر من رداءة الانطباع الغريبة .

وبدا المزاد في أوجه . وكان حشد كبير من الناس المعتبرين ، قد تجمهر ضاجاً يقاطع بعضهم بعضاً . وترددت من كل الجهات كلمات : «روبل ، روبل ، روبل» ، دون أن تعطي للمنادي الوقت ليكرر السعر المزاد والذي ارتفع اربع مرات عن السعر المعلن . كان الحشد المتجمهر يتزاحم على صورة ما كان من الممكن ان لا تلفت انتباه كل مَنْ كان له قدر من الفهم في الرسم . وكانت ريشة الرسام الرفيعة قد تجلّت فيها بشكل واضح . والظاهر أن هذه الصورة قد رُممت عدة مرات وجُددت ، وكانت تصور ملامح آسيوي سمراء في جلباب فضفاض ، لوجهه سحنة فريدة غريبة . ولكن اكثر ما بهر المتجمهرين الحيوية غير الاعتيادية لعينيه . كلما امضوا النظر فيهما بدتا وكأنهما مصوبتان الى دخيلة كل واحد منهم . وهذه الغرابة ، وهذه البراعة غير الاعتيادية للرسام جلبت

انتباه الجميع تقريباً . وقد تراجع الكثير من المتبارين عليها لأن السعر الذي طرح لها مرتفع تماماً . ولم يبق الا ارستقراطيان معروفان ، هاويان للرسم ، لم يريدا التخلي ابداً عن هذه الشروة . كانا ينفعلان ، وكان من الممكن ان يتزايدا في السعر الى حدود المستحيل ، لو لم يقل أحد الذين كانوا يتفحصونها :

– اسمحوا لي بأن اقطع نقاشكم لبعض الوقت . ربما لي الحق في هذه الصورة اكثر من اي شخص آخر .

ولفتت هذه الكلمات انظار الجميع اليه في رمشة عين . وكان هذا الرجل ممشوق القوام في نحو الخامسة والثلاثين من العمر له خصلات شعر اسود طويلة جعداء . وكان وجهه اللطيف المفعم براحة بال وضيئة ينم عن نفس غريبة عليها كل الانفعالات الدنيوية المضنية . ولم يكن في ملبسه أي ادعاء في الموضة . فقد كان كل ما فيه يشير الى أنه فنان . وبالفعل كان هذا الرسام ب الذي يعرف شخصياً الكثيرين من الحاضرين .

– مهما تبدو لكم كلماتي غريبة – مضى الرجل يقول ، وهو يرى انتباه الجميع مصوباً نحوه – ولكن اذا وافقتم على سماع حكاية صغيرة فقد تجدون أنني على حق في قولها . كل شيء يؤكد لي أن الصورة هي الصورة التي أبحث عنها .

وتلظّت الوجوه كلها تقريباً بفضول مشروع تماماً ، وحتى المنادي ، فغر فمه ، وتوقف والمطرقة مرفوعة في يده ، متهيئاً للاستماع . في بداية القصة كان الكثيرون يوجهون عيونهم الى الصورة بشكل لا ارادي ، ولكن الجميع تفرسوا في الراوي وحده ، بعد ذلك ، بمقدار ما كانت قصته تزداد تشويقاً .

وبدا بالشكل التالي :

– انتم تعرفون ذلك الجزء من المدينة المسمى كولومنا . كل شيء في هذا الجزء لا يشبه ما في الاجزاء الأخرى من بطرسبورغ . هذا الجزء لا هو عاصمة ولا هو أقليم . فانتم ، حين تسيرون في شوارع كولومنا ، يبدو وكأن جميع رغائب الشباب وصبواته تزايلكم . والمستقبل لا يمر في هذا الجزء . السكون والاحالة على المعاش يبدوان في كل شيء هنا ، كل ما تخلّف عن حركة العاصمة . يأتي الى السكن هنا الموظفون المتقاعدون ، والارامل ، والناس من

غير الاغنياء ، الذين لهم معرفة بمجلس الشيوخ ، ولهذا حكموا على انفسهم بالاقامة هنا طوال حياتهم تقريباً ، والطباخات العجائز المتفرغات واللواتي يقضين النهار كله يتدافعن في الاسواق مثرثرات مع رجل في حانوت للبقالة ، ويشترين كل يوم قهوة بخمسة كوبيكات ، وسكراً بأربعة ، واخيراً كل ذلك الصنف من الناس الذي يمكن أن تنعته بكلمة واحدة هي «الرمادي» – اناس بما لهم من ملابس ووجوه وشعر وعيون يكتسبون مظهراً كدراً رمادياً ، كالنهار الذي ليست في سمائه عاصفة ولا شمس ، فهو لا هذا ولا ذاك . فينبسط الضباب ، وينتزع من كل الاشياء حدتها . ومن الممكن الاضافة الى هؤلاء قاطعي تذاكر المسرح المتقاعدين ، وموظفي الدرجة التاسعة المتقاعدين ، والعسكريين المتقاعدين بعين مفقودة أو شفة متورمة . ان هؤلاء الناس بلا رغبات تماماً . يسيرون دون ان يوجهوا بصرهم الى شيء ، صامتون ، ولا يفكرون في شيء . وغرفهم لا تحتوى على متاع كثير ، واحياناً لا توجد غير زجاجة كبيرة من الفودكا الروسية النقية يمصونها النهار كله برتابة ، وبدون اي احتقان شديد في الرأس من أثر الاكثار من الشرب ، وهو ما يحب أن يوفره لنفسه في ايام الآحاد الحرفي الالماني الشاب ، فارس شارع ميشانسكايا ، المتصرف لوحده بكل الرصيف ، حين يتجاوز الوقت الساعة الثانية عشرة ليلاً .

والحياة في كولومنا هادئة تماماً . فنادراً ما تمر مركبة ، ما عدا تلك التي يستقلها الممثلون ، والتي لوحدها تحطم السكون الشامل بهديرها ورنينها وطقطقتها . فالناس هنا يمشون على اقدامهم جميعاً . والحوذي غالباً ما يكون بلا راكب ، حاملاً في عربته العلف لحصانه الهرم . ومن الممكن في هذه الناحية استئجار مسكن لقاء خمسة روبلات في الشهر من ضمنها حتى قدح قهوة في الصباح . والارامل اللواتي يحصلن على تقاعد هن اكثر العوائل ارستقراطية فيها . وهن يتصرفن بلياقة ، وغالباً ما يكنسن غرفهن ، ويتحدثن مع صديقاتهن عن غلاء لحم البقر والكرنب ، وغالباً ما تكون لهن ابنة شابة ، هي مخلوقة صموت ، كتوم حلوة المحيا احياناً ، وكلبة حقيرة ، وساعة حائطية ذات بندول ذي دقات حزينة . ويأتي بعدهن الممثلون الذين لا يسمح لهم مرتبهم الانتقال من كولومنا ، وهم ناس طلقاء

مثل جميع الممثلين ، يعيشون للاستمتاع . وهم يلتفون باروابهم المنزلية ويصلحون مسدساً ، ويصنعون من الكارتون مختلف الاشياء النافعة للبيت ، ويلعبون مع صديق زائر لعبة الداما او الورق ، وبهذا الشكل يقضون الصباح ، ويقومون بنفس هذه الافعال تقريباً في المساء مع اضافة شراب «البونش» احياناً . وبعد هؤلاء الكبار وارستقراطية كولومنا يأتي الناس الصغار والتافهون الى اقصى حد ومن الصعب تعدادهم ، كما يصعب تعداد الحشرات العديدة التي تتوالد في خل قديم . واقصد بهؤلاء العجائز اللواتي يصلين ، واللواتي يسكرن ، العجائز اللواتي يصلين ويسكرن معاً ، العجائز اللواتي يتعيشن بوسائل لا يتخيلها العقل اقصد انهن كالنمل يجرجرن الخرق والملابس البالية من جسر كالينكين الى سوق الاشياء المستعملة ليبعنها بخمسة عشر كوبيكاً ، وباختصار اتعس حثالة الانسانية في الغالب ، حثالة ما كان بوسع اي اقتصادي سياسي فاضل أن يجد الوسائل لتحسين معيشتهم .

وقد ذكرتهم لاظهر لكم كيف ان هؤلاء الناس غالباً ما يكونون في حاجة ماسة الى البحث عن عون مفاجيء مؤقت لا غير ، والالتجاء الى الاستدانة ، وعندئذ يقيم بينهم مرابون من نوع خاص يزودونهم بمبالغ قليلة من الفلوس لقاء رهونات وفوائد عالية . وهؤلاء المرابون الصغار هم اكثر جفافاً في المشاعر من المرابين الكبار لمرات عديدة . لأنهم يظهرون وسط الفقر والاسمال الدالة الواضحة البؤس والتي لا يراها المرابي الغني المقتصر في تعامله على القادمين اليه في مركبات . ولهذا يموت في نفوسهم اي شعور للانسانية في وقت مبكر جداً . وكان من بين هؤلاء المرابين واحد . . . ولكن لا ضير في أن اقول لكم ان الواقعة التي شرعت في التحدث عنها ، تعود الى القرن الماضي ، والى عهد الراحلة القيصرة يكاترينا الثانية ، بالضبط . وانتم تستطيعون ان تدركوا بانفسكم ان مشهد كولومنا ذاته والحياة في داخلها لا بد ان يكونا قد تغيرا كثيراً . اذن ، لقد كان بين هؤلاء المرابين واحد ، مخلوق غير اعتيادي في كل الجوانب ، كان يسكن هناك ، في ذلك الجزء من المدينة ، منذ أمد طويل . كان يرتدي لباساً آسيوياً فضفاضاً ، وكان لون وجهه

الداكن يشير الى أصله الجنوبي ، ولكن لا أحد استطاع أن يحدد عن يقين الامة التي كان ينتمي اليها : الهندية او الاغريقية او الفارسية . وكانت قامته الطويلة بشكل غير اعتيادي تقريباً ، ووجهه الأسمر النحيف الملوّح ، بلونه المخيف بشكل لا يدرك ، وعيناه الكبيرتان بنارهما غير الاعتيادية ، وحاجباه الكثّان المطلان ، تميزه بشدة وحدة عن جميع سكان العاصمة الرماديين . وحتى مسكنه لم يكن يشبه بقية البيوت الخشبية الصغيرة . فقد كان مبنى حجرياً يشبه تلك البيوت التي بناها تجار جنوى بكثرة في زمن ما ، بشبابيكه المختلفة الاحجام والاشكال ، وقضبانها وترابيسها الحديدية . كان هذا المرابي يتميز عن المرابين الآخرين بأنه كان يقرض بالرهن اي مبلغ للجميع ابتداء من العجوز الفقيرة ، الى وجيه البلاط المبذر . وغالباً ما كانت تقف امام بيته افخر العربات كان يطل من شباكها احياناً راس سيدة مترفة راقية . وسرت شائعة ، بحكم العادة ، بأن صناديقه الحديدية مملوءة بما لا حصر له من النقود والاحجار الكريمة ، والماس ، ومختلف المرهونات ، ولكن لم تكن له ، على اية حال ، تلك الروح النفعية التي تلازم المرابين الآخرين عادة . فقد كان يقدم النقود عن طيب خاطر ، محدداً لفك الرهون مدداً مناسبة جداً ، كما بدا ولكنه كان يجعلها بتقديرات حسابية غريبة تصل الى نسب من الفائدة لا تقاس . او هذا ، ما كانت تقول الاشاعة ، على الأقل . ولكن اغرب ما في الأمر ، وما كان من الممكن أن لا يدهش الكثيرين هو ذلك المصير الغريب الذي آل اليه جميع الذين كانوا يقترضون منه . فانهم جميعاً قد انهوا حياتهم بطريقة مشؤومة . وبقي غير معروف ما اذا كان هذا مجرد اعتقاد الناس ، واقوال خرافية سخيفة أم اشاعات مفرضة . ولكن بعض الأمثلة التي حدثت في أمد غير طويل أمام اعين الجميع كانت حيّة ومذهلة .

كان ثمة شاب من احسن العوائل ، من الوسط الارستقراطي لذلك العهد قد لفت الانظار اليه بسرعة ، وتميز في مجال خدمة الدولة منذ سنوات الصبا ، وكان متحمساً قوياً لكل ما هو حقيقي رفيع ، ومتبحراً بكل ما انتجه الفن وعقل الانسان ، يعد كل كيانه بأن يكون حامي فنون وعلوم . وسرعان ما تنبهت اليه القيصرة

نفسها عن جدارة ، وعهدت اليه منصباً كبيراً يتفق تماماً مع تطلعاته . منصباً كان في وسعه أن يقوم فيه بالكثير لمنفعة العلم وللخير بشكل عام . احاط هذا الوجيه الشاب نفسه بالرسامين والشعراء والعلماء . وكان يريد أن يعطي للجميع عملاً ويشجعهم وكان يصدر على نفقته الخاصة الكثير من المطبوعات النافعة ، ويقدم الطلبات العديدة ، ويعلن عن جوائز تشجيعية ، وينفق على ذلك مبالغ كبيرة من المال ، حتى افلس اخيراً . ولكنه . وهو الممتلىء شهامة ، لم يرد أن يتخلى عن القضية ، وبحث في كل مكان ليستدين ، حتى افضى به الأمر الى صاحبنا المرابي . اقترض منه مبلغاً كبيراً من النقود ، وفي فترة قصيرة ، تغيّر هذا الرجل تماماً . فصار يلاحق ويطارد العقل المتفتح والموهبة . وصار يرى في كل الأعمال الفنية الجانب السيىء . ويفسر كل كلمة تفسيراً مشوهاً . ومن نكد الحظ أن الثورة الفرنسية كانت قد وقعت آنذاك . فاستخدم ذلك اداة لكل الدناءات الممكنة . وصار يرى في كل شيء نزعة ثورية ، وراح يتصور التلميحات في كل شيء . واصبح شكوكياً الى حد أنه صار يتشكك في نفسه اخيراً ، وصار يلفق الوشايات الكاذبة الفظيعة ، ويلحق الأذى بالكثيرين من الناس ويجعلهم تعساء . وطبيعي أن مثل هذه التصرفات ما كان من الممكن أن لا تصل الى صاحبة العرش في آخر الأمر . وارتعبت القيصرة الشهمة ، وتفوهت ، وهي المفعمة بنبل النفس الذي يحلي اصحاب التيجان ، بكلمات رغم أنها ما كان من الممكن ان تصل الينا بكامل دقتها ، الا أن معناها العميق كان له وقع في قلوب الكثيرين . فقد قالت القيصرة أن في ظل حكم الملوك لا تُضطهد تطلعات النفس النبيلة الرفيعة ، ولا تُحتقر وتُلاحق ابداعات العقل والشعر والفنون ، بل على العكس ، كان الملوك وحدهم حماتها وأن امثال شكسبير وموليير ازدهروا في ظل حمايتهم الشهمة ، بينما لم يستطع دانتي أن يجد له مأوى يستكن اليه في وطنه الجمهوري ، وأن العباقرة الحقيقيين يظهرون في زمن تألق وعظمة اصحاب العروش والدول ، لا في ظل الظواهر السياسية الذميمة والارهابات الجمهورية ، التي لم تمنح العالم حتى الآن شاعراً واحداً ، ويجب تمييز الشعراء والفنانين ، لأنهم لا يغرسون في الروح غير السلام والطمأنينة الرائعة ، لا القلق

ولا التذمر ، وأن العلماء والشعراء ومبدعي الفنون جميعهم هم لآلىء وجواهر في التاج الامبراطوري . وهم يزينوف عهد العاهل العظيم ، ويزيدونه اشعاعاً وألقاً . وباختصار ، كانت القيصرة حينذاك ، وهي تنطق بهذه الكلمات رائعة ساحرة الجمال . وأنا اتذكر أن الشيوخ ما كانوا يستطيعون أن يتذكروا ذلك بدون أن تسيل دموعهم . وشارك الجميع في القضية . وانصافاً لكبريائنا الشعبية يجب أن نلحظ أن القلب الروسي يضمر دائماً الشعور الرائع بالتزام جانب المضطهَد . فعوقب هذا الوجيه الذي خان الثقة ليكون عبرة للآخرين ، وأُقصي من منصبه . ولكنه كان يرى في وجوه ابناء وطنه عقاباً امضّ بكثير . كان يرى ازدراء قوياً عاماً . ومن الصعب وصف العذاب الذي عانته عزة نفسه . فان الكبرياء ، الطموح المخدوع ، الآمال المحطمة قد اجتمعت سوية ، وانتهت حياته في نوبات من الجنون المريع والعته الضارى .

وثمة مثال مذهل آخر حدث ايضاً امام اعين الجميع . من بين الحسناوات اللواتي لم تكن عاصمتنا الشمالية فقيرة بهن في ذلك الحين واحدة كسبت الاولوية المطلقة عليهن . وكانت تالفاً عجيباً بين جمالنا الشمالي وجمال الظهيرة ، جوهرة يندر أن توجد في هذه الدنيا . وكان ابي يعترف بأنه طوال حياته لم ير قط مثيلاً لها . وكان كل شيء قد اجتمع فيها : الثروة ، والعقل ، وسحر الروح . وكان خطابها كثيرين ، كان اروعهم جميعاً الأمير ر . افضل الشباب قاطبة ، والأكثر نبلاً ، وجمالاً في الوجه والصبوات الفروسية الاريحية ، والمثال الرفيع للروايات والنساء ، مثيل غراندیسون من كل الوجوه . ووقع الامير ر . بغرامها المشبوب العارم . فجاوبته بنفس ذلك الغرام . ولكن العاشقين بديا للاقارب غير متكافئين . فالخطيب لم يعد منذ زمان مالك لضياعه الموروثة وعائلته قد فقدت وزنها . وكان الجميع يعرفون أن أموره سيئة . وفجأة يترك الأمير العاصمة ليصلح شؤونه على حسب زعمه ، وبعد فترة قصيرة ، يظهر محاطاً بترف وبهاء منقطع النظير . وتجعله حفلات الرقص الفاخرة والولائم معروفاً في البلاط . وينال الحظوة لدى والد الحسناء . وتقام في المدينة اروع حفلة زفاف . ولم يكن في مستطاع احد أن يعرف بدقة سبب هذا التغيّر ، ومن أين جاء الخطيب بهذه

الثروة الهائلة ، ولكن الناس كانت تلمح الى أنه عقد صفقة مع مراب مجهول ، وأخذ منه قرضاً . ومهما يكن من شيء فان حفلة الزفاف شغلت بال المدينة كلها . وكان العروس والعريس معاً موضع حسد الجميع . وكان الناس قاطبة يعرفون الحب المتأجج المستديم ، والتباريح الطويلة التي شقي بها كلاهما كما كانوا يعرفون خصال الزوجين الرفيعة . وكانت النساء اللاهيات يرسمن مسبقاً حياة النعيم الذي سيفوز به الزوجان الشابان ولكن الأمر كان على غير ذلك . ففي عام واحد حصل تغيّر رهيب في الزوج . فان سمّ الغيرة المريبة والعصبية والنزوات الطافحة سممت خلقه الذي كان حتى ذلك الحين نبيلاً ممتازاً . فصار الزوج طاغية عاتياً على زوجته ، والتجأ ، وهذا ما لم يكن في ميسور أحد ان يتوقعه ، الى اكثر الافعال لا انسانية ، وحتى الى الضرب . وبعد سنة واحدة لم يستطع احد أن يتعرف في شخصها على تلك المرأة التي كانت الى حين تتألق ، وتجذب وراءها اسراب المعجبين الطيعين . واخيراً ، لم تقدر أن تتحمل مصيرها الشقي اكثر ، فبادرت بالكلام عن الطلاق . وجن جنون الزوج من مجرد التفكير في ذلك . وفي أول نوبة من الغيظ الشديد اقتحم عليها حجرتها ، والسكين في يده ، وكان ، من دون ريب ، سينزل عليها طعناً حالاً لو لم يمسكوه ويحاجزوه . وفي سورة الهياج واليأس اغمد السكين في جسده ، وقضى على حياته بعد سكرات موت فظيعة .

والى جانب هاتين الواقعتين اللتين حصلتا امام انظار المجتمع كله ، كان الناس يرون الكثير من الوقائع التي حدثت في الطبقات الدنيا ، وانتهت كلها تقريباً نهاية مريعة . فمن ذلك رجل نزيه عاقل انقلب الى سكير ، ووكيل تاجر سرق سيده ، وحوذي كان مستقيماً لسنين عديدة نحر راكباً من جراء قروش زهيدة . وما كان من الممكن أن لا تترك هذه الوقائع التي كانت تروى احياناً بزيادات ، فزعاً لا ارادياً لدى اهالي كولومنا البسطاء . كان الجميع لا يشكون في وجود روح شريرة في هذا الرجل . وكانوا يقولون انه كان يعرض شروطاً توقف شعر الرأس ، وبعد ذلك لم يكن هذا التعيس يجرؤ أن يعيد الكلام عنها مع شخص آخر ، وكانوا يقولون ان لنقوده صفة حارقة ، تتوقد من تلقاء نفسها ، وتحمل علائم غريبة . . .

وباختصار كان هناك الكثير من الاقاويل السخيفة . ومن الطريف ان اهالي كولومنا ، كل ذلك العالم من العجائز الفقيرات ، والموظفين الصغار ، والممثلين الضئيلي الشأن ، وباختصار ، كل المساكين الصغار الذين أتينا على ذكرهم قبل حين ، كانوا يفضلون الصبر وتحمل أقصى ما يأتي به القدر على الالتجاء الى ذلك المرابي الرهيب ، بل كانوا يجدون عجائز متن جوعاً ، وفضّلن موت الجسد على تدمير الروح . كان الناس اذا التقوه في الشارع تملكهم فزع لا ارادي . فكان المشاة يرتدون بحذر ، ويلتفتون بعد ذلك الى الخلف كثيراً ، مراقبين قامته الطويلة بشكل غير متناسق ، وهي تبتعد عنهم . وكان في هيئته وحدها من الشواذ ما يجعل اي انسان لا ارادياً يعزو اليه الخوارق . فان تلك الملامح المنحوتة بعمق ، لا تجدها عند اي انسان ، ولون الوجه البرنزي الحار ذاك ، وتلك الكثافة غير الاعتيادية للحاجبين ، والعينين الرهيبتين بشكل لا يطاق ، وحتى طيات لباسه الفضفاض الآسيوي نفسها ، كل ذلك كان يبدو وكأنه يقول ان كل اهواء الآخرين تبهت أمام الأهواء المعتملة في هذا الجسد . وكان ابي كلما التقاه يتوقف جامداً ، وفي كل مرة لا يسعه الا أن يقول «الشيطان ، الشيطان بعينه !» ولكن ينبغي ان اسرع فاعرفكم بأبي الذي هو ، بالمناسبة ، الموضوع الحقيقي لهذه الحكاية .

كان ابي انساناً رائعاً في كثير من النواحي . وكان رساماً ، من القلة ، من احدى تلك المعجزات التي لا تخرجها الا روسيا من رحمها البكر ، رساماً عصامياً تعلّم بنفسه ، وبدون معلمين ومدرسة وجد في وجدانه القواعد والقوانين ، ولم يستجب الا للتعطش لتحسين قدرته ، ولم يسر الا في الطريق التي هدته اليه نفسه ، ولأسباب ربما لم يكن يعيها ذاتياً ، كان من اصحاب المواهب الفطرية العجيبة الذين غالباً ما يشتمهم المعاصرون بكلمة مهينة «اجلاف» والذين لا يفل عزيمتَهم الذمُ ولا اخفاقاتهم ذاتها ، ويظلون في دفق متزايد من الحماس والجهد ، ويبتعدون في عمق أنفسهم وبشوط كبير عن تلك الأعمال التي وسمتهم بكنية «جلف» . كان ابي بفطرته الذاتية العالية يتحسس وجود فكرة في كل موضوع ، وادرك بسليقته المعنى الحقيقي لكلمتي «الرسم

التاريخي» ادرك لماذا تمكن تسمية رأساً بسيطاً ، صورة بسيطة لرفائيل ، لليونارد دافينتشي ، لتيتسيان ، لكوريدجيو بالرسم التاريخي ، ولماذا تظل لوحة ضخمة ذات محتوى تاريخي tableau de genre * على كل حال ، رغم كل ادعاء رسامها بأنها رسم تاريخي . وقاد ريشته شعورُه الباطني وقناعته الخاصة الى مواضيع مسيحية ، في أعلى وآخر درجات ما هو رفيع . ولم يكن له غرور أو سرعة تهيج ، وهما ما يميز طبع الكثير من الرسامين . لقد كان شخصية قوية ، انساناً نزيهاً مستقيماً ، بل وخشناً ، ذا قشرة خارجية قاسية بعض الشيء . وليس بدون بعض الكبرياء في النفس ، يقول رأيه في الناس بتلطف وحدة في آن واحد . فكان يقول عادة : «وما لي انظر اليهم ، فانا لا أعمل لهم . ولا أحمل لوحاتي الى غرف الاستقبال ، بل أضعها في الكنيسة . ومن يفهمني سيشكرني ، ومن لا يفهم فسيصلي للرب على أية حال . ولا حاجة للوم الانسان من المجتمع الراقي بأنه لا يفهم في الرسم ، فهو ، مقابل ذلك ، يفهم في لعب الورق ، وله اطلاع واسع في الخمرة الجيدة ، وفي الخيول ، وما حاجة الوجيه الى اكثر من ذلك ؟ فاذا كان يجرب هذا وذاك ، ويأخذ بالتفلسف ، فسيكون من الصعب احتماله ، على ما اظن ! لكل نصيبه ، ولكل ما يشغله . أنا أفضل الانسان الذي يقول بصراحة أنه لا يفهم على الذي يراني ويزعم أنه يعرف ما لا يعرفه ، فلا يأتي منه الا الغث والفاسد» . وكان يعمل بمرتب صغير ، اقصد بمرتب ضروري لاعالة اسرته فقط ، ولتتوفر لديه امكانية العمل . وفضلاً عن ذلك لم يكن يرفض قط مساعدة الآخرين ومد يد الاعانة لرسام فقير . وكان مؤمناً ايمان الاجداد البسيط التقي ، ولربما بسبب ذلك كانت تظهر في الوجوه التي رسمها تلك العفّة التي لم ينفذ اليها رسامون لامعون . واخيراً صار يكسب بالمثابرة في عمله ، وبالسير الدائب في الطريق الذي كانوا يَسِمونه بالجلافة وبدائية التعليم الذاتي . وكانت الكنيسة تقدم له الطلبات بلا انقطاع ، ولم يكن يعدم عملاً . وقد شغله أحد الأعمال بقوة . ولا أتذكر ماذا كان موضوعه . لا اعرف الا أن اللوحة كان يجب

---

* لوحة شكل (بالفرنسية في الأصل) .

أن تصوّر الشيطان او سلطان الظلام . وفكر طويلاً في أية هيئة سيصوره . لقد كان يريد أن يصوّر في شخصه كل ما يثقل على الانسان ويشقيه . وخلال تلك التأملات كانت تخطر في باله احياناً صورة ذلك المرابي الغامض ، وعند ذاك كان يجد نفسه يفكر لا ارادياً : «بهذا ينبغي أن أصور الشيطان» . ولكـــم أن تتصوروا مبلغ دهشته ، حين سمع ذات مرة طرقاً على باب مرسمه ، حين كان يعمل ، وفي أثر ذلك دخل عليه ذلك المرابي الرهيب . وما كان من الممكن الا يشعر برجفة داخلية سرت في جسده لا ارادياً .

قال هذا لأبي بدون اية كلفة :

– انت رسام ؟

– رسام .

قال أبي في حيرة منتظراً ماذا سيحدث بعد هذا .

– حسناً . ارسم صورة لي . فقد أموت عن قريب ، وليس لي ابناء ، ولكن لا اريد أن افنى كلياً . واريد ان احيا . فهل تستطيع أن ترسم صورة تصورني حياً تماماً ؟

وفكر أبي «وماذا احسن من ذلك ؟ جاءني بنفسه لأرسمـــه شيطاناً في لوحة» . واعطاه عهداً . واتفقا على الوقت والثمن ، وفي اليوم التالي ، تناول أبي لوحة الألوان والفرشاة ، وذهب اليه في بيته . ووقع في نفسه موقعاً غريباً كلُّ ما رآه هناك : السيـاج العالي ، والكلاب ، والابـــواب الحديدية والمزاليج ، والنوافـــذ المقوسة ، والصناديق المغطاة بابسطة عريقة ، واخيراً رب البيـت العجيب الذي جلس أمامه بلا حراك . كانت النوافذ قد سدت وحجبت من الأسفل ، وكأنما عن قصد ، حتى أنها لم تسرّب الضوء الا من الأعلى فقط . قال أبي في سره : «تخطفه الشيطان ، كم منوّر وجهه الآن !» وشرع يرسم بهمة ، وكأنما كان يخاف أن تختفي هذه الانارة الموفقة . وكرر مع نفسه «اية قوة ! حتى ولو رسمته الى النصف بالشكل الذي هو عليه الآن ، فسيفتك بكل ما لديّ من قديسيـن وملائكة . فانهم سيتضاءلون أمامه . اية قوة شيطانية ! ولكنه سيخرج من القماشة حتماً ، اذا كنت أميناً بعض الشيء على الأصل الذي أمامي . أية ملامح فريدة !» كان يردد بلا انقطاع ، وازداد حماسه ، وقد صار يرى بنفسه كيف اخذت بعض الملامح تنتقل

الى القماشة . ولكن كلما كان يدقق في رسمها كان يخامره شعور ثقيل منذر ، غير مفهوم له نفسه . ولكنه ، مع ذلك عاهد نفسه على أن يتتبع بدقة حرفية كل ملمح غير ملحوظ وكل تعبيـــر . وانشغل قبل كل شيء برسم العينين . فقد كانت هاتان العينـــان قويتين جداً ، حتى بدا من المستحيل حتى التفكير في نقلهما كمـا هما في الأصل . ومع ذلك فقد عزم ، مهما يكن من الأمر ، على أن يلتقط فيهما أدق وآخر الصغائر والتلوينات ، وينفذ الى سرهما . . . ولكنه ما ان بدأ يدخل ويتعمق فيهما بريشته حتى تولد في نفسه نفور غريب ، ورَهَقٌ غير مفهوم ، كانا يضطرانه الى ترك ريشته بعض الوقت ، ومعاودة الرسم فيما بعد . وفي آخر الأمر لم يعد قادراً على التحمل أكثر ، وشعر بأن هاتين العينين قد نفذتـا الى روحه ، واشاعتا فيها رهبة غير مفهومة . وفي اليوم التالي ، واليوم الثالث كان هذا يشتد ويقوى وافزعه الأمر . فالقى الفرشاة ، وقال بحزم أنه لم يعد يستطيع الاستمرار في رسمه . وكان ينبغي أن تروا كيف تغيّر المرابي الغريب لدى سماعه هذه الكلمات . ارتمى على قدمي أبي ، وتضرع اليه أن يتم الصورة ، قائلاً أن مصيره ووجوده في الدنيا يتوقفان على ذلك ، وأنه قد مسّ بريشته ملامحه الحيّة ، ولئن نقلها بأمانة فان قوة خارقة ستحفظ له حياتـه في الصورة ، ولذلك لن يموت كلياً وان البقاء في الدنيا ضروري له . وشعر أبي بالهلع من هذه الكلمات . فقد بدت له غريبة ورهيبة جداً حتى أنه ألقى الفرشاة ولوحة الالوان ، وانطلق تاركاً الغرفة لا يلوي على شيء .

وظل التفكير في ذلك يفزعه طيلة النهار ، والليل ، وفي صباح اليوم التالي تلقى من المرابي الصورة ، حملتها اليه امرأة ، هـــي المخلوقة الوحيدة التي كانت في خدمته ، واعلنت على الفور أن مخدومها لا يريد الصورة ، ويعيدها دون أن يدفع عليها شيئاً . وفي مساء ذلك اليوم عـــرف أبي أن المرابي مات ، وان الناس يستعدون لدفنه حسب شعائر دينه . وكل ذلك بدا له غامضاً لا يدركه عقل . وفي الواقع حصل منذ ذلـــك الحين تغير ملموس في طبع أبي . فقد اعترته حالة من القلق والفزع لم يستطع هو نفسه أن يعللها ، وسرعان ما اقدم على فعلة لم يكن أحد يتوقعها منه .

كانت أعمال أحد تلامذته قد أخذت ، منذ بعض الوقت ، تجذب انتباه حلقة صغيرة من العارفين والهواة . وكان أبي دائماً يتوسّم فيه موهبة ، وكان لذلك يُبدي له اهتمامه الخاص . وفجأة صار يشعر بالحسد نحوه . وكان أبي لا يطيق تعاطف الجميع مع تلميذ والاشادة بذكره . واخيراً ، وكذروة للانزعاج يصل الى علمه أن تلميذه تلقى عرضاً برسم لوحة لكنيسة غنية شيدت من جديد . ومزقه هذا الخبر ، فكان يقول : «لا ، لن أسمح للغرير بأن يعلو ! ما يزال الوقت مبكراً ، يا أخ ، للتفكير بتمريغ الشيوخ بالوحل ! ما تزال لديّ القوة ، والحمد لله : وسنرى من يمرغ الآخر بالوحل قبل» . واستخدم هذا الرجل المستقيم الصافي النفس الاحابيل والمكائد التي كان قبل هذا يشمئز منها دائماً . وأفلح اخيراً في أن تعلن مسابقة على اللوحة ، فيتمكن الرسامون الآخرون من تقديم اعمالهم ايضاً . وبعد ذلك اغلق باب غرفته عليه ، وتناول الفرشاة بحماس . وكان يريد ، كما يبدو ، أن يجمع كل قواه ، كل نفسه في اللوحة . وبالفعل خرج من بين يديه واحد من أحسن اعماله . ولم يشك أحد في أن الاولوية ستكون له . وقدمت اللوحات ، وكلها بدت ازاء لوحته كالليل ازاء النهار . واذا بأحد الاعضاء الحاضرين ، وهو رجل دين ، اذا لم تخنني الذاكرة ، يبدي ملاحظة تذهل الجميع . فقد قال : «في لوحة الرسام قدر كبير من الموهبة حقاً . ولكن الوجوه ليس فيها قدسية . بل على العكس ، في العيون شيء شيطاني وكان شعوراً لا نقاء فيه كان يسيّر يده» . ونظر الجميع في اللوحة ، وما كان من الممكن ان لا يصدقوا في كلامه . واندفع أبي الى لوحته ، وكأنما ليريد أن يتحقق بنفسه من صدق هذه الملاحظة المهينة ، ويالللفظاعة حين رأى أنه رسم لكل شخوص اللوحة تقريباً عيني المرابي . فكانت هذه العيون تنظر بشيطانية ماحقة جعلته يرتعد رعدة لا ارادية . ورفضت اللوحة ، وكان عليه أن يسمع ، بانزعاج لا يوصف ، أن الأولوية بقيت لتلميذه . وكان من المستحيل وصف ثائرة الجنون التي عاد بها الى بيته . وكاد يضرب أمي ، وطرد الأطفال ، وحطم الفرش وحاملة اللوحات ، وانتزع من الحائط صورة المرابي ، وطلب سكيناً ، وأمر باشعال النار في الموقد ، ناوياً أن يمزق

الصورة مزقاً ويحرقها . وعلى هذه الحركة وجده صديقه حين دخل الغرفة ، وهو رسام مثله ، مرح رضي النفس دائماً ، لا ينجرف في أية رغائب بعيدة المنال ، وكان يعمل في مرح كل ما كان يقع في يده ، ويقدم على موائد الغداء والولائم بمرح اشد من ذلك .

– ماذا تفعل ، ماذا تنوي أن تحرق ؟ – قال هذا الرسام وتقدم من الصورة . – رحماك ، هذه واحد من أحسن اعمالك . هذا هو المرابي الذي مات قبل حين . نعم ، هذا عمل غاية في الكمال . أنت لم تمس الحقيقة ، بل اصبت عينها . لا تبدو حية ابداً ، مثلما تبدو عينا صورتك هاتان .

– طيب ، سأرى كيف تبدوان في النار .

قال أبي ، وهمّ بإلقاء الصورة في الموقد .

– توقف ، بحق الرب ! – قال الصديق بعد أن اعاقه – اعطها لي افضل ، اذا كانت تضايقك الى هذا الحد .

عاند أبي في البداية ، ولكنه وافق اخيراً ، واخذ هذا الرسام الممراح الصورة معه راضياً للغاية بغنيمته .

وبانصرافه شعر أبي فجأة بهدوء اكثر ، وكأنما انزاح عنه برحيل الصورة عبء ثقيل . واندهش بنفسه من الحنق الذي تملكه ، ومن حسده ، والتغير الواضح في طبعه . واغتم ، حين وعى فعلته ، وقال بفجيعة في دخيلته :

– هذا عقاب من ربي . لوحتي جلبت العار عليّ عن انصاف . فقد وُضِعت لغرض الاساءة الى ابن حرفتي . كان شعور الحسد الشيطاني هو الذي يسيّر يديّ ، والشعور الشيطاني لا بد أن انعكس فيها .

وخرج في الحال للبحث عن تلميذه السابق ، وعانقه بقوة ، وطلب منه الصفح ، وحاول ، قدر ما استطاع أن يكفر عن ذنبه ازاءه . ومن جديد سارت اعماله كالسابق بشكل رائق ، ولكن الاستغراق في التفكير صار يلوح على وجهه اكثر من قبل . وصار يصلي اكثر ، وغلب عليه الصمت ، ولم يعد يتحدث عن الناس بتلك الحدة ، وخشونة طبيعته الظاهرية ذاتها بدت وكأنها قد لانت . وبعد قليل هزه حادث اكثر من ذي قبل . كان منذ زمن بعيد لم يلتق برفيق له كان قد طلب منه الصورة . وقد تهيأ

للذهاب اليه ومقابلته ، واذا بذلك الرفيق نفسه يدخل الى غرفته فجأة . وبعد بضع كلمات واسئلة من كلا الرجلين قال :

– حسنا ، يا أخ ، كنت على حق في نيتك حرق الصورة . لعنها الله ، فيها شيء غريب . . . انا لا اؤمن بالجن ، ولكن قل ما تشاء ، فانا اعتقد أن فيها روحاً شريرة .

قال ابي :

– وكيف ؟

– منذ أن علقتها في غرفتي أخذت اشعر بوحشة . . . وكأنني انوي قتل انسان . في حياتي لم اعرف ما هو الأرق ، بينما الآن اعاني ليس من الارق وحده ، بل من الأحلام . . . أنا نفسي لا ادري أهي احلام ام شيء آخر . كان عفريتاً يدوس على خناقي ، وطوال الوقت اتخيل ذلك العجوز اللعين . وباختصار ، لا استطيع أن اصف لك حالتي . لم يحصل لي مثلها قط . كنت طوال هذه الأيام اهيم كالطريد . أشعر بخوف ما ، بتوقع مزعج لشيء ما . اشعر انني غير قادر على أن اقول لأحد كلمة مرحة مخلصة . وكأنما يلازمني جاسوس . وما ان اعطيت الصورة لأبن عمي الذي رجاني أن اعطيها له ، حتى شعرت وكأن صخرة سقطت من على منكبي ، شعرت فجأة بالبهجة كما تراني الآن . أوه ، يا أخ ، رسمت لنا الشيطان !

كان ابي ، اثناء هذا الحديث ، يصغي بانتباه مركز ، واخيرا سأل :

– والصورة الآن عند ابن عمك ؟

قال صديقه الممراح :

– واين منها ابن عمي ! لم يتحملها . كان روح المرابي نفسه قد حلت في الصورة . طلع من الأطار ، وراح يتمشى في الغرفة ، وما يرويه ابن عمي لا يقبله عقل اطلاقاً . كنت سأعتبره مجنوناً لو لم اعان أنا جزءاً مما عاناه . باعها الى جامع لوحات ، وحتى هذا لم يتحملها ، فتخلص منها بأن باعها لشخص آخر .

ووقعت هذه القصة موقعاً شديداً في نفس ابي . وتأمل المسألة بجد ، وركبه الغم ، واخيراً ايقن تماماً بأن ريشته تقمصها الشيطان ، أن جزءاً من حياة المرابي قد حل ، بالفعل ، في

الصورة على نحو ما ، وهي الآن تبث الذعر في الناس ، مثيرة المشاعر الآثمة ، حارفة الرسام عن طريقه ، مسببة عذابات الحسد الرهيبة وغير ذلك ، وما الى ذلك . والنكبات الثلاث ، الميتات الفجائية الثلاث التي اعقبت ذلك – موت زوجته وابنته وابنه الصغير – اعتبرها عقاباً الهياً له ، وقرر الانقطاع عن الدنيا من كل بد . وما ان اتممت العام التاسع من عمري حتى ادخلني اكاديمية الفنون ، وصفّى ديونه ، ورحل الى دير ناء سرعان ما ترهّب فيه ، وادهش كل رهبانه بحياته المتقشفة وبمراعاته الصارمة لكل قواعد الدير . وعرف راعي الدير بفن ريشته ، فطلب منه أن يرسم الايقونة الرئيسية في الكنيسة . ولكن الراهب الوديع قال بشكل قاطع انه لا يستحق الامساك بالريشة ، وأنه ملوث وأن عليه قبل ذلك أن يطهر روحه بالعمل والتضحيات العظيمة ليكون لائقاً بالقيام بهذا العمل . ولم يريدوا اجباره . وشدد بنفسه ، وقدر المستطاع ، من صرامة حياته في الدير . واخيراً حتى هذه الحياة لم تكن كافية ولا صارمة بالشكل الكافي . فخرج بمباركة راعي الدير الى الصحراء* ليعتكف تماماً : وفي الدير صنع لنفسه صومعة من اغصان الاشجار ، واخذ يقتات على الجذور النيئة وحدها ، وكان يحمل الاحجار من مكان الى مكان ، ويظل واقفاً من مطلع الشمس حتى غروبها في مكان واحد لا يبرحه ، ويداه مرفوعتان الى السماء ، يتلو الصلوات بلا انقطاع . وباختصار كان يبحث عن كل درجات التحمل المحتملة ، والتفاني الخارق الذي لا تجدون له مثالاً الا في حيوات القديسين . وبهذه الطريقة كان يضني جسده لسنين طويلة ، مصلّباً اياه ، في الوقت ذاته ، بقوة الصلوات المنعشة . واخيراً ، ذهب في احد الايام الى الدير ، وقال لراعيه بثقة : «انا مستعد الآن . وبمشيئة الرب سأنجز عملي» . وكان الموضوع الذي اختاره هو ميلاد يسوع . عكف عليه سنة كاملة ، غير مغادر صومعته ، يقتات بما قل واخشوشن من الطعام ، وهو لا يكف عن ترديد الصلوات . وبنهاية العام كملت اللوحة . وكانت معجزة الريشة حقاً . وينبغي القول ان الرهبان

---

* يقصد الى دير صغير في منطقة قليلة السكان . **المعرب** .

وراعي الدير نفسه لم تكن لهم اطلاعات كبيرة في الرسم ، ولكن الجميع بهروا بما كان يشع من شخوص اللوحة من قدسية فريدة . فإن شعور الوداعة الربانية والخشوع في وجه الأم العذراء ، المحنية على الرضيع ، والهداية العميقة في عيني الطفل الالهي ، وكأنما يلمح شيئاً من بعيد ، والصمت المهيب للملوك المبهورين بمعجزة الرب ، والمنكبين على قدميه ، واخيراً السكينة المقدسة التي لا توصف ، والمخيمة على اللوحة كلها ، كان كل ذلك قد ظهر بقوة منسقة وجمال قاهر ، جعلا وقع اللوحة على المشاهد سحرياً . ركع الرهبان جميعاً على ركبهم امام الايقونة الجديدة ، وقال راعي الدير الحنون : «لا يمكن لانسان أن يصنع بمعونة الفن الانساني وحده مثل هذه اللوحة . لقد كانت قدرة قدسية سامية تسيّر ريشتك ، وبركة السماء شملت عملك» .

في ذلك الوقت انتهيت من دراستي في الاكاديمية ، وحصلت على ميدالية ذهبية ، ومعها امل سار في رحلة الى ايطاليا ، وهذه اجمل امنية لرسام في العشرين من العمر . ولم يبق لي الا أن اودّع ابي الذي فارقته منذ اثني عشر عاماً ، واعترف بأنه لم يبق في ذاكرتي منذ زمان حتى صورته . وقد سمعت شيئاً عن حياته المتنسكة الصارمة ، فكنت اتصور مسبقاً لقائي بناسك في هيئته المتقشفة ، وقد انقطع على العالم كله ولزم صومعته وصلواته ، ونحل وجفّ عوده من الصوم الطويل والتهجّد . ولكن ما أشد دهشتي ، حين وقف أمامي شيخ جميل مفعم بما يشبه السحر ! ولم تكن آثار النحول ظاهرة على محياه . بل كان يشع قدسية بهيجة سماوية . وكانت لحيته البيضاء كالثلج ، وشعره الخفيف كالريش بلون الفضة ايضاً ، يتناثر بجمال على صدره ، وطيات مسوحه الأسود ، ويتهدل حتى الحبل الذي يشدّ به رداء الرهبنة البائس . ولكن اكثر ما بهرني أن اسمع من شفتيه كلمات وافكاراً عن الفن ، بصراحة ، سأحفظها زمناً طويلاً في ذاتي ، وأودّ من كل قلبي أن يفعل زملائي الرسامين الشيء نفسه .

قال حين تقدمت ليباركني :

— كنت انتظرك ، يا ولدي . امامك طريق ستسير فيه حياتك منذ الآن . وطريقك طاهر ، فلا تزغ عنه . انك تملك

موهبة ، والموهبة عطية من الله لا تقدر بثمن ، فلا تفسدها . ابحث وادرس كل ما تراه ، واخضع كل شيء لريشتك ، ولكن تعلّم أن تجد في كل شيء الفكرة الباطنية ، واسع اكثر من أي شيء آخر الى أن تصل الى السر السامي للابداع . طوبى لمن اُختير ليمتلكه . لا موضوع حقير عنده في الطبيعة . فالفنان المبدع عظيم في الموضوع التافه كما هو عظيم في الموضوع الجليل . وفي الشيء المزدري لا يوجد ما يزدرى اذا طلع من بين يديه ، لأن روح المبدع الرائعة تطلع من خلاله غير مرئية ويكتسب المزدرى تعبيراً رفيعاً ، لأنه مرّ من خلال مطهر روحه . والايحاء بالفردوس السماوي ، يتمثل بالفن ، بالنسبة للانسان ، وهذا وحده يجعل الفن أرفع شيء . وبقدر ما تكون السكينة المهيبة أعلى من أي لغط دنيوي ، وبقدر ما يكون البناء ارفع من التهديم ، وبقدر ما يكون الملاك بما لروحه الصافية من براءة طاهرة ارفع ، بهذا فقط ، من كل القوى الهائلة والأهواء المتكبرة للشيطان ، يكون ابداع الفن الرفيع أعلى من كل شيء على الارض . ضحّ بكل شيء من اجل الفن ، وتعشّقه بكل ما لك من وجْد . لا ذلك الوجْد المنبعث من رغبة دنيوية ، بل ذلك الوجد الالهي الهادئ ، الذي لا يقدر الانسان بدونه أن يسمو عن الارض ، ولا يستطيع أن يهدئ النفس برنات عجاب . لأن ابداع الفن الرفيع ينزل على العالم لتهدئة النفوس كلها والتواؤم بينها . وهو لا يمكن أن يثير الاضطراب في النفس ، بل يتطلع دائماً الى الرب صلاة صداحة . . . ولكن هناك لحظات قاتمة . . .

وتوقف ، ولاحظت أن وجهه الوضيئ تجهم فجأة ، وكأن سحابة مرت به لحظة . وقال :

— في حياتي وقع حادث . وأنا لحد الآن لا أفهم أي شخص غريب ، ذلك الذي رسمت له صورة . لقد كان ظاهرة شيطانية . أنا اعرف ان الدنيوية تنكر وجود الشيطان ، ولهذا لا اريد أن اتحدث عنه . ولكن اقول فقط انني كنت أرسمه بامتعاض ، ولم اشعر في ذلك الوقت بأي حب لعملي . كنت اريد ، ان اجبر نفسي اجباراً وبلا رغبة في النفس وقد كظمت كل شيء اريد ان أكون أميناً للاصل . ولم يكن ذلك عملاً ابداعياً من اعمال الفن ، ولهذا

فإن المشاعر التي تنتاب الجميع ، حين ينظرون اليه ، هي مشاعر تمرد ، مشاعر مفزعة وليست مشاعر فنـــان ، لأن الفنان يضفي سكينة ، حتى عند الفزع . كانوا يقولون لي أن هذه الصورة تنتقل من يد الى أخرى ، وتثير الانطباعات المضنيـــة ، مولدة في الرسام شعور الحسد ، والكراهية القاتمة لزميلـــه الرسام ، والتعطش الحاقد الى الظلم والملاحقة . فليحفظك العلي القدير من تلـــك الاهواء ! فلا شيء افظع منها . أن تتحمل انـــت كل مرارة المظالم الممكنة افضل من أن تلحق بأحد ولو شبح مَظْلَمة . احرص عـلى نقاوة روحك . ومَنْ يمتلك موهبة لا بد أن يكون انقى روحاً مـن الجميع . يمكن ان يغفر الكثير لغيره ، ولكـــن لا غفران له . ان الذي خرج من بيته في حُلّة عيد قشيبة ما ان يلطخ بلطخة واحدة من طرطشة عجلة ، حتى يكون الناس جميعاً قد احاطوا به ، وراحوا يشيرون اليه بأصابعهم ، ويتحدثون عن قذارة ملبسه ، بينمـــا هؤلاء الناس ذواتهم لا يلحظون اللطخات الكثيرة على مارّة آخرين لابسين ملابس اعتيادية لكل يوم لأن اللطخات لا تلحظ في مثـــل هذه الملابس .

وباركني وعانقني . ولم اكن في حياتي كلها بذلك القدر مـــن علو الهمة المتسامية ، وبشعور الاجلال اكثر من شعور الابن نحـو ابيه ، التصقـــت بصدره ، وقبلت شعره الفضـــي المتناثر ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وقال لي قبيل الفراق :

– نفّذ لي رجائي الوحيد ، يا ولـــدي . فلربما ستصادفك في وقت ما ، الصورة التي كنت احدثـــك عنها . فانك ستعرفها من العينين الفريدتين ، ومن تعبيرهما غير الطبيعي . عندئذ مزّقها ، مهما كلف الأمر .

ولكم أن تحكموا هل كان بوسعي أن لا اعده مقسماً الأيمان على تنفيذ رجائه . وفي غضون خمسة عشر عاماً برمتها لم يحدث لي أن التقيت على الأقل بما له شبه ، مهما يكـــن ، بالوصف الذي صوره أبي ، واذا انا الآن ، في المزاد . . .

ولم يتم الرسام جملته ، وحوّل عينيه الى الحائط ليلقي نظرة أخرى الى الصورة . وقام جمهور المجتمعين كله بهذه الحركـــة ايضاً في لمحة واحدة ، باحثين بأعينهم عـــن الصورة الفريدة .

ولكن ، يا للدهشة ، لم تكـــن الصورة موجودة في مكانها عـــلى الحائط . وسرت همهمة غامضة وضجيج في الجمهور كله ، اعقب ذلك كلمات تتردد بوضوح : «سرقوها» . ان احداً من الناس لحق أن يختطفها مستغلاً استغراق المستمعين في الاستماع الى القصة . وبقي جميع الحاضرين حائرين وقتاً طويلاً ، لا يعرفون أحقاً أنهم رأوا تينك العينين الفريدتين ، أم أن ذلـــك كان مجرد حلم لاح خطفاً لعيونهم المتعبة من اطالة النظر في اللوحات القديمة .

الانف

١

في ٢٥ من آذار وقـــع في بطرسبورغ حادث في غاية الغرابة . فقد استيقظ الحـــلاق ايفان ياكوفليفيتش الساكـــن في شارع فوزنيسينسكايا (اسم العائلة مفقود ، ولا وجود لأكثر من ذلك ، حتى في لافتة محله ، التي تصوّر سيداً مصوبن الخـــد ، وعبارة «ونحجم ايضاً») . استيقظ في وقت مبكر جداً ، وشمّ رائحة خبـز حار . رفع جسمه قليلا على سريره ، ورأى عقيلته المحترمـــة كفاية ، والمولعة بشرب القهوة ، تخرج مـــن الفرن خبزاً نضج لتوه .

قال ايفان ياكوفليفيتش :

– أنا اليوم لا اشرب القهوة ، يـــا براسكوفيا اوسيبوفنا ، واحب أن آكل بدلاً من ذلك خبزاً حاراً مع البصل .

(وذلك يعني أن ايفان ياكوفليفيتش يريد هذا وذاك ، ولكن كان يعرف أن من المتعذر طلب شيئين دفعة واحدة ، لأن براسكوفيا اوسيبوفنا ، كانت تكره كثيراً مثل تلك النزوات) . وفكرت عقيلته في سرها : فليأكل الأحمق خبزاً ، فذلك احسن لي ، ستبقى حصة من القهوة زائدة وألقت رغيفاً من الخبز على المائدة .

لبس ايفان ياكوفليفيتش سترة فراك على قميص النوم حشمة ، وجلس امام المائدة ، ونثر الملح ، واعدّ رأسين من البصـــل ،

وتناول سكيناً ، واتخذ سحنة معتبرة ، واخذ يقطع الخبز . قطـع رغيف الخبز نصفين ، ونظر الى الوسط ، فرأى ، والدهشـــة تأخذه ، شيئاً ابيض . نكشـــه بالسكين حذراً ، وتحسســـه باصبعه . وقال في سره : «مرصوص ! ترى اي شيء هو ؟» .

دسّ اصابعه ، واخرجه . فاذا هـــو انف ! . . ارخى ايفان ياكوفليفيتش ذراعيه ، وراح يفرك عينيـــه ، ويتلمسه . نعم ، انف بالضبط ! بل وبدا وكأنه يعود لشخص يعرفه . ارتســـم الرعب على وجه ايفان ياكوفليفيتش ولكن هذا الرعب لم يكـــن شيئاً يذكر ازاء الحنق الذي تملّك زوجته . صاحت في سخط :

– أين جدعت هذا الأنف ، أيها الوحش ؟ محتال ! سكير ! سأبلغ الشرطة بنفسي عنك . ايها الحقير ! سمعت من ثلاثـــة اشخاص حتى الآن بأنك عند حلاقة الناس تجذب انوفهم بشدة حتى لا تكاد تصمد في مكانها .

ولكن ايفان ياكوفليفيتش كان في غاية الرعـب . فقد عرف أن الأنف الذي وجده ليس الا أنف الملاحظ كوفاليوف الذي كان يحلق ذقنه كل يوم اربعاء واحد .

– عل مهلك ، يا براسكوفيا اوسيبوفنا ! سأضعه على حدة ، وألفه في خرقة ، واركنه قليلاً ، وبعد ذلك احمله .

– لا اريد حتى أن اسمعك ! تتصورني اقبل بأن يوضع في حجرتي انف مجدوع ؟ . . أيها الناشف ! لا تعرف غير سنّ الموسى على الحزام . وعن قريب ستعجز عن القيام بواجبك كلياً ، يـــا ماجن ، يا اهبل ! وتريدني أن اتحمل مسؤوليتك عنـــد الشرطة ؟ آه ، يا وسخ ، يا خشبة خرقاء ! اخرجه ! اخرجـــه ! احمله الى حيث تريد ، ابعده عن عيني تماماً !

وقف ايفان ياكوفليفيتش في يأس تام من امره . راح يفكـــر طويلاً ، دون أن يهتدي الى شيء .

– الشيطان يعرف كيف حصل هذا ! – قال اخيراً ، بعد أن حك رأسه وراء اذنه بيده – هل رجعت البارحة الى البيت سكران أم لا ، لست متأكداً من ذلك . ولكن كل الدلائل تدل على ان ما حدث ليس شيئاً اعتيادياً . الخبز يُخبز ، ولكن الأنف ؟ اية علاقة له بالفرن ؟ أنا لا افهم شيئاً .

وسكت ايفان ياكوفليفيتش . فقد اصيب بغيبوبة تامة حين تمثل في ذهنه أن الشرطة ستجد الانف عنده وتوجه له تهمة . بل وطافت في خياله ياقة الشرطي القرمزية البديعة المطرزة بالفضة ، والسيف . . فاخذ كيانه كله يرتجف . . . وفي آخر الأمر اخرج قميصه الداخلي ، وحذاءه الطويل ، ولبس كل هذه القاذورات ، ولفّ الأنف وسط مواعظ براسكوفيا اوسيبوفنا الخانقة ، وخرج من بيته .

أراد أن يدسه في مكان ما : في العمود عند بوابة البيت ، أو يوقعه من يده عرضاً ، ويستدير في زقاق . ولكن سوء حظه شاء أن يلتقي كل مرة برجل من معارفه يأخذ باستجوابه على الفور : «الى اين ذاهب ؟» أو «مَنْ تنوي أن تحلق في هذا الصباح الباكر ؟» ، حتى أن ايفان ياكوفليفيتش لم يستطع أن يجد فرصة سانحة . وفي احدى المرات افلح في القائه ، ولكن الشرطي أشار له بمطرده ، وهو ما يزال بعيداً ، وقال : «ارفعه ! سقط منك شيء !» فكان على ايفان ياكوفليفيتش أن يرفع الأنف ، ويخفيه في جيبه . غلبه اليأس ، لا سيما وأن الناس اخذوا يتكاثرون في الشارع باستمرار ، مع افتتاح المخازن والحوانيت .

عزم على التوجّه نحو جسر ايساكييفسكي ، عسى أن يفلح في رميه في نهر النيفا . . . ولكنني اشعر بشيء من الذنب ، لأنني لم اذكر حتى الآن شيئاً عن ايفان ياكوفليفيتش ، الانسان المحترم في نواح كثيرة .

كان ايفان ياكوفليفيتش ، كأي حرفي روسي معتبر ، سكيراً عتيداً . ورغم أنه كان يحلق وجوه لآخرين كل يوم ، الا أن وجهه غير حليق باستمرار . كانت سترته الفراك (لم يرتد ايفان ياكوفليفيتش سترة طويلة قط) صهباء ، اقصد كانت سوداء ، ولكنها الآن مبقعة كلياً ببقع بنية صفراء ورمادية ، والياقة براقة من القدم ، ولم يبق من الازرار الثلاثة غير خيوطها المتدلية . كان ايفان ياكوفليفيتش لا يكترث بالاعراف تماماً ، وكان من عادة الملاحظ كوفاليوف أن يقول له اثناء حلاقته لذقنه : «يداك منتنتان دائماً ، يا ايفان ياكوفليفيتش !» فيرد ايفان ياكوفليفيتش من ذلك بسؤال : «وما الذي يجعلهما منتنتين ؟» فيقول الموظف :

«لا ادري ، يا اخ ، ولكنهما منتنتان» ، وكان ايفان ياكوفليفيتش يتشمم العطوس ، ويجازيه على ذلك بصوبنة خده ، وما تحت انفه ، ووراء اذنه ، وتحت ذقنه ، وباختصار ، أي موضع يشاء .

وصل هذا المواطن المحترم الى جسر ايساكييفسكي . فكان أول ما فعله ان تلفّت فيما حوله ، ثم انحنى على الحاجز ، وكأنما يعاين ما تحت الجسر ، ليعرف هل السمك كثير هناك ، وألقى لفّة الأنف خلسة . وشعر رأساً وكأن ثقلاً باهظاً قد انزاح عنه . بل وكشّر ايفان ياكوفليفيتش لنفسه . وبدلاً من أن يذهب لحلاقة ذقون الموظفين ، توجه الى محل علّقت عليه لافتة : «ماكولات وشاي» ، ليطلب قدح بونش ، واذا به يلمح الشرطي حارس الحي ، بمظهره الوجيه ، وفوديه العريضين ، وقبعته الثلاثية ، وحسامه . فتسمّر مصعوقاً ، ولكن الشرطي أشار له باصبعه اثناء ذلك ، وقال :

– تعال ، أيها الفاضل !

كان ايفان ياكوفليفيتش يعرف الأصول ، فخلع سدارته من بعيد ، وقال ، وهو يقترب منه خفيف الحركة :

– حياكم الله ، يا حضرة الضابط !

– لا ، لا ، يا أخ ، بلا حضرة . قل لي فقط ، ماذا كنت تفعل ، في وقفتك على الجسر ؟

– والله ، يا سيدي ، كنت أريد أن أبدأ عملي في الحلاقة ، ولكنني قلت لنفسي لألقي نظرة وأرى هل جريان النهر سريع ؟

– تكذب ، تكذب ! بهذا لا تخلص نفسك . تفضل ، أجب !

فاجاب ايفان ياكوفليفيتش :

– انا لأجل خاطرك مستعد لحلاقة ذقنك مرتين وحتى ثلاث مرات في الاسبوع ، دون أي اعتراض .

– لا ، يا صاح ، هذه توافه ! عندي ثلاثة حلاقين يحلقونني ، بل ويعتبرون ذلك شرفاً عظيماً . أما أنت فتكرم وقل لي : ماذا كنت تفعل هناك ؟

شحب وجه ايفان ياكوفليفيتش . . . ولكن الحادثة في هذا الموضع يكتنفها الغموض التام ، ولا شيء يعرف عما حصل بعد ذلك .

٢

استيقظ الملاحظ كوفاليوف في ساعـــة مبكرة جداً ، وبربر بشفتيه «بررر» ، وكان يفعل ذلك كلما استيقظ من نومه ، لسبب لم يستطع توضيحه بنفسه . تمطّى كوفاليوف ، وطلب أن تعطى له مرآة صغيرة كانت موضوعة على الطاولة . وكان يريد أن يتفقد بثرة كانت قد طلعت على انفه مساء أمس ، ولكنه دهش دهشة عظيمة حين رأى موضعاً املس للغايـــة في مكان الانف ! فزع كوفاليوف ، وطلب ماء ، ومسح عينيه بمنشفة . وتيقن أن الأنف قد اختفى . . اخذ يتلمس بيده ليعرف أهو نائم ؟ لا ، كما يبدو . قفز كوفاليوف من سريره ، ونفض نفسه ، فلم يعثر على أنفه . أوعز بأن تقدم له ملابسه فوراً ، وانطلق قدماً الى مدير شرطة المدينة .

ولكن من الضروري ، في سياق حكايتنا ، أن اتحدث بشيء عن كوفاليوف هذا ، ليعـــرف القارئ أي صنف من الناس هذا الملاحظ . فان الملاحظين المساعدين الذين حصلوا على هذه المرتبة بشهادات علمية لا يمكن مقارنتهم ابداً باولئك الذين حصلوا عليها في القفقاس . انهم صنفان مختلفان تماماً . فالملاحظون الحاصلون على شهادات علمية . . . ولكن روسيا بلاد عجيبة ، اذا تحدثت عن موظف معيّن من هذه الدرجة اعتبر كل المنتسبين اليهـــا ، من ريغا الى كامتشاتكا ، انك لا محالة تعنيهم بالذات . وذلك ينطبق على كل الالقاب والمراتب . كان كوفاليوف من الصنف القفقاسي * . وقد حصل على درجته هذه منذ سنتين فقط ، ولهذا لم يغرب ذلك عن باله دقيقة واحدة ، ولاضفـــاء مزيد من الوجاهة والوزن على نفسه ، كان لا يسمي نفسه ملاحظاً قطعاً ، بل «رائداً» على الدوام . وكان اذا التقى بائعة صدارات القمصان في الشارع يقول لهـــا عادة : «تعالي الى بيتي . شقتي في شارع سادوفايا . وما عليك الا ان تسألي : أين يسكن الرائد كوفاليـــوف ؟ وسيدلك اي

* اشارة الى ان هذه الدرجة يمكن أن تمنح في القفقاس بسهولة كبيرة ، وغالبا ليس بطريقة نزيهة . **الناشر** .

انسان» . أما اذا التقى امرأة مليحة ، فقد كان يصدر لها امراً خصوصياً مضيفاً : «اسألي ، يا روحي ، عن شقة الرائد كوفاليوف» . ولهذا السبب ذاته سنسمي مساعد الملاحظ الرائد ، فيما يلي من الحديث .

كانت للرائد كوفاليوف عادة التمشي في شارع نيفسكي كـل يوم . كانت ياقة صدار قميصة نظيفة للغاية ومنشاة دائماً . وكان فوداه من ذلك النوع الذي يمكن ان تراه حتى الآن لدى المساحين في الولايات والأقاليم ، والمعماريين اذا كانوا روسيا حقاً ، ولدى القائمين على مختلف وظائف الشرطة ، وبشكل عام لدى جميع موظفي الدولة الوجهاء ذوي الخدود الممتلئة الموردة ، والمقتدرين على لعبة «البوستون» بشكـل جيد جداً . وكان هذان الفودان يسيران في وسط الخدين تماما ، ويصلان حتى الأنف . وكان الرائد كوفاليوف يزدان بعدد كبير من الخواتم العقيقية منها ما رسمت عليه شعارات ، ومنها مانقش عليه كتابة : الاربعاء ، الخميس ، الاثنين وغير ذلك . وكان كوفاليوف قد قدم الى بطرسبورغ لشؤونه الخاصة ، وهي بالذات ، البحث عن وظيفة تليق برتبته . فاذا حالفه الحظ صار نائب حاكم ، والا فمديراً للاعالة والتموين في دائرة مرموقة . كما لم يكن الرائد كوفاليوف يمانع من الزواج ، ولكن في حالة واحدة فقط ، وهي أن يكون للزوجة المقبلة مائتا الف روبل رأسمال صداقا . ولهذا يستطيع القارئ الآن أن يتصور بنفسه في اي وضع كان الرائد هذا ، حين وجد في مكان انفه اللطيف المعتدل سطحاً أملس في غاية السخف .

وكان الحظ كان يناكده ، فلم تظهر اية عربة في الشارع ، فاضطر الى السير ملتفاً في ردائه ، مغطيـــاً وجهه بمنديل ، كمن اصيب برعاف . وفكر : «لكن لعل هذا ما تراءى لي ، فليس من الممكن أن يختفي الأنف ، ويضيع هبـــاء» . ودخل محل حلويات خصيصاً لينظر في المرآة . ومن حسن الحظ كان محل الحلويات خالياً ، وكان صبيان المحل يكنسون الحجرات ، ويرتبون الكراسي ، وكان بعضهم يحمل صواني الفطائر الحارة ، ناعسى الطرف ، وعلى الموائد والكراسي تتناثر جرائد الأمس مبقعة بالقهوة . ونبس : «حمداً لله لا يوجد أحد . ويمكن أن اعاين الآن» . وتقدم من مرآة

متهيباً ، ونظر . ونطق بعد أن بصق : «الشيطان يعرف اي حقارة هذه ! على الاقل لو كان مكان الأنف شيء ما ، ولكن لا شيء ! . .»

عض شفتيه منزعجاً ، وخرج من محل الحلويات وعزم ، خلافاً لعادته ، على ان لا ينظر الى اي انسان ، ولا يبتسم لاي انسان . وفجأة وقف كالمسمّر عند باب احد المباني : فقد حدث امام بصره شيء يتعذر تفسيره . توقفت عربة امام المدخل ، وانفتح بابها ، وقفز منها سيد في بزة رسمية ، حانياً قامتـــه ، وارتقى الدرج راكضاً . وما اعظم ذلك الرعب الممزوج بالدهشة الذي تملّك كوفاليوف ، حين عرف أنه انفه ! ومع هذا المشهد غير الاعتيادي بدا له ، وكان كل شيء تقلب في عينيه . شعر بانه لا يكاد يثبت على نفسه ، ولكنه عزم أن ينتظر عودته الى العربة ، مهما يكن من شيء ، مرتجفاً بكل جسده كمن اجتاحته حمى . وبعد دقيقتين خرج الأنف بالفعل . كان في سترة رسمية موشاة بالذهب ، ياقتها كبيرة مرتفعة ، وفي بنطال من الشموا ، وعلى جنبه سيف ، ومن قبعته المرّيشة كان من الممكن ان يستدل المرء على أنه من مستشاري المرتبة الراقية . وكل شيء يشير الى أنه كان خارجاً في زيارة . تلفت يميناً ويساراً ، وصاح على الحوذي «هات العربة» !» ، وقعد ، ورحل .

وكاد كوفاليوف المسكين يجن . كان لا يعرف كيف يعلل هذه الحادثة العجيبة . فكيف امكن حقا للانف الذي كان في وجهه الى يوم أمس فقط ، وكان غير قادر على المشي وركوب عربة ، أن يلبس بزة ؟ جرى وراء العربة التي قطعت مسافة قصيرة ، من حسن حظه ، وتوقفت أمام كاتدرائية كازانسي .

خفّ للدخول الى الكاتدرائيـــة . وشق طريقه بين صفوف متسولات عجائز بوجوه معصوبة لا تبرز منها غير فتحتين للعينين ، كن من قبل يستدررن ضحكـــه الشديد ، ودخل الكنيسة . كان المصلّون في الداخل قليلين . وكان الجميع واقفين عند المدخل . شعر كوفاليوف بانه في حالة من الانزعاج اعجزته تماماً عن الصلاة . بحث بعينيه عن ذلك السيد في جميع الاركان . وفي آخر الأمر وجده واقفاً في ناحية . كان الانف يخفي وجهه تمامـــاً في الياقة الكبيرة المنتصبة ، ويصلي بمسحة من الورع الشديد .

فكر كوفاليوف : «كيف اتقرب منه ؟ البزة ، والقبعة ، وكل شيء يدل على أنه مستشار من الدرجة الراقية . الشيطان وحده يعرف كيف افعل ذلك» .

اخذ يتنحنح بالقرب منه ، ولكن الأنف لم يخرج لحظة واحدة عن وقفته الورعة ، استمر في اداء الانحناءات .

– يا حضرة المحترم ! – قال كوفاليـــوف منشطاً نفسه في سره اضطراراً – يا حضرة المحترم !

التفت الأنف ، وقال :

– ماذا تريد ؟

– أستغرب ، يا حضرة المحترم . . . اتصوّر . . . أن عليك أن تعرف موضعك . واذا بي اراك بغتة ، وأين ؟ في الكنيسة . لا بد أن توافق . . .

– اعذرني ، أنا لا استطيـــع ان افهـم معنى ما تقوله . . . وضّح .

وفكر كوفاليوف : «وكيف لي أن اوضح له ؟» واستجمـــع شجاعته ، وقال :

– بالطبع أنا . . . بالمناسبة أنا برتبة رائد . ولعلك تتفق معي أن من غير اللائق أن اطلع على الناس بلا أنف . البائعة التي تبيع البرتقال المقشّر على جسر فوسكريسينسكي يمكن ان تستغني عن أنفها ، ولكن بالنسبة لمن يتهيأ للترقي الى . . . سيؤدي ذلك دون شك . . . فاحكم بنفسك . أنـــا لا اعرف ، يا حضرة المحترم (وهنا هزّ الرائد كوفاليوف كتفيه) ارجو المعذرة . . . اذا نظرت الى ذلك وفق قواعد الواجب والشرف . تستطيع بنفسك أن تفهم . . .

اجاب الأنف :

– لا افهم اي شيء على الاطلاق . وضح اكثر .

– يا حضرة المحترم – قال كوفاليوف يراوده شعور بالكرامة – أنا لا اعرف كيف افهـــم كلماتك . أظن المسالة كلهـــا واضحة تماماً . . . أم انت تريد . . الخلاصة أنك انفي .

نظر الأنف الى الرائد ، وانعقد حاجباه قليلاً .

– انت مخطئ ، يا حضرة المحترم . أنا قائم بذاتي . ثم لا

يمكن أن تكون بيننا أية علاقة . استدل من ازرار سترتك الرسمية انك موظف في دائرة أخرى .

وبعد أن قال الأنف ذلك ، استدار ، وتابع صلاته .

تحيّر كوفاليوف كلياً لا يعرف ماذا يفعل ، بل وحتى بماذا يفكر . وفي تلك الاثناء تردد خفيف لطيف يرسله ثوب نسائي ، واقتربت امراة متوسطة العمر ، رافلة بالمخرّمات . وبصحبتهـــا سيدة أخرى نحيفة القوام في ثوب أبيض يظهر محاسن خصرهـــا الاهيف ، وفي قبعة صفراء موردة ، خفيفة ككعكة . وخلفهما توقف سيّد مرافق طويل ذو فودين كبيرين ومجموعة كبيرة من الياقات ، وفتح علبة العطوس .

اقترب كوفاليوف اكثر ، ورفع ياقة صدار قميصه من القماش الفاخر الى الأعلى ، وعدّل خواتمه المنظومـة فى سلسلة ذهبية ، ووجه انتباهه ، وهو يتبسم في الجانبين ، الى السيدة النحيفة القوام التي انحنت قليلاً كزهرة ربيعية ، ورفعت الى جبينها يدها البيضاء باصابعها شبه الشفافة . واتسعت الابتسامة على وجه كوفاليوف اكثر ، حين رأى من تحت قبعتها حنكها المدور الناصع البياض ، وجزءا من خدها المشرّب بلون ورد الربيع المبكر . ولكنه ارتد فجاة ، كالملذوع . فقد تذكر أن مكان أنفه فارغ تماماً ، وسالت الدموع من عينيه . استدار ليعلن للسيد ذي البزة الرسمية على المكشوف انه تقمص شخصية المستشار لا غير ، وأنه محتال ووغد ، لا يزيد عن كونه أنفه . . . لكن الانف لم يكن موجوداً ، فقد لحق أن يركب عربته ويهرب ، لزيارة شخص آخر على الارجح .

تملك كوفاليوف اليأس . عاد ادراجـه ، وتوقف لحظة تحت صف الاعمدة ، يحدق بعناية في كل الجهات ، لعله يجد الأنف . وكان يتذكر جيداً أن قبعته مرّيشة ، وسترتـه الرسمية مطرزة بالذهب . ولكنه لم يبال بالمعطف ، ولا بلون عربته ، ولا الخيول ، ولا حتى هل كان له خادم يقف وراء العربة ، وفي أي بزة خدم . وبالاضافة الى ذلك كانت العربات المنطلقة من هذه الجهة ومـــن الجهة المعاكسة كثيرة العدد وسريعة جداً حتى ليصعب أن يلتقط بعينه العربة المطلوبة ، وحتى اذا وفق في ذلك ، فليس له ايـــة وسيلة لايقافها . كان النهار رائعاً مشمساً . وكان شارع نيفسكي

مكتظاً . وكان شلال ملوّن من السيدات ينصب بكامله على الرصيف كله ، ابتداء من جسر بوليتسيسكـي ، وحتى جسر انيتشكوف . وها هو رئيس الملاحظين الذي يعرفه يقبل عليه ، وكان يسميه المقدّم ، لا سيما في حضور الغرباء . وهذا ايضاً ياريجكين رئيس قلم في المحكمة العليا ، وصاحبه المقرّب ، الذي كان يقع في الورطة دائماً في لعبة «البوستون» كلما طلعت له ثمانية . وهذا رائد آخر حصل على درجته في القفقاس ، يلوح له بيده ليأتي اليه .

قال كوفاليوف :

– ليذهب الى الجحيم ! هاي ، يا حوذي ، خذني الى مدير الشرطة .

جلس كوفاليوف في عربة خفيفة ، وما كان منه الا أن صاح : «اطلق العنان !»

وصاح ، حين دخل رواق القسم :

– هل المدير في مكتبه ؟

اجاب الشرطي الحارس :

– كلا . خرج لتوه .

– يا لنكد الحظ !

– نعم – اضاف الحارس – قبل وقت ليس بالطويل جداً ، ولكن خرج . فلو جئت قبل دقيقة لربما وجدته .

وجلس كوفاليوف في العربة ، دون أن يرفـــع المنديل عن وجهه ، وصاح بصوت قانط :

– تحرك !

– الى اين ؟

– الى الأمام !

– كيف الى الامام ؟ نحن فى منعطف . اما الى اليمين ام الى اليسار ؟

اوقف هذا السؤال كوفاليوف ، وجعله يفكر من جديد . كان عليه في وضعه هذا أن يراجع مصلحة الآداب ، قبل كل شيء ، ليس لأنها على علاقة مباشرة بالشرطة ، ولكن لأن أوامرها يمكن أن تكون أسرع من أوامر الجهات الاخرى . فان الالتجاء في حل مشكلته الى رئاسة الدائرة التي اعلن الأنف أنه موظف فيها سيكون بلا

طائل ، فقد كان من الممكن أن يستدل المرء من اجوبة الأنف أن هذا الشخص لا يقدس اي شيء ، وانـــه سيكذب في هذه المرة أيضاً ، مثلما كذب حينذاك مؤكداً أنه لم يره قط . وعلى هذا النحو همّ كوفاليوف أن يأمر الحوذي بالتوجه الى مصلحة الآداب ، واذا بفكرة تعنّ لـــه مرة أخرى ، وهي أن هذا النصاب الوغد الذي تصرف ، في أول لقاء له ، بتلك الطريقة اللئيمة الوقحة ، يمكنـه في هذه المرة أن ينتهز الفرصة المتاحة ، ويوفق في الانسلال من المدينة بطريقة ما ، وعندئذ ستكون جميع الاستقصاءات عديمـة الجدوى ، أو قد تستمر ، لا سمح الله ، شهراً كاملاً . واخيراً ، بدا وكأن السماء نفسها قد ألهمته . عزم أن يلجأ راساً الى المكتب الصحفي . وينشر قبل فوات الأوان اعلاناً يعكس فيه جميع الاوصاف بالتفصيل ، وعند ذاك يستطيع كل مَنْ التقاه أن يوصله اليه في التو واللحظة ، أو يبلغ بمكان وجوده ، على أقل تقدير . وعندما استقر رأيه على ذلك أوعز للحوذي أن يتجه الى المكتب الصحفي ، وظل طوال الطريق يلكز ظهره بقبضته ، مرددا : «اسرع ، يا وغد ، اسرع ، يا نصاب !» ، فكان الحوذي يقول : «حاضر ، يا سيدى !» نافضاً راسه ، لاهباً بالسوط حصانه الطويل الوبر ، مثل كلبة من نوع «بولونكا» . واخيراً توقفت العربة ، وركض كوفاليوف ودخل لاهث الانفاس الى غرفة الاستقبـال الصغيرة ، حيث كان يجلس موظف اشيب في سترة فراك قديمة ، ونظارة ، وراء مكتب ، وقد وضع الريشة بين اسنانـــه ، وراح يحسب قطع نقد معدنية قد جُلبت له .

– مَنْ يتسلم الاعلانات هنا ؟ – صاح كوفاليوف – هـا ، مرحبا !

– أهلا وسهلا !

قال الموظف الأشيب ، ورفع بصره لحظة ، وخفّضه ثانية على اكوام النقود المفروزة .

– اريد أن انشر . . .

– تفضلوا . أرجو الانتظار قليلا .

قال الموظف ، وهو يخط رقما على ورقة بيد ، ويدفع باصابع يده الأخرى كرتين من العدّاد .

كان خـــادم ذو أشرطة ومظهر يدل على خدمته في بيـــت ارستوقراطي يقف قرب المكتب ، وفي يده اعلان ، فراى من اللياقة اظهار تبسّطه :

– صدقني ، يا سيد ، أن الكلبـــة لا تساوي ثمانين فلساً ، يعني لن أشتريها بثمانية فلوس ، ولكن الكونتيسة تحبها ، نعم ، والله ، تحبها . فتقدم لمن يعثر عليها مائة روبل ! واذا تكلمنـــا بادب ، كما نحن الآن ، قلنا أن أذواق الناس متباعدة تماماً . فاذا كنت صياداً يجب اقتناء كلـــب صيد أو سلوقياً ، ولم تبخـــل بخمسمائة روبل ، وحتى بالف ، ولكنك ستحصل على كلب جيد ، بالمقابل .

كان الموظف المحترم يصغي الى ذلك ، وعـــلى وجهه سيماء الاعتبار ، ويشتغل في التدقيق في الوقت ذاته : يحسب الحروف في الاعلان الوارد . وعلى الجانبين وقف عدد كبير من العجائز وباعـــة الحوانيت ، والخدم ومعهم اعلاناتهم . احدها يعلن عن تأجير حوذى لا يقرب الخمر ، وآخر عن عربة قليلة الاستعمال جلبت من باريس في عام ١٨١٤ ، وثالث عن خادمة في التاسعة عشرة مدربة على الغسيل ، وقابلة لمزاولة اعمال اخرى ، وعن عربة متينة لا ينقصها غير نابض واحد ، وعن فرس فتية لاهبة ذات طرتين رماديتين ، في السابعة عشرة من عمرها ، وعن بذور جديدة للفت والفجل قادمة من لندن ، وعن بيت ريفي مزود بكل اللوازم ومنها مربطان للخيول ، وبقعة يمكن أن تكون فيها غابة لاشجار البتولا أو الشوح . كما هناك دعوة للراغبين في شراء أنعلة قديمة ، للحضور الى المزاد العلني كل يوم من الساعة الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر . وكانت الحجرة التي يزدحم بها كل هذا الخلق صغيرة ، وهواؤهـا ثقيلا للغاية ، ولكن الملاحظ كوفاليوف لم يكن يستطيـــع أن يشم الرائحة ، لأنه ملثم بالمنديل ، ولأن انفه نفسه لا يعرف الا الشيطان في اى مكان الآن .

قال اخيراً في نفاد صبر :

– يا حضرة المحترم ، اسمح لي أن اتوجه اليك . فانا بحاجة شديدة .

– حالاً ! حالاً ! روبلان وثلاثة واربعون كوبيكا ! لحظة !

روبل واربعة وستون كوبيكا ! – كان السيد الاشيب يقول ، ملقياً اعلانات العجائز والخدم في وجوههم ، وقال اخيراً مخاطباً كوفاليوف – ماذا تحب ؟

– ارجوك – قال كوفاليوف – حصل نصب أو إحتيال ، لا اعرف ماذا حتى الآن . ارجوك فقط ان تنشر أن مَنْ يدلني على هذا الوغد يحصل على مكافأة معتبرة .

– هل لي أن اعرف ما اسمك ؟

– لا ، وما حاجتك الى اسمي ؟ لا يجوز لي ان ابوح به . عندى معارف كثيرون . تشيختاريفا زوجة المستشار من الدرجة الراقية ، بالاغيا غريغوريفنا بودتوتشينا زوجة ضابط عالى الرتبة . . . فقد يسمعون ، لا سمح الله ! يكفي ان تكتبوا ببساطة : الموظف ، أو ، وهذا افضل ، المنسّب في رتبة رائد .

– وهل الهارب كان خادمك ؟

– اي خادم ؟ ما كان سيكون عملية نصب كبيرة الى هذه الدرجة ، لو كان كذلك . . . الذى هرب مني . . . انف . . .

– احم ! اسم عائلة غريب ! وسرق منك مبلغا كبيرا ، السيد انف هذا ؟

– انف . . . انا اعني . . . ما تفكر فيه غير ذلك ! انف ، يعني انفي لا اعرف أين ضاع . أراد الشيطان ان ينكّت علي .

– باية طريقة ضاع ؟ لا استطيع ان افهم بشكل جيد .

– ولكن لا استطيع ان اقول لك باية طريقة . غير أن الشيء الرئيسي انه يطوف الآن في المدينة ، ويسمي نفسه مستشاراً من الدرجة الراقية . ولهذا ارجو ان تعلن أن من يعثر عليه يقدمه لي في اقرب وقت . احكم كيف لي في الحقيقة ان استغني عن هذا الجزء الظاهر والمعتبر من الجسم ؟ ليس هذا خنصر قدمك الذى ، اذا فُقِد ، لا يراه احد ، وهو في الحذاء . انا في ايام الخميس ازور زوجة المستشار من الدرجة الراقية تشيختاريفا ، وفي ايام الاثنين بالاغيا غريغوريفنا بودتوتشينا ، زوجة ضابط عالى الرتبة ، ولهذه ابنة بديعة جداً ، وهما من معارفى الطيّبين جداً ، ولك ان تحكم ماذا عليّ ان افعل الآن . . . يستحيل ان ازورهم .

وغرق الموظف في تفكير ، ظهر ذلك من شفتيه المزمومتين

بشدة . وبعد صمت طويل قال :

– لا ، لا استطيع أن انشر مثل هذا الاعلان في الصحف .

– كيف ؟ ولماذا ؟

– هكذا ! قد تفقد الجريدة سمعتها . فلو ان اى انسان يأخذ بالاعلان عن هروب انفه منه ، فان . . . بدون ذلك يقولون ان الصحافة تنشر الكثير مما لا يقبله العقل السليم ، ومن الاشاعات الكاذبة .

– ولكن ماذا في هذا مما لا يقبله العقل السليم ؟ لا اظن فيه شيئا من ذلك .

– هذا ما تظنه انت . في الاسبوع الماضي وقع مثل هذا الحادث . جاء موظف بالطريقة التي جئت بها الآن ، وجلب اعلانا يكلّفه روبلين وثلاثة وسبعين كوبيكا . وفحوى اعلانه كله هو أن كلبا اسود هرب منه . وقد يظن المرء : وماذا في ذلك ؟ ولكن تبين أن وراء ذلك تشهيرا ، فقد كان كلب هذا أمينا للصندوق ، ولا اذكر لأية مؤسسة .

– ولكنني لا أعلن عندكم عن كلب ، بل عن انفي اى عن كليتي تقريبا .

– لا ، لا استطيع ان انشر مثل هذا الاعلان .

– حتى في حالة ضياع انفي !

– اذا كان قد ضاع ، فهذه مسالة تخص الطب . يقال ان هناك اناسا يستطيعون أن يركّبوا اى انف تشاء . ولكنني ، بالمناسبة ، ارى انك ، لا محالة ، رجل ذو طبع فكه ، وتحب التنكيت بين الناس .

– اقسم لك بالله ! وما دام الأمر قد وصل الى هذا الحد ، فمن الممكن أن اريك .

– لا تتعب نفسك ! – مضى الموظف يقول مستنشقا السعوط – على كل حال ، اذا كان لا يتعبك – اضاف ذلك بنفحة فضول – فمن المستحسن أن ألقي نظرة .

أزاح كوفاليوف المنديل عن وجهه . قال الموظف :

– فعلا ، في منتهى الغرابة ! املس تماما كفطيرة قليت لتوها . نعم ، ومنبسط بشكل لا يصدق .

– طيب ، وهل ستجـــادل الآن ؟ انت ترى بنفسك ضرورة النشر . سأكون ممتنـــاً جداً لك ، ومسرور جداً لأن هذه الفرصة اتاحت لي متعة التعرف عليك . . .

والظاهر من هذا أن الرائد عزم في هذه المرة ان يعمـــد الى التزلّف قليلاً . قال الموظف :

– النشر سهل ، بالطبع . ولكن لا أرى من وراء ذلك أيـــة فائدة لك . اذا كنت تريد فأعهد الأمـر الى صاحب ريشة حاذقة ليصف هذا كشذوذ من شواذ الطبيعـــة ، وينشر مقالته هذه في «سيفرنايا بشيلا» (واستنشق السعوط مرة اخرى) لمنفعة الشبيبة (ومسح انفه) أو هكذا ، لحب الاستطلاع عموما .

أصيب كوفاليوف بخيبة الامل . انزل بصره الى أسفل الجريدة ، حيث الأخبار عن العروض المسرحية ، وكادت الابتسامة تطل على وجهه ، حين رأى اسم فنانة مليحة ، وانسلت يده الى جيبه لعله يجد فيه ورقة نقدية زرقاء * ، لأن الضباط عاليي الرتبة ، في رأى كوفاليوف ، يجب أن يجلسوا في مقاعد الدرجة الأولى ، ولكن تفكيره في الأنف افسد عليه كل شيء !

وبدا وكأن الموظف نفسه قد تأثر بورطة كوفاليوف . ورغبة منه في تخفيف بلواه ، وجد من اللائق أن يعبر عن تعاطفه ببعض الكلمات :

– في الحقيقة يحزنني جداً أن مثل هذا الحادث حصل لك . ألا تحب نشقة سعوط ؟ انه يبدد الام الصداع ، والامزجة المتعكرة ، بل ومفيد أيضاً للبواسير .

ومع قوله هذا قدم الموظف علبة السعوط ، بعد أن رفع عنها بحذق غطاءها المرسومة عليه صورة سيدة في قبعة .

وهذا الفعل غير المقصود أخرج كوفاليوف عن رباطة جاشه ، فقال بغضب :

– أنا لا افهم كيف تجد وقتاً للنكات . ألا ترى أنني لا املك ما يُستنشق منه ؟ اللعنة على سعوطك ! أنـا لا استطيـع النظر اليه ، وليس الى سعوطك الرخيص الحقير ، بل وحتى لو قدمت لي سعوط «رابه» الفاخر نفسه .

* ورقة نقدية من قيمة معتبرة . **المترجم** .

قال ذلك ، وخرج من المكتب الصحفي منزعجا جدا ، واتجه الى معاون شرطة المنطقة ، المتيّم جداً بالسكر . كانت غرفة الجلوس في بيته ، وهي غرفة الطعام أيضاً ، تتناثر فيها رؤوس السكر التي جلبها التجار له تعبيراً عن الصداقـة . وكانت الطباخة ، في ذلك الوقت ، قد خلعت عن معاون الشرطـــة حذائيه الطويلين ، وكان السيف وجميع ملحقاته العسكرية معلّقة بهدوء في الاركان . وابنه ذو الاعوام الثلاثة يداعب القبعة الثلاثية المخيفة ، اما معاون الشرطة نفسه فقد تهيأ لتذوق متعة السلام ، بعد حياة قتالية عسكرية .

دخل كوفاليوف عليه ، في اللحظـــة التي تمطى فيها وحمحم ، وقال : «آه ، ما ألذ أن احظى بساعتين من القيلولة !» . ولهذا السبب يمكن القول مسبقا أن وصول الرائد كان في غير وقتـــه تماما ، ولا أعرف بالضبط ، فحتى لو جلب له المرء في تلك الزيارة بعض اوقيات من الشاى وشيئا من الجوخ لمـا استقبله بترحاب شديد . كان معاون الشرطة مشجعا كبيرا لجميع الفنون والصنائع ، ولكنه كان يفضل الاوراق النقدية على كل شيء . وكان يقول عادة : «انها شيء لا يفضله شيء آخر . لا تطلب أن يقدم لهـا طعام ، ولا تحتل غير مكان صغير ، والجيب دائما يسعها . واذا وقعت منك لا تنكسر» .

استقبل معاون الشرطة كوفاليوف بجفاف ملحوظ ، وقال ان ما بعد الغداء ليس وقتا لفتح تحقيق ، وان الفطرة نفسها جعلت فترة ما بعد الغداء للاستراحة القصيرة (ومن هذا استطاع الرائد أن يرى أن معاون الشرطة ملـم باقوال الحكماء القدامى) والرجل السوى لا يُخلع انفه ، والدنيـا حافلة باصناف من حَمَلة رتبة رائد لا يملكون حتى ملابس داخلية في حالة معتبرة ، ويترددون على مختلف الأماكن المشبوهة .

وهذا بيت القصيد ! وتجدر الاشارة الى أن كوفاليـوف كان رجلا شديد التكدر كليا ، في امكانه ان يتسامح في كل ما يقال عن شخصه ، ولكنه لم يكن يتسامح قط حين يتعلق الكلام بالرتبة واللقب . بل وكان يرى أن من الممكن في المسرحيات ، التساهل بكل ما يتعلق بالضباط المتوسطى الرتبة ، ولكن لا يجوز مهاجمة الضباط العاليي الرتبة على الاطلاق . وقد أربكه استقبـال معاون

الشرطة له ارباكاً جعله ينفض راسه ، ويقول بشعور من الكرامة ، وقد بسط ذراعيه قليلاً : «بصراحة ، بعد هذه الملاحظات المهينة من جانبك لا استطيع أن اضيف شيئاً . .» وخرج .

وصل الى بيته ، وهو لا يكاد يحس بالارض تحت قدميه . وكان الغسق قد حلّ . وبدا له مسكنه حزينا وحقيرا للغاية ، بعد هذه التحريات الفاشلة . دخل الرواق ، فرأى على الاريكة الجلدية المبقعة خادمه ايفان راقداً على ظهره ، يبصق في السقف ، ويصيب بصاقه بقعة واحدة بدقة . أحنقه هذا التسيب من الرجل ، فضربه بقبعته على جبهتـــه ، بعد أن قال : «انت ، يا خنزير ، دائمـــا تنشغل بالسفاسف !»

قفز ايفان من مكانه فجأة ، واندفـع بكل قوته ليخلع معطف سيده .

دخل الرائد الى حجرته ، فانهد على الكرسى متعباً حزيناً ، وبعد زفرات قليلة قال اخيراً :

– يا ربي ! يا ربي ! على اى شيء هذه البلـوى ؟ لو كنت بلا يدين ، او بلا رجلين لكـان ذلك أفضل ، لو كنت بلا اذنين لكان أهون رغم بشاعته . ولكن اى شيء انسان بلا انف . لا هو طائر يطير ، ولا هو مواطن بين المواطنين . لا يساوى الا أن ترميه من الشباك ! ويا ليت الأنف جدع في حرب او في مبارزة ، او كنت انا السبب ، ولكنـــه ضاع بلا اى موجب ولا اى سبب ، ضاع هباءً ، ولوجه الله ! ولكن لا ، غير ممكن – اضاف ، بعد أن فكر قليلاً – غير معقول أن يضيع الأنف . غير محتمل ، البتة . هذا ، في الحقيقة ، حلم أو مجرد توهم . ربما اخطات فشربت ، بدل الماء الفودكا التى افرك بها لحيتي بعد الحلاقة . لم يأخذ ايفان ، الاحمق القدح مني فشربتها أنا ، شربتها ، بالتأكيد .

وليتأكد من انه غير سكران فعلا قرص الرائد نفسه قرصة موجعة ، حتى وجد نفسه يصرخ . وقد اقنعه هذا الألم كلياً بانه يحس ويحيا في اليقظة . تقدم من المرآة خلسة ، واغمض عينيه في البداية تحدوه فكرة أن لعل وعسى أن يكون انفـــه في مكانه ، ولكنه في نفس اللحظة وثب مرتداً الى الوراء قائلا :

– اى منظر قبيح .

لم يكن ذلك مفهوماً البتة . لو ضاع زر ، ملعقة فضية ، ساعة او اى شيء من هذا القبيل . ولكن ما الذى ضاع ؟ ولمـن ضاع ؟ وفي شقته ، علاوة على ذلك ! . . كان الرائد كوفاليـــوف ، عند تقليبه كل الظروف والملابسات في ذهنه يفترض ما يكاد أن يكون اقرب الاحتمالات الى الحقيقة ، وهو أن الذنب في هذا لا بد أن يقع على زوجة الضابط العالى الرتبة بودتوتشينا اكثر من أي شخص آخر ، فهي التي كانت ترغب في ان يتزوج ابنتها . وهو نفسه كان يحب مغازلتها ، ولكنه كان يتحاشى القرار النهائى . وعندما أعلنت زوجة الضابط له على المكشوف أنها تريد أن تزوجه اياها ، لملم نفسه بخفة وبعباراته المجاملة ، قائلاً انه ما يزال شاباً ، وأن عليه ان يخدم زهاء خمسة اعوام ليكون في سن الثانية والاربعين بالضبط . ولهذا السبب عزمت زوجـة الضابط ، وعلى سبيل الانتقـــام على الارجح ، أن تشوهه ، واستأجرت لهذا الغرض نساء ساحرات ، لأن من المستحيل قطعاً الافتراض بأن انفه قد جُدِع ، فان احداً لم يدخل الى حجرته . والحلاق ايفـان ياكوفليفيتش حلق وجهه في الاربعاء الفائت ، وخلال يوم الاربعاء كله ، بل وحتى يوم الخميس كله كان أنفه سليماً ، وهذا ما يذكره ويعرفه جيدا ، ثـــم كان سيشعر بالم ، والجرح ، بدون شك ، مـــا كان ليندمـل بهذه السرعة ، ويصير املس كالفطيرة . ورسم الخطط في ذهنه : هل يقيم دعوة رسمية على زوجة الضابط ، أم يذهب اليها بنفسه ، ويفضحها ؟ قطع افكاره ضوء نفذ من خلال خصاص الباب كلها ، مما يدل على أن ايفان اشعل شمعة في الرواق . وبعد قليل ظهر ايفان نفسه ، يحمل الشمعة أمامه ، ويضيئ الحجرة كلها بضوء ساطع . والحركة الأولى التي ابداها كوفاليوف انه اختطف المنديل وغطّى به المكان الذى كان فيه أنفه حتى يوم أمس فقط ، لكيلا يُذْهل رجل أبله ويبحلق فيه ، وهو يرى هذه الاعجوبة في وجه سيده .

وما كاد ايفان يذهب الى خُنه ، حتى ترامى من الرواق صوت غير معروف يقول :

– أهذا مسكن الملاحظ كوفاليوف ؟

– ادخل ، الرائد كوفاليوف هنا .

قال كوفاليوف ، وقفز مسرعا ، وفتح الباب .

دخل رجل شرطة ذو وجه وسيم وفودين ليسا وضّاحين تماماً ولا داكنين ، وخدين ممتلئين ، وهو نفس الشخص الذى كان في بداية القصة يقف في طرف جسر ايساكييفسكي .

– هل فقدت انفك ، يا حضرة ؟

– نعم .

– عثروا عليه الآن .

– أهذا صحيح ؟

صاح الرائد كوفاليوف . وشلّت الفرحة لسانه . فحدّق ملياً في الشرطي الواقف امامه ، الذى كان ضوء الشمعة المتمايل يسقط ساطعاً على شفتيه وخديه الممتلئين . واضاف :

– وبأية طريقة ؟

– بمصادفة غريبة . اعترضوه وهو يوشك على السفر . وقد استقلّ عربة سفر ، ليسافر الى ريغا . جواز سفره كان قد صدر منذ زمان باسم احد الموظفين . والغريب انني نفسي حسبته سيداً . ولكن نظارتي كانت معي ، لحسن الحظ ، فعرفت في الحال أنه الأنف . فانا قصير النظر ، واذا وقفت انت امامي ، فانني لا ارى غير وجهك ، ولكن لا اتبيّن الانف ولا اللحية ولا اى شيء آخر . حماتي ، اقصد أم زوجتي ، لا ترى شيئاً ايضاً .

واشتدت اللهفة في نفس كوفاليوف .

– أين هو ؟ اين ؟ ساجرى حالاً .

– لا تتعب نفسك . كنت اعرف أنك تحتاج اليه ، فجلبته معي . ولكن الغريب أن الشريك الرئيسي في هذه القضية هو الحلاق النصاب في شارع فوزنيسينسكايا ، وهو محتجز الآن في الموقف . منذ زمان وانا اشتبه في انه يمارس السكر والسرقة ، وقبل يومين فقط نشل من احد الحوانيت دوزينة من الازرار . بقى انفك على شكله تماماً .

وبهذا الكلام دسّ الشرطي يده في جيبه ، واخرج الانف ملفوفاً بقصاصة ورق .

صاح كوفاليوف :

– هذا هو ! بالضبط ! تفضّل واشرب الشاي عندى اليوم .

– سيكون ذلك لطفاً كبيراً ، ولكنني لا استطيع . علىّ ان اتوجه من هنا الى مستشفى المجاذيب . . . ارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً كبيراً . . . وأنا اعيل حماتي ، اقصد أم زوجتي ، واطفالي . وكبيرهم بشكل خاص يبشر بآمال كبيرة ، صبي ذكي جداً ، ولكن ليس لى ما انفقه على تعليمه اطلاقاً . . .

حدس كوفاليوف ، والتقط من الطاولة ورقة نقدية حمراء * ، ودسها في يد الشرطي الذى خرج وراء الباب شاحطاً قدميه ، وفي تلك اللحظة تقريباً سمع كوفاليوف صوته في الشارع ، حيث سدّد موعظة ناصحة الى انسان ريفي تجاسر أن يسير في عربته للنقل في البولفار .

بعد انصراف الشرطي بقى الرائد بضع دقائق في حالة غير محددة ، وبعد بضع دقائق فقط عادت اليه حاسة النظر والشعور . الى هذا الحد من الذهول ونسيان الذات اسلمته فرحته المباغتة . تناول الأنف المفقود بحرص بكلتا يديه المقعرتين ، ومرة اخرى نظر اليه بامعان . وانشأ الرائد كوفاليوف يقول :

– انه هو ، هو بالضبط ! هذه هى البثرة في الجانب الأيسر ، تلك التي طلعت عليه يوم أمس .

واوشك الرائد أن يضحك فرحةً .

ولكن لا شيء في الدنيا يدوم طويلاً ، ولهذا فان هذه الفرحة ايضاً في الدقيقة التالية لم تكن بحيوية الفرحة في الدقيقة الاولى ، وفي الدقيقة الثالثة صارت أخف ، واخيراً ، وبشكل غير ملحوظ تلاشت وامتزجت في المزاج الاعتيادى للنفس ، مثل تلك الدائرة التي يحدثها القاء حجر في المـــاء ، حين تتلاشى أخيراً في السطح المنبسط . واخذ كوفاليوف يفكر وانتهى تفكيره الى ان المسألة لم تنته بعد . صحيح أن الأنف قد عثر عليه ، ولكن يجب تركيبه ، وضعه في محله .

– وماذا لو لم يثبت في محله ؟

وشحب وجه الرائد من هذا السؤال الذى طرحه هو على نفسه . اندفع الى الطاولة شاعراً بفزع هائـــل ، وقرّب المرآة ، حتى

---

* عشرة روبلات . **المترجم** .

لا يركّب الأنف باعوجاج . كانت يداه ترتجفان . ركب الأنف بحذر وتانٍ في موضعه السابق . اوه ، يا للهول ! الأنف لا يلتصق . قرّبه من فمه ، ودفاه قليلا بانفاسه ، ورفعه ثانية الى تلك البقعة الملساء الموجودة بين الخدين ، ولكن الأنف لم يثبت مهما حاول .

– هيا ، هيـــا ! اركب ، يا ابلـــه ! – كان يقول له . ولكن الأنـــف وكأنه من خشب كـان يسقط على الطاولة بصوت غريب ، وكأنـــه سداد من فلّين . تلوّى وجـــه الرائـــد بتشنج ، وانشأ يقول بفزع : «معقول انه لا يلتحم ؟» . ولكن كل محاولاته في إلصاقه في مكانه السابق باءت بالفشل .

نادى ايفان ، وارسله لاستدعاء الطبيب الذى كان يشغل في نفس البيت احسن شقة ، في الطابق الأول . كان هذا الطبيب رجلاً مرموقاً مكتنز اللحم ، له فودان جميلان فاحمان ، وزوجة نضِرة بادية العافية ، يأكل التفاح الطازج في الصباح ، ويحرص على جعل فمه في غاية النظافة ، اذ يغرغره كل يوم ثلاثة ارباع الساعة ، ويُجلي اسنانه بخمسة انواع مختلفة من الفرش . حضر الدكتور حالاً . وســـأل متى حصلت هذه البلوى ، ورفـع حنك الرائد كوفاليوف ، ونقر بابهامه الموضع الذى كان فيه الانف سابقاً نقرة اضطرت راس الرائد أن يرتد الى الوراء بقوة شديدة جعلت يافوخه يرتطم في الجدار . قال الطبيب : لا بأس . ونصحه بالابتعاد قليلاً عن الجدار وأمره بأن يميل رأسه الى اليميـــن اولاً ، وتحسس موضع الانف السابق ، وقال «إحم !» ثم أمره بأن يميل برأسه الى اليسار ، وقال : «إحم !» وفي الختام نقره بابهامه مرة أخرى نقرة جعلت الرائد يسحب رأسه ، مثلمـا يفعل الحصان حين يفحصون اسنانه . وهزّ الطبيب رأسه بعد هذا الفحص ، وقال :

– لا ، غير ممكن . الأفضل ان تبقى على حالك ، والا فقـــد تصير اسوأ . بالطبع ، يمكن تركيبه ، ولعلي استطيع تركيبه لك الآن ، ولكن اؤكد لك ان ذلك سيكون اسوأ لك .

قال كوفاليوف :

– يا خبر أبيض ! وكيف ابقى بلا انف ؟ لا يمكن ان يكون اسوأ مما هو الآن . هذه مصيبة والشيطان وحده يعرف اى شيء هذا ! الى أين اولي وجهي بهذا المنظر المريع ؟ عنـدى معارف

فاخرون . اليوم ، مثلا ، علـــيّ أن ازور بيتين واحضر الحفلـــة المسائية . فأنا اصادق الكثيرين : زوجة المستشار من الدرجـــة الراقية تشيختاريفا ، وبودتوتشينا زوجة الضابط . . . وان لـم تبق اية علاقة لي معها الا عن طريق الشرطة بعد فعلتها اليوم . اعمل معروفاً – قال كوفاليوف بصوت ضارع – الا توجد وسيلة ؟ ركّبه بطريقة ما ولو بشكل ما ، مجرد ان يلزق . بل واستطيع أن اسنده بيدي ، في الحالات الخطرة . كما انني لا ارقص ولذلك لن اوذيه بحركة غير حذرة . اما بخصوص رد الجميل على الاستشارة ، فكن على ثقة بأنني سأقوم به بقدر ما تسعفني مواردي .

– هل تصـــدق – قال الدكتور بصوت لا هـــو بالعالي ولا بالواطئ ، ولكنه هادئ موح – انني لا اعالج ابداً للمنفعة فهـذا يعارض اصولي وفني . صحيح أنني أتقاضى اتعاباً على الزيارات ، ولكن لسبب وحيد هو انني لا أريد ان اكدر المريض برفضي لها . بالطبع ، من الممكن أن اركب انفك ، ولكن اؤكد لك بالشرف ، اذا كنت لا تصدق بكلامي ، ان ذلك سيكون اسوأ بكثير . الأفضل ان تترك الامر للطبيعة لتفعل فعلها . اغتسل غالباً بالماء البارد واؤكد لك أنك بلا أنف ستكون سليماً معافى كما لو أنك بأنف . امـــا بخصوص الأنف نفسه ، فانصحك بأن تضعه في قارورة فيها كحول ، أو ، وهذا احسن ، ان تصب فيها ملعقتين من الفودكا القـوية ، والخل المسخّن ، وعند ذاك تستطيع ان تبيعه بمبلغ محترم . بل واستطيع ان آخذه انا ، اذا كنت لا تبالغ في الثمن .

– لا ، لا ! لن ابيعه باي ثمن ! – صاح الـرائد كوفاليوف يائساً – الأفضل ان يتلف !

– اعذرني ! – قال الدكتور مستاذناً بانحناءة – كنت اريد ان اكون في خدمتك . . . لا بأس ! على الأقل رأيتَ جهدي .

وبعد هذا القول خرج الطبيب من الغرفة بسمت الوجاهة . ولم يتبين كوفاليوف حتى قسمات وجهه ، ففي تبلّده العميق لم يـر غير كمي قميصه الأبيض النقى كالثلج بارزين من ردني فراكـــه الاسود .

وقرر أن يكتب في اليوم التالي رسالة الى زوجة الضابط العالى الرتبة ، قبل رفع الدعوى عليها ، يسألها الا توافق أن ترد لـه ،

ودون نزاع ، ما يجب أن ترده . وكانت الرسالة بهذا المحتوى :

«حضرة السيدة

بالاغيا غريغوريفنا !

لا استطيع ان أفهم التصرف الغريب من جانبك . كوني على ثقة ، بانك في تصرفك هذا لن تكسبي شيئا ، ولن تجبريني ابدا على الزواج من ابنتك . تأكدي أن حكاية انفي معروفة لي كلية ، تماماً كما اعرف انكما ، لا غيركما ، المتورطتان الرئيسيتان في هذه الفضيحة . ان انفصاله عن موضعه ، وهروبه ، وتنكره مرة في هيئة موظف ، ومرة في هيئته الأصلية اخيراً ليس الا نتيجة اعمال السحر التي قمتما بها ، او قام بها أولئك الذين يزاولون اعمالاً نبيلة كتلك التي تزاولانها . ومن ناحيتي أرى من الواجب أن احذرك من انني ساضطر ، اذا لا يعود الانف المذكور الى موضعه اليوم الى اللجوء الى حماية القوانين ورعايتها . مع احترامي التام ، على كل حال ، والتشرف بأن اكون خادمك المطيع

بلاتون كوفاليوف» .

«حضرة المحترم بلاتون كوزميتش !

رسالتك ادهشتني غاية الدهشة . واعترف لك بصراحة أنني لم اكن اتوقع قط ، لا سيما تلك الملامات غير العادلة من جانبك . اعلمك انني لم استقبل في بيتي قط الموظف الذى تشير اليه ، متنكرا أو في هيئته الاصلية . صحيح أنني استقبلت فيليب ايفانوفيتش بوتانتشيكوف . ومع انه طلب يد ابنتي بالفعل ، ومع كونه طيب الخلق ، غير ميال الى الشرب ، وافر العلم ، الا انني لم امنّه بامنية . ثم انك تنوه عن الأنف ، فاذا كنت تعني بهذا انني اردت أن أضللك واخدعك اى اعطيك رفضاً شكلياً ، فانني لاستغرب أن يصدر هذا الكلام منك ، بينما أنا بقدر ما تعرف انت ، كنت ضد هذا الراي تماماً ، واذا كنت الآن تخطب ابنتي بطريقة شرعية ، فانا مستعدة أن ألبي طلبك في نفس الساعة ، لأن هذا كان دائماً موضع رغبتي وأمنيتي القوية ، وعلى امل ذلك اظل دائما مستعدة لخدمتك .

بالاغيا بودتوتشينا» .

قرأ كوفاليوف الرسالة ، وانشأ يقول : «نعم . ليست ملومة بالفعل . غير ممكن ! الرسالة مكتوبة بشكل لا يستطيع انسان مذنب في جريمة أن يكتبها به – وكان الرائد عارفاً بذلك ، لانه كان قد أرسل الى التحقيق عدة مرات لمّا كان في منطقة القفقاس – طيب ، باية طريقة ، باية اقدار حدث هذا ؟ الشيطان وحده يعلم !» قال اخيراً ، وقد اسبل ذراعيه .

وخلال ذلك انتشرت الاشاعات عن هذا الحادث غير الاعتيادى في انحاء العاصمة كلها ، وكما يجري عادة ، ليس بدون زيادات واضافات . آنذاك كانت عقول الجميع لا تنجذب الا لما هو خارق للعادة . قبل فترة قصيرة كانت تجارب تأثير القوى السحرية تستهوي الالباب ، كما أن حكاية الكراسي الراقصة في شارع كونيوشينايا ما تزال طازجة في الاذهان ، ولهذا فليس غريباً أن الناس سرعان ما اخذوا يتحدثون زاعمين أن انف الملاحظ كوفاليوف يتمشى في شارع نيفسكي في تمام الساعة الثالثة . فكان عدد كبير من الفضوليين يتجمع كل يوم . وزعم أحدهم أن الانف موجود في مخزن يونكر ، فتزاحم الناس قرب يونكر حشوداً فاضطرت الشرطة الى التدخل . ثم ان احد المضاربين بالاسعار ، وهو رجل ذو هيئة محترمة وفودين ، كان يبيع انواعاً من الكعك الناشف المحلّى قرب مدخل المسرح ، قد صنع خصيصاً لذلك مساطب خشبية متينة جميلة ، واخذ يدعو الفضوليين للوقوف عليها لقاء ثمانين كوبيكا للمتفرج الواحد . وتعمد عقيد معتبر ذو جدارة الخروج من بيته قبل الوقت المحدد ، خصيصاً لذلك ، وشق طريقه خلال الزحام بصعوبة شديدة ، ولكنه اغتاظ كثيراً ، حين راى في واجهة المخزن ، بدلاً من الانف ، بلوزة صوفية اعتيادية ، ولوحة مطبوعة حجرياً تصور فتاة تعدل جواربها وغندوراً يتطلع اليها من وراء شجرة بصداره المفتوح ولحيته الصغيرة ، وهي لوحة ظلت معلقة في مكانها اكثر من عشرة اعوام . وحين تنحى جانبا قال بانزعاج : «كيف تمكن مضايقة الناس بمثل هذه الشائعات السخيفة المجانبة للحقيقة ؟»

ثم سرت شائعة تزعم أن أنف الرائد كوفاليوف لا يتمشى في شارع نيفسكي بل في حديقة تفريتشيسكي وهو هناك منذ زمان

طويل يعود الى اقامة خسرو مرزا * الذى كان مندهشاً كثيراً من لعبة الطبيعة الغريبة هذه . فتوجه بعض طلاب اكاديمية الجراحة الى هناك . وقد ارسلت سيدة وجيهة محترمة رسالة خاصة الى ناظر الحديقة تطلب منه أن يفرج اولادها على هذه الظاهرة الفريدة واذا امكن فمع شرح يرشد و'يعلّم الفتية .

وكل هذه الوقائع كانت مبعث سرور عظيم لزوار حفلات الاستقبال ومآدب العشاء الضروريين من ارباب المقام ، من هواة اضحاك السيدات ، اولئك الذين نفد رصيدهم من مادة الاضحاك كليا فى ذلك الوقت . وكان جزء متوسط من الناس المحترمين الموالين للحكم ساخطاً الى اقصى حد . وكان احد السادة يقول في حنق أنه لا يفهم كيف يمكن في هذا العصر المستنير أن تسرى إختلاقات رعناء ، وانه مندهش من عدم إلتفات الحكومة إليها . وكان هذا السيد ، كما يبدو ، من بين اولئك السادة الذين يودون جر الحكومة الى كل شيء ، وحتى الى شجارات الزوج اليومية مع زوجته . وعقب ذلك . . . الا أن كل ما حدث عقب ذلك يكتنفه الغموض التام ، ولا شيء يعرف البتة .

٣

في الدنيا تحدث اشياء في غاية السخف . واحياناً تنافي الحقيقة بالمرة . فجأة ظهر ذلك الانف الذي أنتحل رتبة مستشار عالى الرتبة وتجول في ربوع بطرسبورغ ، وأحدث في المدينة تلك الضجة الكبيرة ، ظهر في مكانه الطبيعي ، اي بين خدي الرائد كوفاليوف بالضبط ، وكان شيئاً لم يحدث قط . وقد وقع ذلك في السابع من نيسان . استيقظ الرجل ، ونظر في المرآة مصادفة ، فاذا به يراه . الأنف ! يمسكه بيده . أجل ، الأنف بالضبط . «اهيه !» قال كوفاليوف . ومن شدة فرحة كاد أن يرقص رقصة جنونية في الحجرة حافياً . ولكن دخول ايفان اعاقه . اوعز على الفور أن يهيىء له ليغتسل ،

* امير فارسي زار روسيا في آب ١٨٢٩ ، بمناسبة مقتل السفير الروسي في طهران غريبويدوف (١٧٩٥-١٨٢٩) ، المؤلف المسرحي الشهير ، صاحب الكوميديا الشهيرة «المحنة من العقل» . **المترجم** .

وحين كان يغتسل نظر في المرآة مرة أخرى . انه الأنف ! وحين كان ينشّف وجهه بالمنشفة نظر في المرآة من جديد . انه الأنف !

– انظر ، يا ايفان ، يبدو أن على انفي بثرة – قال ذلك ، وفكر في ذات الوقت «مصيبة ، لو أن ايفان سيقول : لا ، يا سيدى ، لا توجد بثرة ولا انف !»

ولكن ايفان قال :

– لا ، لا توجد اية بثرة . الأنف سليم !

«طيب ، تخطفك الشيطان !» – قال الرائد لنفسه وطقطق باصابعه . وفي تلك اللحظة طلع في الباب الحلاق ايفان ياكوفليفيتش ، ولكن بتخوف كتخوف القطة ، التي ضربت لتوها على سرقة قطعة شحم مقدد .

صاح عليه كوفاليوف ، وهو ما يزال بعيداً :

– قل اولاً : هل يداك نظيفتان ؟

– نظيفتان .

– تكذب !

– والله ، نظيفتان ، يا سيدى .

– طيب ، خذ بالك .

جلس كوفاليوف ، وغطاه ايفان ياكوفليفيتش بالفوطة ، وفي لمحة بصر ، وبمساعدة فرشاة غطى لحيته كلها ، وجزءاً من خده بصابون حلاقة وجعله يبدو كالقشدة التي تقدم في اعياد ميلاد التجار .

«عجيب امرك !» قال ايفان ياكوفليفيتش وقد رمق الأنف ، ثم أمال رأسه الى الجانب الآخر ، ونظر الى الانف من جنب . «هكذا ! إنه بعينه ، فيا للعجب» مضى يقول ، وحدق بالانف طويلاً . واخيراً ، وبخفة ، وباشد حرص يستطيع أن يتصوره المرء ، رفع اصبعين ، ليمسكه من أرنبته . فقد كانت هذه طريقة ايفان ياكوفليفيتش في الحلاقة . واذا بكوفاليوف يصرخ :

– اياك ، اياك ، اياك . خذ بالك !

انزل ايفان ياكوفليفيتش يديه ، وارتبك وذهل ذهولاً لم يشهده من قبل . واخيراً اخذ يمرر الموسى تحت حنكه بحذر ، ورغم أنه كان يجد صعوبة وعدم لباقة في الحلاقة دون أن يمسك

بعضو حاسة الشم في الجسم ، إلا أنه اسند إبهامه الخشن على خده ، ولثته السفلى بشكل ما ، وذلل كل العقبات ، وحلق الوجه في آخر المطاف .

وحين انتهت حلاقة الذقن ، أسرع كوفاليوف في لبس ثياب الخروج على التو ، واستاجر عربة ، وتوجه إلى محل الحلويات مباشرة . وحين دخل صاح على الصبي من بعيد ، «أيها الصبي ، قدحاً من الشوكولاته» ، وفي نفس اللحظة نظر في المرآة : الانف موجود ! والتفت الى الخلف مرحاً ، ونظر بهيئة انتقادية ساخرة ، وبعينين مخاوصتين قليلاً ، إلى عسكريين لأحدهما أنف ليس اكبر من زر الصدار . وبعد ذلك توجه إلى إدارة المديرية التي كان يسعى للحصول فيها على منصب نائب حاكم ولاية ، أو على منصب مدير للاعالة والتموين ، في حالة فشله . ولدى مروره بحجرة الاستقبال نظر في المرآة : الأنف موجود ! ثم ذهب الى موظف آخر ، او رائد ، وهو منكت كبير كان غالبا ما يقول له رداً على مختلف الملاحظات اللاذعة له «أوه ، انا اعرفك ، أنت قارص اللسان !» وفي الطريق فكر : «اذا كان الرائد أيضاً لا ينفجر ضاحكاً ، حين يراني ، فان ذلك إمارة صادقة على أن كل شيء عندى في محله» . غير أن صديقه لم يبدر منه شيء . وفكر كوفاليوف مع نفسه : «لا بأس ، لا بأس ، عليه اللعنة !» . وفي الطريق التقى ببودتوتشينا زوجة الضابط ، ومعها ابنتها ، تبادل الانحناءات معهما ، وقوبل بهتافات الفرح . يعني لا شيء معيب فيه ، وليست فيه أية نقيصة . افاض الحديث معهما مدة جد طويلة ، واخرج علبة السعوط متعمداً ، وحشا انفه امامهما وقتاً طويلاً جداً ، ومن كلا المنخرين قائلاً لنفسه : «ها أنا امامكما ، يا حمقى يا جنس الدجاج ! ولكن لن اتزوج بابنتك . هكذا ، بدون زواج ! تفضلي !» والرائد كوفاليوف منذ ذلك الحين أخذ يطوف في شارع نيفسكي ويتردد على المسارح ويتجول في كل مكان ، وكانما لم يحصل له اى شيء ، وانفه ايضاً ثابت في وجهه وكانما لم يحصل له اي شيء . بل ولم يبدُ عليه انه قد غادر مكانه متجولاً هنا وهناك . وبعد ذلك كان الرائد كوفاليوف يشاهَد وقد شملته دعاية مستحبة ، متبسماً ، ملاحقاً جميع

الحلوات طراً ، بل وتوقف ذات مرة امام حانوت في سوق غوستيني ، واشترى شريط وسام ، لاسباب مجهولة ، لأنه لم يكن يحمل اى وسام .

هذه هي الحكاية التي وقعت في العاصمة الشمالية لدولتنا الشاسعة ! والآن فقط ، حين نتمثل كل شيء نرى أنها تنطوي على اشياء كثيرة تنافي الحقيقة . كما لا حاجة إلى القول إن انفصال الأنف الخارق للطبيعة ، وظهوره في اماكن مختلفة في هيئة مستشار عالي الرتبة شيء غريب حقاً . فكيف لم يفطن كوفاليوف الى أن من غير الجائز الاعلان عن الأنف عن طريق المكتب الصحفي ؟ أنا لا اقول ذلك لأن الاعلان بدا لي غالي الثمن ، فذلك شيء لا يعتد به ، فانا لست من الحريصين على النقود اطلاقاً . بل لأن ذلك غير لائق ، ومحرج ، ومذموم . ثم كيف دخل الأنف إلى رغيف الخبز ، وكيف ان ايفان ياكوفليفيتش نفسه ؟ . . لا ، هذا ما لا افهمه ابداً ، لا افهمه اطلاقاً . ولكن الافزع من ذلك ، والابعد عن الفهم من اي شيء آخر هو كيف يمكن للمؤلفين أن يختاروا مثل هذه المواضيع؟ بصراحة ، هذا شيء غير مفهوم البتة . نعم ، بالضبط . . . لا ، لا، لا افهمه اطلاقاً . اولاً لن يجني الوطن من ذلك اية فائدة، وثانياً . . . مثلما في اولاً ، بلا أية فائدة ايضاً . لا اعرف قطعاً ما هذا . . .

إلا انني ، مع كل ذلك وعلى كل حال يمكنني التسليم بهذا ، وبآخر ، وبثالث ، بل وحتى في الامكان . . . نعم ، ولكن اى مكان يخلو من اللامعقولات ؟ ومع هذا ، فمهما تأملت وترويت ، فان كل ذلك ، في الحقيقة ، ينطوي على شيء ما . ومهما قال هذا وذلك فان مثل هذه الحوادث تحصل في الدنيا – نادراً ، ولكنها تحصل .

المعطف

(ترجمة د . ابو بكر يوسف)

فى احدى الادارات كان يعمل احد الموظفين . موظف لا نستطيع ان نقول عنه انه كان بارزا جدا ، بل كان قصير القامة ، مجدورا الى حد ما واحمر الشعر الى حد ما ، بل ويبدو أعمش الى حد ما ، بصلعة صغيرة فوق الجبين وتجاعيد على كلا الخدين ، اما لون وجهه فكان كما يقال بواسيريا . . وما العمل ؟! الذنب فى ذلك ذنب جو بطرسبورغ . اما فيما يتعلق برتبته (لأنه من الضرورى عندنا ان نعلن عن الرتبة قبل كل شىء) فقد كان ممن يسمون بـ«المستشارين الاعتباريين» * الخالدين الذين سخر منهم وهزىء بهم ما وسعهم ، كما هو معروف ، شتى الكتاب من ذوى العادة المحمودة فى التهجم على اولئك الذين لا يحسنون العض . وكان اسم عائلة الموظف بشماتشكين . وكان اسم الموظف اكاكى اكاكيفتش . اما متى وفى اى وقت التحق بالادارة ومن الذى الحقه بها ، فهذا ما لم يستطع احد ان يتذكره . فمهما تغير المدراء والرؤساء فقد كان الجميع يرونه دائما فى نفس المكان وفي نفس الوضع وفى نفس الوظيفة ، اى موظف كتابة ، حتى انهم آمنوا فيما بعد بانه ، على ما يبدو ، قد ولد هكذا جاهزا ، فى حلته الرسمية وبصلعة فى رأسه . ولم يكن يحظى فى الادارة

* رتبة مدنية في روسيا القيصرية من الرتب الدنيا تعادل رتبة النقيب العسكرية .

بأى احترام . فالحراس لم يكونوا ينهضون عند رؤيته ، ليس هذا فحسب ، بل حتى لم يكونوا ينظرون اليه ، كما لو كانت مجرد ذبابة هى التى طارت عبر صالة الاستقبال . اما الرؤساء فكانوا يعاملونه بطريقة باردة . فأى مساعد من مساعدى رئيس القلم كان يدس الاوراق تحت انفه مباشرة حتى دون ان يقول له : «انسخها» او «هاك عملا طريفا طيبا» او اية كلمات طيبة كما جرت العادة فى المكاتب المهذبة . اما هو فكان يتناول الاوراق متطلعا اليها وحدها دون ان ينظر الى من قدمها له وهل يملك الحق فى ذلك ام لا . كان يتناولها ويشرع على الفور فى نسخها . وكان الموظفون الشبان يسخرون منه وينكتون عليه بقدر ما كانت تسمح به روح النكتة المكتبية ، ويروون امامه شتى الحكايات التى ألفوها عنه ، ويقولون عن مدبرة بيته وهى عجوز فى السبعين من عمرها ، انها تضربه ويسألونه متى سيحتفلون بزواجهما ، ويهيلون الاوراق على راسه قائلين انه الثلج يسقط . ولكن اكاكى اكاكيفتش لم يكن يرد على ذلك بكلمة واحدة ، كأنما لم يكن يقف امامه احد . بل ان ذلك حتى لم يؤثر على عمله ، اذ لم يكن يرتكب خطأ واحدا فى الكتابة وسط كل هذه السخريات . وفقط عندما تكون النكتة غير محتملة ، وعندما كانوا يدفعونه فى ذراعه ، فيعوقونه عن العمل ، كان يقول : «دعونى فى حالى ، لماذا تهينوننى ؟» كان يبدو ثمة شىء غريب فى كلماته وفى الصوت الذى قيلت به . كان فيها شىء يستدر الشفقة ، حتى ان موظفا شابا التحق بالوظيفة حديثا وكان قد سمح لنفسه بالسخرية منه كما يفعل الآخرون ، توقف فجأة كالمصعوق ، ومن يومها بدا وكأن كل شىء قد تغير امام عينيه وتبدى فى صورة أخرى . ودفعته قوة غير طبيعية مجهولة بعيدا عن زملائه الذين صاحبهم باعتبارهم اشخاصا محترمين مهذبين . وظل هذا الموظف بعد ذلك ولفترة طويلة وفى اوج لحظات المرح يتذكر الموظف القصير ذا الصلعة فوق الجبين بكلماته النافذة «دعونى فى حالى ، لماذا تهينوننى ؟» . . وترن فى هذه الكلمات النافذة كلمات اخرى : «انا مثل اخيك» . فكان الشاب المسكين يغطى وجهه بيديه ويرتجف مرات ومرات عديدة بعد ذلك طوال

عمره وهو يرى ما فى الانسان من لاانسانية والى اى مدى تختفى الفظاظة الوحشية فى التهذيب الراقى المرهف ويا الهى حتى فى ذلك الانسان الذى يعتبره المجتمع نبيلا وشريفا .

ومن النادر ان تجد شخصا يتفانى فى عمله الى هذا الحد . فلا يكفى ان نقول انه كان يعمل بغيرة ، كلا ، لقد كان يعمل بعشق . كان يرى فى ذلك النسخ عالما خاصا به ، عالما متنوعا ولطيفا . وكانت المتعة تتجلى فى وجهه . وكانت بعض الحروف اثيرة لديه ، وعندما يبلغها لا يعود يسيطر على نفسه . كان يضحك ويغمز بعينه ويساعد بشفتيه على كتابتها ، حتى انه كان يبدو انه بالامكان ان تقرأ على وجهه الحرف الذى كان قلمه يخطه . ولو انهم كافأوه بقدر حميته فربما اصبح ، ولدهشته هو ، من مستشارى الدولة .* ولكنه ، وكما قال زملاؤه المازحون . نال من الخدمة فتلة فى عروة وفاز بمرض البواسير والم الظهر . وعموما فلا يمكن ان نقول انه لم يحظ بأدنى اهتمام . فقد اراد احد المدراء ، وكان رجلا طيباً ، ان يكافئه على خدمته الطويلة ، فأمر بأن يعهدوا اليه بشىء ما اهم من مجرد النسخ ، فكلفوه بأن يعد مذكرة من واقع ملف جاهز بالفعل لارسالها الى جهة اخرى . ولم يكن الامر يتعدى اكثر من تغيير العنوان الرئيسى وتعديل بعض الافعال من صيغة المتكلم الى الغائب . ولكنه كلفه من الجهد ما جعله يعرق تماما ويحك جبينه ، واخيرا قال : «كلا ، من الافضل ان تعطونى شيئا ما انسخه» . ومن يومها ابقوه للنسخ الى الابد . وكان يبدو انه لا يوجد بالنسبة له اى شىء خارج هذا النسخ . لم يكن يفكر فى ملابسه ابدا : فحلته لم تكن خضراء اللون ، بل ذات لون احمر طحينى ما . وكانت ياقتها ضيقة ، قصيرة ، حتى ان عنقه ، رغم انه لم يكن طويلا ، كان يبرز من الياقة ويبدو طويلا بصورة غير عادية . وكان يعلق بحلته دائما شىء : إما قطعة قش او خيط ما . وعلاوة على ذلك كانت لديه مهارة خاصة اثناء سيره فى الشارع فى ان يتواجد تحت النافذة بالضبط فى الوقت الذى يلقون

* رتبة مدنية تعادل رتبة نائب مدير الادارة .

منها شتى الفضلات ، ولذلك كان يحمل على قبعته دائما قشر البطيخ والشمام وغير ذلك من التفاهات . ولم يحدث مرة واحدة فى حياته ان التفت الى ما يجري ويحدث كل يوم فى الشارع ولا حتى الى ما ينظر دائما اليه اخوه الموظف الشاب . كما هو معروف ، والذى تمتد نظرته الثاقبة النشطة الى حد انه يلاحظ على الرصيف الآخر من تفتقت ربطة ساق سرواله ، الامر الذى يجعل الابتسامة الخبيثة تظهر على وجهه .

اما اكاكى اكاكيفتش فحتى لو نظر الى شىء فما كان ليرى فيه سوى سطوره النظيفة المكتوبة بخط منمق ، اللهم الا اذا استقرت على كتفه فجأة سحنة حصان لا يعلم احد من اين جاءت ونفشت بمنخاريها فى خده ريحا قوية . عندها فقط كان يلاحظ انه ليس فى وسط السطر ، بل على الارجح فى وسط الشارع . وعندما يعود الى المنزل كان يجلس على الفور الى المائدة ، فيلتهم بسرعة حساء الكرنب وقطعة لحم البقر بالبصل دون ان يحس ابدا بطعمها ، وكان يأكل ذلك مع الذباب وكل ما كان الله يرسله فى تلك الساعة . وعندما كان يلاحظ ان معدته بدأت تنتفخ ينهض من امام المائدة ويستخرج دواة الحبر ويبدأ ينسخ الاوراق التى جاء بها معه الى البيت . فاذا لم تكن لديه مثل هذه الاوراق كان يقوم بعمل نسخة لنفسه ، فقط من اجل المتعة الشخصية ، خاصة اذ كانت الورقة رائعة لا من حيث جمال صياغتها ، بل من حيث انها مرسلة الى شخصية جديدة او هامة .

وحتى فى تلك الساعات التى تنطفئ فيها تماما سماء بطرسبورغ الرمادية ، وبعد ان تكون جماعة الموظفين كلها قد تعشت وشبعت ، كل منهم حسب ما يتقاضاه من مرتب وحسب رغباته الخاصة ، وبعد ان يكون الجميع قد ارتاحوا من صرير اقلام الادارات والركض بعد اداء الاعمال الخاصة واعمال الآخرين الضرورية ، بعد كل ما يكلف به الانسان الذى لا يهدأ نفسه عن طواعية ، بل وبأكثر مما ينبغى . . وعندما يسرع الموظفون الى تخصيص ما تبقى من وقت للمتعة : فالأنشط منهم ينطلق الى المسرح ، ومنهم من يخرج الى الشارع مخصصا هذا الوقت للتطلع الى بعض القبعات ، ومنهم من يذهب الى حفل ما لينفق الوقت فى

اسداء المديح لفتاة ما مليحة تعد نجمة من نجوم اوساط الموظفين الضيقة ، ومنهم من يذهب ، وهذا هو الاكثر ، الى اخيه الذى يسكن فى الطابق الرابع او الثالث ، فى شقة من غرفتين صغيرتين ومدخل او مطبخ وببعض ادعاءات الموضة كمصباح مثلا او قطعة اثاث كلفت اصحابها تضحيات كثيرة وحرمانا من وجبات الغداء والنزهات . . وباختصار فحتى فى الوقت الذى يجلس فيه الموظفون فى شقق زملائهم الصغيرة ليلعبوا الورق وهم يرشفون الشاى من الاكواب مع قطع الخبز المحمص الرخيص وينفثون الدخان من الغلايين الطويلة ويروون اثناء توزيع الورق شائعة ما وردت من المجتمع الراقى . . وباختصار فحتى عندما يسعى الجميع الى اللهو فان اكاكى اكاكيفتش لم يكن يلجأ الى اى لهو . ولا يستطيع احد ان يقول انه رآه فى وقت ما فى احدى الحفلات . فبعد ان يشبع من النسخ يأوى الى فراشه وهو يبتسم سلفا مفكرا فى يوم الغد : فغدا سيرزقه الله بشىء ما لينسخه . هكذا كانت تمضى حياة هذا الرجل الوادعة ، هذا الرجل الذى كان راضيا عن حظه بالاربعمائة روبل التى يتقاضاها فى السنة ، وربما مضت الى ارذل العمر لو لا وجود شتى المصائب المتناثرة على درب الحياة ليس فقط امام المستشارين الاعتباريين . بل والمستشارين السريين الفعليين ومستشارى البلاط * وغيرهم من المستشارين وحتى اولئك الذين لا يقدمون استشارات لأى شخص ولا يطلبون المشورة من احد .

ثمة فى بطرسبورغ عدو لدود لكل من يتقاضى اربعمائة روبل فى السنة او زهاء هذا . وهذا العدو ليس الا صقيعنا الشمالى ، بالرغم من انه يقال انه مفيد جدا للصحة . ففى بداية الساعة التاسعة صباحا ، وبالذات عندما تكتظ الشوارع بالذاهبين الى العمل يبدأ هو فى توجيه لذعات حادة قوية الى جميع الانوف دونما تمييز ، حتى ان الموظفين المساكين لا يعرفون ابدا اين يخفونها . وفى تلك الساعة يشعر حتى اولئك الذين يشغلون مناصب عليا بألم فى جباههم من البرد ، وتطفر الدموع من عيونهم ، اما المستشارون الاعتباريون المساكين فيصبحون احيانا بلا حماية .

* رتب مدنية في روسيا القيصرية .

والمخرج الوحيد هو ان يركضوا فى معاطفهم الهزيلة بأسرع ما يستطيعون ليقطعوا خمسة او ستة شوارع ، ثم يدفئون بأقدامهم جيدا فى المدخل حتى يذيبوا بهذه الطريقة كل ما تجمد فى الطريق من قدرات ومواهب على اداء الاعمال الوظيفية . ومنذ فترة قريبة بدا اكاكى اكاكيفتش يحس بوخز شديد خاصة فى ظهره وكتفه ، على الرغم من انه كان يحاول ان يقطع بأسرع ما يمكن المسافة المشروعة . واخيرا فكر : الا يرجع ذلك الى بعض العيوب فى معطفه . وعندما فحصه جيدا فى المنزل اكتشف انه اصبح فى موضعين او ثلاثة ، وبالذات عند الظهر والكتفين ، مثل الخيش تماما ، فقد رق نسيجه الى درجة ان الهواء صار ينفذ خلاله ، اما البطانة فقد تهرأت . وينبغى ان نعرف ان معطف اكاكى اكاكيفتش كان ايضا مادة لسخريات الموظفين ، بل لقد نزعوا عنه اسم المعطف النبيل وسموه قبوطا . وبالفعل فقد كان شكله غريبا . كانت ياقته تصغر عاما بعد عام لانها كانت تستخدم فى ترقيع الاجزاء الاخرى . ولم يظهر الترقيع مهارة الخياط ، فكانت الرقع تبدو قبيحة وخرقاء . وعندما عرف اكاكى اكاكيفتش حقيقة الامر قرر ان يأخذ المعطف الى بتروفتش ، الخياط الذى يقطن فى شقة ما بالطابق الرابع من ناحية سلم الخدم والذى كان رغم عوره ووجهه المجدور كله يزاول بنجاح كبير تصليح معاطف الموظفين وسراويلهم وحللهم وما الى ذلك ، بالطبع عندما يكون مفيقا وليس فى رأسه مشاريع اخرى . وما كان هذا الخياط ليستحق منا ان نتحدث عنه كثيرا ، ولكن بما ان العادة جرت ان يحدد فى القصة طبع كل شخصية بوضوح تام ، فلا حيلة اذن ، هيا قدموا لنا بتروفتش ايضا . كان فى البداية يدعى ببساطة غريغورى ، وكان من رقيق الارض عند احد السادة . ثم اصبح يدعى بتروفتش عندما أعتق واصبح يسكر بشدة فى جميع الاعياد ، فى البداية فى الاعياد الكبيرة ، وبعد ذلك دون تمييز فى جميع الاعياد الدينية وحيثما وضعت اشارة الصليب امام اى يوم من ايام التقويم .

وبينما كان اكاكى اكاكيفتش يصعد السلم المؤدى الى بتروفتش اخذ يفكر فى المبلغ الذى سيتطلبه بتروفتش وقرر فى ذهنه الا يعطيه اكثر من روبلين . كان الباب مفتوحا لان ربة

البيت تقلى سمكا ، فملأت المطبخ بالدخان الى درجة انه لم يعد من الممكن حتى رؤية الصراصير نفسها . ومر اكاكى اكاكيفتش عبر المطبخ ، حتى دون ان يلاحظ ربة البيت ذاتها ، الى ان وصل اخيرا الى غرفة رأى فيها بتروفتش جالسا على طاولة خشبية عريضة غير مطلية طاويا قدميه تحته كالباشا التركى . وكانت قدماه كعادة الخياطين الجالسين الى عملهم ، عاريتين . وأول ما لفت نظر اكاكى اكاكيفتش تلك الاصبع الكبيرة المعروفة جدا له ذات الظفر المشوه ، الاصبع السمينة القوية كصدفة السلحفاة . ومن رقبة بتروفتش تدلت ثلة من الحرير والخيوط ، وعلى ركبتيه حشو ما . كان منذ حوالى ثلاث دقائق يحاول إدخال الخيط فى ثقب الابرة ولا يستطيع ولذلك كان ساخطا على العتمة ، بل وحتى على الخيط نفسه وهو يدمدم بصوت خافت : «لا يدخل هذا الوغد ، ايها الملعون ، انهكتنى !» وشعر اكاكى اكاكيفتش بالضيق من مجيئه فى هذه اللحظة التى كان بتروفتش فيها غاضبا ، فقد كان يحسب ان يوصى بتروفتش على شىء ما عندما يكون الاخير منتعشا بعض الشىء او كما كانت زوجته تقول : «عبّ من الهياب المسكر هذا الشيطان الاعور» . ففى مثل هذه الحالة كان بتروفتش فى العادة يتنازل ويوافق عن طيب خاطر ، بل كان ينحنى كثيرا ويلهج بالشكر . صحيح ان زوجته كانت تأتى بعد ذلك وهى تعول وتشكو من ان زوجها كان آنذاك ثملا ولذلك وافق على ثمن بخس . ولكن الامر كان ينتهى بزيادة عشر كوبيكات فقط وتسوى الامور . اما الآن فيبدو ان بتروفيتش غير ثمل ، ولذلك فهو صعب المراس ، لا يلين ، وسيطلب على الارجح ثمنا باهظا . ادرك اكاكى اكاكيفتش ذلك واراد كما يقال ان يعود ادراجه . ولكنه كان قد بدا الامر . زر بتروفيتش عينه الوحيدة مسددا نظرتها الثاقبة اليه ، فتفوه اكاكى اكاكيفتش مسلوب الارادة :

– مرحبا ، يا بتروفيتش .

فقال بتروفيتش :

– مرحبا بكم ، يا سيدى ، – ونظر بطرف عينه نحو يدى اكاكى اكاكيفتش رغبة منه فى ان يعرف ما هو الصيد الذى جاء به هذا اليه .

– ها انذا قد جئت اليك ، يا بتروفيتش ، بهذا . . يعنى . .

وينبغى ان نعرف ان اكاكى اكاكيفتش كان يعبر عن افكاره فى اغلب الاحوال بحروف الجر والظروف واخيرا بالادوات التى ليس لها اى معنى على الاطلاق . اما اذا كانت المسألة صعبة جدا فقد كان من عادته الا ينهى الجملة ابدا . ولذلك كان كثيرا ما يبدأ حديثه بهذه الكلمات : «هذا فى الواقع . . يعنى تماما . .» وبعد ذلك لا يقول شيئا ، وينسى هو نفسه ، وهو يظن انه قد قال كل شىء .

– ما هذا ؟ – قال بتروفيتش وتفحص اثناء ذلك بعينه الوحيدة حلة اكاكى اكاكيفتش كلها ابتداء من الياقة حتى الاكمام والظهر والصدر والعراوى كل ما كان معروفا لديه جيدا لأنه كان من صنع يديه . تلك عادة الخياطين ، وهذا اول ما يفعله الخياط عندما يلقاك .

– وها أنذا ، يا بتروفيتش ، يعنى . . المعطف . . الجوخ . . انظر ، فى كل مكان آخر ما زال متينا ، لقد تعفر قليلا ، ويبدو وكأنه قديم ، لكنه جديد ، فقط فى مكان واحد يعنى . . على الظهر ، وايضا هنا على كتف واحدة تلف قليلا ، وعلى هذه الكتف ايضا قليلا ، أترى ، هذا كل شىء ، عمل قليل . .

اخذ بتروفتش القبوط وبسطه على الطاولة اولا وفحصه طويلا وهز رأسه ومد يده الى النافذة ليأخذ علبة السعوط المستديرة والمرسوم عليها صورة جنرال ما ، لا يعرف اى جنرال هو لأن المكان الذى كان وجهه مرسوما عليه قد ثقب وغطى بقطعة ورق مربعة واستنشق بتروفتش السعوط وبسط المعطف بين يديه وفحصه فى مواجهة النور وهز رأسه ثانية . ثم قلبه ، فجعل بطانته الى اعلى وهز رأسه من جديد ، ونزع من جديد غطاء العلبة بصورة الجنرال المغطى بورقة ، وبعد ان حشا انفه بالسعوط اغلق العلبة وخباها واخيرا قال :

– كلا ، لا يمكن اصلاحه ، ملبس بال .

احس اكاكى اكاكيفتش عند سماعه هذه الكلمات بوخزة فى قلبه .

– ولماذا لا يمكن ، يا بتروفتش ؟ – قال بصوت ضارع

كصوت الطفل تقريبا . – كل ما فيه انه اصبح خفيفا عند الكتفين ، وانت لديك حتما قطع ما .

– نعم ، يمكن ان اجد قطعا ، القطع موجودة ، – قال بتروفيتش . – لكن لا يمكن تثبيتها . النسيج مهترئ تماما . ما ان تلمسه بالابرة حتى يتفسخ .

– فليتفسخ ، اما انت فلتضع رقعة على الفور .

– ليس هناك ما توضع عليه الرقعة ، لا يوجد ما تثبت عليه ، انه مستهلك جدا . الاسم فقط جوخ ، ولكن لو هبت عليه الريح فسيتطاير .

– حاول ان تثبتها . كيف اذن فى الواقع يعنى ؟ !

– كلا ، – قال بتروفتش بحسم . – لا يمكن عمل شىء . اما المعطف فيبدو انك ستضطر الى تفصيل واحد جديد .

عند سماع كلمة «جديد» غامت عينا اكاكى اكاكيفتش واختلط امام نظره كل ما كان فى الغرفة . لم ير بوضوح سوى الجنرال بوجهه المغطى بورقة على غطاء علبة سعوط بتروفتش .

– معطف جديد . . كيف ؟ – قال وكأنما لا يزال نائما . – ليس لدى نقود لذلك .

– نعم ، جديد ، – قال بتروفتش بهدوء وحشى .

– واذا اضطررت الى معطف جديد فكيف يعنى هو . .

– تقصد كم يساوى ؟

– نعم .

– ثلاث ورقات من فئة الخمسين او اكثر قليلا سيكون عليك ان تدفع ، – قال بتروفتش وزمّ شفتيه زمة ذات مغزى . كان يحب جدا التأثيرات القوية ، كان يحب ان يربك من امامه فجأة بطريقة ما ، ثم ينظر بعد ذلك بطرف عينه الى التعبير الذى يكسو ملامح الشخص المرتبك بعد سماع كلمات الخياط .

وصرخ اكاكى اكاكيفتش المسكين :

– مائة وخمسون روبلا لمعطف ! – صرخ ربما لأول مرة فى حياته ، فقد كان معرفا دائما بصوته الخافت .

– نعم ، – قال بتروفتش . – وهذا يتوقف ايضا على نوع

المعطف . فلم وضعنا على الياقة فراء سنسار وبطنّا القلنسوة بالحرير فيصل الى المائتين .

– بتروفتش ، ارجوك ، – قال اكاكى اكاكيفتش بصوت ضارع وهو لا يسمع ولا يحاول ان يسمع ما قاله بتروفتش من كلمات وجميع تأثيراته . – اصلحه بأى شكل ، لكى استخدمه ولو فترة اخرى .

– كلا ، هذا لا يمكن . سيكون ذلك اهدارا للعمل وتضييعا للنقود عبثا ، – قال بتروفتش ، فخرج اكاكى اكاكيفتش من عنده بعد هذه الكلمات محطما تماما .

اما بتروفتش فقد ظل بعد خروجه واقفا مدة طويلة وقد زمّ شفتيه زمة ذات مغزى ، وهو لا يشرع فى العمل ، وقد ارضاه انه لم يفرط فى كرامته ، كما انه لم يخنْ فنه كخياط .

عندما خرج اكاكى اكاكيفتش الى الشارع كان كأنما فى حلم . ومضى يحدث نفسه : «يا له من امر ، يا لها من قضية . فى الحقيقة لم اكن اظن ان المسألة يعنى ستكون . .» . وبعد فترة صمت استطرد : «هكذا اذن ! هذه هى النتيجة اذن . انا فى الحقيقة لم استطع حتى ان اتوقع ان يكون هكذا» . وبعد ان صمت طويلا مرة اخرى قال : «هكذا اذن . هذا حقا غير متوقع ابدا يعنى . . ابدا لكن . . يا لها من مسالة !» وبعد ان قال ذلك وبدلا من ان يذهب الى البيت سار فى اتجاه آخر تماما ، وهو لا يدرى . وفى الطريق احتك به منظف مداخن بجنبه الملوث ، فسوّد له كتفه كلها . وانهال عليه كوم من الملاط من قمة منزل يجرى بناؤه . فلم يلاحظ ذلك كله ، وفيما بعد عندما اصطدم بالدركى الذى كان قد اسند بلطته الى جواره واخذ ينفض التبغ من علبة تبغه فوق راحته الخشنة ، عندها افاق اكاكى اكاكيفتش قليلا ، وذلك فقط لأن الحارس قال له : «ما لك تندفع مصطدما بالسحنة ، أليس امامك رصيف ؟» وقد جعله ذلك ينبه ويعود ادراجه الى المنزل . وهنا فقط بدأ يستجمع شتات افكاره ، فرأى وضعه فى صورته الحقيقية الواضحة واخذ يحدث نفسه لا بعبارات متقطعة ، بل بحكمة وصراحة كأنما يتحدث الى زميل راجع يمكن ان تفضى اليه باخص اسرار القلب . قال اكاكى اكاكيفتش : «لا ، لا

يمكن . الكلام مع بتروفتش الآن مستحيل ، فهو الآن يعنى . . يبدو ان زوجته ضربته علقة بشكل ما . الافضل ان اذهب اليه صباح الاحد . فبعد السبت سيكون زائغ النظرات ونعسان وبحاجة الى الشراب ، وزوجته لن تعطيه نقودا . وعندئذ ادس يعنى فى يده عشرة كوبيكات ، فيصبح الاتفاق معه اسهل ، وعندئذ سيأخذ المعطف يعنى . .» هكذا حدث اكاكى اكاكيفتش نفسه وشجعها ، وانتظر حلول يوم الاحد ، وعندما رأى من بعيد زوجة بتروفتش تخرج لأمر ما من المنزل ، توجه اليه مباشرة . وبالفعل كان بتروفتش بعد السبت زائغ النظرات بشدة ، ورأسه مدلى نحو الارض ، وكان نعسان جدا . ورغم كل ذلك فما ان عرف بالأمر حتى اعتدل كأنما وخزه الشيطان وقال : «لا يمكن . . فلتتكرم بتفصيل معطف جديد» . وهنا دس اكاكى اكاكيفتش فى يده عشرة كوبيكات . فقال بتروفتش : «اشكرك ، يا سيدى ، سأشرب قليلا فى صحتك . اما بخصوص المعطف فلا تقلق ، انه لا ينفع لأية منفعة . سأخيط لك معطفا جديدا عظيما ، على هذا اتفقنا» .

واراد اكاكى اكاكيفتش ان يفتح فمه ليتحدث عن التصليح ، ولكن بتروفتش لم يصغ اليه وقال : «سأخيط لك واحدا جديدا من كل بد ، وبوسعك ان تعتمد علىّ فى ذلك ، سأبذل جهدى . ومن الممكن حسب الموضة الآن ان اركب الياقة بمشابك فضية» .

وعندها ادرك اكاكى اكاكيفتش انه لا يمكن التنصل من تفصيل معطف جديد ، فانهار تماما . وبالفعل كيف يمكن ان يفصله ، بأية نقود ؟ ومن اين له ؟ بالطبع كان من الممكن الاعتماد جزئيا على المكافأة القادمة بمناسبة العيد ، ولكن هذا المبلغ قد وزع وحددت اوجه انفاقه سلفا منذ زمن بعيد . فقد كان من المطلوب اقتناء سروال جديد وتسديد دين قديم للاسكافى مقابل تركيب رقبة جديدة للحذاء القديم ، وكان عليه ايضا ان يوصى الخياطة على ثلاثة قمصان وعلى قطعتين من تلك الملابس التى لا يليق ذكر اسمها فى نص مطبوع ، وباختصار كان من المفروض انفاق المبلغ كله ، وحتى لو تكرم المدير وصرف له بدلا من الاربعين روبلا المقررة خمسة واربعين او خمسين فلن يتبقى منها مع ذلك سوى شىء تافه لن يكون فى رصيد المعطف سوى قطرة فى بحر . رغم

انه كان يعرف طبعا انه كان من عادة بتروفتش احيانا ان يطلب فجأة مبلغا لا يعقل ، حتى ان زوجته كانت لا تتمالك نفسها فتصيح به : «ماذا دهاك ، هل جننت ، ايها الاحمق ؟ ! مرة لا يرضى ان يعمل بأى حال ، والآن يدفعه الشيطان الى طلب سعر لا يساويه هو نفسه» . ورغم انه كان يعرف طبعا ان بتروفتش سيفصل له المعطف حتى مقابل ثمانين روبلا ، ومع ذلك فمن اين يأتى بالثمانين روبلا هذه ؟ ربما امكن تدبير نصف المبلغ ، نعم ، ربما وجد نصفه ، بل وربما اكثر قليلا ، ولكن من اين يأتى بالنصف الآخر ؟ . . ولكن ينبغى اولا ان يعرف القارئ من اين جاء النصف الاول . كان من عادة اكاكى اكاكيفتش ان يوفر من كل روبل ينفقه نصف كوبيك ويضعه فى صندوق صغير بقفل ذى فتحة فى غطائه لالقاء النقود فيما . وكان كل نصف عام يغير قطع النقود النحاسية المتجمعة هناك بقطع فضية . هكذا كان يفعل منذ زمن طويل ، وعلى هذا النحو تجمع لديه خلال عدة سنوات مبلغ يفوق الاربعين روبلا . وهكذا فقد كان معه نصف المبلغ ، ولكن من اين يأتى بالنصف الآخر ؟ وفكر اكاكى اكاكيفتش طويلا ، ثم قرر انه ينبغى عليه ان يخفض نفقاته العادية ، ولو خلال عام واحد على الاقل : ان يمتنع عن تناول الشاى كل مساء ، ولا يشعل الشمعة مساء ، فاذا تطلب الامر ان يعمل فليذهب الى غرفة صاحبة البيت ويعمل هناك على ضوء شمعتها وان يسير فى الشارع بأقصى ما يمكن من الخفة والحذر وهو يخطو فوق الاحجار والبلاط على اطراف اصابعه تقريبا لكى لا يبلى نعله بسرعة وان يقلل ما امكن من اعطاء ملابسه للغسالة ، وحتى لا تبلى فعليه ان يخلعها كلما عاد الى المنزل ويبقى فقط فى الروب القطنى العتيق جدا والذى رأف بحاله حتى الزمن نفسه . وللحقيقة ينبغى ان نقول انه كان من الصعب عليه الى حد ما فى البداية ان يتعود على هذه القيود ، ولكنه ألفها فيما بعد وسارت الامور على ما يرام ، بل انه تعود تماما على الجوع فى المساء وفى المقابل فقد كان يتغذى معنويا ، وهو يحمل فى خاطره الفكرة الخالدة عن المعطف المقبل . ومنذ تلك اللحظة بدا وكأن وجوده نفسه اصبح اكثر اكتمالا ، وكأنما تزوج ، كأنما اصبح يلازمه شخص ما ، كأنما لم يعد وحيدا ، بل

وافقت شريكة حياة لطيفة على ان تمضى معه فى درب الحياة ، ولم تكن شريكة الحياة تلك سوى المعطف ذى الحشوة القطنية السميكة والبطانة المتينة التى لا تعرف البلى . واصبح اكاكى اكاكيفتش اكثر حيوية ، بل واصبحت شخصيته اكثر صلابة كشخص حدد لنفسه هدفا وسعى اليه . واختفت من وجهه ومسلكه تلقائيا الشكوك والتردد اى كل الملامح المتذبذبة وغير المحددة . وكانت عيناه تتوقدان احيانا ، وكانت اكثر الخواطر جراة وجسارة تومض فى ذهنه : «فماذا لو ركّب فعلا ياقة من فراء السنسار !» وكاد التفكير فى ذلك ان يجعله نهبا لشرود الذهن . فذات مرة اوشك ان يخطئ وهو ينسخ الاوراق حتى انه صاح بصوت مسموع تقريبا : «اوه !» ورسم علامة الصليب . وكان كل شهر يزور بتروفتش مرة على الاقل لكى يتحدث عن المعطف : واين يستحسن ان يشترى الجوخ ومن اى لون وبأى ثمن ، وكان يعود من عنده مهموما بعض الشىء ، الا انه كان يعود راضيا دائما وهو يفكر فى انه سيأتى اخيرا ذلك الزمن الذى سيشترى فيه كل ذلك ويصبح المعطف جاهزا . بل لقد سارت الامور بأسرع مما كان يتوقع . فخلافا لكل الاحلام قرر المدير لأكاكى اكاكيفتش لا اربعين او خمسة واربعين روبلا ، بل ستين روبلا كاملة . وسواء احسّ المدير ان اكاكى اكاكيفتش بحاجة الى معطف ام ان ذلك حدث عفوا فقد اصبح لديه نتيجة لذلك عشرون روبلا زيادة . وعجل هذا الوضع بسير الامور . فبعد شهرين او ثلاثة من الجوع البسيط اصبح لدى اكاكى اكاكيفتش بالضبط حوالى ثمانين روبلا . وبدا قلبه الذى كان هادئا للغاية بصفة عامة ، يدق . وفى نفس اليوم ذهب مع بتروفيتش الى المحلات . وابتاعا قماشا جيدا جدا . ولا عجب . فقد كانا يفكران فى ذلك قبلها بنصف عام ، ونادرا ما مر شهر دون ان يذهبا الى المحلات للنظر فى الاسعار . وفى المقابل فقد قال بتروفتش نفسه انه ليس هناك جوخ افضل منه . واختار للبطانة قماشا بفتة ، ولكنه كان متينا وسميكا وحسب كلام بتروفتش افضل من الحرير ، بل وكان منظره ابهى واكثر لمعانا . ولم يشتريا فراء السنسار لأنه كان بالفعل غاليا ، وبدلا منه اختارا فراء قط افضل لم يجدا غيره فى المحل ،

فراء قط يمكن دائما ان تظنه فراء سنسار اذا نظرت اليه من بعيد . واستغرق بتروفتش اسبوعين فى خياطة المعطف لأنه تطلب الكثير من التنجيد ، ولو لا ذلك لفرغ منه قبل ذلك . واخذ بتروفتش اثنى عشر روبلا اجرا ، ولم يكن من الممكن اعطاؤه اقل من ذلك : فقد كانت الخياطة كلها بخيوط من الحرير وبخياطة دقيقة مزدوجة ، ومر بتروفتش على كل الخياطة بأسنانه بعد ذلك مزيلا بها شتى النتوءات . وكان ذلك فى . . من الصعب ان نقول فى اى يوم كان ذلك بالضبط ، ولكنه على الارجح كان اكثر الايام مهابة فى حياة اكاكى اكاكيفتش ، وذلك عندما جاءه بتروفتش اخيرا بالمعطف . جاء به فى الصباح بالضبط تماما قبيل الوقت الذى كان على اكاكى اكاكيفتش فيه ان يذهب الى الادارة . وجاء هذا المعطف فى وقت ليس هناك ما هو اكثر منه مناسبة : فقد بدأ بالفعل الصقيع الشديد ، وبدا انه ينذر بمزيد من البرد . وجاء بتروفتش بالمعطف كما ينبغى ان يأتى خياط جيد . فقد ظهر على وجهه تعبير اهمية لم يره اكاكى اكاكيفتش عليه من قبل قط . وبدا انه يدرك الى اقصى حد انه انجز عملا كبيرا وأنه كشف فجأة فى نفسه عن الهوة التى تفصل بين الخياطين الذين يركبون البطانات فقط ويصلحون الملابس والخياطين الذين يخيطون الملابس الجديدة . واخرج بتروفتش المعطف من المنديل الذى لفه به . وكان المنديل خارجا من ايدى الغسالة لتوه . وقد لفه بتروفتش بعد ذلك ووضعه فى جيبه للاستعمال . وبعد ان اخرج المعطف نظر اليه بزهو شديد وامسكه بكلتا يديه ، ثم القى به بمهارة شديدة على كتفى اكاكى اكاكيفتش . ثم شده وسوّاه بيده من الخلف الى اسفل . ثم مر بيده على المعطف ، وهو مسدل على كتفى اكاكى اكاكيفتش . ولكن اكاكى اكاكيفتش كرجل متقدم فى العمر اراد ان يجرب المعطف وقد ارتداه بأكمامه . فساعده بتروفتش على ارتدائه بأكمامه ، فظهر انه جيد بالأكمام ايضا . وباختصار فقد اتضح ان المعطف كان على مقاسه بالضبط . ولم ينس بتروفتش بهذه المناسبة ان يقول انه فقط لأنه يعيش بدون لافتة وفى شارع صغير وفوق ذلك يعرف اكاكى اكاكيفتش منذ فترة طويلة فقد تقاضى اجرا قليلا الى هذا الحد . اما فى شارع «نيفسكى»

فكانوا سيأخذون منه خمسة وسبعين روبلا على الخياطة فقط . ولم يشأ اكاكى اكاكيفتش ان يجادل بتروفتش فى ذلك ، وعلاوة على ذلك فقد كان يخاف من تلك المبالغ القوية التى كان يحلو لبتروفتش ان يوهم بها الزبائن . فنقده اجره وشكره وخرج على الفور فى المعطف الجديد الى الادارة . وخرج بتروفتش فى اثره ووقف فى الشارع ينظر طويلا الى المعطف من بعيد . ثم انعطف عن عمد الى حارة ملتوية لكى يختصر الطريق ويعود الى الشارع ثانية وينظر مرة اخرى الى المعطف ولكن من ناحية اخرى اى من الوجه مباشرة . بينما كان اكاكى اكاكيفتش يسير ومشاعر البهجة تغمره . كان يشعر كل لحظة بأن على كتفيه معطفا جديدا ، بل وضحك عدة مرات من السرور الداخلى . وبالفعل فقد كانت هناك منفعتان : واحدة هى انه دافئ والاخرى انه حسن . ولم يلحظ الطريق ابدا ووجد نفسه فى الادارة فجأة . وفى غرفة الحاجب خلع المعطف وتفحصه من جميع الجهات ووضعه فى رعاية الحاجب الخاصة . ولا نعرف كيف علم جميع من فى الادارة فجأة ان لدى اكاكى اكاكيفتش معطفا جديدا ، وان معطفه السابق لم يعد له وجود بعد . وفى نفس اللحظة هرول الجميع الى غرفة الحاجب ليروا معطف اكاكى اكاكيفتش الجديد . وراحوا يهنئونه ويحيونه ، حتى انه فى البداية اخذ يبتسم فقط ، ثم شعر بعد ذلك بالخجل ، وعندما اخذ الجميع ، وقد احاطوا به ، يقولون انه لا بد من تدشين المعطف الجديد وانه ينبغى عليه على الاقل ان يقيم لهم جميعا حفلا ، ارتبك اكاكى اكاكيفتش تماما ، ولم يعرف ماذا يفعل وبم يرد وكيف يتملص . وبعد بضع دقائق ، وقد احمر كله ، راح يؤكد لهم بسلامة نية ان هذا المعطف ليس جديدا ابدا وانما هكذا مجرد معطف قديم . واخيرا قال احد الموظفين ، بل كان احد مساعدى رئيس القلم ، ربما لكى يظهر انه ليس متكبرا ابدا ، بل ويتعامل مع من هم ادنى منه ، قال : «طيب ، فليكن . انا سأقيم لكم حفلا بدلا من اكاكى اكاكيفتش ، وادعوكم اليوم لتناول الشاى . واليوم بالمناسبة عيد ميلادى» . وعلى الفور هنأ الموظفون مساعد رئيس القلم وقبلوا دعوته بكل سرور . واراد اكاكى اكاكيفتش ان يعتذر ، ولكن الجميع راحوا يقولون ان ذلك لا يليق

وانه شىء معيب ومخجل ، فلم يستطع ابدا ان يرفض الدعوة . وعلى العموم فقد شعر فيما بعد بالسرور عندما تذكر ان ذلك سيتيح له فرصة السير مساء ايضا فى المعطف الجديد . وكان هذا اليوم كله بالنسبة لأكاكى اكاكيفتش كأنما اكبر وابهى عيد . وعاد الى البيت فى اسعد حالة ونزع المعطف وعلقه بحرص على الجدار ، وقد مل عينيه مرة اخرى من الجوخ والبطانة ، ثم اخرج معطفه القديم عمدا بقصد المقارنة ، ذلك المعطف الذى تهرأ تماما . تطلع اليه ، فضحك هو نفسه منه ، فما ابعد الفرق بينهما ! وظل بعد ذلك وطوال الغداء يضحك كلما خطرت له حالة معطفه السابق . وتناول الغداء بمرح ، ولم ينسخ شيئا بعد الغداء ، لم يمسك بأية اوراق ، بل تمرغ فراشه قليلا حتى هبط الظلام . ثم ارتدى المعطف دون تسويف وخرج الى الشارع . وللاسف فاننا لا نستطيع ان نقول اين كان يسكن الموظف الذى دعاه ، فقد بدأت الذاكرة تخوننا بشدة ، فاختلط علينا كل شىء فى بطرسبورغ . واندمجت كل البيوت والشوارع فى الرأس . حتى اصبح من الصعوبة بمكان ان نستخرج منها شيئا ما فى صورة متسقة . وايا كان الامر الا ان الشىء الصحيح على الاقل هو ان الموظف كان يسكن فى احسن مناطق بطرسبورغ ، وبالتالى بعيدا جدا عن اكاكى اكاكيفتش . كان على اكاكى اكاكيفتش فى البداية ان يمر عبر بعض الشوارع المقفرة ذات الاضاءة الهزيلة . ولكن بقدر اقترابه من شقة الموظف اصبحت الشوارع اكثر حيوية وحركة واضاءة . وبدأ المارة يلوحون اكثر ، ولاحت السيدات الانيقات ، وظهرت على الرجال ياقات من فراء السمور ، ولم تظهر الا نادرا الزحافات الشعبية الخشبية المليئة بالمسامير المذهبة ، وعلى العكس من ذلك كثر الحوذيون المندفعون بسرعة بطواقيهم المخملية القرمزية ، وبزحافاتهم المطلية باللاك اللامع وبالاغطية المصنوعة من جلود الدببة ، وكانت العربات ذات مقاعد الحوذية المزينة تنهب الشارع وعجلاتها تصر على الثلج . وتطلع اكاكى اكاكيفتش الى ذلك كله وكأنما يراه للمرة الاولى . اذ لم يخرج من داره مساء منذ عدة سنوات . وتوقف بفضول امام واجهة متجر مضاءة ليتفرج على لوحة كانت تصور امرأة ما جميلة تخلع حذاءها كاشفة بذلك عن ساقها كلها ،

وكانت ساقا لا بأس بها ابدا . ومن خلفها اطل من باب غرفة اخرى رجل بسالفين ولحية جميلة تحت شفته . وهـزّ اكاكى اكاكيفتش راسه وضحك ضحكة قصيرة ، ثم مضى فى حال سبيله . فهل يـا ترى ضحك لانه راى شيئا غير معروف له ، ولكنه مع ذلك يترك فى نفس كل من يراه حدسا ما ، ام انه ضحك لانه فكر مثـل كثيرين من الموظفين بهذه الصورة : «آه مـن هؤلاء الفرنسيين ! ماذا بوسعك ان تقول . . فهـم اذا ارادوا شيئا ما يعنى فهـو بالضبط يعنى . .» وربما لم يفكر حتى فى هذا ، فمن الصعب ان تقحم نفسك فى دخيلة انسان ما لتعرف فيم يفكر . واخيرا وصـل الى البيت الذى كان يقطنه مساعد رئيس القلم .

كان مساعد رئيس القلم يحيا فى بحبوحة من العيش : فعـلى سلم المدخل كان مصباح مضاء ، وكانت شقته فى الطابق الثانى . وعندما دخل اكاكى اكاكيفتش الى الردهة راى على الارض صفوفا من الخفوف . وبينها ، فى وسط الغرفة كان هناك سماور يغلى وينفث سحبا من البخار . وعلى الجدران علقت معاطف وأردية . كان مـن بينها معاطف بياقات من فراء السمور او بطيات صدور من المخمل . وتناهى من وراء الجدار صخب ولغط اصبحا فجأة واضحين ورنانين عندما فتح الباب وخرج منه خادم يحمل صينيـة غاصة بالأكواب الفارغة ودورق حليب وسلة خبز مجفف . وكان واضحا ان الموظفين مجتمعون مدة طويلة وقد شربوا اول كوب شاى . وبعد ان علـق اكاكى اكاكيفتش معطفه بنفسه دخل الغرفة ، وفى نفس الوقـت لاحت امام ناظريه الشموع والموظفـون والغلايين وموائد لعب الورق ، واصم سمعه حديث متصاعد من جميع الجهات وجلبة مقاعد يحركونها . فتوقف فى وسط الغرفة مرتبكا تماما ، وهو يبحـث ويحاول ان يجد لنفسه شيئا يفعلـه . ولكنهم كانوا قد لاحظوا وجوده ، فاستقبلوه بالصياح ومضوا على الفور الى الردهة وتفرجوا على معطفه مرة اخرى . ورغم ان اكاكى اكاكيفتش كان محرجا بعض الشىء ، ولكنه ، اذ كان شخصا سليم النية ، لـم يستطع الا ان يفرح ، وهو يرى ان الجميع يمتدحون المعطف . وبعد ذلك بالطبع تركوه ومعطفه واتجهوا كما هو متبع الى موائد لعب الورق . وكان كل ذلك : الصخب واللغط وهذا الحشد من الناس ، كان كل ذلك

عجيبا بالنسبة لأكاكى اكاكيفتش . لم يكن يدرى كيف يتصرف ولا ماذا يفعل بيديه وساقيه وجسمه كله . واخيرا جلس الى اللاعبين وتطلع الى اوراق اللعب وحدق فى وجه هذا وذلك وبعد فترة من الوقت بدأ يتثاءب ويشعر بالملل خاصة وانه قد حان منذ زمـن بعيد الموعد الذى كان عادة يأوى فيـه الى الفراش . واراد ان يستأذن من رب الدار فى الانصراف ، ولكنهم لم يسمحوا لـه قائلين انه لا بد من تنـاول كأس شمبانيا بمناسبة المعطـف الجديد . وبعد ساعة قدموا العشاء المكون من سلطة روسية ولحم عجول بارد وكبد مهروس وقطع جاتوه وشمبانيا . واجبروا اكاكى اكاكيفتش على شرب كأسين من الشمبانيا احس بعدهما ان الجو فى الغرفة اصبح اكثر مرحا ، الا انه لم يستطع ابـدا ان ينسى ان الساعة بلغت الثانية عشرة وان وقت عودته الى البيت قد حان منذ زمن بعيد . ولكيلا يحاول صاحب البيت ان يستبقيه بطريقة مـا خرج اكاكى اكاكيفتش من الغرفة بهدوء وبحث عن معطفه فـى الردهة ، فوجده للأسف ملقى على الارض ، فتناوله ونفضه ونزع منه كل ما علق به من زغب ووضعه على كتفيه ونزل على السلم الى الشارع . كان الشارع لا يزال مضيئا . وكانت بعض المتاجـر الصغيرة ، هذه النوادى الدائمة للبوابين وغيرهم مـن الناس ، لا تزال مفتوحة ، اما البعض الآخر المغلق فكان يصدر عنه رغم ذلك شريط ضوء طويل عبر شق الباب كله ، الأمر الذى كان يدل على انها لم تخل بعد من تجمع بشرى ، اذ يبدو ان البوابين والسيّاس او الخدم يوشكون على الفراغ مـن احاديثهم ورواياتهم موقعين اسيادهم فى حيرة كاملة بخصوص اماكـن تواجدهم . سار اكاكى اكاكيفتش مرح النفس حتى انه هم بالركض فجـأة لسبب مجهول وراء سيدة ما مرقت بجواره كالبرق ، وكان كل طرف مـن اطراف جسدها مفعما بحركة غير عادية . الا انه مع ذلـك توقف على الفور وسار كما فى السابق بهدوء شديد ودهش هو نفسه من ركضه الذى لا يعرف من اين حل عليه . وسرعان ما امتدت امامه تلك الشوارع الخاوية التى لا تتسم بمرح خاص حتى فى النهار ، فما بالـك بالمساء . لقد اصبحت الآن اكثر خواء وعزلة . ووميضت المصابيح اضعف ، اذ يبدو ان الزيت فيها اصبح قليـلا ، وبدأت تلوح

المنازل الخشبية والاسيجة . ولم يكن هناك احد على الاطلاق . الثلج فقط هو الذى كان يلمع فى الشوارع ، ولاحت الاشباح السوداء الحزينة للأكواخ المنخفضة النائمة بنوافذها الموصدة الشيش . واقترب من ذلك المكان الذى كان الشارع يتقاطع فيه مع ميدان لا نهاية له لا تكاد المنازل تبين فى طرفه الآخر . وكان هذا الميدان يبدو كصحراء رهيبة .

ومن بعيد ، من مكان لا يعلمه الا الله ، ومض ضوء فى كشك حراسة بدا وكأنه قائم فى آخر الدنيا . وهنا انخفض مرح اكاكى اكاكيفتش الى حد كبير . ودخل الميدان باحساس لاارادى بالخوف كأنما كان قلبه يحدسه بشر . ونظر خلفه وتلفت حواليه . فبدا ما حوله وكأنه بحر . فقال فى نفسه : «كلا ، من الافضل الا انظر» ، — وسار مغمض العينين ، وعندما فتحهما ليعرف هل اوشك الميدان على الانتهاء ام لا ، رأى امامه فجأة ، تحت انفه تقريبا ، شخصين ما بشوارب ، ولكنه لم يستطع حتى ان يميز اى شخصين هما . وغامت عيناه وخفق قلبه بعنف . «ولكن هذا المعطف معطفى !» — قال احدهما بصوت راعد وامسك بياقة معطفه . واراد اكاكى اكاكيفتش ان يصرخ : «النجدة !» ، ولكن الآخر دسّ امام فمه مباشرة قبضة بحجم رأس موظف ودمدم : «حاول ان تصرخ» . ولم يشعر اكاكى اكاكيفتش الا وهما ينزعان عنه المعطف ، ثم ركلاه ركلة قوية ، فسقط على وجهه فوق الثلج ، ولم يعد يشعر بشىء اكثر من ذلك . وبعد بضع دقائق عاد الى وعيه ، فنهض على قدميه . ، ولكن لم يكن هناك احد . واحس ان الجو بارد وان المعطف ليس موجودا ، فأخذ يصرخ ، ولكن صوته كما بدا لم يكن ينوى ان يبلغ آخر الميدان . فانطلق اكاكى اكاكيفتش يركض فى يأس ، وهو لا يكف عن الصراخ ، متجها ، عبر الميدان الى كشك الحراسة مباشرة حيث كان الدركى يقف متكئا على البلطة . وهو يتطلع فيما يبدو بفضول ويريد ان يعرف اى شيطان دفع هذا الشخص الى الركض نحوه صارخا من بعيد . وعندما بلغه اكاكى اكاكيفتش راح يصرخ بصوت مختنق بأنه نائم ولا يحرس شيئا ولا يرى كيف ينهبون الناس . فأجاب الدركى بأنه لم ير شيئا وانه رأى كيف استوقفه شخصان وسط

الميدان ، ولكنه ظن انهما من معارفه . وانه بدلا من السباب عبثا فمن الافضل ان يذهب غدا الى المفتش ، وسيعثر المفتش على من سرق المعطف . وعاد اكاكى اكاكيفتش الى المنزل فى اضطراب تام ، فقد تبعثر شعره الذى تبقى لديه بكمية صغيرة عند صدغيه ومؤخرة رأسه ، وكان جنبه وصدره وسرواله ملوثة بالثلج كلها . وعندما سمعت العجوز ، صاحبة شقته دقا رهيبا على الباب نهضت من فراشها على عجل وركضت بفردة شبشب واحدة فى قدمها لتفتح الباب وقد شدت بإحدى يديها القميص على صدرها من التواضع . ولكن عندما فتحت الباب تراجعت الى الخلف اذ رات اكاكى اكاكيفتش فى هذه الهيئة . وعندما قص عليها ما حدث له اشاحت بيديها واشارت عليه بأن يذهب مباشرة الى مأمور القسم ، لأن شرطى الحى سيخدعه ، فسيعده بالبحث ، ثم يماطل بعد ذلك . افضل شىء ان يذهب الى المأمور مباشرة ، بل انها تعرف المأمور لأن آنا الفنلندية التى كانت تعمل عندها طاهية ، اصبحت تعمل الآن عند المأمور مربية ، كما انها كثيرا ما تراه شخصيا عندما يمر بجوار منزلهم ، كما انه يتردد على الكنيسة كل أحد ليصلى وفى الوقت نفسه يتطلع الى الجميع بمرح ، ولذلك فهو على ما يبدو رجل طيب . وبعد ان سمع اكاكى اكاكيفتش هذا القرار جر ساقيه حزينا الى غرفته . اما كيف قضى ليلته فلنترك الحكم على ذلك لمن يستطيع ان يتخيل ولو الى حد ما وضع شخص آخر . وفى الصباح الباكر مضى الى المأمور . فقيل له انه نائم . وعاد فى العاشرة ، فقيل له ثانية انه نائم . فعاد فى الحادية عشرة ، فقيل له ان المأمور غادر البيت . فعاد ساعة الغداء ، الا ان الكتبة فى المدخل لم يريدوا ان يسمحوا له بالدخول واصروا على ان يعرفوا الغرض من زيارته وماذا يريد وماذا حدث . لكن اكاكى اكاكيفتش اراد اخيرا ان يبدى صلابة ولو مرة فى حياته ، فقال بلهجة قاطعة انه يريد مقابلة المأمور نفسه وانهم لا يملكون الحق ان يمنعوه من مقابلته وانه جاء من الادارة فى عمل رسمى وانه سوف يشكوهم وعندئذ سيرون . ولم يستطع الكتبة ان يقولوا شيئا امام ذلك . فذهب احدهم لاستدعاء المأمور . وكان موقف المأمور من روايته عن السرقة غريبا للغاية . فبدلا من ان

يوجه اهتمامه الى النقطة الاساسية فى الموضوع راح يسأل اكاكى اكاكيفتش لماذا عاد فى هذه الساعة المتأخرة وألم يعرج فى الطريق على احد المنازل المشبوهة حتى ان اكاكى اكاكيفتش احرج تماما وخرج من عنده ، وهو لا يعرف هل ستستير قضية معطفه كما ينبغى ام لا . لقد قضى هذا النهار كله غائبا عن العمل (المرة الوحيدة فى حياته) . وفى اليوم التالى جاء شاحبا وفى قبوطه القديم الذى اصبح اكثر بؤسا . وهزت قصة سرقة المعطف قلوب الكثيرين بالرغم من انه كان هناك بعض الموظفين الذين لم يتورعوا حتى فى هذه المناسبة عن السخرية باكاكى اكاكيفتش . وقرروا على الفور ان يجمعوا له تبرعا ، الا انهم جمعوا مبلغا تافها لان الموظفين كانوا قد انفقوا الكثير فى الاكتتاب لرسم صورة للمدير وفى شراء كتاب ما اقترحه عليهم رئيس القسم الذى كان صديقا للمؤلف . وهكذا جمعوا مبلغا تافها للغاية . وقرر احدهم بوازع من الشفقة ان يساعد اكاكى اكاكيفتش على الاقل بنصيحة طيبة ، فأشار عليه بألا يذهب الى شرطى الحى ، اذ بالرغم من انه قد يحدث ان يتمكن الشرطى رغبة منه فى كسب تقدير الرؤساء من العثور على المعطف بطريقة ما ، لكن المعطف مع ذلك سيبقى فى قسم البوليس ما لم يقدم اكاكى اكاكيفتش ادلة قانونية على ملكيته له . افضل شىء ان يقصد احدى **الشخصيات الهامة** ، فهذه **الشخصية الهامة** تستطيع بالاتصال ومخاطبة من ينبغى ان تدفع القضية بنجاح اكبر . ولم يكن امام اكاكى اكاكيفتش من مفر ، فقرر ان يقصد **الشخصية الهامة** . ولكن ما هى وظيفة هذه الشخصية الهامة وما هى طبيعة هذه الوظيفة فهذا ما ظل مجهولا حتى الآن . انما ينبغى ان نعلم ان احدى **الشخصيات الهامة** اصبح منذ فترة قريبة **شخصية هامة** ، اما قبل ذلك فكان شخصية غير هامة . على اية حال فان منصبه لا يعتبر حتى الآن هاما بالمقارنة مع المناصب الاخرى الاكثر اهمية . غير انك ستجد دائما دائرة من الناس الذين يعتبرون مهما ما يبدو فى عيون الآخرين غير مهم . على اية حال حاول هذه الشخصية الهامة ان يزيد من اهميته بوسائل اخرى كثيرة ، وبالتحديد فقد عمل على ان يستقبله الموظفون الصغار على السلم ساعة حضوره الى وظيفته والا يجرؤ

احد على الدخول اليه مباشرة ، بل يمضى كل شىء وفق نظام صارم : ان يبلغ المساعد الاعتبارى سكرتير المحافظ ، ويبلغ سكرتير المحافظ المستشار الاعتبارى او شخصا آخر ، وبهذه الطريقة يبلغ الامر اليه . هكذا تنتشر عدوى التقليد الى كل شىء فى روسيا المقدسة ، ويحاول كل شخص ان يقلد رئيسه ويتشبه به . بل انه يقال ان مستشارا اعتباريا ما عندما عينوه رئيسا لاحدى الادارات الصغيرة المستقلة ، اقتطع لنفسه على الفور غرفة خاصة وسماها «غرفة الحضور» ووضع على بابها حجابا ما بياقات حمراء ، كانوا يمسكون بمقبض الباب ويفتحونه امام كل وافد على الرغم من ان «غرفة الحضور» كانت لا تتسع الا بالكاد لطاولة مكتب عادية . لقد كانت اساليب وعادات **الشخصية الهامة** رصينة ومهيبة ولكن دون تعقيد . كانت الصرامة هى القاعدة الاساسية لنظامه . وكان يقول عادة : «الصرامة والصرامة ، ثم الصرامة» وعند الكلمة الاخيرة يحدق فى العادة بأهمية فى وجه من يخاطبه . رغم ان ذلك على اية حال لم يكن له ادنى مبرر لان الموظفين العشرة الذين كانوا يشكلون كل الجهاز الحكومى للادارة ، كانوا حتى بدون ذلك مرعوبين بدرجة كافية . فما ان يروه من بعيد حتى يتركوا عنهم اعمالهم ويقفوا فى انتباه منتظرين حتى يمر الرئيس عبر الغرفة . وكان حديثه العادى مع مرؤوسيه يتسم بالصرامة ويتألف تقريبا من ثلاث جمل : «كيف تجرؤ ؟ هل تعلم مع من تتحدث ؟ هل تفهم امام من تقف ؟» على اية حال كان فى قرارته رجلا طيبا ، لطيفا مع رفاقه ، خدوما ، الا ان رتبة الجنرال افقدته توازنه . فما ان حصل على رتبة الجنرال حتى ارتبك وضل طريقه ولم يعرف ابدا كيف يتصرف . فاذا حدث ان اجتمع مع اناس من مستواه كان يبدو انسانا وكما ينبغى انسانا مستقيما جدا ، بل وحتى انسانا غير غبى فى كثير من النواحى . ولكن ما ان يتواجد فى مجتمع فيه اشخاص ادنى منه ولو برتبة واحدة حتى يصبح شخصا لا امل منه : كان يركن الى الصمت ، ويثير وضعه الشفقة ، خاصة وانه هو نفسه كان يشعر بأنه كان من الممكن ان يقضى وقته بصورة افضل بكثير . وكانت تتبدى فى عينيه احيانا رغبة قوية المشاركة فى احد الاحاديث او الانضمام الى احدى الحلقات الشيقة ، فتصده عن

تقريبا . اما الشخصية الهامة ، وقد ارضاه ان تاثير كلماته فاق حتى توقعاته ، وانتشى من فكرة ان كلمته قد تفقد الانسان وعيه ، فنظر بطرف عينه الى صديقه ليعرف كيف ينظر الى مـــا حدث ، فرأى باحساس لا يخلو من المتعة ان صديقه فى حالة من القلق البالغ . بل وبدا يشعر بالخوف .

لم يذكر اكاكى اكاكيفتش مطلقا كيف نزل على الدرج وخرج الى الشارع . ولم يكن يحس لا بيديه ولا بساقيه . لم يحدث له فى حياته ان نهره جنرال بهذا العنف . وعلاوة على ذلك جنرال ليس رئيسه . فسار فى العاصفة الثلجية التى كانت تعربد فى الشوارع فاغرا فاه ، وهو يتخبط بين الارصفة . وهبت عليه الريح ، كما العادة فى بطرسبورغ ، من الجهات الاربع كلها ومن جميع الحوارى . وعلى الفور اصيب من البرد بورم فى زوره ، وعندما وصل الى البيت لم يكن فى وسعه حتى ان يتفوه بكلمة . وتورم بدنه كله ، فرقد فى الفراش . الى هذه الدرجة يكون التعنيف قويا احيانا ! وفى اليوم التالى اصيب بحمى شديدة . وبفضل مساعدة جو بطرسبورغ الرحيم سار المرض بأسرع من المتوقع ، وعندما جاء الطبيب ، فجس نبضه ، لم يجد ما يشير به سوى الكمادات ، وذلك فقط حتى لا يبقى المريض بدون عناية الطب الخيرة . وعلى العموم فقد اعلن الطبيب ساعتها ان نهايته المؤكدة ستحل بعد يوم ونصف . وبعد ذلك قال لربة الدار : «اما انت ، يا سيدتى ، فلا تضيعى الوقت وجهزى له من الآن تابوتا من خشب الصنوبر ، لأن خشب البلوط سيكون غاليا بالنسبة له» . فهل سمع اكاكى اكاكيفتش هذه الكلمات المشؤومة ، واذا سمعها فهل كان لها عليه تاثير مذهل ، وهل شعر بالأسى على حياته الشقية . . نحن لا نعرف عن ذلك شيئـــا لأن اكاكى اكاكيفتش كان طوال الوقت يهذى فى غيبوبـــة الحمى . وتوالت على ذهنه الرؤى بلا انقطاع ، كل رؤيا اغرب من سابقتها : فمرة يرى الخياط بتروفتش ، فيوصيه بتفصيـــل معطف بفخاخ للصوص الذين كانوا يبدون له طوال الوقت تحت السرير ، فكان يدعو ربة الدار كل لحظة لتنتشل لصا حتى من تحت البطانية . وتارة كان يسأل لماذا يعلقون قبوطه القديم امامه ، فلديه معطف جديد . وتارة يخيل اليه انه يقف امام الجنرال يصغى الى تعنيفه

وهو يقول : «آسف ، يا صاحب المعالى» . وتارة ، واخيرا ، كان يسب متفوها بأفظع الكلمات حتى ان ربة الدار العجوز كانت ترسم علامة الصليب ، اذ لم تسمع منه قبلا كلمات كهذه ابدا ، خاصة وان هذه الكلمات كانت تاتى مباشرة بعد عبارة «يا صاحب المعالى» . وبعد ذلك كان يهذى بأشياء لا معنى لها تماما . فلم يكن يفهم منها شىء . الامر الوحيد الذى كان يبدو واضحا ان هذه الكلمات والافكار المشوشة كانت تدور حول المعطف فقط . واخيرا لفظ اكاكى اكاكيفتش المسكين آخر انفاسه . ولم توصد غرفته او ممتلكاته بالأختام لأنه اولا : لم يكن هناك ورثة ، وثانيا : لم يتبق لديه من الميراث الا القليل . وخلت بطرسبورغ من اكاكى اكاكيفتش وكأنما لم يكن موجودا فيها ابدا . اختفى وغاب ذلـــك المخلوق الذى لم يكن له من يحميـــه والذى لم يكن عزيزا على احـــد ولا شيقا بالنسبة لأحد والذى لم يجذب اليه انتباه حتى عالـــم الطبيعة الذى لا يدع ذبابة عادية دون ان يغرس فيها دبوســـا ويفحصها تحـــت المجهر . . ذلك المخلوق الـــذى تحمل باذعان سخريات الكتبة الموظفين والذى واراه التراب دونما علة خارقة . ولكنه مع ذلك ولو قبيل نهاية عمره زاره ضيف جميـــل فـــى صورة معطف بعث الحيوية ولو للحظة فى تلك الحياة البائســـة . ذلك المخلوق الذى دهمته فيما بعد الكارثة القاسية كما دهمـت القياصرة والحكام . . وبعد بضعة ايام من وفاتـــه ارسلـــوا حارسا من الادارة الى شقته ليأمره بالحضـــور فورا ، فالرئيس يطلبه . ولكن كان على الحارس ان يعود صفر اليدين قائلا انه لا يستطيع بعد الآن ان يأتى . وعلى السؤال «لماذا ؟» اجاب بالكلمات التالية : «هكذا ، فقد مات ودفن منذ اربعة ايام» . وهكذا علموا فى الادارة بوفاة اكاكى اكاكيفتش ، وفى اليوم التالى كان يجلس فى مكانه موظف جديد ، اطول منه قامة بكثير ، يكتب الحروف بخط ليس باستقامة خط اكاكى اكاكيفتش ، بل بميل وانحراف اكثر .

ولكن من كان يتصور ان هذا ليس كل شىء عن اكاكى اكاكيفتش وانه كان مقدرا له ان يعيش عدة ايام صاخبة بعد وفاته ، وكأنما مكافأة له على حياته التى لم ينتبه اليها احد ؟ ولكن هذا ما حدث ، وها هى روايتنا البائسة تنتهى فجأة نهاية خيالية . فقد انتشرت فى

بطرسبورغ فجأة شائعات تقول بانه عند جسر «كالينكين» وفيما وراءه بكثير يظهر فى الليالى ميت فى صورة موظف يبحث عن معطف مسروق ، وبحجة هذا المعطف المسروق ينتزع كافة المعاطف من على جميع الاكتاف غير آبه باللقب او الرتبة ، سواء كانت بياقات من فراء القطط او السمور او مبطنة بالقطن او معاطف فراء من جلد الثعالب او الدببة ، وباختصار كافة انواع الفراء والجلود التى ابتكرها البشر ليستروا بها انفسهم . وقد رأى احد موظفى الادارات بعينيه ذلك الميت وعرف فيه على الفور اكاكى اكاكيفتش . بيد ان ذلك اصابه بفزع شديد حتى انه ولى هاربا بكل قواه ، ولهذا لم يتمكن من التدقيق جيدا ، بل رآه فقط ، وهو يلوح له من بعيد باصبعه مهددا . وصدرت الاوامر للشرطة بالقبض على الميت بأية وسيلة حيا او ميتا ومعاقبته اقسى عقاب ليكون عبرة للآخرين ، وكادوا ان يفلحوا فى ذلك . ولكننا مع ذلك تركنا عنا تماما **تلك الشخصية الهامة** والذى يكاد ان يكون فى الحقيقة سبب الاتجاه الخيالى الذى سارت فيه هذه القصة ، الحقيقية تماما على اية حال . ان واجب العدالة يتطلب منا قبل كل شىء ان نقول ان **الشخصية الهامة** سرعان ما احس بنوع من الاسف بعد انصراف اكاكى اكاكيفتش المسكين الذى نزل به ذلك التعنيف القاسى . فلم يكن الاحساس بالشفقة غريبا عليه ، وكان قلبه قادرا على ابداء كثير من المشاعر الطيبة ، على الرغم من ان رتبته كانت تعوقه كثيرا عن البوح بها . فما ان خرج زميله الزائر من غرفة مكتبه حتى انصرف تفكيره الى اكاكى اكاكيفتش المسكين . ومنذ تلك اللحظة كان يتخيل كل يوم تقريبا اكاكى اكاكيفتش الشاحب الذى لم يتحمل تعنيفه الصارم . واقلقه التفكير فيه الى درجة انه قرر بعد اسبوع ان يرسل اليه موظفا ليعرف احواله وهل يستطيع حقا ان يساعده بطريقة ما . وعندما ابلغوا ان اكاكى اكاكيفتش قد عاجله الموت مصابا بالحمى اعتراه الذهول ، وسمع صوت ضميره يؤنبه وظل طول اليوم معتل المزاج . واراد ان يسرى عن نفسه بصورة ما وينسى ذلك الانطباع المقبض ، فتوجه ليقضى المساء عند احد زملائه الذى وجد عنده جماعة محترمة ، والاهم من ذلك ان الجميع هناك كانوا من نفس الرتبة

تقريبا ، فلم يكن ثمة شىء يقيد تصرفاته . وكان لذلك تاثير مدهش على حالته النفسية ، فانطلق واصبح لطيفا فى حديثه ، ولبقا ، وباختصار قضى المساء على نحو طيب للغاية . وعلى العشاء شرب كاسى شمبانيا ، تلك الوسيلة المؤثرة تاثيرا لا بأس به فيما يخص المرح كما هو معروف . ومنحته الشمبانيا ميلا الى شتى انواع المفاجآت ، وبالتحديد فقد قرر الا يعود الى المنزل ، بل يمضى الى سيدة معروفة تدعى كارولينا ايفانوفنا ، وهى سيدة فيما يبدو من اصل المانى ، كان يكنّ لها مشاعر صداقة محضة ، ومن الجدير بالذكر ان الشخصية الهامة كان رجلا قد جاوز الشباب وزوجا طيبا ورب اسرة محترما . وكان ابناه ، واحدهما يعمل عنده فى الادارة ، وابنته اللطيفة البالغة ستة عشر عاما وذات الانف الاعقف قليلا ، ولكنه انف جميل ، كانا يقبلان عليه كل يوم ليلثما يده قائلين « bonjour, papa » . اما قرينته ، وهى امرأة لا تزال نضرة ، بل وحتى ليس فيها ما يعيب ، فكانت تعطيه يدها اولا ليلثمها ثم تقلبها على الوجه الآخر لتقبل يده هو . ولكن الشخصية الهامة الذى كان على اية حال راضيا تماما عن الملاطفات العائلية المنزلية ، وجد من اللائق ان تكون له صاحبة للعلاقات الودية فى القسم الآخر من المدينة . ولم تكن هذه الصاحبة افضل او اصغر سنا من زوجته ، ولكن مثل هذه الألغاز توجد فى الدنيا ، وليس من شأننا ان نناقشها . وهكذا هبط الشخصية الهامة على الدرج واستقل الزحافة وقال للحوذى : «الى كارولينا ايفانوفنا» ، اما هو فتغطى بالمعطف الدافئ فى جلسة وثيرة للغاية وبقى فى ذلك الوضع اللطيف . وتذكر وهو فى غاية الرضا كل اللحظات المرحة فى الامسية التى قضاها ، وكل الكلمات التى اثارت ضحكات تلك المجموعة الصغيرة ، وردد كثيرا منها بصوت خافت ، فوجدها جميعا مضحكة كما كانت ، ولذلك فليس من الغريب ان يضحك هو نفسه من كل قلبه . ومع ذلك كانت تنغص عليه احيانا ريح حارة متقطعة تهب فجأة من حيث لا يعلم الا الله ولسبب لا يدريه احد ، فتلهب وجهه وتلقى عليه بقطع من الثلج وتنشر كما الشراع ياقة المعطف او تلقى بها فجأة بقوة رهيبة على رأسه ، فتكلفه عناء لا ينتهى فى محاولة التخلص منها . وفجأة احس الشخصية الهامة بأحد ما يمسك بياقة

معطفه بقوة . وعندما التفت رأى رجلا قصير القامة فى معطف رسمى قديم مهترئ ، فعرف فيه لرعبه اكاكى اكاكيفتش . كان وجه الموظف شاحبا بلون الثلج ، وبدا ميتا تماما . ولكن رعب الشخصية الهامة فاق كل الحدود عندما رأى فم الميت يلتوى منفرجا وتهب منه عليه رائحة القبور الرهيبة ويلفظ هذه الكلمات : «آه ! هـــا انت ذا اخيرا ! اخيرا انا ، يعنى ، امسكت بك من ياقتك ! معطفك بالذات هو ما احتاج اليه ! لم تسع لاسترداد معطفى ، بل وعنفتنى . حسنا . هات الآن معطفك !» وكاد **الشخصية الهامـــة** المسكين ان يموت . احس برعب شديد الى درجة انه بدأ يخشى ، وليس دون مبرر ، من ان تكون قد اصابته نوبة نفسية . واسرع الى نزع معطفه بنفسه عن كتفيه وصرخ فى الحوذى بصوت غير طبيعى : «اسرع الى بيت بكل قواك !» . وعندما سمع الحوذى نبرة الصوت التى لا تتردد عادة الا فى المواقف الحاسمة ، بل وتصاحبها حركات اكثر فعالية ، دفن راسه بين كتفيه تحوطا ، ولوح بالسوط واندفع بالعربة كالسهم. وبعد ست دقائق او اكثر قليلا كان الشخصية الهامة امام مدخل بيته . وصل شاحبا ، مفزوعا وبلا معطف الى بيته بدلا من ان يصل الى كارولينا ايفانوفنا ، وجر ساقيه كيفما اتفـــق حتى وصل الى غرفته ، وقضى ليلته فى اضطراب شديد حتى ان ابنته قالت له فى صباح اليوم التالى ، وهم يتناولون الشاى : «انت اليوم شاحب جدا ، يا بابا» ولكن بابا لزم الصمت . ولم يخبر احدا بما حدث له واين كان والى اين كان ينوى الذهاب . لقد ترك هذا الحادث اثرا قويا فى نفسه . بل انـــه اصبح نادرا عن ذى قبل مـــا يقول لمرؤوسيه : «كيف تجرؤ ، هل تفهـــم امام من انت» ، وحتى اذا قالها فما كان يفعل الا بعد ان يستمع اولا الى شرح للموضوع . ولكن الامر الاجدر بالملاحظة انه منذ تلك الساعة كف الميت الموظف تماما عن الظهور ، اذ يبدو ان معطف الجنرال جاء مناسبا له جدا . على اية حال لم يعد يتردد ان احدا مـــا ينتزع المعاطف من على الاكتاف . ولكن كثيرا من رجال الاعمال الحريصين لم يريدوا ابدا ان يركنوا الى الطمانينة وراحوا يرددون بأن الميت الموظف ما زال يظهر فى اطراف المدينة البعيدة . وبالفعـــل فقد رأى احد رجال الدرك فى حى «كولومنسكى» بعينيه شبحا يظهر من خلف احـــد

المنازل . بيد انه لم يتمكن من ايقاف الشبح ، بل سار خلفه فى الظلام الى ان التفت الشبح خلفه اخيرا وتوقف وسألـــه : «ماذا تريد ؟» واظهر له قبضة لا تجد لهـــا مثيلا لدى الاحياء . فقال الدركى : «لا شى» وعاد ادراجه من فوره . بيد ان الشبح مع ذلك كان اطول بكثير ويحمل شوارب هائلة ، ومضى متجها كما بدا نحو جسر «اوبوخوف» ، ثم اختفى تماما فى ظلام الليل .

مذكرات مجنون

٣ تشرين الأول

اليوم وقع حادث فريد . استيقظت في الصباح متأخراً الى حد ما . وحين جلبت لي مافرا حذائـــي المنظّف سألتها عن الساعة . فعلمت انها قد تجاوزت العاشرة كثيراً . اسرعت فارتديت ثيابي . واقولها صراحة ما كنت سأذهب الى الدائرة قطعاً ، وانا اعرف مسبقاً بأية جهامة سيقابلني رئيس القسم . انه منذ زمان يقول لي : «ما لراسك ، يا اخ ، دائماً في هرجلة ؟ مرة تتخبط كالمخبول ، وتخلط بالأوراق فلا يستطيع أن يفرزها حتى الشيطان نفسه ، وتضع على راس الورقة حرفاً صغيراً بلا تاريخ ولا رقم» . مالك حزين لعين ! اعتقد انه يحسدني لأنني اجلس في مكتـــب المدير أبرو الريش لسعادته . على العموم ، ما كنت سأذهب الى الدائرة لو لا أملي في ان التقى بالمحاسب ، واطلب من هـــذا الزنديق ، لعلّ وعسى ان يسلفني شيئاً على مرتبي مقدما . هذا أيضاً خلقة من خلـــق الله ! وهل حسبته أعطى سلفة على المرتب ذات يوم ؟ حاشا لله ، يأتي يوم القيامة اقرب من ذلك اليوم . لن يفعل مهما حاولت ، ولو كنت في أشد ضائقة . لن يفعل ، هذا الابليس الأشيب . بينما طباخته في شقته تصفعه على هذا الخد وعلى ذاك . والدنيا كلها تعلم بذلك . أنا لا افهم الفائدة من الخدمة في دائرة حكومية حيث لا موارد على الاطلاق . بينما الأمر يختلف تماماً في حاكمية الولاية ،

والمصالح المدنيـــة والجبايات . فترى هناك من انزوى في اقصى الزاوية يكتب . وسترة الفراك التي عليه حقيرة ، وسحنته تقززك ، ولكنه يستأجر بيتاً ريفياً معتبراً . لا يقبل منك حتى قدحاً من الصيني المذهب ، قائلاً لك : «هذه هدية يمكنك ان تقدمها لطبيب» . اما هو فيهدى له زوج من الخيول المطهمّة ، او عربة ركوب صغيرة ، او فراء قندس يساوى ثلاثمائة روبل لا أقـــل . تراه في مظهره هادئاً ، يتكلم بلطف : «اعرني من فضلك سكينا لبري الريشة» . بينما هو يبرى المراجع بريا حتى لا يبقى عليه غير قميصه . ولكن مقابل ذلك يمتاز عملنا بالاحترام حقاً ، والنظافة في كل شيء في الدائرة لن تجده أبداً في حاكمية الولاية : المكاتب من الخشب الأحمـر ، وجميع الرؤوساء يخاطبونك بصيغة الجمع . نعـــم ، أقول لكـــم بصراحة لولا احترامية العمل هذه لكنت قد تركت الدائرة منذ زمان .

ارتديت معطفي القديم ، وتناولت المظلة لأن المطر كان ينزل مدراراً . لم يكن في الشوارع أحد ما عدا النسوة العاميات يغطين رؤوسهن باذيال ثيابهـــن ، والتجار الروس يتظللون بالمظلات ، والسعاة يقع عليهم بصرى بين حين وآخر . ومن النبلاء لم التقِ ، الا بموظف واحد . رأيته في مفترق الطرق . وما ان رأيته حتى قلت لنفسي : «لا ، يا حبيب قلبي ، انت غير ذاهب الى الدائرة ، بل تلاحق تلـــك التي تركض قدامك ، وتحدق فـــي ساقيها» . اى محتال هذا صاحبنا الموظف ! لا يقل ، والله العظيم ، عـــن اي ضابط . ما ان تمر ذات قبعة ، حتى يتشبث بها . وبينما كنت افكر في ذلك – رأيت عربة تقترب من المخزن الذي كنت أمرّ به . وعرفتها على الفور . انها عربة مديرنا . وقلت لنفسي : «ولكن اى شغل لمديرنا في المخزن ؟ أظنها ابنته» . التصقت بالحائط . فتح الخادم باب العربة ، فرفرفت الابنة نازلة كالطائر . ورنت ذات اليمين وذات الشمال ، وهفهفت بحاجبيها وعينيها بعذوبة . . . يا رب ، يا إلهي ! اقرأ عليّ السلام ، انتهيت تماماً . ما الذى جاء بها في هذا الجو الممطر . ومع ذلك تجد من يؤكد لك ان النساء غير مغرمات بكل هذه التفاهة . لم تعرفني هى ، كما انني حاولت عمداً ان الف نفسي قدر المستطاع ، لأن المعطف الذي كنت ارتديه مبقع كثيراً ، فضلاً عن طرازه القديم . الناس يلبسون الآن معاطف ذات

ياقات طويلة ، بينما كانت ياقة معطفي قصيرة متصلة الطرفين . كما ان قماشته ليست متينة . لم تلحق كلبتها الصغيرة ان تقفز الى باب المخزن ، فبقيت في الشارع . وانا اعرف هذه الكلبة . اسمها ميدجي . وما كدت اتريث دقيقة حتى سمعت صوتاً ناعماً يقول : «مرحباً ، ميدجي !» عجيب ! مَن القائـــل ؟ حولت بصري ، فرأيت سيدتين تتظللان تحت مظلة واحدة ، احداهما عجوز ، والثانية شابة . ولكنهما مرّتا ، وصدر صوت بالقرب مني ثانيةً : «حرام عليك ، يا ميدجي» ! اي شيطان هذا ! رأيت ميدجي تتشمم كلباً صغيراً كان يسير وراء السيدتين . «عجيب – قلت لنفسي – اوه كفى ، ربما انا سكران ؟ ولكن هذا ، كمـــا يبدو ، نادراً يحصل لي» – «لا ، يا فيدل ، خسارة ان تفكري هكذا – سمعت باذنيّ ما نطقت به ميدجي – كنت واو ! واو ! كنت واو ، واو ، واو ! مريضة جداً» . اوه ، يا كلبة ! بصراحة دهشت كثيراً ، حين سمعتها تتكلم بصوت بشري . ولكنني فيما بعد ، حين فكرت بكل ذلك ملياً ، زايلتني دهشتي . في الحقيقة حصلت في الدنيا اشياء كثيرة مـــن هذا القبيل . يقولون فى انجلترا رفعت سمكـــة رأسها ، وقالت كلمتين بلغة غريبة ، حتى ان العلماء يجتهدون منذ ثلاثة اعوام ليعرفوا اية لغة هى ، ولم يتوصلوا الى شيء حتى الآن . كما قرأت فى الجرائد عن بقرتين ذهبتا الى دكان ، وطلبتا رطلا من الشاي . ولكن دهشت اكثر من ذلك بصراحة ، حين سمعت ميدجي تقول : «كنت قد كتبت لك ، يا فيدل . ولعـــل بولكان لم يحمل رسالتي اليك !» عسى ان يقطعوا راتبي ، اذا كنت اكذب ! في حياتي كلها لم اسمع بأن كلبة استطاعت أن تكتب . النبيل وحده يستطيع ان يكتب بشكل صحيح . وبالطبع يمكن ان يكتب احياناً بعض التجار من اصحاب الحوانيت ، وحتى الاقنان يكتبون من حين لآخر ولكن معظم كتاباتهم آلية ، بلا فوارز . ولا نقاط ، ولا اسلوب .

لقد ادهشني ذلك . واعترف بأنني منذ بعض الوقت أخـــذت احياناً اسمع وأرى مثل هذه الاشياء التي لم يرها ولم يسمع بها احد حتى الآن . قلت لنفسي : «لاسير وراء هذا الكلب ، واعرف من وماذا يفكر» .

فتحتُ مظلتي ، وتعقبت السيدتين . تحولتـــــا الى شارع

غروخوفيا ، وانعطفتا الى شارع ميشانسكيا ، ومن هناك الى شارع ستوليارنيا ، واخيرا الى جسر كوكوشكين ، وتوقفتـــا امام بيت كبير . قلت لنفسي : «انا اعرف هذا البيت . انه ملك زفركوف . مصنع بالضبط ! يضم ساكنين من شتى الاصناف . فكم من طباخات فيه ، وكم من وافدين على المدينة ! وجماعتنا الموظفون فيه بعدد الكلاب ، واحد فوق الآخر . وفى هذا البيت ايضاً لي صديق ينفخ بالبوق بشكل جيد . وصعدت السيدتان الى الطابق الخامس . وفكرت مع نفسي : «طيب . لا ادخل الآن . بل أحدد المكان ، وفى اول فرصة لا افوت الاستفادة» .

٤ تشرين الأول

اليوم اربعاء ، ولهذا كنت عند رئيسنا فى مكتبه . جئت فى وقت أبكر عن عمد ، وجلست ابرو كل الريش . ومديرنا لا بد ان يكون ذكياً جداً : كل غرفة مكتبـــه مملوءة بخزانات الكتب . قرأت عناوين بعضها . كلها علوم رفيعة ، علوم يستحيـــل على جماعتنا الموظفين حتى الاقتراب منها . كلهـــا اما بالفرنسية او بالألمانية . والنظر الى وجهه يجعلك ترى كم من العظمة تبهر فى عينيه . كما انني لم اسمع منه قط كلمة زائدة . الا حين اقدّم له الاوراق اذ يسأل : «كيف الجو فى الخارج ؟» – «رطب ، يا صاحب السعادة» نعم ، لا يمكن ان يقارب بجماعتنا ! رجل دولة . الا أنني الأحظ أنه يحبني اكثر من الآخرين . يا ليت ذلك الحب كان من جانب ابنته . . . آه ، خسارة ! لا بأس ، لا بأس ، اسكتُ . كنـــت اقرأ فى صحيفة . . «النحلة» أي ناس بلـــه هؤلاء الفرنسيون ! اللعنة ، ماذا يريدون ؟ ليتنى ، والله العظيم ، أوجعهم عن بكرة ابيهم ضرباً بعصا الخيزران . وفى هذه الصحيفة قرأت وصفاً جميلاً لحفلة راقصة كتبه مالك اطيان من كورسك . وملاكـــو الاطيان الكورسكيون يكتبون بشكل جيد . وبعد ذلك لاحظت ان الساعـــة بلغت الثانية عشرة والنصف ، بينما رئيسنا لم يخرج من مخدعه . ولكن فى نحو الساعة الواحدة والنصف وقع حادث لا تقدر اية ريشة على وصفه . انفتح الباب . فظننت انه المدير ، نهضت وثبـــا من

مقعدي ، ومعي الاوراق . ولكن لم يكن هو ، بل هي ، هي نفسها . يا أولياء ، اي لبس عليها ! ثوبها ابيض كطائر الثلج . ياه ، وباي فخفخة ! ورنت فاذا هي الشمس ، الشمس ، والله العظيم ! انحنت محيية ، وقالت : «بابا هنا ؟» يا ويلي ، يا ويلي ، اي صوت فاتن ! كنارية ، حقاً ، كنارية ! وكنت اريد أن أقول : «لا تامري بعقابي . واذا كان ولا بد فعاقبيني بيدك الجنرالية» . ولكن اللعنة ، لم يطاوعني لساني ، فلم اقل الا «لا ، غير موجود» . نظرت اليّ ، والى الكتب ، واسقطت المنديل . قفزت بكل ما في قدميّ من قوة لالتقاطه وانزلقت على الارضية اللعينة ، وكدت ادقّ انفي بها ، الا انني تماسكت ، على كل حال ، وتناولت المنديل . يا أولياء ، اي منديل هو ! خفيف تماماً ، من القماش الشفاف ، فيه اريج العنبر ، العنبر تماما . وتفوح منه الجنرالية ايضاً . شكرتني ، ابتسمت حتى ان شفتيها السكرتين كادتا تنفرجان . وبعد ذلك طلعت . جلستُ ساعة اخرى ، واذا بالخادم ياتي ويقول : «انصرف ، يا اكسنتي ايفانوفيتش . السيد استقل العربة من بيته» . انا الآن لا أطيق وسط الخدم ، دائماً ينطحون في الرواق . على الأقل لو حركوا رؤوسهم ، وحيوا بانحناءة . بل الاكثر من ذلك ان احد هؤلاء المحتالين خطر في باله أن يضيفني على نشوق ، دون ان يكلف نفسه فينهض من مكانه . ولكن هل تدري ، ايها الجلف ، انني موظف ذو نسب نبيل . على كل حال تناولت قبعتي ، ولبست معطفي بنفسي ، لأن هؤلاء «الاسياد» لن يعاونوك في ارتدائه ، وخرجت . وفي البيت قضيت معظم الوقت في السرير . ثم استنسخت ابياتا جميلة جداً : «الساعة التي لم أرَ فيها محبوبتي أظنها سنة . واكره حياتي واقول : أيحق لي ان أعيش» . اظن ذلك من نظم بوشكين * . وفي المساء التففت بمعطفي ، واتجهت الى مدخل بيت سعادتها ، وانتظرت طويلاً لعلّها تخرج لتستقل العربة ، فاتمتع بالنظر اليها مرة اخرى ، ولكنها لم تخرج .

---

* الكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) شاعر روسي عظيم ، وهذه الابيات الرديئة تنسب الى بوشكين سخرية به . **المترجم** .

٦ تشرين الثاني

رئيس القسم جن جنونه . عندما وصلت الى الدائرة استدعاني الى غرفته ، واخذ يقول لي هكذا : «حسناً ، قل لي ارجوك ما هذا الذي تفعله ؟» فاجبت : «كيف ما هذا ؟ انا لا افعل شيئاً» . «طيب، حكم عقلك جيداً ! فانت قد تخطيت الاربعين . آن الاوان لتعود الى رشدك . ماذا تتخيل نفسك ؟ اتظنني لا ادري حيلك ؟ انت تغازل ابنة المدير وحق الرب ! انظر اليك ، فكرْ فقط ماذا انت ؟ انت صفر ، لا اكثر . ليس في جيبك فلس واحد . على الاقل لو عاينت وجهك في المرآة ، الى اين انت ترنو !» تخطفه الشيطان ! لأن له وجهاً يشبه الى حد ما قارورة صيدلية ، وعلى راسه خصلة شعر معكوفة ، ويشمخ براسه ، ويدهنه كالطرة ، يظن أن كل شيء ميسر له وحده ؟ انه الحسد بعينه . فقد يكون قد رأى علائم الودّ نحوي . ولكن بصقة عليه ! ويتصور درجته في الوظيفة مهمة جداً ! علق ساعته بسلسلة ذهبية واوصى على حذاء بقيمة ثلاثين روبلاً ، أوه ، عليه اللعنة ! وهل أنا بلا نسب ، من عائلة خياطين ، أو من ابناء ضابط صف ؟ انا من سلالة نبلاء . واستطيع ان اصل الى اعلى درجة ما زلت في الحادية والاربعين ، السن التي تبدأ فيها الوظيفة بشكل حقيقي . فانتظر ، يا صاح ! سنكون نحن ايضاً برتبة عقيد ، او ربما ، اذ وفق الله ، سنصل الى رتبة اعلى . وستكون لنا ايضاً مكانة ، واحسن من مكانتك . كيف دخل في راسك أنك وحدك الرجل المعتبر ؟ اعطني سترة فراك مفصلة خصيصاً او على الموضة ، واعقد لي ربطة عنق كربطتك ، وعند ذاك لن اجعلك حتى حشوة لحذائي . ولكنني بلا موارد ، هذه هي المصيبة .

٨ تشرين الثاني

كنت في المسرح . مثلوا الابله الروسي فيلاتكا . ضحكت كثيراً . كما مثلوا فودفيلا فيه اشعار طريفة عن موظفي المحكمة ولا سيما عن مسجل صادرة وواردة ، اطلقوا فيها السنتهم ، حتى لدهشت كيف سمحت بها الرقابة ، وعن تجار يقولون على المكشوف انهم يخدعون الناس وابناؤهم يعربدون ، ويدعون النبالة . وهناك

مثان شعرية عن الصحفيين أيضاً مسلية جداً : انهم يحبون شتم كل شيء طوال الوقت ، والمؤلف يطلب من الجمهور الحماية . المؤلفون اليوم يكتبون مسرحيات طريفة جداً . أنا احب مشاهدة المسرح . ما ان تصير بعض الفلوس في جيبي حتى لا اصطبر واذهب اليه . بينما يوجد بين جماعتنا الموظفين خنازير لا يذهبون الى المسرح قطعاً ، الا اذا اعطيتهم التذاكر مجاناً . غنت احدى الممثلات غناء لطيفاً وتذكرت' تلك . . . اوه ، خسارة . . . لا بأس ، لا بأس . اَسكت' .

٩ تشرين الثاني

توجهت الى الدائرة في الساعة الثامنة . وتظاهر رئيس القسم بانه لم يلحظ وصولي . وانا من جانبي تظاهرت وكأن لا شيء حصل بيننا . صرت اعيد النظر في الاوراق وادققها . خرجت في الساعة الرابعة . مررت بمنزل المدير . لم أرَ اى شيء . قضيت معظم الوقت بعد الغداء مستلقياً على الفراش .

١١ تشرين الثاني

اليوم جلست في غرفة مكتب المدير . بروت له ثلاثاً وعشرين ريشة ، ولها . . آه ، آه ! . . . لسعادتها اربع ريش . انه يحب كثيراً ان يكون عنده اكبر عدد من الريش . اهوه ! لا بد انه دماغ ! دائماً صامت ، بينما يناقش كل شيء في ذهنه ، على ما اظن . ليتني اعرف في اي شيء يفكر اكثر من غيره ، وماذا يضمر في هذا الرأس . ليتني انظر عن قرب فى حياة هؤلاء الاسياد ، كل تلك الدسائس والمناورات — كيف هم ، وماذا يعملون فى وسطهم — هذا ما أود ان أعرفه ! فكرت عدة مرات ان ادخل في حديث مع سعادته ، ولكن اللعنة على لساني ، لا يطاوعني أبداً . لا أقول إلا ان الجو بارد او دافئ ، ولا يطلع من لساني اكثر من ذلك اطلاقاً . وددت لو القي نظرة في غرفة الجلوس ، التى لا أراها إلا من خلال الباب الموارب احياناً ، وبعد غرفة الجلوس غرفة اخرى . آه ، ما اغنى اثاثها ! اية مرايا ، واي اوان صينية ! وددت لو القي نظرة

الى ذلك النصف حيث تعيش سعادتها . هذا ما اوده من كل قلبي ! انظر في غرفة الزينة ، وكيف تصطف كل تلك العلب والقوارير ، والزهور التي تذبل من لفح الانفاس ، وكيف تتناثر هناك ملابسها ، التي هي اشبه بالزغب منها بالملابس . وددت لو انظر فى مخدعها . . . اظن هناك اعاجيب ، اظن هناك جنة لا مثيل لها حتى فى السماوات . ليتني انظر الى التختة التي تضع عليها قدمها ، وهي تنزل من السرير ، وكيف تتجورب هذه القدم الحلوة بجورب ابيض كالثلج . . . آه ، آه ، آه ! لا بأس ، لا بأس . . . اَسكت' .

اليوم ، على كل حال ، لمعت في ذهني فكرة . تذكرت ذلك الحديث الذي سمعته يدور بين الكلبتين في شارع نيفسكي . وقلت لنفسي : «الآن سأعرف كل شيء . يجب ان اخطف الرسائل التى كانت تتبادلها هاتان الكلبتان الحقيرتان . واعتقد أنني سأعرف شيئاً ما . بل واعترف انني ذات مرة دعوت ميدجي الى غرفتي ، وقلت لها : «اسمعي ، يا ميدجي . نحن الآن وحيدان . واذا شئت قفلت الباب حتى لا يرانا احد . خبريني بكل ما تعرفينه عن الآنسة ، ماذا وكيف ؟ واحلف لك بالرب أنني لن اكشف شيئاً لأحد» . ولكن الكلبة الماكرة صكّت ذيلها ، وانكمشت الى النصف ، وخرجت من الباب ، وكأنها لم تسمع شيئاً . منذ زمان وانا اعتقد بأن الكلبة اذكى من الانسان بكثير . بل وكنت موقنا بأنها تستطيع ان تتكلم، ولكن عنادها وحده يحول دون ذلك . انها سياسية حاذقة تلحظ كل شيء ، كل نيات الانسان . على كل حال سأذهب الى بيت زفركوف غداً ، مهما يكن من شيء ، واستجوب فيدل ، فقد انجح فى اختطاف كل الرسائل التي كتبتها ميدجي لفيدل .

١٢ تشرين الثاني

خرجت في الساعة الثانية ظهراً لأرى فيدل حتما واستجوبه . انا لا اطيق الكرنب الذي تفوح رائحته من كل دكاكين الخردوات فى شارع ميشانسكيا ، كما ان من وراء بوابة أي بناية يخرج سخام جهنمى جعلنى ألف أنفي ، واركض بكل قوتي . وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الحرفيين الخبثاء يطلقون العفونات والدخان من

مشاغلهم بكمية كبيرة تجعل من المتعذر تماماً على الرجل المهذب ان يتمشى هنا . وعندما صعدت الى الطابق السادس ، وقرعت الجرس الصغير ، خرجت فتـــاة ليست قبيحة أبداً ، ذات نمش صغير . عرفتها . هي نفس الفتـــاة التي كانت تسير مع العجوز . احمرّت قليلاً ، ففطنت الى سرّ احمرارها راساً : انت ، يا حلوتي ، ترغبين في ان يزورك خطيب . قالت : «ماذا تريد ؟»—«اريد ان اتحدث قليلاً الى كلبتك» . كانت الفتاة بلهاء ، ادركت راساً انها بلهاء ! وفي ذلك الوقت جاءت الكلبة تنبح . اردت ان اختطفها ، ولكن الحقيرة كادت تنشب انيابها في انفي . الا انني رايت في الزاوية مربضاً لنوم الكلاب . اي ، نعم ، تلك بغيتي . تقدمت منها ، ونبشت القشّ في تلك العلبة الخشبية ، ولدهشتي الخارقة ، اخرجت ضبّة من الوريقات الصغيرة . ولما رات الكلبـة الحقيرة ذلك عضتني في بادئ الأمر من ربلة ساقي ، وبعد ذلك ، حين تشممت انني اخذت الوريقات ، اخذت تولول وتداهن ، ولكنني قلت : «لا ، يا حلوة ، مع السلامة !» وانطلقت خارجاً . اظن الفتاة اعتبرتني مجنوناً ، لانها كانت مذعورة للغاية . وعندما وصلت الى البيت ، اردت ان أباشر العمل فوراً او ادقق هذه الرسائـل ، لأنني لا ارى جيداً في ضوء الشموع . ولكن مافرا طرات على ذهنها ان تغسل ارضية الغرفة . ان هؤلاء الفنلنديات يغرمن بالنظافة والترتيب في الوقت غير المناسب دائماً . ولهذا خرجت اتمشى ، واتروى فيما حدث . الآن وفي آخر الأمر ، ساعرف كل الامور والافكـــار ، كل تلك الدوافع ، وانفذ اخيراً الى كل شيء . ان هذه الرسائل ستفتح لي كل شيء . الكلاب معشر اذكياء . وهم يعرفون كل العلاقات السياسية ولهذا اعتقد ، سيكون كل شيء في باطن هذه الرسائـل : الشخصية وكل شؤون صاحبنا رجل الدولـة ذاك . وسيكون فيهـــا ايضا شيء عن تلك التي . . . لا بأس ، اسكتْ ! وفي المساء عدت الى البيت . وقضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير .

١٣ تشرين الثاني

حسناً ، لنرَ . الرسالة واضحة الى حد ما . ومع ذلك فإنّ في الخط شيئاً كلبياً ، كما يبدو . نقرأ :

عزيزتي فيدل ، انا لا استطيع ان آلف اسمك العامي . وكانما لم يكن في ميسورهم ان يختاروا اسماً الطف . فيدل ، روزا ، اية لفظة مبتذلة ! على كل حال . ساترك كل ذلك جانباً . انا مسرورة جداً باننا فكرنا في ان نتراسل .

الرسالة صحيحة جداً من الناحية النحوية . النقاط والفوارز في مكانها ، وحتى أدق العلامات . رئيس قسمنا نفسه لا يقدر ان يكتب بهذا الشكل ، ولو انه يردد انه درس في الجامعـــة في وقت ما . ولنواصل القراءة :

اعتقد ان تبادل الافكار والمشاعر والانطباعات مع شخص آخر هو احدى النعم الأولى في الدنيا .

الفكرة مسروقة من مؤلف مترجم عن الالمانيـــة ، لا اتذكـــر اسمه .

انا اقول ذلك عن خبرة ، رغم انني لم اتجول في العالم ابعد من بوابة عمارتنا . فهل حياتي لا تجلب متعة ؟ ان سيدتي التي يسميها وبابا، هـا صوفيا ، تحبني الى حد الذهول .

آه ، آه . . . لا بأس ، لا بأس . أسكتْ !

وبابا ايضا غالبا جداً ما يداعبني . وانا اشرب الشاي والقهوة مع الحليب . آه ، * ma chère علي ان اقول لك انني لا اجد اية متعة في العظام الكبيرة المعروقة التي يقرقشها كلبنا بولكان في المطبخ . العظام لذيذة اذا كانت من عظام الطيور فقط ، على ان تكون ايضاً غير مفرغة من نخاعها من قبل احد . ولديّ أن تخلط ببعض الصلصات سوية ، ولكن بدون مخللات ولا خضرة ، غير انني لا اعرف اسوأ من عادة تقديم كرات لباب الخبز المدورة الى الكلاب . تصوري ، احد الســـادة الجالسين الى المائدة ، والذي أمسك بيده مختلف القذارات ، يدعك الخبز بيديه هاتين ، ويدعوك اليه ، ويدسّ في اسنانك كرة من هذه الكرات . وانت لا تستطيعين ان ترفضي ، لأن ذلك تصرف غير مؤدب ، فتضطرين الى أكلها وتاكلينها ، ولكن بتقزز . . .

الشيطان وحده يعرف ما هذا ! أي هذر ؟ كأنه لا يوجد موضوع

---

* يا عزيزتي (بالفرنسية في الاصل) . المترجم .

افضل من هذا لتكتب عنه . لننظر في الصفحة الأخرى . فقد يكون فيها اقرب الى المنشود .

انا على استعداد كبير لتزويدك بالمعلومات عن كل ما يحدث عندنا . وكنت قد حدثتك ذات مرة عن السيد الأكبر الذي تسميه صوفيا «بابا» . انه رجل غريب الاطوار جداً .

اها ! واخيراً ! نعم ، كنت أعرف ان للكلاب نظرة سياسية الى كل الموضوعات . فلنر ، ما هو بابا هذا :

. . . غريب الاطوار جداً . يلتزم الصمت في اكثر الاوقات . ونادراً جداً ما يتكلم . ولكنه قبل اسبوع كان يتكلم مع نفسه بلا انقطاع : «ساحصل ام لا احصل ؟» يضمّ يده على ورقة ، ويطوي الأخرى فارغة ويقول : «ساحصل ام لا احصل ؟» ومرة وجه الى سؤالا . «وما رأيك ، يا ميدجي ؟ هل ساحصل ام لا أحصل ؟» ولم استطع ان افهم شيئاً بتاتا ، فتشممت حذاءه . وانصرفت . وبعد ذلك ma chère بعد اسبوع جاء بابا مغموراً بفرح عظيم وطوال الصباح كان السادة ذوو البزات الرسمية يترددون عليه ، ويهنئونه على شيء ما . وعلى المائدة كان مبتهجاً ابتهاجاً لم أره عليه قط ، وكان يطلق النكات . وبعد الغداء رفعني الى رقبته ، وقال : «انظري ، يا ميدجي ، اى شيء هذا ؟» . رأيت شريطا ، فتشممته ، ولكنني لم اجد فيه اي عبير قطعاً . واخيراً لعقته خلسةً . كان مالحاً قليلاً .

اهم ! اظن هذه الكلبة تجاوزت كثيراً في كلامها . . . اخشى ان يضربوها ! اها ! بهذا الغرور هو ! يجب ان آخذ ذلك بعين الاعتبار .

مع السلامة ma chère عندى ما يشغلني . . . هذا وذاك . . غدا ساكمل الرسالة . آوه ، مرحبا ! انا الآن معك ثانية . اليوم سيدتي صوفيا . . .

آو ! طيب ، لنرَ ماذا صوفيا . آه خسارة . . . لا بأس لا بأس . . . سنواصل .

سيدتي صوفيا كانت في عجلة من أمرها . تتهيأ لحفلة راقصة . وقد فرحت لانني في غيابها استطيع الكتابة اليك . سيدتي صوفيا دوما تفرح جداً في الذهاب الى حفلة راقصة ، ولو انها اثناء لبسها تحتد دائماً تقريبا . انا لا افهم ابداً ma chère اي متعة في الذهاب الى حفلة راقصة .

صوفيا تعود من الحفلة الراقصة الى البيت فى الساعة السادسة صباحاً ، واحدس دائما تقريباً من وجهها الشاحب المعروق أنهم لم يقدموا لهذه المسكينة طعاماً . واقولها بصراحة انا لا استطيع ان اعيش بهذا الشكل . لو انقطعوا عن تقديم لي لحم القبج بالصلصلة ، او اجنحة دجاج محمصة . . . لتحيّرتُ ماذا سيحصل لي ، ولذيذة أيضا الصلصلة مع العصيدة . اما الجزر او اللفت او الخرشوف فلن يكون لذيذاً أبداً . . .

أسلوب متعكر كثيراً . تعرف منه رأساً ان كاتبه ليس من البشر . تبدأ حسب الاصول ، وتنتهي على الطريقة الكلبوية . لننظر في رسالة أخرى . أطول قليلاً . اهم ! ولم يكتب تاريخ الارسال .

آه ، يا عزيزتي ! كم هو محسوس اقتراب الربيع ! قلبي يخفق ، وكانما يتوقع شيئا طوال الوقت . وفي اذنيّ ضجيج دائم ، حتى انني غالبا ما ارفع رجليّ . واقف بضع دقائق منصتة الى الباب واكاشفك ان لي الكثير من المغازلين . وغالبا ما اجلس الى النافذة اتطلع اليهم . آه ، ليتك تعرفين أي دميمين بينهم ! بعضهم غليظ ، كلب هجين سارح ، احمق بشكل فظيع ، والحماقة مرسومة على وجهه ، ويسير في الشارع متعاظما ، ويتصور انه شخصية مرموقة ، يظن ان الجميع يرمقونه . مستحيل ! انا لا اعيره اي التفات ، وكانني لم اره . وهناك كلب درواس ضخم رهيب يتوقف امام شباكي ! ولو وقف على قائمتيه الخلفيتين ، وهذا ما لا يحسنه هذا الازعر ، على ما اظن ، لكان اطول بمقدار رأس من بابا صاحبتي صوفيا ، الذي هو الآخر طويل الى حدما وسمين . ان هذا المتحجر الدماغ وقح الى حد مفزع ، على ما اتصور . دمدمتُ عليه ، ولكنه لم يكترث . على الاقل لو عكنن وجهه ! اخرج لسانه . ودلى اذنيه الهائلتين ، وراح يحدق في الشباك — اي جلف هو ! ولكن لا يعقل انك ، ma chère تتصورين ان قلبي خال من اي ميل عاطفي . اه . لا . . . ليتك رأيت احد المغازلين ، وهو ينسل من سياج البيت المجاور ، ان اسمه تريزور . آه ، ma chère اي بوز لطيف له !

تفوا ! الى الشيطان . . . اي هراء ! . . . وكيف يمكن ملء الرسائل بمثل هذه السفاسف . هاتوا لي انساناً ! اريد انا أن أرى انساناً ، اطالب بطعام يمكن ان تتغذى فيه روحي وتتلذذ . ولكن بدلاً من ذلك اجابه بهذه التوافه . . . لنترك هذه الصفحة ، فلربما تكون التالية احسن .

. . . كانت صوفيا جالسة وراء الطاولة تخيط شيئا وكنت انظر في الشباك ، لأنني احب التفرج على المارة . واذا بالخادم يدخل ، ويقول :

وجاء تبلوف !» فصاحت صوفيا : وليتفضل — واندفعت تعانقني — آه ، يا ميدجي ، ميدجي ! ليتك تعرفين اي شخص هو . اسود الشعر . من ضباط القصر . وعيناه ! سودوان ومتوهجتان ، كالنار» . وركضت صوفيا الى حجرتها . وبعد دقيقة دخل ضابط قصر شـــاب ذو فودين طويلين أسودين ، واقترب من المرآة ، وعدل شعره ، وأجال بصره في الغرفة . دمدمتْ قليلا ، وجلست في مكاني . وبعد قليل خرجت صوفيا ، وانحنت بهيجة رداً على تحيته المؤدبة ، اما انا ، فكانني لم الحظ شيئا ، وتابعت النظر من الشباك ، إلاّ انني ملت براسي قليلاً ، وحاولت ان اسمع عمّ سيتحدثان . آه ، ma chère ، اي هراء كانا يتحدثان به — يتحدثان عن سيدة بدلاً من ان تقوم بحركة معينة في الرقص قامت بحركة أخرى ، وعن شخص يدعى بوبوف كان في ياقته المدورة كثير الشبه باللقلـــق ، وكاد يسقط ، وعن امرأة تسمى ليدينا تتصور ان عينيها زرقاوان ، بينما هما خضروان ، وما الى ذلك . وفكرت مع نفسي : وما ابعد الفرق بين ضابط القصر هذا وتريزور !» بُعد السماء ! هذا هو الفرق ! اولاً . لضابط القصر وجه عريض املس تماماً حوله فودان طويلان وكانما احاطه بمنديل اسود ، بينما بوز تريزور رقيق ، وعلى جبينه غرة بيضاء . وخصر تريزور لا تمكن حتى مقارنته بخصر ضابط القصر . والعينـــان ، والتصرفـــات ، والقيافة ، لا تشبهه كليا . أوه ، ما ابعد الفرق ! انا لا اعرف ma chère ماذا وجدت في صاحبها تبلوف هذا . وما سرّ اعجابها به ؟

انا نفسي اتصور ان في الأمـــر خطأ . مستحيل ان يكون قد سحرها ضابط القصر بهذا الشكل . لننظر ماذا بعد :

يبدو لي انهـا اذا كانت اليوم تعجب بضابط القصر ، فعن قريب ستعجب بذلك الموظف الذي يجلس في مكتب باباهـا . آه ، ma chère ليتك عرفت أي دميم الخلقة هو ! سلحفاة في زكيبة تماماً . . .

ترى من يكون هذا الموظف ؟ . . .

اسم عائلته غريب جداً . وترينه دائماً يجلس يبرو الريش . على راسه شعر كثير الشبه بالتبن . بابا يرسله دائماً بدلاً من الخادم .

يبدو ان هذه الكلبـــة الحقيرة تقصدني . ولكن أين شعري من التبن ؟

صوفيا لا تستطيع ان تكبح ضحكتها ، حين تقع عيناها عليه .

تكذبين ، ايتها الكلبة الملعونة ! اية لغة رذيلة !

وكانني لا اعرف ان ذلك من الحسد . كانننـــي لا اعرف دسائس مَنْ هذه . هذه دسائس رئيس القسم . الرجل جرفه الحسد القاهر ، فهو يؤذي ويؤذي ، في كل خطوة يؤذي. على كل حال ، لنرَ رسالة أخرى . فقد تتكشف القضية فيها من تلقاء نفسها .

عزيزتي فيدل ! اعذريني على أنني لم اكتب لك منذ زمان . كنت في نشوة غامرة . كان احد الكتاب على حق تام ، حين قال : الحب عمر ثانٍ . كما ان بيتنا يشهد الآن تغيرات كبيرة . ضابط القصر يزورنا الآن كل يوم . وصوفى مغرمة به الى حد الغيبوبة . وبابا مرح جداً . كما انني سمعت من خادمنا غريغوري الذي يكنس ارضية البيت ويتكلم مع نفسه دائماً تقريباً ، ان العرس سيكون عن قريب ، لأن بابا يريد بالتاكيد ان يزفّ ابنته الى جنرال أو ضابط قصر أو عسكري برتبة مقدم . . .

اللعنة على الشيطان ! لا استطيع ان اقرأ أكثر . . كل شيء اما ضابط قصر او جنرال . كل ما هو افضل فى الدنيا من نصيب ضباط القصر او الجنرالات . ما ان تجد لنفسك غنيمة صغيرة ، وتتصور انها تحت متناول يدك ، حتى ينتزعها منك ضابط قصر او جنرال . اللعنة ! كم اود لو اكون جنرالاً . لا لأخطب يد فتاة او غير ذلك ، بل اود ان اكون جنرالاً لغرض واحد فقط ، وهو ان أرى كيف سيحومان حولي ويقومان بكل تلك الدسائس والمناورات المختلفة التى يقوم بها رجال القصر . وبعد ذلك اقول لهما : بصقة على كليكما . تحفظكما الشيطان . خسارة ! مزقتُ رسائل الكلبـة الحمقاء إرباً .

٣ كانون الأول

مستحيل . اكاذيب ! لن يحصل عرس ! ماذا يعنى انه ضابط قصر . هذا لا اكثر من مباهاة . ليس شيئاً مرئياً يمكن ان يُلمس باليد . وان يكون ضابط قصر لا يعنى ان تكون له عين ثالثة على الجبين . وانفه ليس مصنوعاً من ذهب ، بل مثل انفى ، وانف اي انسان . يشتم به لا ياكل ، يعطس به ، لا يسعل . كم من مرة اردت ان أتوصل من أين تأتى هذه الفروق ؟ لمـاذا انـا ملاحظ

اوراق ، وبأى موجب انا ملاحظ اوراق ؟ ربما انا كونت او جنرال ، ولكن أبدو ملاحظ اوراق ؟ ربما انا نفسى لا اعرف مَنْ انا . وكم فى التاريخ من امثلة على ذلك ! انسان بسيط ، وليس من سلالة نبلاء مثلى ، مجرد عامى من اهل المدينة او حتى فلاح . وفجأة يكتشف انه من علية القوم واحياناً حتى قيصر . احياناً يطلع من ريفى ما لا يمكن ان يطلع احياناً من نبيل ؟ فلو ألبس مثلاً بزة جنرال وعلى منكبى الايمن كتافية ، وعلى منكبى الايسر كتافية ، وعبر صدرى وشاح أزرق . فماذا سيكون ؟ عندها ماذا ستقول حسنائى تلك ؟ وماذا سيقول باباها ، مديرنا ؟ اوه ، ذلك المغرور الكبير ! انه ماسونى . ماسونى بالتأكيد ، ولو انه يتظاهر بهذا وذاك ، ولكننى فطنت فى الحال انه ماسونى : فهو اذا قدم لأحد يده ، لا يمد الا اصبعين . ثم الا يمكن ان تخلع علىّ فجأة رتبة جنرال حاكم ولاية ، او مهمة عسكرى او رتبة اخرى من تلك الرتب ؟ أود ان أعرف لماذا انا ملاحظ اوراق ، وملاحظ اوراق بالذات ؟

٥ كانون الأول

اليوم قضيت الصباح كله اقرأ الجرائد . فى اسبانيا تجرى امور غريبة . بل ولم استطع ان افهمها بشكل جيد . يقولون ان صاحب العرش خُلع عن عرشه ، وان رجال الدولة يجدون صعوبة كبيرة فى اختيار الوريث ، وبسبب ذلك تحدث قلاقل . ان هذا يبدو لى غريباً للغاية . كيف يُخلع صاحب عرش عن عرشه ؟ يقولون ان دونة * من الدونات يجب ان تتبوأ العرش ، لا يمكن ان تتبوأ دونة عرشاً . مستحيل . يجب ان يتبوأ العرش ملك . الا انهم يقولون : لا يوجد ملك ، ولكن لا يمكن ان لا يوجد ملك . لا توجد دولة بدون ملك . الملك موجود ، سوى انه فى مكان مجهول الآن . فقد يكون فى اسبانيا نفسها ، ولكن أسباباً معينة ، عائلية او غيرها ، او خوفاً من جانب الدول المجاورة ، فرنسا ، مثلا ، او غيرها ، تجعله يختبئ ، او لعل هناك أسباباً اخرى .

* السيدة بالاسبانية . **المترجم** .

كنت متهيئاً كلياً للخروج الى الدائرة الا ان اسباباً وتأملات مختلفة اعاقتنى عن ذلك . ما تزال الشؤون الاسبانية تلازم ذهنى ولا تبارحه . كيف يمكن لدونة ، لامرأة ان تصير ملكة ؟ هذا غير مسموح . أولا ، انجلترا لا تقبل به ، كما ان هذه قضايا سياسية لأوربا كلها : الامبراطور النمساوى ، مولانا القيصر . . . اعترف ان هذه الأحداث اتعبتنى وهزتنى ، حتى اننى لم استطع ان أقوم بأى شىء طوال اليوم . نبهتنى مافرا الى أننى اثناء الغداء كنت سارحاً تماماً . وبالفعل يبدو أننى من شرود الذهن اوقعت صحنين على الارض ، فتحطما فى الحال . بعد الغداء ذهبت لأتنزه . لم استطع ان استخلص شيئاً ذا نفع على الاطلاق . قضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير افكر فى شؤون اسبانيا .

عام ٢٠٠٠ ، ٤٣ نيسان

اليوم يوم عيد عظيم للغاية ! فى اسبانيا يوجد ملك . بحثوا عنه فوجدوه . وهذا الملك هو أنا . واليوم فقط عرفت بذلك . اعترف بأننى شعرت فجأة وكأن برقاً اضاء . انا لا أفهم كيف استطعت ان اظن وأتصور نفسى ملاحظ اوراق . كيف امكن ان تدخل هذه الفكرة الطائشة فى رأسى ؟ لطيف ان احداً لم يفطن فى حينها الى ان يضعنى فى مستشفى المجاذيب . والآن كل شىء مفتوح امامى . الآن أرى كل شىء وكأنه على راحة يدى . ولكن من قبل لا افهم ، من قبل كان كل شىء امامى وكأنه فى ضباب . وكل ذلك ، على ما اعتقد ، لان الناس يتوهمون ان دماغ الانسان موجود فى رأسه . لا ، قطعاً . الريح تأتى به مندفعة من ناحية بحر قزوين . فى البداية أعلنت لمافرا مَنْ انا . وعندما سمعت انها فى حضرة الملك الاسبانى ، رفعت ذراعيها الى فوق ، باندهاش ، وكادت تموت من الخوف . ان هذه الحمقاء لم تر قط ملكاً اسبانياً . الا اننى حاولت ان اهدئها ، وحاولت بكلمات رقيقة ان أؤكد ودى لها ، وأننى لست زعلان ، بالمرة ، لانها احياناً لم تكن تنظف جزمتى بشكل جيد . ذلك لان هؤلاء اناس جَهَلة لا يجوز التكلم معهم عن

موضوعات رفيعة . وقد ذُعِرت لانها توقن بأن جميع الملوك فى اسبانيا يشبهون فيليب الثانى . ولكننى اقنعتها بانه لا يوجد اى شبه بينى وبين فيليب ، وليس لى اى كابوتشى . . . لم أذهب الى الدائرة . . . الى جهنم ! لا ، يا اصحاب ، لن تغرونى الآن . لن اقبل باستنساخ اوراقكم الحقيرة .

٨٦ اذا تشرين .
بين النهار والليل

اليوم جاء مسؤولنا عن شؤون الموظفين ليجعلنى أذهب الى الدائرة ، فانا منذ اكثر من ثلاثة اسابيع قد انقطعت عن الدوام . ذهبت الى الدائرة على سبيل المزاح . تصور رئيس القسم اننى سأنحنى محيياً ، وأعتذر ، ولكننى نظرت اليه بلااكتراث ، وبغضب لم أتوسع فيه ، وتسامح لم أكثر منه ، وجلست فى مكانى ، وكأننى لم الحظ احداً . نظرت الى كل كتبة الاوراق الاوغاد وانا افكر : «ماذا لو عرفتم من يجلس بينكم . . . يا رب ! اى هرج ستثيرون ، ثم ان رئيس القسم نفسه سيطوى جذعه بانحناءة من وسطه ، كما يفعل الآن امام المدير» . وضعوا امامى اوراقاً ، لألخصها . ولكننى لم أمسسها باصبع . وبعد بضع دقائق حصل اضطراب . وقالوا ان المدير قادم . وركض موظفون كثيرون يسابق بعضهم بعضاً ليعرضوا انفسهم امامه . ولكننى لم اتحرك من مكانى . وعندما سار عبر قسمنا ، زرّر الجميع ازرار ستراتهم الفراك . ولكننى لم أبد اى حركة اطلاقا ! مدير وماذا يعنى ! ان اقوم له ؟ مستحيل ! واى مدير هو ؟ انه سِداد ، وليس مديراً . سِداد اعتيادى ، سِداد بسيط ، ولا أكثر . من تلك التى تُسد بها الزجاجات . وأكثر ما اطربنى انهم دسوا لى ورقة لاوقعها . ظنوا اننى سأكتب فى طرف الورقة تماماً : رئس الاوراق فلان . لن يكون ! شخبطتُ فى ابرز مكان ، حيث يوقع مدير الدائرة عادة : «فيرديناند الثامن» . ويجب ان تروا اى صمت مهيب خيّم على المكان ، ولكننى لوحت بيدى فقط ، وقلت : «لا حاجة لاى اشارة للتبعية !» ، — وخرجت ، ومن هناك توجهت الى شقة المدير راساً . لم يكن فى البيت . لم يرد الخادم ان يدخلنى ، ولكننى

قلت له ما جعله يسبل ذراعيه . وقصدت الى غرفة الزينة راساً. رايتها جالسة امام المرآة ، فوثبتُ من مكانها وتراجعت عنى . على كل حال لم اقل لها اننى ملك اسبانيا بل قلت فقط ، فى انتظارها سعادة لا تستطيع حتى ان تتخيلها ، واننا سنكون سوية ، رغم مكائد الاعداء . ولم ارد ان اقول اكثر من هذا ، وخرجت . آه ، من تلك المخلوقة الكريهة ، المرأة ! الآن عرفت ما هى المرأة . قبل هذا الحين لم يكن احد يعرف مَنْ تعشق المرأة . انا اول مَنْ اكتشف ذلك . المرأة تعشق الشيطان . نعم ، من غير مزاح . الفزياويون يكتبون سخافات ، عن كونها كذا وكذا . انها لا تحب الا الشيطان . انظروا ، انها توجه نظارتها اليدوية من مقصورتها فى الطابق الاول . هل تظنون انها تنظر الى ذلك السمين ذى الوسام ؟ لا ، أبداً . انها تنظر الى الشيطان ، الواقف وراء ظهره . ها هو يتخفى فى فراكه . والآن يشير لها باصبعه من هناك ! وستتزوجه . تتزوجه حتماً . أما اباؤهن ذوو الرتب ، هؤلاء جميعهم ، كل هؤلاء الذين يتذللون وينسلّون الى البلاط ، ويقولون انهم وطنيون وما الى ذلك ، فانهم يريدون منافع . هؤلاء الوطنيون يريدون منافع . انهم يبيعون الأم والأب والرب لقاء فلوس ، هؤلاء المغرورون ، باعة المسيح . كل هذا غرور ، والغرور ياتى من الفقاعة الصغيرة تحت اللسان والتى توجد فيها دودة صغيرة بحجم راس الدبوس ، وكل ذلك من صنع حلاق يسكن فى شارع غروخوفيا . لا اتذكر اسمه ، ولكن من المعروف المؤكد انه وقابلة مولدة عجوز يريد ان ينشر دينا غير المسيحية ، ولذلك يقال ان جزءاً كبيراً من الشعب فى فرنسا قد اعتنق هذا الدين .

بتاريخ ما .
يوم خارج الشهور

كنت اتمشى متخفيا فى شارع نيفسكى . مر صاحب الجلالة الامبراطور . الناس جميعاً رفعوا قبعاتها ، وأنا ايضاً . الا اننى لم اظهر اية علامة على اننى ملك اسبانيا . وجدت من غير اللائق ان اكشف عن نفسى هنا ، امام الملأ ، فقد كان يجب قبل كل شىء ، ان اقدم نفسى الى البلاط . ولم يكن يوقفنى عن ذلك الا كونى لا املك حلّة

الملوكية حتى الآن . على الاقل لو احصل عـــلى عباءة الملوك . اردت ان اوصى عليها احد الخياطين ، ولكن هؤلاء حمير تماماً ، كما انهـــم يستهينون بعملهم كلياً ويمهدون الطريـــق . قررت ان اصنع عباءة من سترة رسمية جديدة لم ألبسها غير مرتين . ولكى لا يفســـد هؤلاء الاراذل السترة ، عزمت على ان اخيط العباءة بنفسى ، واغلقت الباب علىّ ، حتى لا يرانى احد . قصصت السترة كلها بالمقص لان التفصيل يجب ان يكون مختلفاً تماماً .

لا اتذكر اليوم . وكذلك الشهر . والشيطان يعرف متى كان ذلك

العباءة جاهزة تماماً ، ومخاطة . صرخت مافرا حين رأتنى . الا اننى لم اقرر بعد تقديـــم نفسى الى البلاط . لم تصل البعثة من اسبانيا حتى الآن ولا يليق ان افعل ذلك بدون مبعوثين . لن يكون لمقامى اى وزن . انا انتظرهم من ساعة الى اخرى .

الأول من

يدهشنى كثيراً ابطاء المبعوثين . اية اسباب يمكـــن ان تحول دون وصولهم ؟ أيعقل ان تكون فرنسا ؟ أجل ، انها دولة معرقلـــة للغاية . اردت التوجـــه الى البريد اسأل عـــن وصول المبعوثين الاسبان . ولكن مامور البريد بليد للغاية ، لا يعلم شيئاً . يقول : لا يوجد هنا اى مبعوثين اسبان ، واذا كنت اريد ان اكتب رسائـل فسنتسلمها حسب التعريفة المقررة . تخطفك الشيطان ! ما معنـــى الرسالة ؟ الرسالة هراء . الصيادلة يكتبون الرسائل .

مدريد ، فى الثلاثين من شيباطيارى

وها انذا فى اسبانيا . وقد حدث هذا بسرعة فائقة بحيث مـــا كدت أفيق على نفسى . صباح اليوم وفد علىّ المبعوثون الاسبان ، فجلست معهم فى العربة . والسرعة غير الاعتيادية التى سرنا بهـــا بدت لى غريبة . فقد كنا ننطلق بسرعة هائلة ، حتى وصلنا الحدود الاسبانية فى ظرف نصف ساعة . وعـــلى العموم ، الطرق الحديدية الآن تعم اوربا كلها ، كما ان البواخر تسير بسرعة خارقة . وارض اسبانيا غريبة . حيـــن دخلنا الغرفة الاولى رايت عدداً كبيراً مـــن

الناس حليقى الرؤوس . الا اننى حدست فوراً انهم اما نبلاء اسبان او جنود ، لان هؤلاء يحلقون رؤوسهم . وبـــدا لى تصرف مستشار الدولة الذى قادنى من يدى غريباً جداً . فقـــد دفعنى الى حجرة صغيرة ، وقال : «اقعد هنا ، واذا كنت ستسمى نفسك الملـــك فيرديناند ، فسأظل أضربك حتى اقلع هذه العادة منك» . ولما كنت اعرف ان ذلك مجرد تجربة ، أجبـــت بالنفى ، وعلى ذلك ضربنى بالعصا مرتين على ظهرى ضرباً موجعاً حتى كدت اصرخ ، ولكننـــى تماسكت ، بعد ان تذكرت ان هذه عادة فروسية عند تسلم لقـب رفيع لان عادات الفروسية ما زالت قائمة فـــى اسبانيا حتى الآن . وحينما بقيت وحدى قررت القيام بشؤون دوليـــة . اكتشفت ان الصين واسبانيا ارض واحدة تماماً ، وبسبب الجهل فقط يعتبرونها دولتين مختلفتين . وانا انصح الجميع ان يكتبوا اسبانيا على الورق عن قصد لتطلع الصين ايضاً . ولكـــن الحدث الذى سيحصل غداً غمّنى للغاية . غداً ، فى الساعـــة الثامنة ، ستقع ظاهرة غريبة . فستقعد الارض على القمر . الكيمياوى الانجليزى الشهيـــر ويلنكثون يكتب عن ذلك ايضاً . واعترف بأننى شعرت بقلق جدى ، حيـــن تصوّرت مع نفسى رقة القمر الفريدة وهشاشته . ذلك لان القمـــر فى العادة يُصنع فى هامبورغ ، ويصنع بشكل شنيـــع . وانـــا اندهش كيف لا تلتفت انجلترا الى ذلك . وصانع القمر هو صانـــع براميل اعرج ، والظاهر انه أبله ايضاً ، ليس له اى تصور للقمر . صنعه من حبل قطرانى وشىء من زيت الخشب ، ولهذا تفوح الارض كلها برائحة فظيعة تضطرك الى سد انفك . ولهذا السبب صار القمر نفسه كرة رقيقة جداً ، بحيث لا يستطيع الناس العيش على سطحه ، ولهذا لا تعيش عليـــه الآن غير الانوف . ولهذا السبـــب ذاته لا نستطيع ان نرى انوفنا ، لانها على القمر جميعها . ولما تصورت فى ذهنى ان الارض ثقيلة ، ومن الممكن بعد قعودها على القمر ان تطحن انوفنا طحناً استحوذ علىّ قلق شديـــد ، حتى اننى لبست الجوارب والحذاء ، واسرعت الى قاعة مجلس الدولة ، لأصدر اوامر الى الشرطة بان يحولوا دون قعود الارض على القمر . والنبلاء الاسبان الحليقـو الرؤوس الذين وجدتهم بأعداد غفيرة فى قاعة مجلس الدولـة كانوا اناساً اذكياء ، فعندما قلـــت : «ايها السادة ، لننقذ القمر ، لان

الارض تريد القعود عليه» ، اندفع الجميع حالاً لينفذوا رغبتى الملكية ، وتسلق الكثيرون منهم الجدار ليصلوا الى القمر ، ولكن المستشار العظيم دخل فى ذلك الوقت . ولما راوه تفرق الجميع متراكضين . وانا كملك ، بقيت وحدى . ولكن لدهشتى ضربنى المستشار بالعصا ، وساقنى الى غرفتى . الى هذا الحد تتحكم العادات الشعبية فى اسبانيا .

كانون الثانى

الذى جاء بعد شباط من العام نفسه

انا لحد الآن لا اقدر ان افهم اى بلاد اسبانيا هذه . العادات الشعبية وتقاليد البلاط غير اعتيادية اطلاقاً . لا افهم لا افهم اى شىء البتة . اليوم حلقوا شعر راسى ، رغم اننى كنت اصرخ باعلى صوتى باننى لا اريد ان اكون راهباً ولكننى لم اعد اتذكر ماذا حصل لى ، حين أخذوا يصبون الماء البارد على راسى . لم أشعر بمثل هذا العذاب من قبل قط . كان من الممكن ان تعترينى نوبة من السعار ولهذا ما كادوا ان يضبطونى . انا لا افهم اطلاقاً دلالة هذه العادة الغريبة . عادة هوجاء فارغة من اى معنى ! انا لا ادرك استهتار الملوك الذين لا يقضون عليها ، حتى الآن . ولما فكرت بكل الملابسات خمنت أننى وقعت فى ايدى محاكم التفتيش ، وقد يكون الذى تصورته مستشاراً هو المفتش الاعظم نفسه . سوى اننى لا استطيع ان افهم كيف امكن ان يتعرض ملوك لمحكمة تفتيش . فى الحقيقة ، قد يكون ذلك من جانب فرنسا ، ولا سيما بولينياك . آه ، يا له من محتال بولينياك هذا ! اقسم على ان يؤذينى حتى الموت . وها هو يطاردنى ويطاردنى ، ولكننى اعرف ، يا صاح ، ان الانجليز هم الذين يحرضونك . الانجليزى سياسى كبير . وهو يدس أنفه فى كل شىء . وهذا معروف للعالم اجمع : حين تتشمم انجلترا نشوقاً ، تعطس فرنسا .

بتاريخ ٢٥

اليوم دخل المفتش الاعظم غرفتى ، ولكننى اختبأت تحت المقعد ، حين سمعت وقع أقدامه من بعيد . وحين لم يرنى اخذ

يناديني . فى البداية صاح : «يا بوبريشين !» لم انطق بكلمة . ثم «يا اكسنتى ايفانوف ! يا ملاحظ الاوراق ! يا نبيل !» ظللت صامتاً . «يا فرديناند الثامن ، يا ملك اسبانيا !» اردت ان اخرج راسى ، ولكن فكرت : «لا ، يا اخ ، لن تخدعنا . نحن نعرفك ، ستصب الماء البارد على راسى مرة اخرى» . الا انه رآنى ، واخرجنى من تحت المقعد بالعصا . ان هذه العصا اللعينة توجع الى اقصى حد . وعلى العموم ، على هذا كله كافانى اكتشافى اليوم . فقد عرفت ان لكل ديك اسبانيا خاصة به وهى موجودة تحت ريشه . على كل حال خرج المفتش الاعظم منى شديد الغضب ، يهددنى بعقوبة معينة . ولكننى استهنت تماماً بحنقه العاجز ، عارفاً انه يتصرف كآلة ، كأداة بيد الانجليز .

بتا ٣٤ ، ريخ شهعام ٣٤٩

لم تعد لى قوة على التحمل ، حقاً . يا رب ! ماذا يفعلون بى ! يصبون الماء البارد على راسى . انهم لا يصنتون لى ، ولا يرون ، ولا يستمعون الىّ . ماذا فعلت لهم ؟ لاى شىء يعذبوننى ؟ ما الذى يريدونه منى ؟ ماذا باستطاعتى ان اعطيهم ؟ انا لا املك شيئاً ، انا لا اقوى ، لا اقدر ان اتحمل كل عذاباتهم . ورأسى يلتهب ، وكل شىء يدور امامى . انقذونى ! خذونى . اعطونى عربة بجياد سريعة كالريح العاصفة ، خيولاً ! إجلسْ فى مقعدك ، يا سائق عربتى ، ورن ، يا جرس ، وانطلقى يا خيول ، واخرجونى من هذا العالم . ابعد ، فابعد ، بحيث لا يُرى اى شىء . ها هى السماء تتلولب امامى ، ونجمة تلمع فى البعيد ، وغابة تندفع باشجار داكنة ، وقمر . وضباب يمامى ينبسط تحت الاقدام ، ووتر يرن فى الضباب ، والبحر من جانب ، وايطاليا من الجانب الآخر . وها هى الاكواخ الروسية تلوح . أهذا بيتى الذى يبدو ازرق من بعيد ؟ أهذه امى جالسة امام الشباك ؟ أماه ، انقذى ابنك المسكين . اسكبى دمعة على راسه الموجّع ! انظرى كيف يعذبونه ! ضمى يتيمك المسكين الى صدرك ! لا مكان له فى الدنيا . انه مطارَد ! أماه ! اشفقى على ولدك المسكين ! . . . هل تعرفون ان لوالى الجزائر عجرة تحت انفه مباشرة ؟

عربة

عمّ فرح كبير بلدة ب ، حين أخذ يرابط فيها فوج خيالة . وقبل ذلك الحين كانت الحياة فيها مضجرة جداً . فأنت اذا صادف وأن مررت بها ، وتطلعت الى بيوتها الطينية الصغيرة الواطئة ، التي تطل على الشارع جهماء عابسة . . . يستحيل عليك أن تصف ما يعتمل في قلبك . تستولي عليك وحشة قوية ، وكأنك خسرت في لعبة قمار ، أو افلتت منك حماقة في غير محلها ، وباختصار : يضيق صدرك . الطين الذي عليها ساح من المطر ، والجدران صارت رقطاء بدلا من بيضاء . ومعظم السطوح مغطاة بالقصب ، كما هو الحال عادة في مدننا الجنوبية ، والحدائق قد اجتثت ، منذ زمان ، بأمر من حاكم البلدة لتحسين المنظر . وانت لا تلتقي في الشارع بنفس حيّة ، ما عدا ديكاً يقطع الجادة الناعسة ، كمخدة ، بسبب التراب المتراكم عليه بكثرة ، والذي يتحوّل الى وحل ، عند أقل مطرة ، وعند ذاك تمتلئ شوارع بلدة ب . بتلك الحيوانات السمينة * التي يسميها حاكم البلدة بـ«الفرنسيين» . اذ تخرج ابوازها الرصينة من بركها وترسل قباعاً لم تدع للمسافر إلا أن يطلق العنان لأفراسه . وعلى العموم تصعب مصادفة مسافر

* يقصد الخنازير . المترجم .

في بلدة ب . فمن النادر ، والنادر جداً أن يقعقع على الجادة مالك اراض صغير يملك أحدى عشر قناً ، في عربة ركوب وحمولة معاً ، وهو في سترته من القماش القطني الرخيص ، يحدق من اكياس الطحين المتكدسة ، ويسوط حصانه الكميت الذي تلاحقه مهرته . وساحة السوق نفسها ذات منظر في شيء من الكآبة حيث يوجد بيت الخياط مطلاً عليها بانحراف وليس بكل واجهاته ، وبطريقة غاية في البلاهة . وقبالته يجري منذ حوالي خمسة عشر عاماً بناء مبنى حجري ذي نافذتين . وأبعد من ذلك يقف مستقلاً بذاته سياج عصري من الالواح الخشبية مطليٍ بطلاء رمادي يلائم لون الوحل ، كان حاكم البلدة قد اقامه مثالا لمبانٍ اخرى ، حين كان في شبابه ، ولم يكن قد تعود آنذاك على نوم القيلولة غب الغداء ، ويشرب في الليل نقيع نباتات طبية مطعم بثمار عنب الثعلب الجافة . وفي الأماكن الأخرى لا توجد إلا الأسيجة من الاغصان المضفورة في الغالب الأعم . وفي وسط الساحة اصغر الدكاكين . وفي داخلها دائماً يمكن أن تقع عيناك على ضبنّة من الكعك المدّور ، وإمرأة ريفية تعتصب بمنديل أحمر ، وحُقَق من الصابون ، وبعض الأرطال من اللوز المُر ، وخردق للصيد ، وقماش قطني وبائعين من مساعدي التجار تجدهما في كل وقت يلعبان قرب الابواب لعبة التصويب على حلقة في الأرض . ولكن حالما رابط فوج الخيالة في بلدة ب . حتى تغيّر كل شيء . ازدهت الشوارع ، وانتعشت بالحركة ، وباختصار اتخذت مظهراً مغايراً تماماً . وغالباً ما اخذت البيوت الواطئة تشهد ضابطاً خفيف الحركة ممشوق القوام يمر بها ، بقبعته المزينة بالريش ، ذاهبا إلى رفيقه يحدثه عن الترقية ، وعن التبغ الممتاز ، واحياناً ليراهن في لعبة ورق على عربة ركوب صغيرة يمكن أن توصف بأنها «فوجية» لأنها كانت تستطيع أن ترضي الجميع ، حتى دون أن تغادر مقر الفوج . فاليوم اذا أقلها ضابط برتبة رائد ، فغداً ستظهر في اسطبل ملازم ، وبعد أسبوع ، ربما سترون مراسل ذلك الرائد مرة اخرى يدهنها بالشحم . والسياج الخشبي بين البيوت صار كله مغطى بطاقيات الجنود المعروضة لاشعة الشمس ، ولا بد أن يبرز معطف عسكري رمادي على احدى البوابات . واخذت الازقة تشهد

جنوداً بشوارب خشنة ، مثل فرش الاسكاف . وكانت هـذه الشوارب تشاهد في كل مكـان . واذا اجتمعت نسوة في سـوق بجرارهن فلا بد أن تطل شوارب من وراء أكتافهن . وعلى منصة العقوبات ترى جندياً مشوراً يحلق لحية ريفي أهوج ، كان لا يصدر منه إلا أنين ، وعيناه جاحظتان طالعتان الى فوق . وبعث الضباط الحياة في مجتمع البلدة الذي كان ، الى حين مجيئهـم ، يتألف فقط من القاضي الذي يسكن في بيت واحد مع شماسة ، وحاكم البلدة ، وهو رجل حصيف ، ولكنه يقضي اليوم كله في النوم : من وقت الغداء إلى المساء ، ومن المساء الى وقت الغداء . وصار المجتمع اكثر افراداً وامتاعاً حين نُقِل الى البلدة مقـر جنرال الفرقة ، وأخذ ملاكو الاراضي المحيطون بالبلدة ، والذين لم يخمن أحد قبل هذه بوجودهم ، يأتون اكثر اليها ، ليلتقـوا بالسادة الضباط واحياناً ليلعبوا معهم الورق ، وهو ما لم يكـن يدور الا بغموض شديد في رؤوسهم المشغولة بالبذار وتوصيات الزوجات واصطياد الارانب . ومن المؤسف جداً أن لا أتذكـر المناسبة التي بسببها اقام جنرال الفرقة مأدبة غداء كبيرة كان الاعداد لها هائلاً . فقد كانت ضربات سكاكين الطباخين في مطبـخ الجنرال تسمع بالقرب من بوابة البلدة تقريباً . وخصصت سوق البلدة كلها لهذه المأدبة بالتمام ، حتى كان على القاضي وشماسته أن يقتصرا في غدائهما على الرقائق المصنوعة من الحنطة السوداء ، وعلى سحلب النشا . وامتلأ فناء مسكن الجنرال الصغير بالعربات والعجلات . وكان الحضور من الرجال الضباط وبعض مالكـي الاراضـي المجاورين . وكان بيفاغـور بيفاغـوروفيتش تشرتوكوتسكي ، وهو من ارستقراطيي قضاء ب . الكبار ، اكثر هؤلاء الملاكين بروزاً ، واشدهم ضجيجاً عند الانتخابات التـي حضر اليها في مركبة انيقة . وكان ، من قبـل ، يخدم في أحـد افواج الخيالة ، وكان أحد الضباط المهمين البارزين . وعلى كـل حال كان يشاهد في العديد من حفلات الرقص والمحافل ، اينمـا كان ينتقل فوجهم ، وفي الامكان الاستفسار عن ذلك من آنسات ولايتي تامبوف وسيمبيرسك . وكان من المحتمل جداً أن يكون قد اقام لنفسه شهرة كبيرة في ولايات أخرى ، لو لم يتقاعـد

لسبب يوصف عادة بأنه قصة مؤسفة : إما لأنه سدد صفعة الى رجل في قديم الزمان وإما لأنه هو نفسه تلقى صفعة ، فانـا لا اتذكر على وجه التاكيد . كل ما في الأمر انه طلب ان يحال على المعاش . وعلى كل حال لم يدع ذلك يقلل من وزنه ابداً . فقد كان يرتدي الفراك بالخصر العالي ، على طـراز البزة العسكرية ، ويضـع مهمازين في حذائه ، وشاربين تحت أنفه ، لأن مـن الممكن ، بدون ذلك ، ان يظن النبلاء انه كان يخدم في المشاة الذين كان يسمّيهم احياناً بـ«المشائين» ازدراء ، واحياناً «مشاشين» . وكان يشهد كل الاسواق الريفية المزدحمة التى يتردد عليها مـا يؤلف جوف روسيا من الامهات والاطفال والبنات ومالكي الاراضي السمان ، طلباً للهو والمرح في عربات من مختلف الاصناف والحجوم ، بعضها لم تخطر على أحد حتى في الحلم . وكان يتشمم بأنفه موقع فوج الخيّالة ، ويأتي دائماً ليلتقي بالسادة الضباط . وكان يقفز نازلا أمامهم بمهارة شديدة من مركبته الخفيفة أو عربته ، ويتعارف معهم بسرعة بالغة . وفي انتخابات الاشراف السابقة اقام مأدبة غداء فاخرة للأشراف ، واعلن فيها أنه حالما ينتخب نقيباً لهم ، سيجعل الاشراف في أحسن مقام . وعلى العموم كان يتصرف على طريقـة الأسياد ، كما يقال عادة في الاقاليـم والولايات ، وتزوج إمرأة مليحة الى حد ما ، وأخذ صداقاً لها مائتي قن ، وبعض الألوف من رأسمال . واستخدم الرأسمال فوراً في اقتناء ستـة جياد ممتازة حقاً ، واقفالاً مذهبة للابواب ، وقرداً مستأنساً صغيـراً للبيت ، وخادماً فرنسياً . ورُهِن الاقنان المائتان مع الاقنان المائتيـن الذين يملكهم للقيام بعمليات تجارية . وباختصار كان مالك أراض ، كما ينبغي أن يكون المالك الممتاز . والى جانب ذلك كان في مأدبة الجنرال بعض ملاكي الاراضي الآخرين ، ولكن لا داعي للكلام عنهم . وبقية الحاضرين كانوا جميعا عسكريين من ذلك الفوج ، واثنين من ضباط الاركان ، احدهما برتبة عقيد ، والآخر رائد بدين الى حد ما . والجنرال نفسه كان ركيناً ممتلئاً ، ورئيساً جيداً ، على كل حال ، كما كان الضباط يصفونه . وكان يتكلم بصوت على قدر معين من الغلظة وارتفاع النبرة . كان الغداء فاخراً مؤلفاً من أنواع ممتازة من السمك وطيور الحبارى وخضرة الهليون ، وطيور السمـان ،

والحجل والفطر ، وكان كل ذلك يدلّ على أن الطباخ لم يضع منذ يوم أمس طعاماً ساخناً في فمه ، وقد عمل اربعة جنود مزودين بالسكاكين طوال الليل يساعدونه في طهي اللحم المفروم المقلي ومهلبية الفواكه . وكان كل شيء يتمم بعضه بعضاً : كثرة الزجاجات الطويلة من النبيذ الأحمر ، والقصيرة من خمرة المادييرا ، واليوم الصيفي الرائع ، والنوافذ المفتوحة على مصاريعها ، وصحون الثلج على طاولة ، وآخر زر الياقة المفتوح في بزات السادة الضباط ، وقبة الصدر الناتئة لذوي الفراك العريض والحديث العام ، الذي يطغي عليه صوت الجنرال ، والشمبانيا المسكوبة . وبعد الغداء نهض الجميع بثقل مريح في المعدة ، وخرجوا إلى مدخل البيت حاملين اقداح القهوة ، بعد أن أشعلوا غلايينهم الطويلة والقصيرة .

كانت سترات الجنرال والعقيد وحتى الرائد غير مزررة كلياً ، حتى كانت تظهر قليلاً حمالات البنطلون الحريرية الفاخرة ، ولكن السادة الضباط حفظاً على الاحترام الواجب أبقوا ستراتهم مزررة ما عدا الازرار الثلاثة الأخيرة .

قال الجنرال :

– والآن يمكن أن نراها . من فضلك ، يا محترم – قال مخاطباً مرافقه ، وهو شاب خفيف الى حد ما ذات مظهر لطيف – اطلب أن يجلبوا الفرس الكميت الى هنا ! وسترونها انفسكم – ومصّ الجنرال مصة من غليونه ، ونفث الدخان ، ومضى يقول – لم تلق الرعاية التامة بعد . فهذه بلدة لعينة ليس فيها اسطبل معتبر . الفرس ، بوف ، بوف ، معتبرة جداً .

قال تشرتوكوتسكي مخللاً كلامه بمصّات من غليونه كما يفعل الجنرال :

– هل هي لديك ، بوف ، بوف ، منذ زمان ، يا صاحب السعادة ؟

– بوف ، بوف ، بوف . . . يعني . . . بوف ، ليس كثيراً . سنتان فقط ، منذ أن أخذتها من المزرعة !

– وأخذتها مروّضة ، أم روضتها هنا ؟

– بوف ، بوف . بو ، بو ، بو . . وو . . . ف . هنا .

وبعد أن قال ذلك أختفى الجنرال كله في الدخان .

وخلال ذلك طلع جندي من الاسطبل متوثباً ، وتردد وقع حوافر حصان ، وأخيراً ظهر جندي آخر في جلباب عريض من القماش الأبيض البسيط له شاربان أسودان ضخمان ، وهو يقود فرساً جافلة مذعورة رفعت رأسها فجأة ، وكادت ترفع الى فوق الجندي الذي انحنى حتى الأرض سوية مع شاربيه . فكان يقول ، وهو يقترب بها من المدخل : «مهلاً ، مهلاً ، اغرافينا ايفانوفنا !»

كان اسم الفرس اغرافينا ايفانوفنا ، وهي فرس قوية غير مطواعة كحسناء جنوبية ، ضربت مدخل البيت الخشبي بحوافرها ، وتوقفت فجأة .

انزل الجنرال غليونه ، وأخذ ينظر الى اغرافينا ايفانوفنا بادي الارتياح . والعقيد نفسه نزل درجات المدخل ، وأمسك الفرس من بوزها . أما الرائد فربّت على ساق أغرافينا ايفانوفنا . وتمطق الآخرون بألسنتهم .

نزل تشرتوكوتسكي درجات المدخل ، وجاءها من الخلف . انتصب الجندي بقامته ، وهو ممسك بالمقود ، وحدّق في عيون الزوّار ، وكأنما كان يريد الوثوب عليها . قال تشرتوكوتسكي :

– حلوة جداً جداً ! فرس أصيلة ! وكيف سيرها ، يا صاحب السعادة ؟

– خطوها جميل . سوى أن البيطري الأحمق . . . عليه اللعنة ، اعطاها قرص دواء ، وهي منذ يومين تعطس طول الوقت .

– حلوة جداً جداً . وهل لديك مركبة مناسبة لها ، يا صاحب السعادة ؟

– مركبة ؟ . . . ولكن هذه فرس ركوب .

– أعرف هذا ، ولكنني سألت سعادتك لأعرف هل لديك مركبة لخيول أخرى .

– ليست لديّ كثير من المركبات . واقول لك بصراحة منذ زمان وأنا أودّ أن تكون لي عربة حديثة . وقد كتبت بذلك لأخي الذي هو الآن في بطرسبورغ ، ولكن لا ادري هل سيرسلها أم لا .

قال العقيد :

– يبدو لي ، يا صاحب السعادة ، ليس هناك أحسن من العربة ، صناعة فينا .

– كلامك صحيح ، بوف ، بوف ، بوف .

– عندي ، يا صاحب السعادة ، عربة رائعة ، صناعة فيناوية اصيلة .

– اية عربة ؟ التي جئت فيها ؟

– لا . هذه عربة للاستخدام اليومي ، على الاخص لسفراتي ، ولكن تلك العربة . . . . مذهلة ، خفيفة كالريشة . وحين تجلس فيها تشعر ، مع الاعتذار يا صاحب السعادة ، وكانه المربيـــة تهزّك في مهد .

– يعني مريحة ؟

– مريحة جداً جداً . وسائد ، نوابض . كل شيء وكانما في لوحة تبهج النظر .

– هذا لطيف .

– وسعتها لا توصف ! أقصد ، يا صاحب السعادة ، لم أر ، مثيلة لها قط . عندما كنت في الخدمة كنت اضع في صناديقهـــا عشر زجاجات روم ، وعشرين رطلاً من التبغ ، بالاضافة الى ذلك حوالي ست بزات رسمية ، وملابس داخلية ، وشبّكين طويلين جداً كالدودة الوحيدة وارجو المعذرة على هذا التشبيه . أما جيوبهـــا فيمكن أن تستوعب ثوراً كاملاً .

– هذا لطيف .

– دفعت عنها ، يا صاحب السعادة ، اربعة آلاف .

– لا بد أنها جيدة ، ما دامت بهذا الثمن . انت الذي اشتريتها بنفسك ؟

– لا ، يا صاحب السعادة ، حصلت عليها مصادفة . اشتراها صديق لي ، وهو رجل نادر ، رفيق طفولتي كنت ستصادقـــه بالتاكيد ، لو التقيت به . لا فرق أن يكون هذا الشيء له أو لي . هكذا كانت الحال بيننا . وقد ربحتها منه في لعبة ورق . اذا كنت تحب ، يا صاحب السعادة ، فتفضل للغداء عنـدي غداً ، وسنرى العربة سوية . سيكون هذا شرفاً لي .

– لا اعرف ماذا اقول لك . لوحدي يبـــدو . . . . إلا اذا سمحت باصطحاب الضباط .

– وليتفضل السادة الضباط ايضاً . أيها السادة ، يشرفني شرفاً كبيراً أن استمتع برؤياكم في بيتي .

شكره العقيد والرائد وبقية الضباط بانحناءة احترام .

– من رأيي ، يا صاحب السعادة ، اذا كنت تشتري شيئاً ، فاشتره من نوعية جيدة ، فان الردىء لا يستحق أن يُقتنى . اذا شرفتموني غداً فسأريكم اشياء اقتنيتها بنفسي لاستخدامها فـــي مزرعتي .

ونظر الجنرال ، ونفث الدخان من فمه .

ارتاح تشرتوكوتسكي كثيراً من دعوته السادة الضباط الى بيته ، ولكنه أعد في ذهنه مقدما معجنات اللحم والصلصات ، وراح يتطلع ببهجة شديدة الى السادة الضباط الذين ضاعفوا بدورهم من ميلهم اليه ، وقد ظهر ذلك في عيونهم وحركات اجسادهم الصغيرة الشبيهة بنصف انحناءات . واخذ تشرتوكوتسكي يتصرف ببحبوحة اكثر ، ولاح ارتخاء في صوته . فقد اتخذ نبرة مثقلة بالارتياح .

– وستتعرفون عندنا ، يا صاحب السعادة ، بربّة البيت .

قال الجنرال ممسداً شاربيه :

– سأكون مسروراً جداً .

وبعد ذلك أراد تشرتوكوتسكي أن يسرع في التوجه الى بيته ، يهيئ كل شيء ، في ابانه ، لاستقبال الضيوف على الغداء يوم غد . وكان قد تناول قبعته لينصرف ، الا انه ويا للغرابة تأخر لبعض الوقت لسبب ما . في غضون ذلك كانت طاولات اللعب قد وضعت في الغرفة . وسرعان ما تـــوزع الحاضرون اربعة اربعـــة للعب «الويست» ، وجلسوا في اركان مختلفة من غرفة الجنرال .

وقدمت الشموع . ظل تشرتوكوتسكي لا يعرف لوقت طويل هل يتوجب عليه ان يجلس ليلعب ام لا . ولكن حالما اخذ الســـادة الضباط يدعونه ، بدا له الرفض لا يتماشى مع قواعد العشرة . فجلس . ودون أن يشعر وجد أمامه قدحاً من «البونش» الذي شربه في الحال ساهياً . وبعد دورتين متتاليتين من اللعب ، وجـــد تشرتوكوتسكي قدحاً آخر من «البونش» قرب يده ، مرة أخرى ، فشربه ، على الفور بسهو ايضا ، بعد أن قال مسبقاً : «حان أوان عودتي الى البيت ، يا سادة ، حان حقا» . ولكنه جلس مرة اخرى

للعب جولة ثانية . وفي غضون ذلك اتخذ الحديث في مختلف الأركان طابعاً شخصياً تماماً . كان اللاعبون صموتين الى حد كبير ، ولكن المتفرجين الجالسين على الارائك في ناحية كانوا يجرون الحديث فيما بينهم . في احد الاركان كان نقيب اركان يروى بطلاقة وسيولة والمخدة تحت جنبه ، والغليون بين اسنانه ، عن مغامراته الغرامية ، حتى استحوذ تماماً على اهتمام الحلقة المجتمعة قربه . وكان مالك اراض بدين للغاية ذو ذراعين قصيرين تشبهان ، الى حد ما ، عرقين ناضجين من البطاطس ، يصغي والطلاوة على وجهه بشكل غير اعتيادي ، ومن حين لآخر فقط ، كان يجاهد ليمد ذراعه القصيرة ، وراء ظهره العريض ليخرج علبة النشوق من هناك . وفي زاوية أخرى انعقد جدال ساخن نوعاً ما عن تدريب الكوكبة ، وكان تشرتوكوتسكي الذي رمى فى ذلك الوقت ملكة مرتين بدلاً من الولد يتدخل في حديث الآخرين ، ويصيح من ركنه : «في اي سنة هذا ؟» او «في اي فوج ؟» دون أن يفطن الى أن سؤاله في بعض الاحيان في غير محله تماما . واخيراً ، وقبل بضع دقائق على موعد العشاء انتهت لعبة «الويست» ، ولكن الكلام استمر حولها ، وبدا وكأن رؤوس الجميع كانت مملوءة بالويست . كان تشرتوكوتسكي يتذكر جيداً أنه ربح كثيراً ، ولكنه لم يمسك شيئا من المال بيديه وحين نهض من وراء الطاولة وقف طويلاً في وضع انسان ليس في جيبه منديل لمسح أنفه . وخلال ذلك قُدم العشاء . وطبيعي أن انواع المشروبات لم تكن تعاني من أي نقص ، وأن تشرتوكوتسكي كان احياناً يجد نفسه ملزماً بشكل لاارادي تقريباً بأن يصب لنفسه قدحاً ، لأن زجاجات الخمرة كانت تحاصره من يمين وشمال .

استطال الحديث حول المائدة كثيراً ، ولكن فيه شيئاً من الغرابة . فقد حكى أحد الملاكين الذي كان يخدم اثناء حملة ١٨١٢ عن معركة لم تجرِ قط ، وبعد ذلك ، ولاسباب مجهولة كلياً تناول سدادة من دورق ، ودحسها في فطيرة . وباختصار ، حين أخذوا ينصرفون كانت الساعة الثالثة ، وكان على الحوذية أن يمسكوا بعض الاشخاص بين اذرعهم كما يمسكون صرر المشتريات ، أما تشرتوكوتسكي فعلى الرغم من ارستقراطيته ، وجد نفسه ينحني ،

لدى ركوبه عربته ، انحناءة شديدة من رأسه ، حتى أنه حين وصل الى بيته ، جلب في شاربيه شوكتين من راعي الحمام .

كان أهل البيت جميعاً نائمين . عثر الحوذي بصعوبة على الخادم الذي قاد سيده عبر غرفة الاستقبال ، وسلمه إلى الوصيفة التي سار تشرتوكوتسكي وراءها ، حتى وصل الى غرفة النوم بطريقة ما ، واستلقى جنب زوجته الشابة المليحة التي كانت تضطجع بشكل فاتن في ثوب نوم ناصع البياض كالثلج . ايقظتها الحركة التي اثارها زوجها بسقوطه على السرير . تمطّت ورفعت رموشها ، وقلّصت عينيها بسرعة ثلاث مرات ، ثم فتحتهما بابتسامة شبه غاضبة . ولكنها حين رات انه في هذه المرة لا يريد ان يلاطفها اطلاقا ، استدارت على الجنب الآخر في غيظ ، وألقت خدها الغض على يدها ، وسرعان ما غفت بعده بقليل .

استيقظت ربة البيت الشابة جنب زوجها الشاخر في ساعة لا يمكن أن توصف **بالمبكرة** ، حسب عادة القرى . وحين تذكرت أنه عاد الى البيت يوم أمس بعد الساعة الثالثة اشفقت عليه ، ولم توقظه ، وارتدت خفّها البيتي الذي كان زوجها قد اوصى عليه من بطرسبورغ ، وبلوزة بيضاء ، غمرت جسدها كالماء المنسكب ، وخرجت الى غرفة المغسلة ، واغتسلت بماء طازج مثلها ، واقتربت من صوان زينتها . وتطلعت الى نفسها مرتين ، ورات أنها اليوم نضرة جداً . والظاهر ان هذه المسألة غير المهمة أجبرتها على الجلوس امام المرآة ساعتين كاملتين زيادة . واخيراً تحلّت ببديع الثياب ، وخرجت تشمّ الهواء الطلق في الحديقة . وكان الطقس ، من نكد الحظ ، رائعاً في تلك الساعة ، مثلما هو في اجود نهار صيفي من نهارات الجنوب . والشمس قد صعدت الى كبد السماء ، وراحت تشوي بوقدة اشعتها ، ولكن التمشي في الدروب المعرّشة المعتمة الكثيفة الظل يبعث طراوة في الجسد ، والزهور التي ادفئتها الشمس ضاعفت رائحتها . وغاب عن بال ربة البيت الحلوة تماما أن الساعة بلغت الثانية عشرة ، وزوجها ما يزال نائماً . وبلغ سمعها شخير الحوذية الذين كانوا ينامون القيلولة بعد الغداء في الاسطبل وراء الحديقة . ولكنها ظلت جالسة في الدرب المعرّش الكثيف الظل الذي يطل على منظر من الطريق العامة ، تحدّق في شرود بال إلى العراء

الخالي ، واذا، بغبار متصاعد من بعيد يجذب انتباهها . أمعنت النظر ورأت ، بعد وقت قصير ، بعض المركبات . في المقدمة سارت عربة خفيفة مكشوفة ذات مقعدين ، جلس فيها الجنرال بكتافيتيه السميكتين اللامعتين في الشمس ، والى جانبه العقيد . ووراءها عربة أخرى ذات أربعة مقاعد ، وفيها الرائد ومرافق الجنرال وقبالتهما ضابطان ، ووراء العربة عجلة الفوج المعروفة للجميع ، وكانت في هذه المرة من نصيب رائد بدين ، ووراء العجلة عربة سفر عتيقة الطراز ذات اربعة مقاعد جلس فيها أربعة ضباط ، وخامس على الأيدي . . . ووراء عربة السفر كان يتبختر ثلاثة ضباط على جياد كميتية اللون جميلة ذات طرر داكنة .

وفكرت ربة البيت مع نفسها : «هل معقول أنهم قادمون الينا ؟ آه ، يا ربي ! بالفعل ، استداروا نحو القنطرة !» وندت منها صيحة ورفعت ذراعيها بيأس ، وركضت خلال حوض الزهور إلى مخدع زوجها . كان هذا يغط بنوم عميق .

صاحت وهي تجذبه من يده :

– انهض ! انهض ! انهض بسرعة !

– ها ؟

قال تشرتوكوتسكي متمطياً ، دون أن يفتح عينيه .

– انهض ، يا حبجوب ! تسمع ؟ ضيوف !

– ضيوف ، اي ضيوف ؟ – قال ذلك وأصدر خواراً قصيراً ، كذلك الذي يصدره عجل ، حين يبحث ببوزه عن ضروع أمه – ممم . . . – دمدم – مدّي عنقك ، يا ممو ! لأقبّلك !

– انهض ، يا روحي ، بسرعة ، بحق الرب . جنرال وضباط ! آه ، يا إلهي ، في شاربيك علق قرّاص .

– جنرال ؟ آه ، يعني في طريقه الينا ؟ ولكن ، اللعنة ، كيف لم يوقظني أحد ؟ والغداء ، الغداء ، هل أعد كل شيء حسب الاصول ؟

– اي غداء ؟

– معقول لم أوص على غداء ؟

– انت ؟ وصلت في الساعة الرابعة ليلاً ، وكم سألتك ، ولكن لم تقل لي شيئاً . ولم أوقظك ، يا حبجوب ، لأنني أشفقت

على حالتك . . . فأنت لم تنم .

وقالت الكلمتين الاخيرتين بصوت حنون للغاية ومتضرع .

أجحظ تشرتوكوتسكي عينيه ، ولدقيقة ظل راقداً في الفراش كالمصعوق . واخيراً قفز من السرير في قميص النوم وحده ، وقد نسي أن ذلك لا يليق به كلياً . ضرب جبينه بيده ، وقال :

– آخ ، انا حصان ! كنت قد دعوتهم على الغداء . ما العمل ؟ هل هم بعيدون ؟

– لا أدري . . . لا بد أنهم سيصلون في هذه الدقيقة .

– يا روحي . . . اختبئ ! . . هاي ، يا من هناك ! انت ، يا بنت ! اذهبي ، يا حمقاء ، ممن تخافين ؟ سيصل ضباط الآن . فقولي لهم إن السيد ليس في البيت . قولي إنه لن يعود اليوم ، وقد رحل في الصباح . تسمعين ؟ وأبلغي ذلك لجميع الخدم ، اذهبي ، اسرعي !

وبعد أن قال ذلك اسرع في اختطاف روبه ، وركض ليختبئ في سقيفة العربات اذ رأى انه سيكون في أمان هناك . ولكنه حين وقف في ركن من السقيفة وجد أن في الامكان أن يروه حتى هنا . ولمع في ذهنه «هذا سيكون أحسن» . وفي الحال انزل مرقاة العربة القريبة منه ، وقفز الى داخلها ، وأغلق بابها وراءه ، ولمزيد من الأمان اغلق الكوة بستارها الجلدي ، وسكن تماماً منطوياً في روبه .

وفي غضون ذلك وصلت المركبات إلى مدخل البيت .

خرج الجنرال ، ونفض ثيابه ، وأعقبه العقيد ، وهو يعدل الريش على قبعته . ثم قفز الرائد البدين من العربة الصغيرة ، متأبطاً سيفه . ثم قفز من عربة السفر ضباط نحاف برتبة ملازم أول مع الملازم الثاني الذي كان جالساً على ايديهم ، واخيراً ترجّل الضباط الذين كانوا يتبخترون على صهوات جيادهم .

قال الخادم ، وقد خرج الى مدخل البيت :

– السيد غير موجود في البيت .

– كيف غير موجود ؟ يعني سيعود في موعد الغداء ؟

– لا . غادر لقضاء اليوم كله في الخارج . غداً في مثل هذا الوقت فقط سيكون في البيت .

قال الجنرال :

– يا للمفاجأة . كيف هذا ؟

قال العقيد ضاحكاً :

– هذا مقلب ، بصراحة .

– ولكن كيف يمكن هذا ؟ – مضى الجنرال مستاء – فو . . . اللعنة . . . طيب ، اذا كان لا يستطيع أن يستقبل الناس ، فلماذا يترجاهم للحضور ؟

قال أحد الضباط الشبان :

– انا لا أفهم ، يا صاحب السعادة ، كيف يمكن أن يقوم بهذا .

– ها ؟

قال الجنرال ، وكانت له عادة النطق بعلامة الاستفهام هذه ، حين يتحدث إلى ضابط أقل مرتبة .

– كنت اقول ، يا صاحب السعادة ، كيف يمكن التصرف بهذا الشكل ؟

– بالطبع . . . طيب ، اذا كان قد حصل شيء فأخبرنا على الأقل ، او لا تترجانا للمجيء .

قال العقيد :

– ليس امامنا ، يا صاحب السعادة ، غير الرجوع من حيث اتينا !

– بالطبع ، ولا سبيل آخر . على العموم نستطيع أن نتفرج على العربة بدونه ايضاً . لا اظنه قد اخذها معه . هاي ، يا مَنْ هناك ، تعال ، يا اخ ، هنا !

– ماذا تأمرون ؟

–هل انت سائس ؟

– نعم ، يا صاحب السعادة .

– دلّنا على العربة الجديدة التي حصل عليها السيد قبل وقت قصير .

– تفضلوا الى السقيفة .

توجه الجنرال إلى السقيفة برفقة الضباط .

– اسمحوا لي أن أدفعها قليلاً ، فالمكان مظلم هنا .

– كفاية ، كفاية ، هذا جيد !

طاف الجنرال والضباط حول العربة ، وتفقدوا العجلات والنوابض بعناية . وقال الجنرال :

– ليس فيها ما يلفت النظر . عربة اعتيادية تماماً .

وقال العقيد :

– في غاية القبح . لا يوجد فيها اي شيء جيد اطلاقاً .

قال احد الضباط الشبان :

– يبدو لي ، يا صاحب السعادة ، أنها لا تساوي اربعة آلاف كلياً .

– ها ؟

– اقول ، يا صاحب السعادة ، أنها ، كما يتهيأ لي ، لا تساوي اربعة آلاف .

– ولماذا اربعة آلاف ! لا تساوي حتى الفين . لا شيء يُغرى فيها اطلاقاً . إلا اذا كان في داخلها شيء متميز . . . أرجوك ، يا محترم ، أن تفكّ الستار الجلدي . . .

ووقعت عيون الضباط على تشرتوكوتسكي جالساً في الروب ، مطوي الجذع بشكل غريب .

وقال الجنرال مندهشاً :

– ها ؟ انت هنا ؟

وبعد أن قال هذا صفق باب العربة ، وغطى تشرتوكوتسكي بالستار من جديد ، وغادر ومعه السادة الضباط .

مالكو ايام زمان

احب كثيراً الحياة المتواضعة لأولئك الملاكين المنعزلين الذين يسمون في مالوروسيا • عادة بملاكي ايام زمان ، بقراهم النائية ، لانهم كبيوت صغيرة قديمة جميلة رائعة في بساطتها وتضادها العام مع المبنى الجديد الصقيل الذي لم يمسح المطر جدرانه بعد ، ولم تغط سطحه الأشنة الخضراء ، ومدخله غير المملوط لا يُظهر آجره الأحمر . احب احياناً ان انغمر لحظة في جو هذه الحياة المنقطعة بشكل غير اعتيادي ، حيث لا تتخطى أية رغبة السياج المصمت المحيط بفناء صغير ، والسياج المضفور لحديقة البيت المملوءة بأشجار التفاح والاجاص ، والاكواخ الخشبية المحيطة به ، والممالة الى جنب ، تظللها أشجار الصفصاف والبلسان والكمثرى . إن حياة ملاكيها المتواضعين هادئة جداً ، حتى لتنسى لحظة ، وتظن ان الاهواء والرغائب وما يولده في النفس روح الشر من قلق يعكر صفو الهدوء والسكينة ، لا وجود لها اطلاقاً ، وانك لم ترها الا في حلم لامع براق . من هنا أرى بيتاً واطئاً له رواق من اعمدة خشبية صغيرة مسودّة يحيط في البيت كله ، ليكون في الامكان اغلاق صفاقات النوافذ اثناء الرعد والمطر المدرار والبَرَد دون ان يبلله المطر . ووراء البيت شجرة كرز

• هو اسم قديم لأوكرانيا الحالية . **المترجم** .

بري شذية ، وصفوف كاملة من شجيرات الفاكهة القصيرة الغارقة في ارجوانية الكرز ، والبحر الياقوتي للأجاص الكامد ، وشجرة قيقب كثيفة الاغصان فرش في ظلها بساط للاستراحة . وامام البيت فناء رحب ذو عشب قصير غض ، ودرب مدكوك يصل الشونة بالمطبخ ، والمطبخ بحجرات اهل البيت ، ووزة طويلة العنق تشرب الماء مع وزيزات صغيرة ناعمة كالريش . والسياج المصمت تتدلى منه حزم الكمثرى والتفاح المجفف ، وأبسطة وضعت لتتهوى ، وعربة شمام تقف قرب الشونة ، وثور محلول يرقد كسولاً قربها . كل هذه تمتلك عندي فتنة لا يمكن تعليلها ، ربما لأنني لن أعود اراها ، ولأننا نتعشق كل ما نفارقه . ومهما يكن من شيء ، فان روحي كانت ، حتى حين تقترب عربتي من مدخل هذا البيت ، تغمرها حالة مدهشة من السكينة والارتياح ، وكانت الخيول تتقدم من المدخل مرحة الاعطاف ، والحوذي ينزل من مقعده بكثير من الهدوء ، ويحشو غليونه ، وكأنما وصل الى بيته . وحتى النباح الذي كانت الكلاب الفاترة ترسله كان يلذ لاذني . ولكن اكثر ما كان يعجبني هم أصحاب هذه البقع المتواضعة شيوخاً وعجائز يخرجون للقائك في ترحاب . وحتى الآن تتراءى لي وجوههم احياناً في الصخب والزحام ، وسط بدلات الفراك الحديثة ، فيداهمني نعاس مفاجئ واتخيل ما مضى . لقد كانت على وجوههم دائماً طيبة وحفاوة ونقاوة قلب تجعلك تنبذ لا ارادياً ، ولبعض الوقت ، على اقل تقدير ، كل الامنيات النزقة ، وتنتقل بكل مشاعرك ، ودون ان تدري ، في الحياة الرعوية الواطئة .

وانا لحد الآن لا استطيع ان انسى شيخين من القرن الماضي ، هما الآن ويا للأسف ! قد فارقا الحياة ، ولكن روحي ما تزال ، حتى الآن مترعة بالشفقة ، ومشاعري تنعصر على نحو غريب ، حين أتصور انني بمرور الزمن سأصل مرة اخرى الى مسكنهما السابق الخاوي الآن ، وأرى مجموعة من الاكواخ المتداعية ، وبركة ناضبة ، وتجويفاً معشوشباً في مكان الذي كان فيه البيت الواطئ ولا شيء آخر . وحشة ! أحس مسبقاً بوحشة . ولكن لنعد الى القصة .

كان افانسي ايفانوفيتش توفستوغوب ، وزوجته بولخيريا

ايفانوفنا توفستوغوبيخا ، على حد تعبير الريفيين المجاورين ، شيخين من اولئك الذين بدأت قصتي بهم . ولو كنت رساما ، واردت ان أصور فيليمون وبوسيس * على القماشة ، لما اخترت نموذجين غيرهما . كان افانسي ايفانوفيتش في الستين ، وبولخيريا ايفانوفنا في الخامسة والخمسين . وكان افانسي ايفانوفيتش مديد القامة يرتدي دائماً معطفاً طويلاً من فراء الغنم ، مغطى بقماش صوفي ، وكان يجلس محني الظهر ، دائم الابتسام تقريباً حتى ولو كان يتحدث او يسمع . وكانت بولخيريا ايفانوفنا أميل الى الرصانة قليلاً ، لا تكاد تضحك . ولكن على وجهها وفي عينيها من الطيبة ومن الاستعداد لاستضافتكم على أحسن ما لديهما ، حتى لأظنكم ستجدون الابتسامة زيادة في الحلاوة لوجهها الطيب . وكانت الغضون الخفيفة على وجهيهما من اللطف بحيث سيسرقها الرسام بالتأكيد . وكان يبدو ان في الامكان أن ينقرا بهما كل حياتهما الصافية الهادئة ، الحياة التي كانت تعيشها العوائل الاوكرانية البسيطة القلوب ، والغنية في الوقت ذاته ، والتي تقف دائماً في الجهة المضادة لتلك العوائل الوضيعة في مالوروسيا ، التي تتحدر من فئة الحرفيين والباعة ويملأون كالجراد ، المكاتب والدوائر ، وتنتزع آخر فلس من مواطنيهما ، وتغرق بطرسبورغ بالوشاة ، حتى تجمع اخيراً رأسمالاً ، وتضيف لالقابها في نشوة الانتصار ، نهايات لتبدو بذلك في روسيتها . لم يكونا يشبهان هذه المخلوقات المحتقرة الوضيعة ، شأنهما شأن كل العوائل الأصيلة العريقة في مالوروسيا .

كان لا يمكن ان تنظر الى حبهما المتبادل بدون تعاطف . كانا دائماً لا يتخاطبان بضمير المفرد «انت» بل «انتم» دائماً . انتم ، يا افانسي ايفانوفيتش ، انتم ، يا بولخيريا ايفانوفنا . «هل انتم كسرتم المقعد ، يا افانسي ايفانوفيتش ؟» «لا يهم ، لا تغضبن ، يا بولخيريا ايفانوفنا . انا الذي كسرته» ** . ولم يكونا قد رزقا

* زوج وزوجة في الاساطير الاغريقية يرمزان الى السعادة في الحياة الزوجية والوفاء الزوجي . **المترجم** .

** فيما بعد سيستعمل ضمير المفرد لثقل المنطق في جمع المؤنث بالعربية . **المترجم** .

باطفال ، وبسبب هذا كان كل تواشجهما ينصب على نفسيهما . في صباي كان افانسي ايفانوفيتش يخدم في فوج خيالة من المتطوعين ، وبعد ذلك صار برتبة رائد ثان ، ولكن ذلك كان منذ زمان مغرق بالبعد ، حتى ان افانسي ايفانوفيتش كان لا يكاد يذكر ذلك . كان افانسي ايفانوفيتش قد تزوج في سن الثلاثين ، حين كان رجلاً شاطراً ، وكان يلبس صداراً طويلاً مطرزاً ، بل وخطف بولخيريا ايفانوفنا بشطارة كبيرة ، وكان اقاربها لا يريدون تزويجها له . ولكن حتى هذا قلّما يتذكره ، او لا يتحدث عنه ابداً على اقل تقدير .

كل هذه الحوادث الفريدة القديمة حلت محلها حياة هادئة ومنعزلة ، وتلك الرؤى الناعسة والمتسقة في الوقت ذاتها ، التي تحسونها ، وانتم جالسون في شرفة بيت ريفي مطلة على حديقة ، والمطر الجميل يضج بأبهة ، ضارباً اوراق الشجر ، منساباً بجداول رقراقة ، مستدعياً النعاس في اوصالكم كلها ، وفي ذات الوقت ينسل قوس قزح من وراء الاشجار ويزين السماء بألوانه السبعة الكدرة ، على شكل قنطرة نصف مهدمة . أو حين تهدهدكم عربة تغوص بين أجمات خضر ، وطائر السمان السهبي يهدر ، والعشب الشذي ينسل من باب عربتكم مع سنابل القمح ، وزهور الحقل ويداعب ايديكم ووجوهكم بلطف .

كان دائماً يستمع ، والابتسامة الحلوة على شفتيه ، الى الضيوف الوافدين عليه ، واحياناً يتكلم هو نفسه ، ولكنه يستفسر في اكثر الاحيان . لم يكن من اولئك الشيوخ الذين يضجرون باطراءات مستديمة للزمان السالف أو بعتابهم على الجديد . انه ، على العكس ، كان في استفساراته لكم ، يظهر حب استطلاع كبيراً ، وتعاطفاً مع ظروف حياتكم ، ومع النجاحات والاخفاقات ، التي تستهوي عادة كل الشيوخ الطيبين ، رغم ان ذلك يشبه ، بعض الشيء ، فضول طفل يتملى طرة ساعتكم ، وهو يتحدث معكم . حينذاك يمكن أن يقال ان وجهه ينضح بالطيبة .

كانت حجرات البيت الصغير الذي يسكنه شيخانا ، صغيرة ، واطئة السقف ، كتلك التي ترونها عادة لدى ناس أيام زمان . وكانت كل حجرة مزودة بموقد ضخم يحتل ثلثها تقريباً .

كانت هذه الحجرات دافئة بشكل مفرط ، لأن افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا كليهما يحبان الدفء . وكانت الوجاقات كلها موصولة في الرواق الذي كان مملوءاً الى السقف تقريباً بالقش الذي يستخدم عادة في مالوروسيا بدلاً من الحطب . وفرقعة هذا القش المشتعل والاضاءة تجعلان الرواق مريحاً للغاية في امسية الشتاء ، حين تدخل اليه راكضاً ، وقد تتثلج في ملاحقة لسمراء ، تصفق كفاً بكف طلباً للدفء . وكانت جدران الحجرات مزينة ببعض الصور واللوحات في اطر ضيقة قديمة . وانا على يقين من أن رب البيت وربته قد نسيا مضامينها منذ زمان بعيد ، وانهما في الغالب لن يلحظا شيئاً ، اذا رفع بعض منها . كانت صورتان منها كبيرتين مرسومتين بألوان زيتية . كانت احداهما تصور اسقفاً ، والثانية بطرس الثالث . وكانت تطل من أطار ضيق الدوقة لافاليرر يبقعها الذباب . وحول النوافذ وفوق الأبواب كان يوجد عدد كبير من الصور الصغيرة يتعود المرء ان يعتبرها بقعاً على الجدار فلا يمعن النظر فيها مطلقاً . وكانت ارضية جميع الغرف تقريباً طينية ، ولكنها مطلية بدقة ، ومنظفة دائماً ذلك التنظيف الذي قد لا تجدونه في ارضية خشبية في بيت ميسور ، كنسها بتكاسل سيد ناعس في بدلة خدم .

وكانت الصناديق والعلب من مختلف الحجوم تملأ حجرة بولخيريا ايفانوفنا ، والعديد من الصرر واكياس بذور الزهور والخضار والبطيخ يتدلى من جدرانها . وكان العديد من وشائع الصوف المختلف الالوان ، ومزق الثياب العتيقة التي خيطت قبل نصف قرن من الزمن ، موضوعة في الاركان ، في الصناديق ، وما بين الصناديق . كانت بولخيريا ايفانوفنا ربة بيت مقتدرة ، تجمع كل ما لم تكن هي نفسها تعرف احياناً ما اذا كانت ستستفيد منه فيما بعد .

الا أن الابواب الصداحة كانت اروع ما في البيت ، وما ان يطلع الصباح حتى يملأ صداح الابواب البيت كله . وانا لا أعلم علم اليقين لماذا هي تصدح : أبسبب مفاصلها الصدئة ، أم أن الصانع الذي اثبتها اخفى سراً فيها ، ولكن الرائع ان كل باب كان له صوته الخاص : الباب المؤدي الى حجرة النوم كان يصدح

بصوت طفولي رقيق ، والباب المؤدي الى حجرة الطعام ينخر بصوت عالي الطبقة ، ولكن باب الرواق كان يصدر صوتاً غريباً مرتعشاً ومتوجعاً في الوقت ذاته ، حتى اذا أصغيت اليه سمعته اخيراً ينطق بكثير من الوضوح : «يا أولياء ، انا متجمد !» . انا أعرف ان الكثيرين لا يعجبهم هذا الصوت ، ولكنني احبه كثيراً ، وحين يصادف احياناً أن أسمع هنا صريف باب ، تنداح امام خيالي فجأة قرية وحجرة واطئة مضاءة بشمعة في شمعدان قديم ، وطعام عشاء جاهز على المائدة ، وليل داج من أيار ، يطل من الحديقة من خلال شباك مفتوح ، على مائدة صفت عليها أدوات الطعام ، وبلبل يملأ بصداحه الحديقة والبيت ، والنهر البعيد ، وحفيف اغصان مرعب . . . اوه ، يا ربي ، وعند ذاك تنفك امامي وشيعة طويلة من الذكريات !

كانت مقاعد الحجرة خشبية ضخمة كتلك التي كانت سمة من سمات الزمن السالف . وكانت لجميعها ظهور عالية مسحوجة ، في شكلها الطبيعي ، دون طلاء صاقل ولا صبغ ، بل ولم تكن مبطنة بقماش ، وكانت تشبه ، بعض الشيء المقاعد التي يجلس عليها الاساقفة حتى الآن . كان كل اثاث البيت البسيط الذي كان يعيش فيه شيخاي لا يزيد تقريباً على مناضد مثلثة في الاركان ، ومنضدة مربعة أمام الأريكة ، واخرى امام مرآة في أطار رقيق مذهب مصنوع على شكل اوراق نثر الذباب عليها بقعاً سوداً . وبساط امام الأريكة عليه رسوم طيور تشبه الزهور ، ورسوم زهور تشبه الطيور .

كانت حجرة الخدم مكتظة بفتيات شواب وغير شواب يرتدين أثواباً داخلية مخططة ، كانت بولخيريا ايفانوفنا تعهد اليهن احياناً بخياطة بعض الزينات ، تلزمهن بتنظيف ثمار الاعناب البرية ، ولكن معظم الوقت يقضينه في الركض الى المطبخ والنوم . وكانت بولخيريا ايفانوفنا ترى من الضروري ملازمتهن البيت ، ومراقبة سلوكهن بصرامة . ولكن لدهشتها البالغة كانت لا تمر بعض الشهور دون ان يصير قوام أحدى الفتيات اكثر امتلاء من المعتاد ، والذي كان يدهش اكثر ان البيت كان خالياً تقريباً من اي رجل اعزب باستثناء صبي وصيف كان يرتدي سترة فراك قصيرة رمادية ، ويسير حافي القدمين ، ان لم تجده يأكل تجده نائماً بالتأكيد . وكانت بولخيريا

ايفانوفنا تشتم المذنبة عادة . وتعاقبها عقاباً صارماً حتى لا تعيد الكرة في المستقبل . وكان عدد فظيع من الذباب يهس في زجاج النوافذ ، ولكن طنين النحل الطنان العالي كان يغطي عليه جميعاً ، مصحوباً ، احياناً بأصوات اليعاسيب الرفيعة ، ولكن حالما تشعل الشموع تاوى كل هذه الجوقة الى مضاجعها ، وتغطي السقف كله بسحابة سوداء .

كان افانسي ايفانوفيتش قلّ ما يشتغل بشؤون الزراعة ، رغم انه كان يطلع احياناً الى العاملين في حش العشب وحصاد الغلة ، ويتمعن كثيراً في عملهم ، وكان عبء الادارة كله يقع على عاتق بولخيريا ايفانوفنا . كان شغل بولخيريا ايفانوفنا يتمثل في فتح وغلق مستودع المؤونة دون انقطاع ، وتمليح وتجفيف وسلق عدد لا يحصى من الفواكه والنباتات . وكان بيتها يشبه مختبراً كيمياوياً تماماً . وكانت النار مشتعلة دائماً تحت شجرة التفاح ، وكان الموقد الثلاثي الاثافي لا يكاد يفرغ من قدر او طنجة نحاسية موضوعة فوقه فيها مربى او مهلبية او حلوى مصنوعة من العسل ، او السكر ، وشيء آخر لا اتذكره . وكان سائق العربة يقطر الفودكا تحت شجرة اخرى في انبيق نحاسي ويطعمها باوراق الخوخ ، وزهر الكرز البري ، وحشيشة القنطريون ، ونوى الكرز ، وفي نهاية هذه العملية كان يصير عاجزاً تماماً عن تحريك لسانه ، ويظل يثرثر بسفاسف لم تكن بولخيريا ايفانوفنا تستطيع ان تفهم شيئاً منها ، فكانت ترسله الى المطبخ لينام . كانت بولخيريا ايفانوفنا تحضر وتملح وتجفف كمية كبيرة من كل هذه الاطعمة المتنوعة ، حتى كان من المحتمل ان تغرق الفناء كله ، لأن بولخيريا ايفانوفنا كانت دائماً تحب ان تحضر للاحتياط ايضاً ، علاوة على ما يخصص للاستهلاك ، لو لم تكن الخادمات ياكلن اكثر من نصف هذه الاطعمة حين كن ينسللن الى حجرة المؤونة ويتخمن حتى كن يتاوهن طوال اليوم ويشكين من وجع البطن .

كانت بولخيريا ايفانوفنا قليلة الادراك في زراعة الحبوب وغير ذلك من الاعمال خارج فنائها . فكان الوكيل والعمدة يتعاونان في سرقتها بشكل لا يرحم . وصار من حكم العادة لهما ان يدخلا غابات السيدين الشيخين ، وكانها ملك لهما ، ويصنعان عدداً كبيراً من

الزلاجات ، ويبيعانها في السوق الريفية القريبة . وبالاضافة الى ذلك كانا يبيعان كل اشجار البلوط السميكة للقوزاق المجاورين لتقطع وتصنع منها الطواحين . مرة واحدة فقط رغبت بولخيريا ايفانوفنا في تفقد غاباتها ، ولهذا الغرض شدت الخيول الى عربة ذات ملاحف جلدية ضخمة . وما ان كان الحوذي يجذب العنان ، وتنطلق الخيول الهرمة من مكانها ، حتى تصدر من العربة فجاة اصوات غريبة ومنها اصوات الفلوت ، والدفوف ، والطبول ، وكان كل مسمار وكل قيد حديدي يرن رنيناً يسمعه الناس حتى بالقرب من الطواحين رغم ان المسافة لم تكن اقل من فرسخين ، ويعرفون ان السيدة خرجت من فناء دارها . وما كان من الممكن ان لا تلحظ بولخيريا ايفانوفنا الفراغ الرهيب في الغابة ، وفقدان اشجار البلوط التي كانت تعرف ، حتى في طفولتها ، انها شهدت مائة عام .

قالت تخاطب وكيلها الذي كان معها :

– لماذا قلّت اشجار البلوط عندك بهذا الشكل ؟ احترس من ان يقل شعر راسك ايضاً .

– لماذا قلّت ؟ – قال الوكيل بلهجة اعتيادية – هلكت ! هلكت تماماً ، بالفعل . اهلكها الرعد ، ونخرها الدود . هلكت ، يا سيدتي ، هلكت .

وقنعت بولخيريا ايفانوفنا بهذا الجواب تماماً ، ولدى وصولها الى البيت ، اصدرت أمرها بان تضاعف الحراسة في البستان فقط ، قرب اشجار الكرز واشجار الكمثرى الشتوية الكبيرة .

كان هذان المديران المحترمان ، الوكيل والعمدة ، يجدان من الزائد تماماً نقل كل الطحين الى شونات السيدين بل يكفي نقل نصف الكمية . واخيراً حتى هذا النصف كانا ياتيان به متعفناً رطباً ترفضه السوق الريفية لفساده . ولكن مهما سرق الوكيل والعمدة ، ومهما التهم مَنْ في البيت جميعاً ، ابتداء من القهرمانة حتى الخنازير التي كانت تاتي على كمية هائلة من الاجاص والتفاح ، وغالباً ما تنطح الشجرة بأبوازها ، لتنزل منها الفواكه مطراً مدراراً ، ومهما نقرت العصافير والغربان ، واخذ كل خدم البيت من هدايا الطعام لاقربائهم في القرى الاخرى ، بل ومهما اخذوا من العنابر من منسوجات قديمة وغزول ، ليتحول كل شيء الى تلك البئر الواسعة الشهرة ،

اي الى الحانة ، ومهما سرق الضيوف والحوذية الخاملين والخدم ، الا ان الأرض المعطاء كانت تغل كمية كبيرة . كانت حاجة افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا قليلة جداً منها ، حتى ان تلك الافتراسات الفظيعة لم تكن ملحوظة في استثمارتهما قط .

كان كلا الشيخين ، على عادة ملاكى ايام زمان ، يحب الأكل كثيراً . فما ان يطر الفجر (كانا دائماً يستيقظان في وقت مبكر) ، وما ان تصدح الابواب بجوقة اصواتها المتنوعة حتى يكونا جالسين الى المائدة يحتسيان القهوة . وكان افانسي ايفانوفيتش يخرج الى الرواق بعد احتساء القهوة ، وينفض المنديل ، ويقول : «بيش ، بيش ، يا وزات ، تعالين من المدخل ! وفي الفناء كان في العادة يصادف الوكيل . وكان ، على عادته ، يدخل في حديث معه ، ويستفسر منه عن الأعمال بأدق التفاصيل ويزوده بملاحظات وايعازات تدهش كل انسان لما فيها من اطلاع فريد في شؤون الزراعة ، ولا تجعل الجديد على الامر يجرؤ حتى على التفكير بان في الامكان ان يُسرق شيء من مثل هذا المزارع الحاد البصيرة . ولكن وكيله كان شخصاً محنكاً . كان يعرف كيف يجب ان يردّ ، والأكثر من ذلك كيف يجب ان يتدبر الأمر .

وبعد ذلك كان افانسي ايفانوفيتش يعود الى داخل البيت ، ويقترب من بولخيريا ايفانوفنا ويقول :

– طيب ، يا بولخيريا ايفانوفنا ، ربما حان الوقت لتناول شيء من الطعام .

– ماذا تحب ان تأكل الآن ، يا افانسي ايفانوفيتش ؟ ربما بعض الفطائر بالشحم او الكعك بمسحوق الخشخاش ، أو ربما فطراً مملحاً ؟

– لا بأس ولو بشيء من الفطر والكعك .

كان افانسي ايفانوفيتش يردّ ، وسرعان ما يكون الخوان ممدوداً على المائدة بالفطر والكعك .

وقبل ساعة من موعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يأكل من جديد شيئاً من الزاد ، يحتسي كأساً من الفودكا بقدح فضي قديم ، ويتمزز بالفطر ومختلف أنواع السمك المجفف ، وغير ذلك . وكان الشيخان يجلسان الى الغداء في الساعة الثانية عشرة حيث

كانت المائدة تحفل الى جانب الصحون وأوانى الصلصلة ، بالعديد من الجرار الصغيرة باغطيتها اللاصقة حتى لا يفقد ما تحتويه رائحته وهو شيء مشه ٍ مما يجود به المطبخ القديم اللذيذ . وفي العادة كان الحديث على المائدة يجرى عن اقرب المواضيع الى الغداء . وكان افانسي ايفانوفيتش يقول عادة :

– يتهيأ لي ان هذه العصيدة احترقت قليلاً . ألا يتهيأ هذا لك ايضاً ، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟

– لا ، يا افانسي ايفانوفيتش ، طعّمها بمزيد من الزبدة ، وعند ذلك لا تبدو محروقة ، او خذ هذه الصلصلة بالفطر ، وصبّها عليها .

وكان افانسي ايفانوفيتش يقول مقدماً صحنه :

– طيب ، لنجرب ماذا سيكون .

وبعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يذهب للاستراحة ساعة من الزمن ، وبعدها كانت بولخيريا ايفانوفنا تأتي ببطيخة مقطعة ، وتقول :

– هاك جرب ، يا افانسي ايفانوفيتش ، اي بطيخ لذيذ هو .

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول ، وهو يتناول قطعة كبيرة :

– لا تصدقي يا بولخيريا ايفانوفنا ، لانه احمر في الوسط . قد يكون احمر ، ولكنه غير لذيذ .

ولكن البطيخة تُلتهم بسرعة . وبعد ذلك يأكل افانسي ايفانوفيتش بعض الكمثرات ايضاً ، ويتجه للنزهة في البستان بصحبة بولخيريا ايفانوفنا . ولدى العودة الى البيت كانت بولخيريا ايفانوفنا تذهب لشؤونها ، بينما يجلس افانسي ايفانوفيتش تحت ظلة تواجه الفناء ، ينظر الى مستودع المؤونة كيف يفتح باستمرار وتظهر احشاؤه ، ثم يغلق ، والخادمات يدخلن او يخرجن الاطعمة المتنوعة يزاحم بعضهن بعضاً حاملات مختلف انواع الفواكه في صناديق خشبية ، ومناخل ، وجرات ، وفي مختلف اوانى حفظ الفواكه . وبعد وقت قصير يرسل مَنْ يستدعي بولخيريا ايفانوفنا او يذهب اليها بنفسه ، ويقول :

– هل يوجد ما آكله ، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تجيب :

– ماذا تحب ؟ ربما أذهب ، وأطلب ان يُجلب لك فطائر بالاعناب البرية التي طلبت خصيصاً ان تحفظ لك ؟

فيردّ افانسي ايفانوفيتش :

– سيكون هذا جيداً .

– ام ربما تأكل شيئاً من المخثّرات ؟

– وهذا ايضاً جيد – كان افانسي ايفانوفيتش يرد ، وبعد ذلك كان كل ذلك يُجلب على الفور ، ويؤكل في العادة .

وقبيل العشاء كان افانسي ايفانوفيتش يصيب شيئاً من الطعام أيضاً . وفي الساعة التاسعة والنصف يجلس الشيخان الى مائدة العشاء . وبعد العشاء مباشرة يؤيان للنوم من جديد ، ويهجع السكون الشامل في هذه البقعة النشطة والهادئة في ذات الوقت .

كانت الحجرة التي ينام فيها افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا حارة جداً ، حتى من النادر ان يتحمل المرء البقاء فيها بضع ساعات . ولكن افانسي ايفانوفيتش ، فوق ذلك ، وطلباً لمزيد من الدفء كان ينام على سطيحة الموقد ، ولو ان الحرارة الشديدة غالباً ما تجبره على النهوض عدة مرات خلال الليل ، ويتمشى في الحجرة . واحياناً كان يئن اثناء تمشيه في الحجرة . وعند ذاك كانت بولخيريا ايفانوفنا تسأله :

– لماذا تئن ، يا افانسي ايفانوفيتش ؟

– الله يعلم ، يا بولخيريا ايفانوفنا ، يبدو ان بطني يوجعني قليلاً .

– الا يكون احسن لك ان تأكل شيئاً ، يا افانسي ايفانوفيتش ؟

– لا اعرف ما اذا كان احسن ، يا بولخيريا ايفانوفنا ! على العموم ما الذي سآكله ؟

– شيئاً من اللبن الحامض ، او اصبّ لك شيئاً من نقيع الكمثرى المجففة .

– لا بأس ، لمجرد ان اجرّب .

وكانت الخادمة ، والنوم في جفنيها تذهب للنبش في الدواليب ، ويأكل افانسي ايفانوفيتش صحناً ، وبعد ذلك يقول عادة :

– الآن أحسّ وكأن الوجع خف .

واحياناً ، حين يكون الجو صافياً ، والحجرات مدفأة بشكل

جيد جداً ، كان المرح يشيع في اعطاف افانسي ايفانوفيتش ، فيحبّ التنكيت على بولخيريا ايفانوفنا ، ويتحدث عن موضوع خارجي ، فيقول :

– طيب ، يا بولخيريا ايفانوفنا ، ماذا لو احترق بيتنا ، فالى أين نولي وجوهنا ؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول راسمة علامة الصليب :

– وقانا الله من ذلك !

– ولكن ، لنفرض ان البيت احترق ، فالى أين ننتقل عند ذاك ؟

– الله يعلم ما هذا الذي تقوله ، يا افانسي ايفانوفيتش ! وكيف يمكن ان يحترق البيت : الله لا يسمح بذلك .

– ولكن ماذا لو احترق ؟

– عندئذ ننتقل الى المطبخ . وستشغل انت مؤقتاً الحجرة التي تشغلها القهرمانة الآن .

– واذا احترق المطبخ ايضاً ؟

– وهذا ايضاً ! سيقينا الله من بلوى كهذه ، ان يحترق البيت والمطبخ سوية ! طيب ، عندها ننتقل الى مستودع المؤونة وننتظر هناك حتى ينتهي بناء بيت جديد .

– واذا احترق المستودع ايضاً ؟

– الله يعلم ما هذا الذي تقوله ! لا اريد حتى الاستماع اليك . هذا القول إثم . والله يعاقب على مثل هذه الاقوال .

غير ان افانسي ايفانوفيتش كان يبتسم ، وهو جالس في مقعده ، وقد ارتاح لتنكيته على بولخيريا ايفانوفنا .

ولكن امتع ما يكون عليه الشيخان ، بالنسبة لي ، حين يكون عندهما ضيوف . حينئذ كان كل ما في بيتهما يتخذ مظهراً آخر . اذ من الممكن القول ، ان هذين الشيخين الطيبين كانا يعيشان من اجل الضيوف .

كانا يقدمان افضل ما في البيت من اشياء ، ويسعيان الى استضافتك بكل ما كانت استثمارتهما تنتجه . ولكن اكثر ما كان يريحني ان كل كرمهما ومخدوميتهما كان خالياً من اي تصنع . كانت هذه الحفاوة والاريحية تنعكسان بوداعة على وجهيهما ، وتناسبانهما الى درجة انني

كنت أجد نفسي اوافق على رجائهما دون ان أدري . كانتا نابعتين من البساطة الصافية النقية لقلبيهما الطيبين الطاهرين . إن هذه الحفاوة لا تشبه ابداً تلك التي يبديها ، عند استضافتك ، موظف هيئة حكومية حصل على مكان مريح بفضل جهودك ، وهو يسميك محسناً ، ويتمرغ تحت أقدامك . وكانا لا يتركان الضيف يرحل في يوم قدومه ، مهما يكن من شيء . فلا بد أن يقضي الليلة عندهما .

– كيف يمكن أن تخرجوا في سفر طويل في هذا الوقت المتأخر !

كانت بولخيريا ايفانوفنا تقول ذلك (وكان الضيف عادة لا يبعد عنهما بغير ثلاثة او اربعة فراسخ) . وكان افانسي ايفانوفيتش يقول :

– بالطبع . كل شيء يحصل في الدنيا : يهاجمكم قطاع طرق أو عدو .

وكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول :

– اعاذنا الله من قطاع الطرق ! ولِمَ الكلام عن هذا في الليل؟ لا علاقة ذلك بقطاع الطرق ، بل لأن الدنيا ظلماء ، ولا يجوز السفر على الاطلاق . كما أن سائق عربتكم ، وأنا اعرف سائق عربتكم ، ضعيف وصغير ، لا يستطيع أن يسيطر على اي حصان ، وهو الآن على الاغلب سكران طينه ، ونائم في زاوية .

وكان لا بد للضيف أن يبقى . ولكنه سيكافأ على بقائه بقضاء امسية في حجرة دافئة واطئة السقف ، وبحكاية لطيفة تبعث الدفء والنعاس في الاوصال ، وبمنظر البخار يتصاعد مما وضع على المائدة من طعام مغذٍ دائماً ، ومطبوخ بمهارة . وانا اتخيل افانسي ايفانوفيتش وكأنما اراه الآن ، جالساً على المقعد محدوداً بابتسامته الأبدية يصغي الى الضيف باهتمام ، بل وباستمتاع ايضاً . وكان الحديث غالباً ما يجري عن السياسة . وكان الضيف ، الذي نادراً ما كان يبارح قريته أيضاً ، يستخلص حدوسه ، بسيماء من الاهمية غالباً ، وبتعبير غامض على الوجه ، ويذكر أن الفرنسيين اتفقوا مع الانجليز سراً على ترك بونابرت يهاجم روسيا مرة اخرى ، او مجرد أن يتحدث عن حرب موشكة ، وعند ذاك كان افانسي ايفانوفيتش

غالباً ما يقول ، متظاهراً بأنه لا يرمق بولخيريا ايفانوفنا :

– انا ايضاً افكر في الخروج الى الحرب ، ولماذا لا استطيع الخروج ؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقاطعه قائلة :

– ها قد بدأ ! – وكانت تقول مخاطبة الضيف : – لا تصدقوا به ، العجوز ، يخرج الى الحرب ! سيرميه أول جندي يصادفه ! وحق الرب ، سيرميه ! يسدد عليه هكذا ، ويرميه .

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول :

– وليكن ، فسأرميه انا ايضاً .

فتبادر بولخيريا ايفانوفنا :

– اسمعوا ماذا يقول ! كيف له أن يخرج الى الحرب ! مسدساته صدئة منذ زمان ، ومرمية في المستودع . وليتكم رأيتموها . سينسفها ما فيها من بارود قبل أن تلحق أن ترمي ، وعندها ستقطع يدي الرامي ، وتشوه وجهه ، فيظل تعيساً مدى العمر .

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول :

– لا بأس . سأشتري سلاحاً جديداً . سآخذ السيف او الرمح القوزاقي .

– هذه كلها تخيلات . ما إن يطرأ في ذهنه شيء ، حتى يبدأ بالتحدث عنه – كانت بولخيريا ايفانوفنا تأخذ الكلام في غيظ–انا اعرف انه يمزح ، ومع ذلك لا يريحني سماعه . إنه دائماً بهذا الشكل . احياناً اسمع واسمع ، حتى أشعر بالخوف .

ولكن افانسي ايفانوفيتش الذي كان قد ارتاح من تخويف بولخيريا ايفانوفنا بعض الشيء ، كان يضحك وهو جالس على مقعده محدوداً .

وبالنسبة لي كانت بولخيريا ايفانوفنا امتع ما تكون ، حين كانت تغري الضيف بالمشهيات . كانت تقول ، وهي ترفع السداد عن الدورق :

– هذه فودكا مطعمة بالمريمية والافسنتين ، وهي تساعد كثيراً مَنْ يشكو وجع الدفتين والخصر . وهذه بحشيشة القنطريون تساعد جداً في حالة الصفير في الاذان ، والطفح على الوجه . وهذه

معمولة على نوى الخوخ . خذ قدحاً ، رائحتها شذية جداً . الذي يشكو من دواخ الرأس ، حين ينهض من السرير ، فيقع على حافة الدولاب، او الطاولة ، وتطلع عجرة على جبينه ، ما عليه إلا أن يشرب قدحاً واحداً منها قبيل الغداء ، وسيزول كل شيء راساً وكانما لم يكن .

وبعد ذلك يجري مثل هذا التعداد لميزات الدوارق الأخرى ، التي تملك دائماً تقريباً صفات علاجية . وبعد أن تكون قد حشيت بطن الضيف بهذه الصيدلية كانت تغريه بالعديد من الصحون الموضوعة على المائدة .

– هذا فطر بالصعتر ! وهذا بالقرنفل والجوز ! علمتني على تمليحه تركية ، منذ أن كان الاتراك اسرى عندنا . كانت تركية طيبة ، ولم يكن يبين عليها ابداً انها تدين بالدين التركي . وهي في حياتها الاعتيادية مثلنا تقريباً ، سوى انها لا تاكل لحم الخنزير . تقول : الشرع يحرم عليهم ذلك . وهذا فطر مطعم باوراق عنب آذار ، والبندق ! وهذا النوع من الفطر ، اسلقه لأول مرة ، مع الخل ، ولا اعرف كيف هي . علمت سرها من الأب ايفان . قبل كل شيء يجب ان تفرش اوراق البلوط في قاع برميل صغير ، ثم تنثر الفلفل ، والملح ثم تاخذ زهور بعض الاعشاب ، وتفرشها على ان تكون نهاياتها في الاعلى . وهذه فطائر ! هذه فطائر بالجبنة ، وهذه مع عصارة بذور القنب ، وهذه التي يحبها افانسي ايفانوفيتش كثيراً محشوة بالكرنب وعصيدة الحنطة السوداء .

وكان افانسي ايفانوفيتش يضيف :

– صحيح . انا احبها كثيراً . فهي هشة وحامضة قليلاً .

وعلى العموم كانت بولخيريا ايفانوفنا في مزاج رائق للغاية ، حين يكون عندهما ضيوف . عجوز طيبة جداً ! كلها ملك للضيوف . وكنت احب أن ازورهما ، واسّر بالنزول في ضيافتهما ، رغم أنني كنت أتخم بشكل مخيف ، مثل جميع الذين ينزلون في ضيافتهما ، ورغم ان ذلك كان يضرني كثيراً . على العموم أظن ان للهواء ذاته في مالوروسيا خاصية معيّنة تساعد على الهضم ، لأن احداً لو فكر في أن ياكل بتلك الصورة في هذه المدينة لتسجّى ، دون شك راقداً في تابوته ، بدلاً من سريره .

شيخان طيبان ! ولكن قصتي تقترب من حدث شجي للغاية ، غيّر الى الأبد حياة تلك البقعة الهادئة . ومما يزيد هذا الحادث فداحة أنه وقع بسبب مصادفة قليلة الأهمية . ولكن الأسباب القليلة الأهمية في النظام الغريب للاشياء كانت دائماً تخلق احداثاً جساماً ، بينما الأعمال الكبيرة ، على العكس ، تأتي بنتائج تافهة . يجمع أحد الفاتحين قوات دولته ، ويحارب عدة سنوات ، وقادته يذيع صيتهم ، واخيراً ينتهي كل ذلك بالاستيلاء على قطعة من الأرض ليس فيها موضع لزرع البطاطس . واحياناً يكون العكس ، يتشاجر بائعا سمك من مدينتين مختلفتين فيما بينهما على شيء تافه ، واذا بالشجار يعم المدن اخيراً ، ثم القرى والارياف ، ولربما الدولة كلها . ولكننا لنترك هذه الأفكار ، فإنها لا تناسب المقام . كما انني لا احب الأفكار ، حين تبقى افكاراً مجردة فقط .

كانت لبولخيريا ايفانوفنا قطة رمادية ، ترقد دائماً تقريباً عند قدمي العجوز ملتفة على نفسها . وكانت بولخيريا ايفانوفنا تمسد على شعرها احياناً وتدغدغ بأصبعها رقبتها التى كانت القطة المدللة تمدها الى الأعلى قدر مستطاعها . ولا يمكن القول إن بولخيريا ايفانوفنا كانت تحب قطتها اكثر من اللازم ، ولكنها ألفتها ، وقد تعودت على رؤيتها دائماً . الا أن افانسي ايفانوفيتش كان غالباً ما يضحك من مثل هذا التعلّق :

– لا ادري ، يا بولخيريا ايفانوفنا ، ماذا رايت في هذه القطة . ما نفعها ؟ لو كان ذلك كلباً ، لاختلف الأمر . إذ يمكن الخروج بالكلب الى الصيد . ولكن ما نفع القطة ؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول :

– اسكت ، افانسي ايفانوفيتش ، انت تحب الكلام ولا اكثر . الكلب نجس ، الكلب يتغوط ، الكلب يحطم كل شيء ، بينما القطة مخلوقة وديعة ، ولا تلحق اذى بأحد .

وعلى العموم لا فرق عند افانسي ايفانوفيتش بين القطط والكلاب ، ولكنه كان يقول ذلك لمجرد أن ينكّت قليلاً على بولخيريا ايفانوفنا .

كانت لهما ، وراء الحديقة غابة كبيرة كان الوكيل العملي قد عفا عنها ، ربما لأن ضربة الفأس كانت ستصل إلى سمع بولخيريا

ايفانوفنا . وكانت صماء مهملة ، تغطى جذوع اشجارها المعمرة شجيرات البندق المتنامية ، فكانت تشبه اظفار حمام شعثاء . في هذه الغابة كانت تعيش قطط وحشيـــة . ولا يجوز الخلط بين قطط الغاب الوحشية وبين تلك القطط الجريئة التي تركض على سطوح البيوت . فإنها ، رغم حدة خلقها تحضرت ، بوجودها في المدينـــة اكثر جداً من القطط ساكنات الغاب التي كانت في معظمها وعلى العكس من ذلك ، مخلوقات موحشة بهيمية ، نحيلات هزيلات دائماً ، تموء بصوت خشن حُوشي . واحياناً تحفر نفقاً في باطن الارض تحت الشونات تماماً ، وتسرق الشحم المقدد ، بل وتظهر في المطابخ ذاتها ، بعد أن تقفز بغتة من فتحة الشباك ، حين تلحظ أن الطباخ خرج إلى أجمة الاعشاب البرية . وهي ، بشكل عام ، لا تعرف اية مشاعر مهذبة ، فهي تعيش حياة افتراس ، وتخنق العصافير الصغيرة في عقر اعشاشها . إن هذه القطط تشاممت طويلاً من خلال ثغرة تحت الشونة ، مع قطة بولخيريا ايفانوفنا الوديعة حتى اغوتهـــا اخيراً ، مثلما يغوي فصيل جنود فلاحة بلهاء . وفطنت بولخيريـــا ايفانوفنا إلى اختفاء القطة ، فبعثت مَنْ يبحث عنها ، ولكنهم لم يعثروا على القطة . ومضت ثلاثة أيام ، وتأسفت بولخيريا ايفانوفنا واخيراً نستها تماماً . وذات يوم ، حين عادت من تفقد حديقة خضرواتها بخيار أخضر طازج قطعته بيدها لافانسي ايفانوفيتش دُهِشت حين بلغ سمعها مواء بائس تماماً . فاخذت تدعو بالسليقة : «بيش ، بيش !» ، واذا بالقطة الرمادية تطلع من أجمة الاعشاب البرية نحيلة عجفاء ، وكان واضحاً أنها منذ عدة ايام لم تضع في فمها اي طعام . تابعت بولخيريا ايفانوفنا تدعوها ، ولكن القطة وقفت أمامها ، تموء ، ولا تجرؤ على الاقتراب . والظاهر أنها توحشت كثيراً خلال هذا الوقت . سارت بولخيريا ايفانوفنا الى الامام ، وهي ما تزال تدعو القطة التي سارت وراءها متهيبـــة حتى السياج . واخيراً رأت الأماكن السابقة المعروفة لها فدخلت الحجرة ايضاً . امرت بولخيريا ايفانوفنا على الفور بتقديم الحليب واللحم لها ، وجلست امامها ، تستمتع بنهم محبوبتها المسكينة ، وهي تزدرد القطعة وراء القطعة وتعب الحليب . ونفخت القطة الرمادية وامتلأت لحماً أمام عينيهـــا تقريباً ، ولم تعد تأكل بذلك النهم . ومدّت بولخيريا ايفانوفنـــا

يدها لتمسّد على شعرها ، ولكن يبدو أن القطة الجاحدة اعتادت كثيراً أن تكون مع القطط الكاسرة أو اكتسبت العادات الرومانسية القائلة بأن الفقر عند الحب أحسن ستر ، والقطط فقيرة إلا من رحمة ربها . ومهما يكن من شيء ، فإن القطة قفزت من الشباك ، ولم يستطع احد من الخدم العثور عليها .

واستغرقت العجوز تفكر ، وقالت لنفسها : «هذا حتفي جاء يسعى الىّ !» ولم يسلها شيء . ظلت طوال اليوم ضجرة . ولم يُجد مزاح افانسي ايفانوفيتش ، ورغبتـــه في معرفة السبب الذي أحزن العجوز بغتة . فقد كانت بولخيريا ايفانوفنا لا تجيب ، أو تجيب بشكـــل لم يكن من الممكن أن يرضي افانسي ايفانوفيتش . وفي اليوم التالي ظهر عليها نحول ملحوظ .

– ماذا جرى لك ، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟ ربما اصابك مرض؟

– لا ، يا افانسي ايفانوفيتش ، لست مريضة ! اريد أن اعلن لك شيئاً خاصاً . أنا اعرف انني سأموت في هذا الصيف . حتفي جاء يسعى الىّ .

اعوجت شفتا افانسي ايفانوفيتش في اسى ولكنه أراد أن يقمع شعور الحزن في نفسه ، وقال مبتسماً : – الله يعلم ما هذا الذى تقولينه ، يا بولخيريا ايفانوفنا ! لعلـــك شربت فودكا الخوخ ، بدلاً من نقيع الشفاء الذي تشربينه دائماً .

– لا ، يا افانسي ايفانوفيتش . لم اشرب فودكا الخوخ .

وكان يأسف افانسي ايفانوفيتش لأنه نكّت على بولخيريـــا ايفانوفنا كثيراً ، وينظر اليها ، والدموع تتدلى من جفونه .

قالت بولخيريا ايفانوفنا :

– أرجوك ، يا افانسي ايفانوفيتش ، أن تنفذ وصيتي . حين أموت ادفني بالقرب من سياج الكنيسة . والبسني الثوب الرمادي ذا الزهور الصغيرة على قاعية بنية ، ولا تلبسني الفستان الاطلس المقلّم بشرائط وردية . فالميتة لا تحتـــاج الى فستان . واي حاجة لها ؟ بينما سينفعك . تفصّل منه روباً محتشماً ، تلبسه حين يأتيك ضيوف ، فتظهر اليهم بمظهر لائق ، وتستقبلهم .

ويقول افانسي ايفانوفيتش :

– الله يعلم ما هذا الذي تقولينه ، يا بولخيريا ايفانوفنا . ما يزال الموت بعيداً عنك وأنت تخوفينني بهذه الكلمات .

– لا ، يا افانسي ايفانوفيتش ، أنا اعرف متى ستحين منيّتي . على كل حال لا تحزن عليّ . فانا عجوز الآن ، وقد عشت عمراً طويلاً نوعاً ما . وانت ايضاً عجوز . وسنتقابل قريباً في الدار الآخرة .

ولكن افانسي ايفانوفيتش اعول كالطفل .

– البكاء إثم ، يا افانسي ايفانوفيتش ! فلا تأثم ، ولا تغضب الرب بنحيبك . أنا لا آسف على موتي . آسف على شيء واحد فقط (وقطعت كلامها زفرة ثقيلة للحظة) آسف على انني لا اعرف لمن اتركك ، ومَنْ سيرعاك ، حين أموت . فانت كالطفل الصغير . والذي سيرعاك يجب أن يحبك .

وارتسم على وجهها اشفاق قلبي عميق ساحق ، حتى انني لا اعرف هل كان في وسع احد من البشر أن ينظر إليها بدون اكتراث.

قالت تخاطب القهرمانة التي أمرت باستدعائها خصيصاً :

– اسمعي ، يا يافدوخا ، حين أموت قومي أنت برعايته ، واحرصي عليه ، حرصك على حدقة عينك ، وكطفلك . واطبخي له ما يحب من الطعام . واعطيه بياضات وملابس نظيفة دائماً ، وحين يأتي ضيوف ، اهتمي بهندامه ليكون لائقاً ، وإلا اظنه سيطلع احياناً بروبه القديم ، لأنه حتى الآن غالباً ما ينسى ولا يعرف يوم العيد من اليوم الاعتيادي . ولا تصرفي بصرك عنه ، يا يافدوخا ، وسأدعو لك في الآخرة ، وسيجازيك الرب . لا تنسي ، يا يافدوخا، أنك الآن عجوز ، ولم يبق امامك عمر طويل ، فلا تثقلي على روحك بالآثام . لئن لا ترعيه لن تسعدي في الدنيا . سأدعو الرب بنفسي بأن تكون نهايتك سيئة . وستكونين انت تعيسة ، واطفالك تعيسين ، وعشيرتك كلها لن تحظى بمباركة الرب .

يا للعجوز المسكينة ! إنها آنذاك لم تكن تفكر في اللحظة العظيمة التي في انتظارها ، ولا في مصير روحها ، ولا في حياتها الآتية . بل كانت لا تفكر إلا بشريكها المسكين الذي قضت معه عمرها ، والذي كانت ستتركه يتيماً وبلا مأوى . ودبّرت كل شيء بحذق بالغ بحيث لا يفتقدها افانسي ايفانوفيتش بعد وفاتها . وكان اعتقادها بدنو اجلها قوياً جداً ، وحالتها النفسية مهيئة جداً لهذا الحدث ،

حتى أنها انطرحت في الفراش ، بالفعل ، بعد عدة ايام ، ولم تستطع أن تتناول اي طعام . وتحول افانسي ايفانوفيتش بكليته إلى إهتمام ، ولم يبارح سريرها . وكان يقول ، وهو ينظر في عينيها بقلق : «حبذا لو تأكلين شيئاً ، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟» ولكن بولخيريا ايفانوفنا لم تكن تقول شيئاً . واخيراً ، وبعد صمت طويل ، بدا وكأنها تريد أن تقول شيئاً ، وحركت شفتيها ، ولفظت أنفاسها .

وانصعق افانسي ايفانوفيتش تماماً . فقد بدا له الأمر وحشياً غريباً ، حتى انه لم يبكِ . نظر اليها بعينين كدرتين ، وكأنما لا يفهم معنى الجثمان .

وسُجّيت الراحلة على طاولة ، وأُلبست الثوب الذي حددته بنفسها ، وطويت ذراعيها متصالبتين ، ووضعت في اليدين شمعة . وكان افانسي ايفانوفيتش ينظر الى كل ذلك جامد الاحساس . وملأ الفناء عدد غفير من الناس من مختلف الرتب ، وقدم عدد كبير من الضيوف من اماكن مختلفة لحضور التشييع ، ونصبت في الفناء موائد طويلة تغطت بحلاوة الاموات والأشربة والفطائر . واخذ الضيوف يتحدثون ، ويبكون ، ويرمقون الراحلة ، ويتناظرون في مناقبها ، وينظرون اليه ، ولكن الزوج كان ينظر الى كل ذلك بغرابة. وحُملت الراحلة اخيراً ، وسار الناس وراءها ، وسار هو ايضاً . وكان القسس في حللهم الكهنوتية الكاملة ، والشمس تسطع ، والاطفال الرضّع يبكون ، وهم على اذرع امهاتهم ، والقبرات تهدل ، والأطفال يركضون في القمصان وحدها ، ويمرحون في الطريق . واخيراً وضع التابوت فوق اللحد ، وطُلب من افانسي ايفانوفيتش أن يقترب ، ويقبّل الراحلة قبلة الوداع . واقترب ، وقبلها ، ولاحت دموع في عينيه ، ولكنها دموع جامدة الاحساس . وأُنزل التابوت ، وتناول القس الرفش ، والقى اول حفنة من التراب ، ورتّلت جوقة اصوات غليظة ممطوطة من الشماس واثنين من مساعديه دعاء الخلود ، تحت سماء صافية لا غيمة فيها ، فتناول الدفّانون الارفاشَ ، وامتلأت حفرة القبر ، وتساوت مع الأرض ، وفي ذلك الحين انسلّ افانسي ايفانوفيتش الى الأمام ، وتنحّى الجميع ، وفسحوا له الطريق ، يريدون أن يعرفوا على

اي شيء نوى . رفع عينيه ، ونظر نظرة كدرة ، وقال : «يعني دفنتموها ! ولماذا ؟!» وتوقف دون أن يتم كلامه .

ولكنه حين عاد الى البيت ، ورأى حجرته خاوية ، افرغت حتى من المقعد الذي كانت تجلس عليه ، انتحب ، انتحب بشدة ، انتحب لا يعزيه شيء ، وسالت الدموع كالنهر من عينيه الخامدتين .

وانقضت خمسة اعوام على ذلك . واي بلية لا يمحوها الزمان ؟ واية عاطفة لا تسلم في النزال غير المتكافئ معه ؟ كنت اعرف رجلاً ما يزال في ريعان شبابه ، مفعماً بخالص النبل والسجايا ، وقد عرفته عاشقاً برقة وهيام وجنون وجرأة وتواضع ، ورأيت حبيبته ، بأم عيني ، يحصدها الموت الذي لا يشبع ، وهي الرقيقة ، الجميلة كملاك . ولم أر قط مثل ما استحوذ على العاشق المسكين من سورات مخيفة من العذاب النفسي ، والوحشة المسعورة اللاهبة ، والقنوط الأكال . وما كنت اتصوّر انه في إمكان انسان أن يخلق لنفسه جحيماً ليس فيه اي ظل او صورة أو شيء مما له علاقة في الأمل . . . حاولوا أن لا يغيب عن انظارهم ، واخفوا عنه كل الاسلحة والادوات التي يمكن أن يقتل نفسه بها . وبعد اسبوعين انتصر على نفسه . واخذ يبتسم ، ويمزح ، فاطلقوا له الحرية ، واول شيء استخدمها له هو أن اشترى مسدساً . وفي احد الأيام افزعت طلقة مفاجئة اقاربه فزعاً شديداً . فتراكضوا الى الحجرة ، وراوه مطروحاً وجمجمته مهشمة . والطبيب الذي صادف وجوده آنذاك ، وكانت لمهارته صيت شائع ، شخّص فيه علائم الحياة ، ورأى الجرح غير مميت تماماً ، وأشفاه وسط دهشة الجميع . وازدادت الرقابة عليه اكثر . وحتى على المائدة لم يكونوا يضعون تحت متناوله سكيناً ، وسعوا إلى ابعاد كل ما يمكن أن يضرب نفسه به . ولكنه بعد وقت قصير وجد فرصة جديدة ، فالقى نفسه تحت عجلة مركبة عابرة . كسرت يده ورجله ، ولكنه عولج مرة اخرى وشفي من جديد . وبعد عام رأيته في قاعة مكتظة بالناس ، وكان جالساً وراء طاولة يقول بمرح «بيتيت اوفرت» * وقد غطا احد اوراقه ،

* احدى مصطلحات لعبة الورق . المترجم .

ووراءه كانت تقف زوجته الشابة مرتفقة ظهر المقعد ، وهي تقلّب فيشه .

بانقضاء خمسة اعوام على وفاة بولخيريا ايفانوفنا ، واثناء وجودي في تلك الانحاء عرجت على ضيعة افانسي ايفانوفيتش لأزور جاري القديم الذي قضيت عنده يوماً جميلاً ذات مرة ، وكنت دائماً أضيّف على أحسن مطبوخات ربة البيت الحنون . عندما اقتربت عربتي من البيت خُيّل الىّ أن البيت قد تضاعف قِدَمه ، وكانت اكواخ الفلاحين قد مالت إلى جنوبها تماماً ، مثل مالكيها بالضبط . والسياج الخشبي والسياج من الاغصان المضفورة في الفناء قد تحطما كلياً ، ورأيت بنفسي الطباخة تخلع منه الاعواد وقوداً للموقد ، في الوقت الذي كانت لا تحتاج إلا لقطع خطوتين زيادة للحصول على الاغصان الجافة المكومة على الارض . تقدمت من المدخل حزيناً ، فاخذت نفس الكلاب ، التي صارت عمياء الآن ، وأرجلها محطمة ، تنبح رافعة الى فوق اذيالها المعوجة وقد علقت بها زهور الشوك . خرج العجوز للقائي . هذا هو ! عرفته فوراً . ولكنه احدودب مرّتين اكثر من السابق . عرفني وحياني بتلك الابتسامة القديمة المألوفة لي . دخلت وراءه الى الحجرات ، بدا وكأن كل شيء فيها على سابق عهده . ولكنني لحظت في كل شيء فوضى غريبة ، فقداناً محسوساً لشيء ما ، وباختصار شعرت في داخلي بتلك المشاعر الغريبة التي تستولي علينا ، حين ندخل ، لأول مرة ، مسكن أرمل كنا نعرفه من قبل غير منفصل عن القرينة التي صاحبته طوال العمر . وهذه المشاعر أشبه بمشاعرنا ، حين نرى أمامنا انساناً مقطوع الرجل ، عرفناه من قبل سليماً على الدوام . كان فقدان بولخيريا ايفانوفنا المعتنية ملحوظاً في كل شيء . وعلى المائدة قدموا سكيناً واحداً بدون مقبض ، واطباق الطعام لم تكن مطبوخة بتلك المهارة السابقة . أما الشؤون الزراعية فلم أرد حتى الاستفهام عنها ، بل وخفت أن القي نظرة على منشئات المزرعة .

عندما جلسنا الى المائدة ، شدّت الخادمة على افانسي ايفانوفيتش فوطة ، وحسناً فعلت ، لأنه بدونها كان سيلطخ كل روبه بالصلصة . اردت أن اسامره بشيء ما ، فرحت اقص عليه

مختلف الاخبار ، وقد اصغى بنفس تلك الابتسامة السابقة ، ولكن نظرته كانت احياناً خالية من اي احساس اطلاقاً ، ولم يكن يقلب الافكار في ذهنه ، بل أن الافكار نفسها اختفت منه . وغالباً ما كان يرفع ملعقة العصيدة ، ويقربها من أنفه ، بدلاً من فمه ، وكان يغرس شوكته بالدورق ، بدلاً من قطعة الفراخ . وعند ذاك كانت الخادمة تمسك يده ، وتوجهها إلى الفرخة . وكنا احياناً ننتظر الطبق التالي بضع دقائق وكان افانسي ايفانوفيتش بنفسه يلحظ ذلك ويقول : «لماذا يتباطاون في تقديم الطعام ؟» ولكنني رأيت من خلال شق في الباب أن الصبي الذي كان يحمل الاطباق لنا ، لم يفكر في ذلك قط ، بل كان ينام مدلياً راسه على المصطبة.

قال افانسي ايفانوفيتش حين قدموا لنا الفطائر بالقشطة : «هذه الأكلة ، هذه الأكلة» كرر يقول ، ولحظت ارتعاشاً في صوته ، والدموع على وشك أن تطل من عينيه الكئيبتين ، ولكنه جمع كل قواه يريد أن يسيطر على نفسه : «هذه الأكلة التي كانت المر . . . المر . . . حو . . . مة . . .» وفجأة طفرت الدموع من عينيه . ووقعت يده على الصحن ، وانكفأ الصحن ، وقفز ، وانكسر ، وتناثرت الصلصة عليه كلية ، فجلس جامد الاحساس ، وامسك بالملعقة جامد الاحساس وهمت الدموع كالسيل ، كنافورة لا تهدأ ، همت كالوابل على الفوطة التي فرشت عليه .

وكنت افكر مع نفسي وانا انظر اليه : «يا الهي ! خمس سنوات من الزمن الجائر على كل شيء ، واذا بالعجوز يصير بلا احساس ، العجوز الذي لم تهز حياته قط عاطفة قوية تعصف بالروح ، فكانت ، كما بدت ، لا تخرج عن الجلوس في المقعد العالي الظهر ، وأكل السمك المجفف والكمثرى وعن الحكايات اللطيفة ، هذا العجوز يستولى عليه مثل هذا الحزن الطويل ، هذا الحزن العميق ! ما هو الاقوى علينا : الهوى أم العادة . أم أن كل السورات القوية ، كل دوامة رغائبنا وصبواتنا الفائرة ، ما هي إلا ميزة لريعان عمرنا ، ولهذا السبب وحده تبدو عميقة ساحقة ؟» ومهما يكن من شيء فقد بدت لي ، في تلك اللحظة ، طفولياً كل صبواتنا اذا قورنت بهذا التعود الطويل البطيء الخالي من الاحساس تقريباً . جاهد عدة مرات لينطق باسم الراحلة ، ولكن وجهه

الهادئ المعتاد كان يعوج متشنجاً بعد أن ينطق بنصف هذه الكلمة وبكاؤه الطفولي كان يطعنني في صميم القلب . لم تكن تلك الدموع ، قطعاً ، كتلك التي يسكبها الشيوخ عادة بسخاء حين يصفون لكم حالتهم البائسة وبلاياهم . ولم تكن ايضاً تلك الدموع التي تذرف عند قدح من الخمرة . بل كانت دموعاً همت من تلقاء نفسها ، غير مدعوة ، وقد فاض بها الألم الحاد الذي يعصر حتى القلب الخالي من الاحساس .

وبعد هذا لم يعش طويلاً . وقد سمعت بوفاته قبل زمن ليس بالبعيد . ولكن الغريب ، على اية حال ، أن الظروف التي احاطت بموته كان لها شبه بموت بولخيريا ايفانوفنا . ذات يوم عزم افانسي ايفانوفيتش أن يتمشى قليلاً في الحديقة . وحين سار ببطء في الدرب يخلو باله المعتاد ، دون أن تشغل ذهنه اية فكرة وقع له حادث غريب . سمع فجأة شخصاً يناديه من ورائه بصوت واضح على نحو كاف : «افانسي ايفانوفيتش !» التفت ، ولكن لم يكن ثمة أحد اطلاقاً ، عاين في كل الجهات ، ونظر في الاجمات ، فلم ير احداً في اي مكان . كان النهار هادئاً ،والشمس ساطعة . واستغرق يفكر لحظة ، وسرت حيوية في وجهه ، فنطق اخيراً : «هذه بولخيريا ايفانوفنا تناديني !»

ليس من شك في أنكم ، في بعض الاحيان تتخيلون سماع صوت يناديكم باسمائكم ، والعامة تفسره بأن الروح تتشوق الى انسان ، فتناديه ، وبعد هذا ياتي الموت لا محالة . وبصراحة كنت دائماً افزع من هذا النداء الغامض . أتذكر انني في طفولتي كنت غالباً ما اسمعه . فجأة اسمع خلفي مَنْ ينطق باسمي واضحاً . والنهار عادة ما يكون في مثل ذلك الوقت صاحياً جداً ومشمساً ، وما من ورقة تتحرك على شجرة في الحديقة ، وسكون الاموات يعم كل شيء ، وحتى الجندب كان يكف عن الصرير . وما من إنسان في الحديقة . ولكنني بصراحة ما كنت ساخاف من ليلة عاصفة معربدة ، تداهمني بكل حممها الجهنمية ، وانا وحدي في غابة صمّاء لا مخرج منها ، مثلما كنت اخاف من ذلك الصمت المريع وسط نهار لا غيمة فيه . وفي العادة كنت آنذاك اركض هارباً من الحديقة بهلع شديد وانفاس متقطعة ، ولا يهدأ روعي

الا حين اصادف انساناً يطرد مرآه ذلك الخواء الرهيب في قلبي .

استسلم افانسي ايفانوفيتش بكليته إلى اعتقاده الروحي بأن بولخيريا ايفانوفنا تدعوه ، استسلم بامتثال طفل طيّع ، وجفّ عوده ، وراح يسعل ويذوب كالشمعة ، واخيراً انطفأ مثلما تنطفئ الشمعة حين لا يبقى شيء يحفظ ذبالتها البائسة . وكل ما قاله قبل نهايته : «ضعوني جنب بولخيريا ايفانوفنا» .

ونُفذت رغبته ، ودُفن قرب الكنيسة على مقربة من قبر بولخيريا ايفانوفنا . وكان الضيوف لدى التشييع أقل ، ولكن بسطاء الناس والمتسولين كانوا كثيرين ايضاً . واقفر بيت الملاكين تماماً . ونقل الوكيل المدبر والعمدة إلى بيتيهما كل ما تبقى من الاشياء العتيقة وسقط المتاع الذي لم تلحق القهرمانة أن تنقله . وبعد قليل وصل قريب بعيد من مكان مجهول ، هو وارث الضيعة ، وكان من قبل ضابطاً في فوج لا أتذكره ، وهو اصلاحي متزمت . ورأى ، على الفور ، الاختلال الكبير والاهمال في شؤون المزرعة ، فعزم على القضاء على كل ذلك من كل بد ، واصلاح كل شيء واعادة النظام اليه . واشترى ستة مناجل انجليزية ممتازة ، ورقّم كل كوخ برقم خاص ، واخيراً رتب الأمور بشكل جيد ، حتى ان الضيعة ، بعد ستة اشهر ، وضعت تحت الحجز . وفي وقت قصير أتت لجنة الحجز الحكيمة (كانت تتألف من عميد أشراف سابق وضابط مبهدل اللباس) على كل الدجاج والبيض . كما أن الاكواخ التي كانت قد تداعت تماماً ، انهارت كلياً ، وعكف الفلاحون على السكر الشديد ، وتهرّب معظمهم . أما المالك الحقيقي ، الذي كان ، بالمناسبة ، على صلة ودية لا بأس بها مع لجنة الحجز ويشرب الخمرة معها ، فكان نادراً ما يأتي الى قريته ، واذا جاء اليها ، لا يبقى مدة طويلة . وهو لحد الآن يتردد على جميع الاسواق الريفية في مالوروسيا ، ويستفسر باهتمام عن اسعار مختلف البضائع الكبيرة التي تباع بالجملة مثل الطحين وخيوط القنب والعسل وغير ذلك ، ولكنه لا يشتري غير الاشياء الصغيرة مثل حجر الصوان ومسمار تنظيف الغليون ، وبشكل عام لا تساوي قيمة كل ما يشتريه روبلاً واحداً .